الروض الأنف

في تفسير السيرة النبوية لابن هشام

للفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله
أبن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي
السهيلي

٥٠٨ – ٥٨١ هـ
١١١٤ – ١١٨٥ م

ومعه

السيرة النبوية

للامام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري
المتوفى سنة ٢١٣ هـ

قدم له وعلق عليه وضبطه

طه عبد الرؤوف سعد

الجزء الثاني

يطلب من
مطبوعات
مكتبة ومطبعة
عباس عبد السلام شقرون
٢ شارع بيبرس بالحمزاوي

طبعة جديدة

مضبوطة — منقحة

روجعت على عدد من الطبعات القديمة

وعلى نسخة قدوة الأمراء وحجة

العلماء مولانا : عبد الحفيظ

سلطان المغرب الأقصى سابقا

مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة

٧ - ممر درويشيان

أول شارع الجيش

بسم الله الرحمن الرحيم

مباداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه

(ســـيرة)

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به . ثم إن الله ـ عز وجل ـ أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره ، واستتر به ، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغنى ـ من مبعثه ، ثم قال الله تعالى له : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » . وقال تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل إنى أنا النذير المبين » .

معنى : إصدع بما تؤمر : قال ابن هشام : فاصدع : افرق بين الحق والباطل . قال أبو ذؤيب الهذلى ، واسمه : خويلد بن خالد ، يصف أتن وحش وفحلها :

وكأنهن ربابـــة ، وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع

أى : يفرق على القداح ويبين أنصباءها . وهذا البيت فى قصيدة له . وقال رؤبة بن العجاج :

أنت الحليم ، والأمير المنتقم تصدع بالحق ، وتنفى من ظلم

وهذان البيتان فى أرجوزة له .

خروج الرسول (ص) بأصحابه للصلاة فى الشعاب : قال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صلوا ، ذهبوا فى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ـ وهم يصلون ـ فناكروهم ، وعابوا عليهم مايصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير ، فشجه ، فكان أول دم هريق فى الإسلام .

عداوة قومه ومساندة أبى طالب له : قال ابن إسحاق : فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ـ فيما بلغنى ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما

. . . .

فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم - على أمر الله ، مظهراً لأمره ، لا يرده عنه شيء . فلما رأت قريش ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه : من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب . وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر .

قال ابن هشام : واسم أبي سفيان : صخر .

قال ابن إسحاق : وأبو البختري ، واسمه : العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي .

قال ابن هشام : أبو البختري : العاص بن هاشم .

قال ابن إسحاق : والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي . وأبو جهل - واسمه عمرو ، وكان يكنى أبا الحكم - ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي . والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي . ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، والعاص بن وائل .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي .

وفد قريش يعاتب أبا طالب : قال ابن إسحاق : أو من مشى منهم . فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه .

الرسول (ص) يستمر في دعوته : ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه ، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال ، وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينها ، فتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه .

رجوعهم إلى أبي طالب مرة ثانية : ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ،

أو كما قالوا له . ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ولا خذلانه .

ما دار بين الرسول (ص) وأبي طالب : قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث . أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبق علي ، وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق ؛ فظن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد بدا لعمه فيه أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته قال : ثم استعبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال أقبل يا ابن أخي ، قال فأقبل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : اذهب يا ابن أخي ؛ فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

قريش تعرض عمارة بن الوليد على أبي طالب : قال ابن إسحاق : ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له ـ فيما بلغني : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا ؛ الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟! هذا والله مالا يكون أبداً . قال . فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا . فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي ، فاصنع ما بدا لك أو كما قال . قال : فحقب الأمر ، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، وبادى بعضهم بعضا .

مباداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه

(روض)

تفسير : اصدع بما تؤمر والفرق في عود الضمير على ما والذي : ذكر قول الله سبحانه « فاصدع بما تؤمر » والمعنى : اصدع بالذي تؤمر به ، ولكنه لما عدى الفعل إلى الهاء حسن حذفها ، وكان الحذف ههنا أحسن من ذكرها ؛ لأن ما فيها من الإبهام أكثر مما تقتضيه الذي ، وقولهم : (ما) مع الفعل بتأويل المصدر ، راجع إلى معنى الذي إذا تأملته ، وذلك أن (الذي) تصلح في كل موضع تصلح فيه (ما) التي يسمونها المصدرية نحو قول الشاعر :

عسى الأيام أن يرجعـ   ـن يوماً كالذي كانوا

. . . .

أى : كما كانوا ، فقول الله عز وجل إذاً : « فاصدع بما تؤمر » إما أن يكون معناه : بالذى تؤمر به من التبليغ ونحوه ، وإما أن يكون معناه . اصدع بالأمر الذى تؤمره ، كما تقول : عجبت من الضرب الذى تضربه ، فتكون ما ههنا عبارة عن الأمر الذى هو أمر الله تعالى ، ولا يكون للباء فيه دخول ، ولاتقدير ، وعلى الوجه الأول تكون ما مع صلتها عبارة عما هو فعل للنبى صلى الله عليه وسلم - والأظهر أنها مع صلتها عبارة عن الأمر الذى هو قول الله ووحيه ، بدليل حذف الهاء الراجعة إلى : ما ، وإن كانت بمعنى الذى فى الوجهين جميعا ، إلا أنك إذا أردت معنى الأمر لم تحذف إلا الهاء وحدها ، وإذا أردت معنى المأمور به . حذفت باء وهاء ، فحذف واحد أيسر من حذفين مع أن صدعه وبيانه إذا علقته بأمر الله ووحيه ، كان حقيقة ، وإذا علقته بالفعل الذى أمر به كان مجازا ، وإذا صرحت بلفظ الذى ، لم يكن حذفها بذلك الحسن ، وتأمله فى القرآن تجده كذلك نحو قوله تعالى : « وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون » « ويعلم ما تسرون وما تعلنون » « لما خلقت بيدى » و « لاأعبد ما تعبدون » ولم يقل : خلقته ، وحذف الهاء فى ذلك كله ، وقال فى الذى . « الذين آتيناهم الكتاب » « الذى جعلناه للناس سواء » وما أشبه ذلك ، وإنما كان الحذف مع ما أحسن لما قدمناه من إبهامها ، فالذى فيها من الإبهام قربها من (ما) التى هى شرط لفظا ومعنى ، ألا ترى أن (ما) إذا كانت شرطا تقول فيها ، ما تصنع أصنع مثله ، ولا تقول ، ماتصنعه ، لأن الفعل قد عمل فيها ، فلما ضارعتها هذه التى هى موصولة وهى بمعنى الذى أجريت فى حذف الهاء مجراها فى أكثر الكلام ، وهذه تفرقة فى عود الضمير على (ما) ، وعلى (الذى) يشهد لها التنزيل ، والقياس الذى ذكرناه من الإبهام ، ومع هذا لم نر أحداً نبه على هذه التفرقة ، ولا أشار إليها ، وقارىء القرآن محتاج إلى هذه التفرقة . وقد يحسن حذف الضمير العائد على الذى ، لأنه أوجز ، ولكنه ليس كحسنه مع من وما ، ففى التنزيل ، « والنور الذى أنزلنا » فإن كان الفعل متعديا إلى اثنين كان إبراز الضمير أحسن من حذفه ، لئلا يتوهم أن الفعل واقع على المفعول الواحد ، وأنه مقتصر عليه ، كقوله تعالى : « والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء » « الذين آتيناهم الكتاب » .

وشرح ابن هشام معنى قوله ، اصدع شرحا صحيحا ، وتتمته أنه صدع على جهة البيان وتشبيه لظلمة الشك والجهل بظلمة الليل . والقرآن نور ، فصدع به تلك الظلمة ، ومنه سمى الفجر : صديعا ، لأنه يصدع ظلمة الليل ، وقال الشماخ :

ترى السرحان مفترشا يديه ... كأن بياض لبته صديع

على هذا تأوله أكثر أهل المعانى ، وقال قاسم بن ثابت : الصديع فى هذا البيت : ثوب أسود تلبسه النواحة تحته ثوب أبيض ، وتصدع الأسود عند صدرها فيبدو الأبيض ، وأنشد :

كأنهن إذ وردن ليعا(١) ... نواحة مجتابة صديعا

(١) ليع : اسم جبل .

. . . .

معنى الحدب : ذكر فى الحديث : أن أبا طالب حدب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقام دونه .
أصل الحدب : انحناء فى الظهر ، ثم استعير فيمن عطف على غيره ، ورق له كما قال النابغة

حدبت على بطون ضبة كلها إن ظالما فيهم ، وإن مظلوما

ومثل ذلك الصلاة ، أصلها : انحناء وانعطاف من الصلوين وهما : عرقان فى الظهر إلى الفخذين ، ثم قالوا: صلى عليه ، أى : انحنى عليه ، ثم سموا الرحمة حنوا وصلاة ، إذا أرادوا المبالغة فيها ، فقولك . صلى الله على محمد ، هو أرق وأبلغ من قولك : رحم الله محمدا فى الحنو والعطف. والصلاة أصلها فى المحسوسات عبر بها عن هذا المعنى مبالغة وتأكيداً كما قال الشاعر :

فما زلت فى لينى له وتعطفى عليه ، كما تحنو على الولد الأم

ومنه قيل : صليت على الميت أى : دعوت له دعاء من يحنو عليه ويتعطف عليه ، ولذلك لاتكون الصلاة بمعنى الدعاء على الإطلاق : لاتقول ، صليت على العدو ، أى . دعوت عليه . إنما يقال : صليت عليه فى معنى الحنو والرحمة والعطف ، لأنها فى الأصل انعطاف ، ومن أجل ذلك عديت فى اللفظ بعلى ، فتقول . صليت عليه ، أى : حنوت عليه ، ولا تقول فى الدعاء إلا ، دعوت له ، فتعدى الفعل باللام ، إلا أن تريد الشر والدعاء على العدو ، فهذا فرق ما بين الصلاة والدعاء ، وأهل اللغة لم يفرقوا ، ولكن قالوا : الصلاة بمعنى الدعاء إطلاقا ، ولم يفرقوا بين حال وحال ، ولاذكروا التعدى باللام ولا بعلى ، ولا بد من تقييد العبارة ، لماذكرناه .
وقد يكون الحدب أيضاً مستعملا فى معنى المخالفة إذا قرن بالقعس كقول الشاعر :

وإن حدبوا ، فاقعس ، وإن هم تقاعسوا لينتزعوا ما خلف ظهرك فاحدب

وكقول الآخر :

ولن ينهنه قوما أنت خائفهم كمثل وقمك جهالا بجهال
فاقعس إذا حدبوا ، واحدب إذا قعسوا ووازن الشر مثقالا بمثقال

أنشده الجاحظ فى كتاب الحيوان له .

أبو البخترى واسمه : فصل ، وذكر مجىء النفر من قريش إلى أبى طالب فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وذكر أنسابهم ، وذكر فيهم أبا البخترى بن هشام ، قال ، واسمه ، العاصى بن هشام، وقال ابن هشام، هو العاصى ابن هاشم، والذى قاله ابن إسحاق هو قول ابن الكلبى، والذى قال ابن هشام هو قول الزبير بن أبى بكر وقول مصعب وهكذا وجدت فى حاشية كتاب الشيخ أبى بحر ، سفيان بن العاصى .

. . . : . . . .

لو وضعوا الشمس فى يمينى : وذكر قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته ، أو كما قال . خص الشمس باليمين ، لأنها الآية المبصرة، وخص القمر بالشمال لأنها الآية الممحوة وقد قال عمر ـ رحمه الله ـ لرجل،قال له ،إنى رأيت فى المنام كأن الشمس والقمر يقتتلان ، ومع كل واحد منهما نجوم ، فقال عمر ، مع أيهما كنت ؟ فقال ، مع القمر ، قال ، كنت مع الآية الممحوة ، اذهب ، فلا تعمل لى عملا ، وكان عاملا له ، فعزله ، فقتل الرجل فى صفين مع معاوية ، واسمه ، حابس بن سعد ، وخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ النيرين حين ضرب المثل بهما ، لأن نورهما محسوس ، والنور الذى جاء به من عند الله ـ وهو الذى أرادوه على تركه ـ هو لا محالة أشرف من النور المخلوق ، قال الله سبحانه : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » فاقتضت بلاغة النبوة ـ لما أرادوه على ترك النور الأعلى ـ أن يقابله بالنور الأدنى، وأن يخص أعلى النيرين، وهى الآية المبصرة بأشرف اليدين، وهى اليمنى بلاغة لامثلها ، وحكمة لا يجهل اللبيب فضلها .

الرأى والبداء : وقول ابن إسحاق ، ظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن قد بدا لعمه بداء ، أى ، ظهر له رأى ، فسمى الرأى بداء ، لأنه شىء يبدو بعد ما خفى ، والمصدر البدء والبدو ، والاسم ، البداء ، لا يقال فى المصدر ، بدا له بدو، كما لا يقال ظهر له ظهور بالرفع ، لأن الذى يظهر ، ويبدو هاهنا هو الاسم ، نحو البداء وأنشد أبو على :

لعلك والموعود حق وفاؤه ... بدا لك فى تلك القلوص بداء

ومن أجل أن البدو هو الظهور ، كان البداء فى وصف البارى ـ سبحانه ـ محالا ، لأنه لا يبدو له شىء كان غائبا عنه ، والنسخ للحكم ليس ببداء كما توهمت الجهلة من الرافضة واليهود ، إنما هو تبديل حكم بحكم بقدر قدره ، وعلم علمه ، وقد يجوز أن يقال ، بدا له أن يفعل كذا ، ويكون معناه ، أراد ، وهذا من المجاز الذى لا سبيل إلى إطلاقه إلا بإذن من صاحب الشرع ، وقد صح فى ذلك ما خرجه البخارى فى حديث الثلاثة، الأعمى والأقرع والأبرص ، وأنه عليه السلام قال: بدا لله أن يبتليهم، فبدا هنا بمعنى ، أراد، وذكرنا الرافضة، لأن ابن أعين ، ومن اتبعه منهم ، يجيزون البداء على الله تعالى ، ويجعلونه والنسخ شيئاً واحداً ، واليهود لا تجيز النسخ يحسبونه بداء، ومنهم من أجاز البداء كالرافضة ، ويروى أن عليا ـ رحمه الله ـ صلى يوم ، ثم ضحك فسئل عن ضحكه فقال ، تذكرت أبا طالب حين فرضت الصلاة ، ورآنى أصلى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنخلة فقال ، ماهذا الفعل الذى أرى ، فلما أخبرناه ، قال ، هذا حسن ، لكن لا أفعله أبدا ، لاأحب أن تعلونى استى فتذكرت الآن قوله ، فضحكت .

قريش تعرض عمارة بن الوليد على أبى طالب : وذكر قول الملأ من قريش لأبى طالب : هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش ، وأجمله، فخذه مكان ابن أخيك .

أنهد . أى : أقوى وأجلد ، ويقال : فرس نهد : للذى يتقدم الخيل ، وأصل هذه الكلمة : التقدم ، ومنه يقال : نهد ثدى الجارية ، أى : برز قدماً ، وعمارة بن الوليد هذا المذكور هو : الذى أرسلته قريش مع عمرو ابن العاص إلى أرض الحبشة فسحر هناك وجن ، وسنزيد فى خبره شيئاً بعد هذا إن شاء الله .

(روض)

شعر أبى طالب فى المطعم ومن خذله: فقال أبو طالب عند ذلك - يعرض بالمطعم بن عدى - ويعم من خذله من بنى عبد مناف، ومن عاداه من قبائل قريش، ويذكر ما سألوه: وما تباعد من أمرهم:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظى من حياطتكم بكر
من الخور حبحاب كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر
تخلف خلف الورد ليس بلاحق ... إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر
أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا . إلى غيرنا الأمر
بلى لهما أمر، ولكن تجرجما ... كما جرجمت من رأس ذى علق صخر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلا ... هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر
هما أغمزا للقوم فى أخويهما ... فقد أصبحا منهم أكفهم صفر
هما أشركا فى المجد من لا أبا له ... من الناس إلا أن يرس له ذكر
وتيم ومخزوم وزهرة منهم ... وكانوا لنا مولى إذا بغى النصر
فوالله لا تنفك منا عداوة ... ولا منهم ما كان من نسلنا شفر
فقد سفهت أحلامهم وعقولهم ... وكان كجفر بئس ما صنعت جفر

قال ابن هشام. تركنا بيتين أقذع فيهما.

قريش تظهر عداوتها للمسلمين: قال ابن إسحاق: ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - منهم بعمه أبى طالب، وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشا يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى مادعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لهب، عدو الله الملعون.

شعر أبى طالب فى مدح قومه لنصرته: فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره فى جهدهم معه، وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم ومكانه منهم، ليشد لهم رأيهم، وليحدبوا معه على أمره، فقال:

وذكروا أن أبا طالب قال لهم حين سألوه أن يأخذ عمارة بدلا من محمد صلى الله عليه وسلم: أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها وترأمه لا أعطيكم ابنى تقتلونه أبدا، وآخذ ابنكم أكفله، وأغذوه، وهو معنى ما ذكر ابن إسحاق. قال ابن إسحاق: لحقب الأمر عند ذلك، يريد: اشتد، وهو من قولك: حقب البعير إذا راغ عنه الحقب من شده الجهد والنصب، وإذا عسر عليه البول أيضا لشد الحقب على ذلك الموضع، فيقال منه: حقب البعير، ثم يستعمل فى الأمر إذا عسر، وكذلك قوله: فشرى الأمر عند ذلك، أى انتشر الشر، ومنه الشرى، وهى قروح تنتشر على البدن، يقال منه: شرى جلد الرجل، يشرى شرى.

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما ، فان محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم نظفر وطاشت حلومها
وكنا قديمـــا لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمى حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الدواء ، وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

شعر أبى طالب : فصل : وذكر شعر أبى طالب :

ألا قل لعمرو والوليد . إلى آخر الشعر

وفيه : ألا ليت حظى من حياطتكم بكر

أى : إن بكرا من الإبل أنفع لى منكم ، فليته لى بدلا من حياطتكم كما قال طرفة فى عمرو بن هند :

فليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثاً حول قبتنا تخور

وقوله : من الخور حبحاب . الخور الضعاف ، والحبحاب بالحاء : الصغير . وفى حاشية كتاب الشيخ أبى بحر : جبجاب بالجيم ، وفسره فقال : هو الـكثير الهدر ، وفى الشعر :

إذا ما علا الفيفاء قيل له : وبر

أى يشبه بالوبر لصغره،ويحتمل أن يكون أراد ، أن يصغر فى العين لعلو المكان وبعده ، والفيفاء فعلاء،ولولا قولهم : الفيف ، لـكان حمله على باب القصاص والجرجاء أولى ، ولـكن سمع الفيف ، فعلم أن الألفين زائدتان وأنه من باب قلق وسلس الذى ضوعفت فيه فاء الفعل دون عينه ، وهى ألفاظ يسيرة نحو قلق وساس وثلث وسدس ، وقد اعتنينا بجمعها من الـكلام ، ولعل لها موضعا نذكر فيه من هذا الـكتاب إن شاء الله تعالى ، ولا تـكون ألف فيفاء للإلحاق فيصرف ، لأنه ليس فى الكلام : فعلال ، فان قيل : يكون ملحقاً بقضقاض وبابه ، قلنا ، قضقاض ثنائى مضاعف ، فلا يلحق به الثلاثى ، كما لا يلحق الرباعى بالثلاثى ، ولا الأكثر بالأقل ، وقد حكى فيفاة بالقصر وليست ألفها للتأنيث ، إذ لا يجمع بين علامتى تأنيث ، فهى إذاً من أرطاة ونحوها ، كأنها ملحقة بسلهبة . وفى الشعر :

كما جرجمت من رأس ذى علق صخر

وترك صرف علق ، إما لأنه جعله اسم بقعة ، وإما لأنه اسم علم ، وترك صرف الاسم العلم سائغ فى الشعر ، وإن لم يكن مؤنثا ولا عجميا نحو قول عباس بن مرداس .

الوليد بن المغيرة كيده للرسول وموقفه من القرآن

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش - وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحد ، ولاتختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل ، وأقم لنا رأيا نقول به ، قال : بل أنتم ، فقولوا اسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال: ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا : فانقول

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى المجمع

ونحو قول الآخر :

يامن جفانى وملا ... نسيت أهلا وسهلا
ومات مرحب لما ... رأيت مالى قلا

فلم يصرف مرحبا ، وسيأتى فى هذا الكتاب شواهد كثيرة على هذا ، ونشرح العلة فيه إن شاء الله تعالى ، ولو روى : من رأس ذى علق الصخر بحذف التنوين لالتقاء الساكن ، لكان حسنا ، كما قرىء « قل هو الله أحد ، الله الصمد » بحذف التنوين من أحد ، وهى رواية عن أبى عمرو العلاء ، وقال الشاعر :

حميد الذى أمج داره

وقال آخر :

ولا ذاكر الله إلا قليلا

وأنشد قول أبى طالب :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها

قوله : سرها أى : وسطها ، وسر الوادى وسرارته : وسطه ، وقد تقدم متى يكون الوسط مدحا ، وأن ذلك فى موضعين ، فى وصف الشهود ، وفى النسب ، وبينا السر فى ذلك .

وقال فى القصيدة : ونضرب عن أحجارها من يرومها ، أى تدافع عن حصونها ومعاقلها ، وإن كانت الرواية أجحارها بتقديم الجيم فهو جمع جحر والجحر هنا مستعار ، وإنما يريد عن بيوتها ومساكنها .

يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة - قال ابن هشام : ويقال : لغدق - وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره .

رد **القرآن على الوليد** : فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة ، وفى ذلك من قوله : « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً» إى خصيما .

قال ابن هشام : عنيد : معاند مخالف . قال رؤبة بن العجاج :

ونحن ضرابون رأس العند

وهذا البيت فى أرجوزة له.

« سأرهقه صعوداً صعوداً : إنه فكر وقدر : فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر : ثم عبس وبسر » :

قال ابن هشام : بسر : كره وجهه . قال العجاج :

مضبر اللحيين بسر منهسا

يصف كراهية وجهه . وهذا البيت فى أرجوزة له :

« ثم أدبر واستكبر فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر ، أن هذا إلا قول البشر » .

رد القرآن على صحب الوليد : قال ابن إسحاق : وأنزل الله تعالى فى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفيما جاء به من الله تعالى ، وفى النفر الذين كانوا معه يصنفون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيما جاء به من الله تعالى : « كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين. فوربك لنسئلنهم أجمعين . عما كانوا يعملون » .

قال ابن هشام : واحدة العضين : عضة ، يقول : عضوه : فرقوه . قال رؤبة بن العجاج :

وليس دين الله بالمعضى

وهذا البيت فى أرجوزة له

قال ابن إسحاق : فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

شعر أبى طالب فى معاداة خصومه

فلما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه ، فقال :

ولما رأيت القوم لاود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوما علينا أظنة ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قياما معا مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضى حلفه كل نافله
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل
موسمة الأعضاد أو قصراتها ... مخيسة بين السديس وبازل
ترى الودع فيها والرخام وزينة ... بأعناقها معقودة كالعثاكل
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق فى الدين مالم نحاول
وثور ومن أرسى ثبيرا لمكانه ... وراق ليرقى فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل
ومن حج بيت الله من كل راكب ... ومن كل ذى نذر ومن كل راجل
وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له ... إلال إلى مفضى الشراج القوابل
وتوقافهم فوق الجبال عشة ... يقيمون بالأيدى صدور الرواحل
وليلة جمع والمنازل من منى ... وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع إذا ما المقربات أجزنه ... سراعاً كما يخرجن من وقع وابل

• • • • • • • • • • • • • • • • • • •

وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها … يؤمون قذفا رأسها بالجنادل
وكندة إذ هم بالحصاب عشية … تجيز بهم حجاج بكر بن وائل
حليفان شدا عقد ما احتلفا له … وردا عليه عاطفات الوسائل
وحطمهم سمر الرماح وسرحه … وشبرقه وخد النعام الجوافل
فهل بعد هذا من معاذ لعائذ … وهل من معيذ يتقى الله عاذل
يطاع بنا أمر العدا ود أننا … تسد بنا أبواب ترك وكابل
كذبتم وبيت الله نترك مكة … ونظعن إلا أمركم فى بلابل
كذبتم – وبيت الله – نبزى محمداً … ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله … ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم فى الحديد إليكم … نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وحتى نرى ذا الضغن يركب ردعه … من الطعن فعل الأنكب المتحامل
وإنا – لعمر الله – إن جد ما أرى … لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
بكفى فتى مثل الشهاب سميدع … أخى ثقة حامى الحقيقة باسل
شهوراً وأياماً وحولا محرماً … علينا وتأتى حجة بعد قابل
وسأترك قوم – لا أبالك سيداً … يحوط الذمار غير ذرب موا كل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه … ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم … فهم عنده فى رحمة وفواضل
لعمرى لقد أجرى أسيد وبكره … إلى بغضنا وجزآنا لآكل
وعثمان لم يربع علينا وقنفذ … ولكن أطاع أمر تلك القبائل
أطاعا أبيا ، وابن عبد يغوثهم … ولم يرقبا فينا مقالة قائل
كما قد لقينا من سبيع ونوفل … وكل تولى معرضاً لم يجامل
فإن يلفيا ، أو يمكن الله منهما … نكل لهما صاعاً بصاع المكايل
وذاك أبو عمرو أبى غير بغضنا … ليظعنا فى أهل شاء وجامل
يناجى بنا فى كل ممسى ومصبح … فناج أبا عمرو بنا ثم خاتل
ويؤلى لنا بالله ما إن يغشنا … بلى قد تراه جهرة غير حائل

. . . .

أضاق عليه بغضنا كل تامة　　　من الأرض بين أخشب فمجادل

وسائل أبا الوليد ماذا حبوتنا　　　بسعيك فينا معرضاً كالمخاتل

وكنت امرءاً ممن يعاش برأيه　　　ورحمته فينا ولست بجاهل

فعتبة لاتسمع بنا قول كاشح　　　حسود كذوب مبغض ذى دغاول

ومر أبو سفيان عنى معرضاً　　　كما مر قيل من عظام المقاول

يفر إلى نجد وبرد مياهه　　　ويزعم أنى لست عنكم بغافل

ويخبرنا فعل المناصح أنه　　　شفيق، ويخفى عارمات الدواخل

أمطعم لم أخذلك فى يوم نجدة　　　ولامعظم عند الأمور الجلائل

ولا يوم خصم إذا أتوك ألدة　　　أولى جدل من الخصوم المساجل

أمطعم إن القوم ساموك خطة　　　وإنى متى أوكل فلست بوائل

جزا الله عنا عبد شمس ونوفلا　　　عقوبة شر عاجلا غير آجل

بميزان قسط لا يخس شعيرة　　　له شاهد من نفسه غير عائل

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا　　　بنى خلف قيضاً بنا والغياطل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم　　　وآل قصى فى الخطوب الأوائل

وسهم ومخزوم تمالوا وألبوا　　　علينا العدا من كل طمل وخامل

فعبد مناف أنتم خير قومكم　　　فلا تشركوا فى أمركم كل واغل

لعمرى لقد وهنتم وعجزتم　　　وجئتم بأمر مخطىء المفاصل

وكنتم حديثاً حطب قدر وأنتم الـ　　　ـآن حطاب أقدر ومراجل

ليهنىء بنى عبد مناف عقوقنا　　　وخذلاننا، وتركنا فى المعاقل

فإن يك قوماً نتئر ما صنعتم　　　وتحتلبوها لقحة غير باهل

وسائط كانت فى لؤى بن غالب　　　نفاهم إلينا كل صقر حلاحل

ورهط نفيل شر من وطىء الحصى　　　وألأم حاف من معد وناعل

فأبلغ قصيا أن سينشر أمرنا　　　وبشر قصيا بعدنا بالتخاذل

ولو طرقت ليلا قصيا عظيمة　　　إذا ما لجأنا دونهم فى المداخل

ولو صدقوا ضرباً خلال بيوتهم　　　لكنا أسى عند النساء المطافل

فكل صديق وابن أخت نعده　　　لعمرى - وجدنا غبه غير طائل

سوى أن رهطا من كلاب بن مرة　　　براء إلينا من معقة خاذل

وهنا لهم حتى تبدد جمعهم　　　ويحسر عنا كل باغ وجاهل

وكان لنا حوض السقاية فيهم ... ونحن الكدى من غالب والكواهل
شباب من المطيبين وهاشم ... كبيض السيوف بين أيدى الصياقل
فما أدركوا ذحلا ولاسفكوا دما ... ولاحالفوا إلا شرار القبائل
بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم ... ضوارى أسود فوق لحم خرادل
بنى أمة محبوبة هندكيــــة ... بنى جمح عبيد قيس بن عاقل
ولكننا نسل كرام لسادة ... بهم نعى الأقوام عند البواطل
ونعم ابن أخت القوم غير مكذب ... زهير حساما مفردا من حمائل
أشم من الشم البهاليل ينتمى ... إلى حسب فى حومة المجد فاضل
لعمرى لقد كلفت وجدا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل
فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها ... وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلها ليس عــــنه بغافل
فوالله لولا أن أجىء بسبة ... تجر على أشياخنا فى المحافل
لكننا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد فى أرومة ... تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسى دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير باطل
رجال كرام غير ميل نماهم ... إلى الخير آباء كرام المحاصل
فإن تك كعب من لؤى صقيبة ... فلا بد يوما مرة من تزايل

قال ابن هشام : هذا ماصح لى من هذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها .

الرسول يستسقى لأهل المدينة ويود لو أن أبا طالب حى : قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به ، قال : أقحط أهل المدينة ، فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشكوا ذلك إليه ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فاستسقى ، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحى يشكون منه الغرق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حوالينا ولا علينا ، فانجاب السحاب عن المدينة ، فصار حواليها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره ، فقال له بعض أصحابه : كأنك يارسول الله أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال : أجل .

قال ابن هشام . وقوله « وشبرقه » عن غير ابن إسحاق .

معانى الأسماء التى فى قصيدة أبى طالب : قال ابن إسحاق . والغياطل : من بنى سهم بن عمرو بن هصيص . وأبو سفيان بن حرب بن أمية . ومطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف . وزهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وأمه : عاتكة بنت عبد المطلب . قال ابن إسحاق : وأسيد . وبكره : عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى . وعثمان بن عبيد الله ، أخو طلحة بن عبيد الله التيمى . وقنفذ بن عمير بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأبو الوليد . عتبة بن ربيعة . وأبى : الأخنس بن شريق الثقفى ، حليف بنى زهرة بن كلاب .

قال ابن هشام . وإنما سمى الأخنس ؛ لأنه خنس بالقوم يوم بدر ، إنما اسمه . أبى ؛ وهو من بنى علاج ؛ وهو علاج بن أبى سلمة بن عوف بن أبى سلمة بن عوف بن عقبة . والأسود بن عبد يغوث بن وهب ابن عبد مناف بن كلاب . وسبيع بن خالد ، أخو بلحارث بن فهر . ونوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصى ،وهو ابن العدوية . وكان من شياطين قريش ، وهو الذى قرن بين أبى بكر الصديق وطلحة بن عبيدالله رضى الله عنهما فى حبل حين أسلما . فبذلك كانا يسميان ، القرينين : قتله على بن أبى طالب — عليه السلام — يوم بدر . وأبو عمرو : قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف . « وقوم علينا أظنة » بنو بكر بن عبد مناة ابن كنانة : فهؤلاء الذين عدد أبو طالب فى شعره من العرب .

انتشار ذكر الرسول (ص) خارج مكة . فلما انتشر أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العرب ، وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ، ولم يكن حى من العرب أعلم بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين ذكر ، وقبل أن يذكر من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ، ومعهم فى بلادهم . فلما وقع ذكره بالمدينة ، وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف قال أبو قيس بن الأسلت . أخو بنى واقف .

نسب ابن الأسلت : قال ابن هشام : نسب ابن إسحاق أبا قيس هذا هاهنا إلى بنى واقف ، ونسبه فى حديث الفيل إلى خطمة ، لأن العرب قد تنسب الرجل إلى أخى جده الذى هو أشهر منه .

قال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة أن الحكم بن عمرو الغفارى من ولد نعيلة أخى غفار ، وهو غفار بن مليل ، ونعيلة بن مليل بن ضمرة بن بكر بن منصور وسليم : ابن منصور .

قال ابن هشام : فأبو قيس بن الأسلت : من بنى وائل ، ووائل ، وواقف وخطمة إخوة من الأوس .

. . . .

شعر ابن الأسلت : قال ابن إسحاق : فقال أبو قيس بن الأسلت ـ وكان يحب قريشا ، وكان لهم صهرآ ، كانت عنده أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته ـ قصيدة يعظم فيها الحرمة، وينهى قريشا فيها عن الحرب ، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ، ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم ، فقال :

يا راكبا إما عرضت فبلغن مغلغلة عنى لؤى بن غالب
رسول امرىء قد راعه ذات بينكم على النأى محزون بذلك ناصب
وقد كان عندى للهموم معرس فلم أقض منها حاجتى ومآربى
نبيتكم شرجين كل قبيلة لها أزمل من بين مذك و حاطب
أعيذكم بالله من شر صنعكم وشر تباغيكم ودس العقارب
وإظهار أخلاق ، ونجوى سقيمة كوخز الأشافى وقعها حق صائب
فذكرهم بالله أول وهلة وإحلال أحرام الظباء الشوازب
وقل لهم ـ والله يحكم حكمه ـ ذروا الحرب تذهب عنكم فى المراحب
متى تبعثوها ، تبعثوها ذميمة هى الغول للأقصين أو الأقارب
تقطع أرحاما ، وتهلك أمة وتبرى السديف من سنام وغارب
وتستبدلوا بالأتحمية بعدها شليلا وأصداء ثياب المحارب
وبالمسك والكافور غبرا سوابغاً كأن قتيريها عيون الجنادب
فإياكم والحرب لا تعلقنكم وحوضاً وخيم الماء مر المشارب
تزين للأقوام ، ثم يرونها بعاقبة إذا بينت ، أم صاحب
تحرق ، لا تشوى ضعيفا ، وتنتحى ذوى العز منكم بالحتوف الصوائب
ألم تعلموا ما كان فى حرب داحس فتعتبروا أو كان فى حرب حاطب
وكم قد أصابت من شريف مسود طويل العماد ، ضيفه غير خائب
عظيم رماد النار يحمد أمره وذى شيمة محض كريم المضارب
وماء هريق فى الضلال كأنما أذاعت به ريح الصبا والجنائب
يخبركم عنها امرؤ حق عالم بأيامها والعلم علم التجارب
فبيعوا الحراب ملمحارب، واذكروا حسابكم ، والله خير محاسب
ولى امرىء ، فاختاردينا ، فلا يكن عليكم رقيبا غير رب الثواقب

أقيموا لنا دينا حنيفا ، فأنتم لنا غاية قد يهتدى بالذوائب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة تؤمون ، والأحلام غير عوازب
وأنتم - إذا ما حصل الناس - جوهر لكم سرة البطحاء شم الأرانب
تصونون أجسادا كراما عتيقة مهذبة الأنساب غير أشائب
يرى طالب الحاجات نحو بيوتكم عصائب هلكى تهتدى بعصائب
لقد علم الأقوام أن سراتكم على كل حال خير أهل الجباجب
وأفضله رأيا ، وأعــلاه سنة وأقوله للحق وسط المواكب
فقوموا ، فصلوا ربكم ، وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء ومصدق غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهل تمسى ، ورجله على القاذفات فى رءوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ، ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ، ولم يؤب إلى أهله م الحبش غير عصائب
فإن تهلكوا ، نهلك وتهلك مواسم يعاش بها ، قول امرىء غير كاذب

قال ابن هشام : أنشدنى بيته : « وماء هريق » ، وبيته : « فبيعوا الحراب » وقوله : « ولى امرىء فاختار » ، وقوله :

على القاذفات فى رءوس المناقب

أبو زيد الأنصارى وغيره .

حرب داحس والغبراء : قال ابن هشام : وأما قوله

ألم تعلموا ما كان فى حرب داحس

فحدثنى أبو عبيدة النحوى : أن داحساً فرس كان لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحارث ابن مازن بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان ، أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر بن عمرو بن زيد ابن جوية بن لوذان بن ثعلبة بن عدى بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، يقال لها : الغبراء . فدس حذيفة قوماً وأمرهم أن يضربوا وجه داحس ، إن رأوه قد جاء سابقاً ، فجاء داحس سابقاً ، فضربوا وجهه ، وجاءت الغبراء . فلما جاء فارس داحس أخبر قيساً الخبر ، فوثب أخوه مالك بن زهير ، فلطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر ، فلطم مالكا . ثم إن أبا الجنيدب العبسى لقى عوف بن حذيفة فقتله ، ثم لقى رجل من بنى فزارة مالكا فقتله فقال حمل بن بدر أخو حذيفة بن بدر :

. . . .

قتلنـا بعوف مالـكا وهو ثأرنا فإن تطلبوا منا سوى الحق تندموا

وهذا البيت فى أبيات له . وقال الربيع بى زياد العبسى :

أفبعد مقتـــل مالك بن زهير ترجو النساء عواقب الأطهار

وهذا البيت فى قصيدة له .

فوقعت الحرب بين عبس وفزارة ، فقتل حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر ، فقال قيس بن زهير بن جذيمة يرثى حذيفة ، وجزع عليه :

كم فارس يدعى وليس بفارس وعلى الهبـاءة فارس ذو مصدق

فابكوا حـذيفة لن ترثوا مثله حتى تبيـــد قبـــائل لم تخلق

وهذان البيتان فى أبيات له . وقال قيس بن زهير :

على أن الفتى حمـل بن بدر بغى ، والظلم مرتعه وخيم

وهذا البيت فى أبيات له : وقال الحارث بن زهير أخو قيس بن زهير :

تركت على الهباءة غير فخر حذيفة عنده قصـــد العوالى

وهذا البيت فى أبيات له .

قال ابن هشام : ويقال : أرسل قيس داحساً والغبراء ، وأرسل حذيفة الخطار والحنفاء ، والأول أصح الحديثين . وهو حديث طويل منعنى من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حرب حاطب : قال ابن هشام : وأما قوله : « حرب حاطب » . فيعنى حاطب بن الحارث بن قيس بن الحارث ابن أمية بن معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، كان قتل يهودياً جاراً للخزرج، فخرج إليه يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر بن حارث بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج — وهو الذى يقال له : ابن وفسحم ،فسحم: أمه ، وهى امرأة من القين بن جسر — ليلا فى نفر من بنى الحارث بن الخزرج فقتلوه ، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالا شديداً ، فكان الظفر للخزرج على الأوس ،وقتل يومئذ سويد بن صامت بن خالد بن عطية بن حوط بن حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك ابن الأوس ، قتله المجذر بن ذياد البلوى ، واسمه عبد الله ، حليف بنى عوف بن الخزرج . فلما كان يوم أحد خرج المجذر بن ذياد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخرج معه الحارث بن سويد بن صامت ، فوجد الحارث بن سويد غرة من المجذر فقتله بأبيه ، وسأذكر حديثه فى موضعه — إن شاء الله تعالى — ثم كانت بينهم حروب منعنى من ذكرها واستقصاء هذا الحديث ما ذكرت فى حديث حرب داحس .

شعر حكيم بن أمية فى نهى قومه عن عداوة الرسول : قال ابن إسحاق : وقال حكيم بن أمية بن حارثة

. . . .

ابن الأوقص السلمى ، حليف بنى أمية وقد أسلم ، يورع قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم شريفاً مطاعاً :

هل قائل قولا من الحق قاعد عليه ، وهل غضبان للرشد سامع
وهل سيد ترجو العشيرة نفعه لأقصى الموالى والأقارب جامع
تبرأت إلا وجه من يملك الصبا وأهجركم ما دام مدل ونازع
وأسلم وجهى للإله ومنطقى ولو راعنى من الصديق روائع

موقف الوليد من القرآن : وذكر خبر الوليد بن المغيرة وقوله : فيما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم من الوحى والقرآن : قد سمعنا الشعر فما هو بهزجه ، ولا رجزه والهزج من أعاريض الشعر معروف عند العروضيين ، ولا أعرف له اشتقاقا إلا أن يكون من قولهم فى وصف الذباب : هزج ، أى : مترنم ، وأما الرجز فيحتمل أن يكون من رجزت الحمل إذا عدلته بالرجازة ، وهو شىء يعدل به الحمل ، وكذلك الرجز فى الشعر أشطار معدلة ، ويجوز أن يكون من رجزت الناقة إذا أصابتها رعدة عند قيامها ، كما قال الشاعر : حتى تقوم تكلف الرجزاء فالمرتجز كأنه مرتعد عند إنشاده لقصر الأبيات .

وقوله : قد سمعنا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه : الزمزمة صوت ضعيف كنحو ما كانت الفرس تفعله عند شربها الماء ، ويقال أيضا : زمزم الرعد ، وهو صوت له قبل الهدر ، وكذلك الكهان ، كانت لهم زمزمة الله أعلم بكيفيتها ، وأما زمزمة الفرس ، فكانت من أنوفهم .

وقول الوليد : إن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة . استعارة من النخلة التى ثبت أصلها ، وقوى وطاب فرعها إذا جنى ، والنخلة هى : العذق بفتح العين ، ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام ، لأنها استعارة تامة يشبه آخر الكلام أوله ، ورواية ابن هشام : إن أصله لغدق ، وهو الماء الكثير ، ومنه يقال : غيدق الرجل إذا كثر بصاقه . وأحد أعمام النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يسمى : الغيداق لكثرة عطائه - والغيدق أيضا ولد الضب ، وهو أكبر من الحسل قاله قطرب فى كتاب الأفعال والأسماء له .

ذرنى ومن خلقت وحيدا : فصل : وذكر ابن إسحاق قول الله تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » الآيات التى نزلت فى الوليد ، وفيها له تهديد ووعيد شديد ، لأن معنى : « ذرنى ومن خلقت » أى دعنى وإياه ، فسترى ما أصنع به ، كما قال : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » وهى كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه ، وكره أن يشفع لمن اغتاظ عليه ، فمعنى الكلام : أى : لاشفاعة تنفع لهذا الكافر ، ولا استغفار يامحمد منك ، ولا من غيرك وقوله : « وبنين شهوداً » أى : مقيمين معه غير محتاجين إلى الأسفار والغيبة عنه ، لأن ماله كان ممدوداً والمال الممدود عندهم : اثنا عشر ألف دينار ، فصاعداً « ومهدت له تمهيداً » أى : هيأت له ، وقدمت له مقدمات استدراجاً له ، وقوله تعالى : « سأرهقه صعوداً » هى عقبة فى جهنم ، يقال لها : الصعود مسيرها سبعين سنة ، يكلف الكافر أن يصعدها ، فإذا صعدها بعد عذاب طويل صب من أعلاها ، ولا يتنفس ، ثم لايزال كذلك أبداً ، كذلك جاء فى التفسير .

. . . .

وقوله سبحانه : « فقتل كيف قدر » أى : لعن كيفما كان تقديره فكيف ها هنا من حروف الشرط ، وقيل معنى قتل : أى هو : أهل أن يدعى عليه بالقتل ، وقد فسر ابن هشام : بسر والبسر أيضاً : القهر ، والبسر حمل الفحل على الناقة قبل وقت الضراب . وفسر عضين ، وجعله من عضيت أى فرقت ، وفى الحديث : « لا تعضية فى ميراث إلا ما احتمله القسم » ومعنى هذا الحديث موافق لمذهب ابن القاسم ورأيه فى كل مالا ينتفع به إذا قسم أو كان فيه ضرر على الشريكين ألا يقسم ، وهو خلاف رأى مالك ، وحجة مالك قول الله تعالى : « مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » وقد قيل فى عضين إنه جمع عضة ، وهى السحر وأنشدوا :

أعوذ بربى من النافثا ت فى عقـــد العاضه المعضه

ومنهم قولهم : ياللعضيهة ويا للأفيكة .

شرح قصيدة أبى طالب فى معاداة خصومه : وذكر قصيدة أبى طالب إلى آخرها ، وفيها : وأبيض عضب من تراث المقاول . قد شرحنا الأقيال والمقاول ، فيما تقدم ، وتراث أصله : وراث من ورثت ، ولكن لاتبدل هذه الواو تاء إلا فى مواضع محفوظة ، وعلتها كثرة وجود التاء فى تصاريف الكلمة ، فالتراث مال قد توورث ، وتوارثه قوم عن قوم ، فالتاء مستعملة فى التوريث والتوارث ، وكذلك تجاه البيت ، التاء مستعملة فى التوجيه ونحوه ، فلما ألفوها فى تصاريف الكلمة لم ينكروا قلب الواو إليها ، كما فعلوا فى ريحان وهو من الروح لكثرة الياء فى تصاريف الكلمة ، كما قدمنا قبل ، وهى فى تراث وبابه أبعد ، لأن الياء المألوفة فى مادة الكلمة زائدة ، وياء ريحان ليست كذلك ، وكذلك التكأة من توكأت وتترى من التواتر ، والتولج من التولج والمتلج ، لأنهم يقولون : اتلج بالتشديد ، فتصير الواو تاء للإدغام ، حتى يقولوا : متلج فيجعلونها تاء دون الإدغام ، وهذا أشبه بقياس ريحان وبابه ، فإن التاء الأولى من متلج أصلية وهى فى متاج إذا ضعفت أصلية أيضاً ، فهى هى ، فقف على هذا الأصل ، فإنه سر الباب . وأراد بالمقاول : آباءه ، شبههم بالملوك ، ولم يكونوا ملوكا ، ولا كان فيهم من ملك بدليل حديث أبى سفيان حين قال له هرقل : هل كان فى آبائه من ملك ؟ فقال : لا . ويحتمل أن يكون هذا السيف الذى ذكر أبو طالب من هبات الملوك لأبيه ، فقد وهب ابن ذى يزن لعبد المطلب هبات جزلة حين وفد عليه مع قريش ، يهنئونه بظفره بالحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعامين .

وقوله : موسمة الأعضاد أو قصراتها : يعنى معلمة بسمة فى أعضادها ويقال لذلك الوسم السطاع والخباط فى الفخذ والرقمة أيضاً فى العضد ، ويقال للوسم فى الكشح : الكشاح ولما فى قصرة العنق : العلاط ، والعلطتان والشعب أيضاً فى العنق ، وهو كالمحجن ، وفى العنق وسم آخر أيضاً يقال له : قيد الفرس . قال الراجز :

كوم على أعناقها قيد الفرس تنجو إذا الليل تدانى والتبس

ولوسوم الإبل أسماء كثيرة وباب طويل ، ذكر أبو عبيد أكثره فى كتاب الإبل ، فمنها المشيطنة والمعفاة والقرمة وهى فى الأنف ، وكذلك الجرف والخطاف وهى فى العنق ، والدلو والمشط والفرتاج والثؤثور والدماع

. ، . . . .

فى موضع الدمع ، والصداغ فى موضع الصدغ واللجام من الخد إلى العين ، يقال منه : بعير ملجوم ، والهلال والخراش وهو من الصدغ إلى الذقن .

وقوله : أو قصراتها جمع قصرة ، وهى أصل العنق ، وخفضها بالعطف على الأعضاد ، ولا يجوز أن تكون موضع نصب كما تقول : هو ضارب الرجل وزيداً فى باب اسم الفاعل ، لأن قوله : موسمة الأعضاد من باب الصفة المشبهة وهى لا تعمل إلا مضمرة ، واسم الفاعل يضمر إذا عطف على المخفوض ، وذلك أن الصفة لا تعمل بالمعنى ، وإنما تعمل بشبه لفظى بينها وبين اسم الفاعل ، فإذا زال اللفظ ، ورجع إلى الإضمار لم تعمل ، وتخالف اسم الفاعل أيضاً ، لأن معمولها لا يتقدم عليها ، كما يتقدم المفعول على اسم الفاعل ، وذلك أن منصوبها فاعل فى المعنى ، والفاعل لا يتقدم ، والصفة لا يفصل بينها وبين منصوبها بالظرف ، ويجوز ذلك فى اسم الفاعل ، والصفة لا تعمل إلا بمعنى الحال ، واسم الفاعل يعمل بمعنى الحال والاستقبال ، نعم ويعمل بمعنى الماضى إذا دخلت عليه الألف واللام ، ولو روى : موسمة الأعضاد بنصب الدال على معنى : موسمة الأعضاد بالتنوين ، وحذفه لالتقاء الساكنين ، لجاز كما روى فى شعر حندج - [امرىء القيس]

كبكر مقاناة البياض

بالنصب وبالرفع أيضاً ، أى : البياض منها على نية التنوين فى مقاناة،وحذفه لالتقاء الساكنين ، وأما الخفض فلا خفاء نه ، وإذا كانت القصرات مخفوضة بالعطف على الأعضاد، ففيه شاهد لمن قال : هو حسن وجهة كما روى سيبويه حين أنشد : [للشماخ بن ضرار] .

كميتا الأعالى جونتا مصطلاهما

وفى حديث أم زرع : صفر ردائها، وملء كسائها مثل حسنة وجهها ، وفى الأمالى من صفة النبي صلى الله عليه وسلم : شثن الكفين طويل أصابعه ، أعنى : مثل صفر ردائها .

وقوله : ترى الودع فيه . الودع ، والودع بالسكون والفتح : خرزات تنظم ، ويتحلى بها النساء والصبيان كما قال :

والحلم حلم صبى يمرس الودعة

وقال الشاعر :

إن الرواة بلا فهم لما حفظوا	مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له	ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

ويقال : إن هذه الخرزات يقذفها البحر ، وأنها حيوان فى جوف البحر ، فإذا قذفها ماتت، ولها بريق ولون

. . . .

حسن ، وتصلب صلابة الحجر ، فتثقب ، ويتخذ منها القلائد ، واسمها مشتق من ودعته أى : تركته ، لأن البحر ينصب عنها ويدعها ، فهى ودع مثل قبض ونفض ، وإذا قلت الودع بالسكون فهى من باب ماسمى بالمصدر .

وقوله : والرخام أى : ما قطع من الرخام ، فنظم وهو حجر أبيض ناصع : والعثا كل : أراد العثاكيل ، فحذف الياء ضرورة كما قال ابن مضاض : وفيها العصافر ، أراد : العصافير ، وفى أول القصيدة: وقد حالفوا قوماً علينا أظنة أى متهمين ، ولو كان بالضاد مع قوله : علينا ، لعاد معناه مدحاً لهم ، كأنه قال : أشحة علينا، كما أنشد عمرو بن بحر [الجاحظ] :

لو كنت فى قوم عليك أشحة ... عليـــك إلا إن من طاح طائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم ... وهل يدفع الموت النفوس الشحائح

وفيهـا :

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق ليرقى فى حراء ونازل

ثور : جبل بمكة ، وثبير : جبل من جبالها ذكروا أن ثبيراً كان رجلا من هذيل مات فى ذلك الجبل ، فعرف الجبل به ، كما عرف أبو قبيس بقبيس بن شالخ رجل من جرهم ، كان قد وشى بين عمرو بن مضاض ، وبين ابنة عمه مية،فنذرت ألا تكلمه،وكان شديد الكلف بها ، فحلف ليقتلن قبيسا ، فهرب منه فى الجبل المعروف به،وانقطع خبره فإما مات ، وإما تردى منه ، فسمى الجبل:أبا قبيس وهو خبر طويل ذكره ابن هشام فى غير هذاالكتاب.

وقوله : وراق ليرقى قد تقدم القول فيه ، وأصح الروايتين فيه : وراق لبر فى حراء ونازل . قال البرقى . هكذا رواه ابن إسحاق وغيره ، وهو الصواب . قال المؤلف ، فالوهم فيه إذاً من ابن هشام ، أو من البكائى. والله أعلم .

وقوله : وبالحجر الأسود ، فيه زحاف يسمى : الكف ، وهو حذف النون من مفاعيلن وهو بعد الواو من الأسود ونحوه قول حندج [امرىء القيس]

ألا رب يوم لك منهن صالح

وموضع الزحاف بعد اللام من ذلك .

وقوله : إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل . والأصائل : جمع أصيلة ، والأصل جمع أصيل ، وذلك أن فعائل جمع فعلية ، والأصيلة : لغه معروفة فى الأصيل ، وظن بعضهم أن أصائل : جمع آصال على وزن أفعال ، وآصال : جمع أصل نحو أطناب وطنب ، وأصل : جمع أصيل مثل رغف : جمع رغيف ، فأصائل على قولها : جمع جمع الجمع ، وهذا خطأ بين من وجوه ، منها : أن جمع جمع الجمع لم يوجد قط فى الكلام ، فيكون هذا نظيره،وعن جهة

. . . .

القياس إذ كانوا لا يجمعون الجمع الذى ليس لأدنى العدد ، فأحرى ألا يجمعوا جمع الجمع ، وأبين خطأ فى هذا القول غفلتهم عن الهمزة التى هى فاء الفعل التى فى أصيل وأصل ، وكذلك هى فاء الفعل فى أصائل ، لأنها فعائل ، وتوهموها زائدة كالتى فى أقاويل ، ولو كانت كذلك كانت الصاد فاء الفعل ، وإنما هى عينه ، كما هى فى أصيل وأصل ، فلو كانت أصائل جمع آصال ، مثل أقوال وأقاويل لاجتمعت همزة الجمع مع همزة الأصل ولقالوا فيه ، أواصيل بتسهيل الهمزة الثانية ، ووجه آخر من الخطأ بين أيضاً ، وهو أن أفاعيل جمع أفعال ، لا بد من ياء قبل آخره ، كما قالوا فى أقاويل ، فكان يكون أواصيل ، وليس فى أصائل حرف مدولين قبل آخره إنما هى همزة فعائل ، ومن الخطأ فى قولهم أيضاً : أن جعلوا أصلا جمعاً كثيرا مثل رغف ، ثم زعموا أن آصالا جمع له ، فهم بمنزلة من قال فى رغف جمع أرغاف ، فإن قيل: فجمع أى شىء هى آصال ؟ قلنا : جمع أصل الذى هو اسم مفردا فى معنى الأصائل لا جمع أصل الذى هو جمع ، فإن قيل : فهل يقال أصل واحد ، كما يقال أصيل وحدا ؟ قلنا : قد قال بعض أرباب اللغة ذلك ، واستشهدوا بقول الأعشى :

يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أى : دنا الأصيل ، فإن صح أن الأصل بمعنى الأصيل ، وإلا فآصال جمع أصيل على حذف الياء الزائدة مثل طوى وأطواء ، ولا أعرف أحدا قال هذا القول أعنى جمع جمع الجمع غير الزجاجى وابن عزيز .

وقوله : وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة . يعنى موضع قدميه حين غسلت كنته (زوج ابنه) رأسه ، وهو راكب ، فاعتمد بقدمه على الصخرة حين أمال رأسه ليغسل ، وكانت سارة قد أخذت عليه عهدا حين استأذنها فى أن يطالع تركته بمكة ، فحلف لها أنه لا ينزل عن دابته ، ولا يزيد على السلام ، واستطلاع الحال غيرة من سارة عليه من هاجر ، فحين اعتمد على الصخرة أبقى الله فيها أثر قدمه آية . قال الله سبحانه : « فيه آيات بينات مقام إبراهيم » أى : منها مقام إبراهيم ، ومن جعل مقاماً بدلا من آيات ، قال : المقام جمع مقامة ، وقيل : بل هو أثر قدمه حين رفع القواعد من البيت وهو قائم عليه .

وقوله : بين المروتين : وهو كنحو ماتقدم فى بطن المكتين والحمتين وعنيزتين ، مما ورد مثنى من أسماء المواضع ، وهو واحد فى الحقيقة ، وذكرنا العلة فى مجيئه مثنى ومجموعا فى الشعر . وفيها قوله :

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له إلال . . . البيت .

فالمشعر الأقصى : عرفة ، وإلال : جبل عرفة . قال النابغة :

يزرن إلالا سيرهن التدافع

وسمى : إلالا لأن الحجيج إذا رأوه ألوا فى السير أى : اجتهدوا فيه ؛ ليدركوا الموقف قال الراجز :

. . . .

مهر أبي الحبحاب لا تشلي بارك فيه الله من ذي أل

والشراج : جمع شرج ؛ وهو مسيل الماء ؛ والقوابل : المتقابلة . وفيها قوله : وحطمهم سمر الصفاح : جمع صفح ؛ وهو سطح الجبل . والسمر يجوز أن يكون أراد به السمر . يقال فيه : سمر وسمر بضم الميم وسكونها ويجوز نقل ضمة الميم إلى ماقبلها إلى السين . كما قالوا فى حسن : حسن . وكذا وقع فى الأصل بضم السين ، غير أن هذا النقل إنما يقع غالباً فيما يراد به المدح أو الذم نحو حسن وقبح . كما قال : وحسن ذا أدبا . وجائز أن يراد بالسمر ههنا جمع أسمر وسمراء ويكون وصفا للنبات ، والشجر يوصف بالدهمة إذا كان مخضراً ، وفى التنزيل « مدهامتان » . أى : خضراوان إلى السواد .

وقوله : وشبرقة . وهو نبات يقال ليابسه : الحلى ، والرطبة : الشبرق .

وقوله : نبذى محمدا أى نسلبه ونغلب عليه .

وقوله : نهوض الروايا . هى الإبل تحمل الماء واحدتها : راوية ، والأسقية أيضاً يقال لها : روايا ، وأصل هذا الجمع : رواوى ثم يصير فى القياس : روائى مثل حوائل جمع : حول ، ولكنهم قلبوا الكسرة فتحة بعد ما قدموا الياء قبلها ، وصار وزنه . فوالع ، وإنما قلبوه كراهية اجتماع واوين ، واو فواعل ، والواو التى هى عين الفعل ، ووجه آخر ، وهو أن الواو الثانية قياسها أن تنقلب همزة فى الجمع لوقوع الألف بين واوين ، فلما انقلبت همزة قلبوها ياء ، كما فعلوا فى خطايا وبابه ، ومما الهمزة فيه معترضة فى الجمع ، والصلاصل . المزادات لها صلصلة بالماء .

وفيها قوله : غير ذرب مواكل . وهو مخفف من ذرب والذرب ، اللسان الفاحش المنطق ، والمواكل الذى لاجد عنده فهو يكل أموره إلى غيره .

وفيها قوله : ثمال اليتامى ، أى : يشملهم ، ويقوم بهم ، يقال : هو ثمال مال أى يقوم به .

وفيها : قوله ليظعننا فى أهل شاء وجامل . الشاء والشوى : اسم للجمع مثل الباقر والبقير ، ولا واحد لشاء والشوى من لفظه ، وإذا قالوا فى الواحد : شاة ، فليس من هذا ، لأن لام الفعل فى شاة هاء بدليل قولهم فى التصغير : شويهة ، وفى الجمع شياه ، والجامل اسم جمع بمنزلة الباقر .

وقوله : وكنتم زمانا حطب قدر : حطب اسم للجمع مثل ركب وليس بجمع ، لأنك تقول فى تصغيره : حطيب وركيب .

وقوله : حطاب أقدر : هو جمع حاطب فلا يصغر ، إلا أن ترده إلى الواحد ، فتقول : حويطبون ، ومعنى البيت : أى كنتم متفقين لاتحطبون إلا لقدر واحدة ، فأنتم الآن بخلاف ذلك .

وفيها قوله : من الأرض بين أخشب ، فجادل . أراد الأخاشب ، وهى جبال مكة ، وجاء به على أخشب ، لأنه فى معنى أجبل ، مع أن الاسم قد يجمع على حذف الزوائد كما يصغرونه كذلك ، والمجادل : جمع مجدل وهو ،

. . . .

القصر ، كأنه يريد ما بين جبال مكة ، فقصور الشام أو العراق ، والفاء من قوله : فجادل تعطى الاتصال بخلاف الواو ، كقوله بين الدخول فحومل ، وتقول : مطرنا بين مكة فالمدينة إذا اتصل المطر من هذا إلى هذه ، ولو كانت الواو لم تعط هذا المعنى .

وقوله : أولى جدل من الخصوم المساجل يروى بالجيم وبالحاء فمن رواه بالجيم فهو من المساجلة فى القول ، وأصله فى استقاء الماء بالسجل ، وصبه فكأنه جمع مساجل على تقدير حذف الألف الزائدة من مفاعل ، أو جمع مسجل بكسر الميم ، وهو من نعت الخصوم ، ومن رواه المساحل بالحاء ، فهو جمع مسحل وهو اللسان ، وليس بصفة للخصوم ، إنما هو مخفوض بالإضافة ، أى ، خصماء الألسنة . وقال ابن أحمر :

من خطيب إذا ما انحل مسحله

أى : لسانه وهو أيضا من السحل وهو الصب ، ومنه حديث أيوب حين فرج عنه ، فجاءت سحابة فسحلت فى بيدره ذهبا ، وجاءت أخرى فسحلت فى البيدر الآخر فضة .

فصل : وفيها :

لقد سفهت أحلام قوم تبادلوا بنى خلف قيضاً بنا والغياطل

قيضاً أى : معاوضة ، ومنه قول النبى عليه السلام لذى الجوشن ، إن شئت قايضتك به المختار من دروع بدر ، فقال : ما كنت لأقيضه اليوم بشىء يعنى ، فرساً له ، يقال له ، ابن القرحاء . وقال أبو الشيص :

لا تنكرى صدى ولا إعراضى ليس المقل عن الزمان براض
بدلت من برد الشباب ملاءة خلقاً وبئس مثوبة المقتاض

والغياطل : بنو سهم ، لأن أمهم الغيطلة ، وقد تقدم نسبها ، وقيل : إن بنى سهم سموا بالغياطل ، لأن رجلا منهم قتل جانا طاف بالبيت سبعاً ، ثم خرج من المسجد فقتله ، فأظلمت مكة ، حتى فزعوا من شدة الظلمة التى أصابتهم . والغيطلة : الظلمة الشديدة ، والغيطلة أيضاً : الشجر الملتف ، والغيطلة : اختلاط الأصوات ، والغيطلة : البقرة الوحشية ، والغيطلة : غلبة النعاس ، وقوله : يخس شعيرة ، أى : ينقص ، والخسيس : الناقص من كل شىء ويروى فى غير السيرة : يحص بالصاد والحاء مهملة من حص الشعر : إذا أذهبه . وقوله : من كل طمل وخامل : الطمل . اللص ، كذا وجدته فى كتاب أبى بحر ، وفى العين . الطمل الرجل الفاحش ، والطمل والطملال . الفقير . والطمل . الذئب . وقوله . لقحة غير باهل . الباهل . الناقة التى لا صرار على أخلافها ، فهى مباحة الحالب يقال . ناقة مصرورة ، إذا كان على خلفها صرار يمنع الفصيل من أن يرضع ، وليست المصراة من هذا المعنى ، إنما هى التى جمع لبنها فى ضرعها ، فهو من الماء الصرى ، وقد غلط أبو على فى البارع ، فجعل المصراة بمعنى المصرورة ، وله وجه بعيد ، وذلك أن يحتج له بقلب إحدى الراءين ياء مثل ، قصيت أظفارى ، غير أنه بعيد فى المعنى ، وقالت

. . . .

امرأة المغيرة تعاتب زوجها ، وتذكر أنها جاءته كالناقة الباهلة التى لا صرار على أخلافها ، أطعمتك مأدومى وأبثثتك مكتومى ، وجئتك باهلا غير ذات صرار ، وفى الحديث ، لا تورد الإبل بهلا ، فإن الشياطين ترضعها ، أى ، لا أصرة عليها .

وفيها قوله : براء إلينا من معقة خاذل . يقال قوم براء وبراء بالفتح : وبراء بالكسر ، فأما براء بالكسر فجمع برىء ، مثل كريم وكرام ، وأما براء فمصدر ، مثل سلام والهمزة فيه وفى الذى قبله لام الفعل ، ويقال : رجل براء ورجلان براء ، وإذا كسرتها أو ضمتها لم يجز إلا فى الجمع ، وأما براء بضم الباء : فالأصل فيه برآء مثل كرماء فاستثقلوا اجتماع الهمزتين ، فحذفوا الأولى ، وكان وزنه فعلاء ، فلما حذفوا التى هى لام للفعل صار وزنه فعاء ، وأنصرف لأنه أشبه فعالا ، والنسب إليه إذا سميت به ، براوى ، والنسب إلى الآخرين برائى وبرائى ، [بفتح الباء وكسرها] وزعم بعضهم إلى أن براء بضم أوله من الجمع الذى جاء على فعال ، وهى ثمانية ألفاظ ، فرير وفرار وعرن وعران ، ولم يصنع شيئا ، وقال النحاس : براء بضم الباء .

حديث الاستسقاء :وذكر حديث استسقاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة، وهو حديث مروى من طرق كثيرة ، وبألفاظ مختلفة .

وقوله : حتى أتاه أهل الضواحى يشكون الغرق . الضواحى : جمع ضاحية ، وهى الأرض البراز التى ليس فيها ما يكن من المطر ، ولا منجاة من السيول ، وقيل : ضاحية كل بلد ، خارجه . وقوله عليه السلام ، اللهم حوالينا ، ولا علينا ، كقوله فى حديث آخر ، اللهم منابت الشجر ، وبطون الأودية ، وظهور الآكام ، فلم يقل ، اللهم ارفعه عنا ـ هو من حسن الأدب فى الدعاء ، لأنها رحمة الله ، ونعمته المطلوبة منه ، فكيف يطلب منه رفع نعمته ، وكشف رحمته ، وإنما يسئل سبحانه كشف البلاء ، والمزيد من النعماء ، ففيه تعليم كيفية الاستسقاء. وقال اللهم منابت الشجر ، ولم يقل ، اصرفها إلى منابت الشجر ، لأن الرب تعالى أعلم بوجه اللطف ، وطريق المصلحة كان ذلك بمطر أو بندى أو طل ، أو كيف شاء ، وكذلك بطون الأودية ، والقدر الذى يحتاج إليه من مائها .

فإن قيل : كيف قال أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ولم يره قط استسقى ، وإنما كانت استسقاءاته عليه السلام بالمدينة فى سفر وحضر ، وفيها شوهد ما كان من سرعة إجابة الله له .

فالجواب : أن أبا طالب قد شاهد من ذلك أيضاً فى حياة عبد المطلب مادله على ماقال ، روى أبو سلمان حمد ابن محمد بن إبراهيم البستى النيسابورى ، أن رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم قالت : تتابعت على قريش سنو جدب قد أقحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينا أنا راقدة اللهم ، أو مهدمة ، ومعى صنوى إذ أنا بهاتف صيت يصرخ

. . . .

يصوت صحل يقول : يامعشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم ، هذا إبان نجومه ، فحى هلا بالحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا طوالا عظاماً أبيض فظاً ، أشم العرنين ، له فخر يكظم عليه . ألا فليخلص هو وولده ، وليدلف إليه من كل بطن رجل ، ألافليشنوا من الماء ، وليمسوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعاً ، ألاوفيهم الطيب ، الطاهر لذاته ، ألا فليدع الرجل ، وليؤمن القوم ، ألا فغثتم أبداً ما عشتم . قالت : فأصبحت مذعورة قد قف جلدى ، ووله عقلى ، فاقتصصت رؤياى ، فوالحرمة والحرم إن بقى أبطحى إلا قال : هذا شيبة الحمد ، وتتامت عنده قريش ، وانفض إليه الناس من كل بطن رجل ، فشنوا ومشوا واستلموا واطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يدفون حوله ، ما إن يدرك سعيهم مهلة ، حتى قروا بذروة الجبل ، واستكفوا جنابيه ، فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابن ابنه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذ غلام قد أيفع ، أو قد كرب ، ثم قال : اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكرب أنت عالم غيرمعلم ، ومسئول غير مبخل، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم ، فاسمعن اللهم ، وأمطرن علينا غيثاً مريعاً مغدقاً ، فما راموا ـ والبيت ـ حتى انفجرت السماء بثلها ، وكظ الوادى بثجيجه . رواه أبو سليمان عن ابن الأعرابى . قال : حدثنا محمد بن على بن البحترى ، حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن ابن حويصة ، قال يحدث مخرمة بن نفيل عن أمه رقيقة بنت أبى صيفى وذكر الحديث. ورواه بإسناد آخر إلى رقيقة ، وفيه : ألا فانظروا منكم رجلا وسيطاً عظاماً جساماً أوطف الأهداب ، وأن عبد المطلب قام ومعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أيفع أو كرب ، وذكر القصة .

وذكر ابن هشام كل من سماه أبو طالب فى قصيدته ، أو أشار إليه ، وعرف بهم تعريفاً مستغنياً عن المزيد .

ابن الأسلت : وذكر قصيدة أبى قيس صيفى بن الأسلت،واسم الأسلت: عامر ، والأسلت : هو الشديد الفطس يقال : سلت الله أنفه ، ومن السلت حديث بشر بن عاصم حين أراد عمر أن يستعمله ، فلما كتب له عهده أبى أن يقبله ، وقال : لاحاجة لى به . إنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الولاة يجاء بهم يوم القيامة، فيقفون على جسر جهنم ، فمن كان مطاوعاً لله تناوله بيمينه حتى ينجيه ، ومن كان عاصياً لله انخرق به الجسر إلى واد من نار تلتهب التهاباً ، قال : فأرسل عمر إلى أبى ذر ، وإلى سلمان ، فقال لأبى ذر : أنت سمعت هذا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : نعم والله ، وبعد الوادى واد آخر من نار . قال : وسأل سلمان ، فكره أن يخبره بشىء ، فقال عمر : من يأخذها بما فيها ؟ فقال أبو ذر . من سلت الله أنفه وعينيه ، وأضرع خده إلى الأرض. ذكره ابن أبى شيبة .

قصيدته : وأول القصيدة : ياراكبا إما عرضت فبلغن . البيت . المغلغلة : الداخلة إلى أقصى ما يراد بلوغه منها ، ومنه تغلغل فى البلاد : إذا بالغ فى الدخول فيها ، وأصله : تغلل ومغللة ، ولكن قلبوا إحدى اللامين غيناً،

. . . .

كما فعلوا فى كثير من المضاعف ، وأصله من الغلل والغلالة ، فأما الغلل فماء يستره النبات والشجر ، وأما الغلالة فساترة لما تحتها .

وفيها نبيتكم شرجين . أى : فريقين مختلفين ، ونبثتكم لفظ مشكل ، وفى حاشية الشيخ : نبيتكم شرجين ، وهو بين فى المعنى ، وفيه زحاف خرم ، ولكن لايعاب المعنى بذلك ، وأما لفظ التبيت فى هذا البيت ، فبعيد من معناه ، والأزمل : الصوت ، والمذكى : الذى يوقد النار ، والحاطب : الذى يحطب لها ، ضرب هذا مثلا لنار الحرب ، كما قال الآخر :

أرى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النـــار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام

وقوله : هى الغول للأدنى ، أى : هى الهلاك ، يقال : الغضب . غول الحلم ؛ أى يهلكه ، والغول بفتح الغين . وجع البطن ، قاله البخارى فى تفسير قوله ، « لا فيها غول » . وقوله : وإحلال الظباء الشوازب أى ، إن بلد كم بلد حرام تأمن فيه الظباء الشوازب التى تأتيه من بعد ، لتأمن فيه فهى شازبة أى ، ضامرة من بعد المسافة ، وإذا لم تحلوا بالظباء فيه فأحرى ألا تحلوا بدمائكم ، وإحرام الظباء ، كونها فى الحرم ، يقال لمن دخل فى الشهر الحرام ، أو فى البلد الحرام ، محرم . والأتحمية . ثياب رقاق تصنع باليمن ، والشليل . درع قصيرة ، والأصداء . جمع صدأ الحديد ، والقتير . حلق الدرع شبهها بعيون الجراد ، وأخذ هذا المعنى التنوخى فقال :

كأثواب الأراقم مزقتها ... فخاطتها بأعينها الجراد

وقوله فى وصف الحرب .

تزين للأقوام ، ثم يرونها ... بعاقبة إذ بينت أم صاحب

هو كقول عمرو بن معدى كرب :

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى ببزتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ... ولت عجوزا غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها ، فتنكرت ... مكروهة للشم والتقبيل

فقوله . أم صاحب ، أى عجوزا كأم صاحب لك ، إذا لايصحب الرجل إلا رجل فى سنه ، وفى جامع البخارى . كانوا إذا وقعت الحرب يأمرون بحفظ هذه الأبيات ، يعنى . أبيات عمرو المتقدمة .

. . . .

وقوله : ألم تعلموا ما كان فى حرب داحس . يذكر معنى داحس إذا ذكره ابن إسحاق بعد هذه القصيدة إن شاء الله تعالى .

وقوله فيها . ولى امرىء فاختار ديناً فإنما . أى : هو ولى امرىء اختار ديناً ، والفاء زائدة على أصل أبى الحسن ، قال فى قولهم : زيدا فاضرب : الفاء معلقة أى : زائدة ، ومن لا يقول بهذا القول يجعل الفاء عاطفة على فعل مضمر ، كأنه قال : ولى امرىء تدين ، فاختار ديناً ، أو نحو هذا ، وقد تقدم شرح باقى القصيدة فى آخر قصة الحبشة .

وقال فيها : كريم المضارب ، وفى حاشية كتاب الشيخ : لعله الضرائب ، يريد : جمع ضريبة ، ولا يبعد أيضاً أن يكون قال : المضارب . يريد أن مضارب سيوفه غير مذمومة ، ولا راجعة عليه إلا بالثناء والحمد والوصف بالمكارم .

وفيها قوله : وماء هريق فى الضلال . ويروى : فى الصلال جمع صلة ، وهى الأرض التى لا تمسك الماء . أى رب ماء هريق فى الضلال من أجل السراب ، لأنه لا يهريق ماء من أجل السراب إلا ضال غير مميز بمواضع الماء ، وأذاعت به ، أى : بددته ، فلم ينتفع به ، وهذا مثل ضربه للنظر فى عواقب الأمور ، ويروى : وما أهريق فى أمر ، ومعناه . والذى أهريق فى أمر الضلال ، فوصل ألف القطع ضرورة ، ويقال : أريق الماء ، وأهريق بالجمع بين الهمزة والهاء ، وهى أغلها ، ولتعليلها موضع غير هذا .

وقوله فيها : بين ساف وحاصب : السافى : الذى يرمى بالتراب ، والحاصب الذى يقذف بالحصباء .

وفيها ذكر الجباجب ، وهى منازل منى . كذا قال ابن إسحاق ، وقال البرقى : هى حفر بمنى ، يجمع فيها دم البدن ، والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها ، وقيل : الجباجب : الكروش . يقال للكرش : جبجبة بفتح الجيم ، والذى تقدم واحده : جبجبة بالضم .

حرب داحس والغبراء : وذكر حديث حرب داحس مختصرا ، وداحس : اسم فرس كان لقيس بن أبى زهير ، ومعنى داحس : مدحوس كما قيل : ماء دافق ، أى : مدفوق ، والدحس : إدخال اليد بقوة فى ضيق ، كما روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مر بغلام يسلخ شاة ، فأمره أن يتنحى ليريه ، ثم دحس عليه السلام بيده بين الجلد واللحم ، حتى بلغ الإبط ثم صلى ، ولم يتوضأ فداحس : سمى بهذا الاسم ، لأن أمه كانت لرجل من بنى تميم ، ثم من بنى يربوع اسمه : قرواش بن عوف ، وكان اسم الفلهس : جلوى ، وكان ذو العقال فرساً عتيقاً لحوط بن جابر ، فخرجت به فتاتان له ، لتسقياه ، فبصر بجلوى ، فأدلى حين رآها ، فضحك غلمة كانوا هناك ، فاستحيت الفتاتان ، ونكستا رأسهما ، فأفلت ذو العقال حتى نزا على جلوى ، وقيل ذلك لحوط فأقبل مغضباً ، وهو يسعى حتى ضرب بيده فى التراب ، ثم دحسها فى رحم الفرس ، فسطاعليها ، فأخرج ماء الفحل منها :

. . . .

واشتملت الرحم على بقية الماء ، وحملت بمهر فسموه : داحساً ، وأظهر ما فيه أن يكون مثل . لابن وتامر ، وأن لايكون فاعلا بمعنى مفعول ، فهوداحس بن ذى العقال بن أعوج الذى تنسب إليه الخيل الأعوجية فى قول بعضهم، وقد تقدم غير هذا القول — ابن سبل ، وكان لغنى بن يعصر ، وفيه يقال :

إن الجواد بن الجواد بن سبل   إن ديموا جاد وإن جاد وبل

وفى ذى العقال يقول جرير :

تمسى جياد الخيل حول بيوتنا   من آل أعوج : أو لذى العقال

وأنشد :

أفبعد مقتل مالك بن زهير   ترجو النساء عواقب الأطهار

وفيه إقواء : وهو حذف نصف سبب من القسم الأول ، وقد تكلمنا على معنى الإقواء قبل ، وأما اختلاف القوافى فيسمى : اكتفاء ، وإقواء أيضاً لأنه من الكف ، فكأنه جعل الرفع كفئاً للخفض ، فسوى بينهما .

وفيها قوله :

ترجو النساء عواقب الأطهار

كقول الأخطل :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت بأطهار

فيقال : إن حرب داحس دامت أربعين سنة ، لم تحمل فيها أنثى ، لأنهم كانوا لا يقربون النساء ماداموا محاربين ، وذكر الأصبهانى أن حرب داحس كانت بعد يوم جبلة بأربعين سنة ، وقد تقدم يوم جبلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد فى تلك الأيام وقال لبيد :

وغنيت حرساً قبل مجرى داحس   لو كان للنفس اللجوج خلود

وكان لبيد فى حرب جبلة ابن عشر سنين ، وقوله ، حرساً أى ، وقتاً من الدهر ، ويروى سبتاً والمعنى واحد وكان إجراء داحس والغبراء على ذات الإصاد ـ موضع فى بلاد فزارة ـ وكان آخر أيام حرب داحس بقلهى من أرض قيس ، وهناك اصطلحت عبس ومنولة ، وهى أم بنى فزارة ، شمخ وعدى ومازن ، فيقال لهذا الموضع:

ذكر مالقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه

سفهاء قريش يأذونه : قال ابن إسحاق : ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم، سفهاءهم ،فكذبوه، وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لايستخفى به، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

أشد ما أوذى به الرسول : قال ابن إسحاق : فحدثنى يحى بن عروة بن الزبير ، عن أبيه عروة بن الزبير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال ، قلت له ، ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟قال ، حضرتهم ، وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا : فبينا هم فى ذلك إذ طلع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ؟ ! أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح . قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا . قال فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به ، يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ؟! فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذى أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه .

قلهى ، وأما قلهى فموضع بالحجاز ، وفيه اعتزل سعد بن أبى وقاص حين قتل عثمان ، وأمر ألا يحدث بشىء من أخبار الناس ، وألا يسمع منها شيئاً ، حتى يصطلحوا ، ويقال ، إن الحنفاء كانت فرس حذيفة ، وأنها أجريت مع الغبراء ذلك اليوم . قال الشاعر :

إذا كان غير الله للمرء عدة ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

فقد جرت الحنفاء حتف حذيفة ... وكان يراها عدة للشدائد

وأما حرب حاطب الذى ذكره ، فهى حرب كانت على يد حاطب بن الحارث بن قيس بن هيشة بن الأوس ، فنسبت إليه وكانت بين الأوس والخزرج .

قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه ، وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ! ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض آل أم كلثوم ابنة أبى بكر ، أنها قالت : رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ، مما جبذوه بلحيته وكان رجلا كثير الشعر .

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم : أن أشد ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » .

إسلام حمزة رضى الله عنه

سبب إسلامه : قال ابن إسحاق : حدثنى رجل من أسلم ، كان واعية : أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فى مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله ، حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف ، وسلم ، وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالسا ، فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ، فأنا على دينه أقول ما يقول ؟ ! فرد ذلك على إن استطعت. فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة . لينصروا أبا جهل . فقال أبو جهل : دعوا أباعمارة . فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ماتابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى المسجد وحده ، يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأ كلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأو أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه ، فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستمع منه ، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال فاسمع منى ، قال : أفعل ، فقال « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه » . ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

رأى عتبة : فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

قريش تفتن المسلمين : قال ابن إسحاق : ثم إن الإســـلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال

والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتمتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة ـ كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير ، وعن عكرمة مولى ابن عباس ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

زعماء قريش تفاوض الرسول (ص) : اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، أخو بنى عبد الدار ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبوجهل بن هشام ـ لعنه الله ـ وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، أو من اجتمع منهم . قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم ، فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سريعا ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك ، لنكلمك ، وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مابى ماتقولون ، ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ماجئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ، أو كما قال ـ صلى الله عليه وسلم .

قالوا يا محمد ، فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم : قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك ، وصنعت ماسألناك ، صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا ـ كما تقول ـ فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت

إليكم، فإن تقبلوه ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله به بينى وبينكم .

قالوا : إذا لم تفعل هذا لنا ، فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك وسله، فليجعل لك جنانا وقصوراً وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى،فانك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا،ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئتكم به . فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا . فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك لوشاء فعل ، فانا لانؤمن لك إلا أن تفعل ، قال فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ماجئتنا به ! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك ، أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم ـ وهو ابن عمته فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له : محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ، ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب ، فلم تفعل ـ أو كما قال له ـ فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهله حزيناً آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .

. . . .

أبو جهل يتوعد الرسول (ص) : فلما قام عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أبو جهل ، يامعشر قريش ، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ،وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله - أو كما قال - فاذا سجد فى صلاته ، فضخت به رأسه ، فاسلمونى عند ذلك ، أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لانسلمك لشىء أبدا فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينتظره ، وغدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى وقد غدت قريش ، فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل . فلما سجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره . حتى قذف الحجر من يده . وقامت إليه رجال قريش. فقالوا له :مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله مارأيت مثل هامته ، ولامثل قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط . فهم بى أن يأكلنى .

قال بن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه .

النضر بن الحارث ينصح قريشا : فلما قال لهم ذلك أبو جهل . قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى .

قال ابن هشام : ويقال : النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف .

قال ابن إسحاق : فقال : يامعشر قريش . إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم . وأصدقكم حديثا . وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به . قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لاوالله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة ، وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون ، لاوالله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولاتخليطه ، يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

. . . .

ما كان من أذى النضر للرسول (ص) : وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلساً فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش ، أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول ، بماذا محمد أحسن حديثاً منى ؟

قال ابن هشام : وهو الذى قال فيما بلغنى ، سأنزل مثل ما أنزل الله .

قال ابن إسحاق : وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول ـ فيما بلغنى : نزل فيه ثمان آيات من القرآن ، قول الله عز وجل : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » . وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن .

قريش ترسل رسولين إلى المدينة ليسألا أحبار اليهود فى شأن محمد : فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره . وأخبراهم ببعض قوله . وقالا لهم : إنكم أهل التوراة . وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار يهود ، سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل . وإن لم يفعل فالرجل متقول . فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبى . وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى حتى قدما مكة على قريش . فقالا : يا معشر ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقول . فروا فيه رأيكم .

قريش تسأل أسئلة والرسول يجيب : فجاءوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح ما هى فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبركم بما سألتهم عنه غداً ، ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه فى

ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة . قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكث الوحى عنه . وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

الرد على قريش فيما سألوه : قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل حين جاءه : لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا ، فقال له جبريل : « وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا » فافتتح السورة ـ تبارك وتعالى ـ بحمده وذكر نبوة رسوله ، لما أنكروه عليه من ذلك ، فقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم إنك رسول منى : أى تحقيق لما سألوه عنه من نبوتك ، « ولم يجعل له عوجا قيما » أى : معتدلا ، لا اختلاف فيه « لينذر بأسا شديداً من لدنه » :أى عاجل عقوبته فى الدنيا ، وعذابا أليما فى الآخرة من عند ربك الذى بعثك رسولا . « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » : أى دار الخلد لا يموتون فيها الذين صدقوك به مما كذبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولدا » يعنى ، قريشا فى قولهم ، إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله « مالهم به من علم ولا لآبائهم » . الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم . « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » أى : لقولهم . إن الملائكة بنات الله . « إن يقولون إلا كذبا ، فلعلك باخع نفسك » يامحمد « على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » أى . لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم ، أى : لا تفعل .

قال ابن هشام : باخع نفسك ، أى : مهلك نفسك ، فيما حدثنى أبو عبيدة قال ذو الرمة :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ... لشىء نحته عن يديه المقادر

وجمعه : باخعون . وهذا البيت فى قصيدة له . وتقول العرب ، قد بخعت له نصحى ونفسى ، أى جهدت له ـ « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » ـ

قال ابن إسحاق : أى ، أيهم أتبع لأمرى ، وأعمل بطاعتى . « وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا » أى : الأرض ، وإن ما عليها لفان وزائل ، وإن المرجع إلى ، فأجزى كلا بعمله ، فلا تأس ، ولايحزنك ما تسمع وترى فيها .

قال ابن هشام : الصعيد : الأرض ، وجمعه : صعد . قال ذو الرمة يصف ظبيا صغيرا .

كأنه بالضحى ترمى الصعيد به ... دبابة فى عظام الرأس خرطوم

وهذا البيت فى قصيدة له . والصعيد أيضاً : الطريق . وقد جاء فى الحديث : « إياكم والقعود على الصعدات » يريد الطرق . والجرز : الأرض التى لا تنبت شيئا ، وجمعها : أجراز . ويقال : سنة جرز ، وسنون أجراز ، وهى التى لا يكون فيها مطر ، وتكون فيها جدوبة ويبس وشدة . قال ذو الرمة يصف إبلا :

طوى النحز والأجراز ما فى بطونها فما بقيت إلا الضلوع الجراشع

وهذا البيت فى قصيدة له :

أهل الكهف : قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية ، فقال : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » أى : قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك .

قال ابن هشام : والرقيم : الكتاب الذى رقم فيه بخبرهم ، وجمعه : رقم . قال العجاج :

ومستقر المصحف المرقم

وهذا البيت فى أرجوزة له .

قال ابن إسحاق : ثم قال تعالى : « إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذنهم فى الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم : لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » . ثم قال تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » : أى : بصدق الخبر عنهم : « إنهم فتية آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ، فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذا شططا » : أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم .

قال ابن هشام : والشطط : الغلو ومجاوزة الحق . قال أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

لا ينتهون ، ولا ينهى ذوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وهذا البيت فى قصيدة له .

« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » .

قال ابن إسحاق : أى بحجة بالغة .

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم ، وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ، ينشر لكم

ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقا . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه » .

قال ابن هشام : تزاور : تميل ، وهو من الزور : وقال امرؤ القيس بن حجر :

وإنى زعيم إن رجعت مملكا ... بسير ترى منه القرانق أزورا

وهذا البيت فى قصيدة له . وقال أبو الزحف الكليبى يصف بلداً :

جاب المندى عن هوانا أزور ... ينضى المطايا خمسه العشنزر

وهذان البيتان فى أرجوزة له . و « تقرضهم ذات الشمال » : تجاوزهم وتتركهم عن شمالها . قال ذو الرمة :

إلى ظعن يقرضن أفواز مشرف ... شمـــالا وعن أيمانهن الفوارس

وهذا البيت فى قصيدة له . والفجوة : السعة ، وجمعها : الفجاء قال الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة ... حتى أبيحوا ، وخلوا فجوة الدار

« ذلك من آيات الله » أى فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ، ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم فى صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم . « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين ، وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

قال ابن هشام : الوصيد : الباب . قال العبسى ، واسمه : عبيد بن وهب :

بأرض فلاة لا يسد وصيدها ... على ، ومعروفى بها غير منكر

وهذا البيت فى أبيات له . والوصيد أيضاً : الفناء ، وجمعه : وصائد ، ووصد ، ووصدان ، وأصد ، وأصدان .

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعبا » ... إلى قوله : « قال الذين غلبوا على أمرهم » أهل السلطان والملك منهم : « لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون » يعنى : أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم : « ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب » أى لاعلم لهم « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ،فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا،أى : لاتكابرهم . «ولا تستفت فيهم منهم أحداً،فإنهم

. . . .

لاعلم لهم بهم . « ولاتقولن لشىء : إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » أى : ولاتقولن لشىء سألوك عنه كما قلت فى هذا : إنى مخبركم غداً: واستثن مشيئة الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل : عسى أن يهدين ربى لخير مما سألتمونى عنه رشداً ،فإنكلاتدرى ما أنا صانع فى ذلك . « ولبثوا فى كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » : أى : سيقولون ذلك . « قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحداً » أى : لم يخف عليه شىء مما سألوك عنه .

ذو القرنين : وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطواف : « ويسئلونك عن ذى القرنين قل : سأتلوعليكم منه ذكراً . إنا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا » حتى انتهى إلى آخر قصة خبره .

وكان من خبر ذى القرنين أنه أوتى ما لم يؤت أحد غيره فمدت له الأسباب ، حتى انتهى من البلادإلى مشارق الأرض ومغاربها ، لايطأ أرضا إلا سلط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شىء من الخلق .

قال ابن إسحاق : حدثنى من يسوق الأحاديث عن الأعاجم ، فيما توارثوا من علمه : أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر ، واسمه : مرزبان بن مرذبة اليونانى ، من ولد يونان بن يافث بن نوح .

قال ابن هشام : واسمه : الإسكندر ، وهو الذى بنى الإسكندرية ، فنسبت إليه .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلاعى وكان رجلا قد أدرك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن ذى القرنين ، فقال : ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب .

وقال خالد : سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول : يا ذا القرنين ، فقال عمر : اللهم غفراً، أما رضيتم أن تسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة ؟ !

قال ابن إسحاق : والله أعلم أى ذلك كان ، أقال ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، أم لا ؟ فإن كان قاله، فالحق ما قال .

أمر الروح : وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح : « ويسألونك عن الروح ، قل :الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » الإسراء : ٨٥ .

ما أوتيتم من العلم إلا قليلا : قال ابن إسحاق : وحدثت عن ابن عباس ، أنه قال : لماقدم رسولالله ـ صلى

الله عليه وسلم - المدينة ، قالت أحبار يهود : يا محمد ، أرأيت قولك : « وما أوتيتم من العـــلم إلا قليلا » إيانا تريد ، أم قومك ؟ قال : كلا ، قالوا فإنك تتلو فيما جاءك : أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : إنها فى علم الله قليل ، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه . قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » : أى إن التوراة فى هذا من علم الله قليل .

تسيير الجبال وبعث الموتى ، قال : وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وبعث من مضى من آبائهم من الموتى : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً» أى : لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

خذ لنفسك : وأنزل عليه فى قولهم : خذ لنفسك ، ما سألوه أن يأخذ لنفسه ، أن يجعل له جناناً وقصورا وكنوزا ، ويبعث معه ملكا يصدقه بما يقول ، ويرد عنه : « وقالوا ، ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر : كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك » : أى من أن تمشى فى الأسواق وتلتمس المعاش « جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا » .

وأنزل عليه فى ذلك من قولهم : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون وكان ربك بصيراً» أى جعلت بعضكم لبعض بلاء ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفوا لفعلت .

القرآن يرد على ابن أبى أمية : وأنزل الله عليه فيما قال عبد الله بن أبى أمية : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء . ولن نؤمن لرقيك ، حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا » .

قال ابن هشام : الينبوع ما نبع من الماء من الأرض وغيرها . وجمعه ينابيع . قال ابن هرمة ، واسمه : إبراهيم بن عبد الله الفهرى :

وإذا هرقت بكل دار عبرة نزف الشئون ، ودمعك الينبوع

وهذا البيت فى قصيدة له . والكسف القطع من العذاب . وواحدته : كسفة . مثل سدرة وسدر . وهى أيضاً

واحدة الكسف والقبيل : يكون مقابلة ومعاينة . وهو كقوله تعالى : « أو يأتيهم العذاب قبلا » : أى : عيانا .
وأنشدنى أبو عبيدة لأعشى بنى قيس بن ثعلبة :

أصالحكم ، حتى تبوءوا بمثلها　　　كصرخة حبلى يسرتها قبيلها

يعنى : القابلة ، لأنها تقابلها ، وتقبل ولدها . وهذا البيت فى قصيدة له . ويقال القبيل : جمعه قبل ، وهى الجماعات ، وفى كتاب الله تعالى : « وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » . فقبل : جمع قبيل ، مثل سبل : جمع سبيل ، وسرر : جمع سرير ، وقمص : جمع قميص . والقبيل أيضاً : فى مثل من الأمثال وهو قولهم : ما يعرف قبيلا من دبير : أى لا تعرف ما أقبل مما أدبر ، قال الكميت بن زيد :

تفرقت الأمور بوجهتيهم　　　فما عرفوا الدبير من القبيل

وهذا البيت فى قصيدة له ، ويقال : إنما أريد بهذا : الفتل ، فما فتل إلى الذراع فهو القبيل ، وما فتل إلى أطراف الأصابع فهو الدبير ، وهو من الإقبال والإدبار الذى ذكرت . ويقال : فتل المغزل . فإذا فتل إلى الركبة فهو القبيل ، وإذا فتل إلى الورك فهو الدبير . والقبيل أيضا : قوم الرجل . والزخرف : الذهب . والمزخرف : المزين بالذهب . قال العجاج :

من طلل أمسى تخال المصحفا　　　رسومه والمذهب المزخرفا

وهذان البيتان فى أرجوزة له ، ويقال أيضاً لكل مزين : مزخرف .

القرآن ينفى أن رجلا من اليمامة يعلمه : قال ابن إسحاق : وأنزل عليه فى قولهم : إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة . يقال له : الرحمن . ولن نؤمن به أبدا : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربى . لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » .

مانزل فى أبى جهل : وأنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام ـ لعنه الله ـ وماهم به : « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانيـــة ، كلا لاتطعه واسجد واقترب »

قال ابن هشام : لنسفعاً : لنجذبن ، ولنأخذن . قال الشاعر :

قوم إذا سمعوا الصراخ رأيتهم　　　من بين ملجم مهره أو سافع

. . . .

والنادى : المجلس الذى يجتمع فيه القوم ، ويقصون فيه أمورهم ، وفى كتاب الله تعالى : « وتأتون فى ناديكم المنكر » وهو الندى . قال عبيد بن الأبرص :

اذهب إليك فإنى من بنى أسد ... أهل الندى ، وأهل الجرد والنادى

وفى كتاب الله تعالى : « وأحسن نديا » وجمعه : أندية . يقول : فليدع أهل نادية . كما قال تعالى : « واسأل القرية » يريد أهل القرية . قال سلامة بن جندل ، أحد بنى سعد بن زيد مناة بن تميم :

يومان : يوم مقامات ، وأندية ... ويوم سير إلى الأعداء تأويب

وهذا البيت فى قصيدة له . وقال الكميت بن زيد :

لا مهازير فى الندى مكاثير ... ولا مصمتين بالإفحام

وهذا البيت فى قصيدة له . ويقال : النادى : الجلساء . والزبانية : الغلاظ الشداد ، وهم فى هذا الموضع : خزنة النار . والزبانية أيضاً فى الدنيا : أعوان الرجل الذين يخدمونه ويعينونه ، والواحد : زبنية ، قال ابن الزبعرى فى ذلك :

مطاعيم فى المقرى ، مطاعين فى الوغى ... زبانية غلب ، عظام حلومها

يقول : شداد . وهذا البيت فى أبيات له . وقال صخر بن عبد الله الهذلى ، وهو صخر الغى :

ومن كبير نفر زبانية

وهذا البيت فى أبيات له .

ما ذكره القرآن فى شأن ماعرضوه عليه من الأموال : قال ابن إسحاق : وأنزل الله تعالى عليه فيما عرضوا عليه من أموالهم : « قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد » .

قريش تمتنع من الايمان حسداً : فلما جاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بماعرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم

وبين اتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، أي : اجعلوه لغوا وباطلا ، واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم .

استهزاء أبي جهل بالرسول : فقال أبو جهل يوما . وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يامعشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ، ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا ، وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » . إلى آخر القصة ، فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا إذا جهر رسول الله . صلى الله عليه وسلم - بالقرآن وهو يصلي ، يتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن ، وهو يصلي ، استرق السمع دونهم فرقا منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم ، فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صوته ، فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته ، وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه .

ولا تجهر بصلاتك : قال ابن إسحاق : حدثني داود بن الحصين ، مولى عمرو بن عثمان ، أن عكرمة مولى ابن عباس حدثهم أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حدثهم : إنما أنزلت هذه الآية : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » من أجل أولئك النفر . يقول : لاتجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ولاتخافت بها ، فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوي إلى بعض مايسمع ، فينتفع بها .

ابن مسعود يجهر بالقرآن وما أصابه من قومه : قال ابن اسحاق : وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، قال : كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني فإن الله سيمنعني . قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » رافعاً بها صوته « الرحمن علم القرآن » قال : ثم استقبلها يقرؤها . قال : فتأملوه فجعلوا يقولون . ماذا قال ابن أم عبد ؟ قال : ثم قالوا : ليتلو بعض ماجاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً ، قالوا : لا ، قد أسمعتهم مايكرهون .

. . . .

مالقى رسول الله (ص) من قومه

فصل : فيما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه ، ذكر ابن إسحاق والواقدى والتيمى ، وابن عقبة وغيرهم فى هذا الباب أموراً كثيرة تتقارب ألفاظها ومعانيها ، وبعضهم يزيد على بعض ، فمنها حثو سفهائهم التراب على رأسه ، ومنها أنهم كانوا ينضدون الفرث والأخثاث والدماء على بابه ، ويطرحون رحم الشاة فى برمته ، ومنها : بصق أمية بن خلف فى وجهه ، ومنها : وطء عقبة بن أبى معيط على رقبته ، وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ، ومنها أخذهم بمخنقه حين اجتمعوا له عند الحجر ، وقد ذكره ابن إسحاق ، وزاد غيره الخبر أنهم خنقوه خنقاً شديداً وقام أبو بكر دونه فجبذوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، وأما السب والهجو والتلقيب وتعذيب أصحابه وأحبائه ، وهو ينظر ، فقد ذكر من ذلك ابن إسحاق فى الكتاب ، وقد قال أبو جهل لسمية أم عمار بن ياسر : ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله ، ثم طعنها بالحربة فى قبلها حتى قتلها والأخبار فى هذا المعنى كثيرة .

سبب تلقيبه بالمدثر : وذكر ابن إسحاق قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « دثرونى دثرونى » فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر » قال بعض أهل العلم : فى تسميته إياه بالمدثر فى هذا المقام ملاطفة وتأنيس ، ومن عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التى هو فيها ، كقوله عليه السلام لحذيفة : قم يا نومان ، وقوله لعلى بن أبى طالب — وقد ترب جنبه : قم أبا تراب فلو ناداه سبحانه ، وهو فى تلك الحال من الكرب باسمه ، أو بالأمر المجرد من هذه الملاطفة لهاله ذلك ، ولكن لما بدىء ، بيأيها المدثر أنس ، وعلم أن ربه راض عنه ، ألا تراه كيف قال عندما لقى من أهل الطائف من شدة البلاء والكرب ما لقى : رب إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى إلى آخر الدعاء ، فكان مطلوبه رضا ربه ، وبه كانت تهون عليه الشدائد .

تلقيبه بالنذير العريان : فإن قيل : كيف ينتظم يأيها المدثر مع قوله : قم فأنذر ، وما الرابط بين المعنيين ، حتى يلتئما فى قانون البلاغة ، ويتشاكلا فى حكم الفصاحة ؟ قلنا : من صفته عليه السلام ما وصف به نفسه حين قال : أنا النذير العريان وهو مثل معروف عند العرب ، يقال لمن أنذر بقرب العدو ، وبالغ فى الإنذار ، هو النذير العريان ، وذلك أن النذير الجاد يجرد ثوبه ، ويشير به إذا خاف أن يسبق العدو صوته ، وقد قيل : إن أصل المثل لرجل من خثعم سلبه العدو ثوبه ، وقطعوا يده ، فانطلق إلى قومه نذيرا على تلك الحال ، فقوله عليه السلام : أنا النذير العريان أى : مثلى مثل ذلك ، والتدثر بالثياب مضاد للتعرى ، فكان فى قوله : (يأيها المدثر) مع قوله : (قم فأنذر) والنذير الجاد يسمى : العريان : تشاكل بين ، والتئام بديع وسمانة فى المعنى ، وجزالة فى اللفظ .

. . . .

تقديم المفعول على فعل الأمر :

وقوله بعد هذا : « وربك فكبر » أى : ربك كبر ، لا غيره ، لا يكبر عليك شىء من أمر الخلق ، وفى تقديم المفعول على فعل الأمر إخلاص ، ومثله قوله : إياك نعبد أى : لا نعبد غيرك ، ولم يقل : نعبدك ونستعينك وفى الحديث : إذا قال العبد : إياك نعبد ، وإياك نستعين ، يقول الله تعالى : أخلص لى عبدى العبادة ، واستعاننى عليها ، فهذه بينى وبين عبدى .

الرئى فى قول عتبة : فصل : وذكر قول عتبة : إن كان هذا رئياً تراه . ولغة بنى تميم : رِئى بكسر الراء ، وكذلك يقولون فى كل فعيل عين الفعل منه همزة ، أو غيرها من حروف الحلق ، يكسرون أوله ، مثل : رحيم وشهيد والرئى : فعيل بمعنى مفعول ، ولا يكون إلا من الجن ، ولا يكون فعيل بمعنى مفعول فى غير الجن . إلا أن يؤثر فيه الفعل نحو : جريح وقتيل وذبيح وطحين ، ولا يقال من الشكر : شكير، ولا ذكرته فهو ذكير، ولا فيمن لطم : لطيم إلا أن تغير منه اللطمة ، كما قالوا : لطيم الشيطان : قال ابن الزبير حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : ألا إن أباذبان قتل لطيم الشيطان : « كذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » وقالوا من الحمد : حميد ، ذهبوا به مذهب كريم ، وكذلك قالوا فى الجن : رئى، وإن كانت الرؤيا لا تؤثر فى المرئى؛ لأنهم ذهبوا به مذهب قرين ونجى .

إسلام حمزة : فصل : وذكر إسلام حمزة ، وأمه : هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وأهيب : عم آمنة بنت وهب تزوجها عبد المطلب ، وتزوج ابنه عبد الله آمنة فى ساعة واحدة ، فولدت هالة لعبد المطلب حمزة وولدت آمنة لعبد الله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم أرضعتهما ثويبة كما تقدم ، وزاد غير ابن اسحاق فى إسلام حمزة أنه قال : لما احتملنى الغضب ، وقلت أنا على قوله ، أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى ، وبت من الشك فى أمر عظيم لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدرى للحق ويذهب عنى الريب فما استتممت دعائى حتى زاح عنى الباطل ، وامتلأ قلبى يقينا ـ أو كما قال ـ فغدوت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته بما كان من أمرى ، فدعا لى بأن يثبتنى الله، وقال حمزة بن عبد المطلب حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا ... تحدر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع ... فلا تغشوه بالقول العنيف

. . . .

فلا والله نسلمه لقوم ... ولما نقض فيهم بالسيوف
ونترك منهم قتلى بقاع ... عليها الطير كالورد العكوف
وقد خبرت ما صنعت ثقيف ... به ، فجزى القبائل من ثقيف
إله الناس شر جزاء قوم ... ولا أسقاهم صوب الخريف

الآيات التى طلبتها قريش : فصل : وذكر ما سأله قومه من الآيات وإزالة الجبال عنهم ، وإنزال الملائكة عليه ، وغير ذلك ، جهلا منهم بحكمة الله تعالى فى امتحانه الخلق ، وتعبدهم بتصديق الرسل ، وأن يكون إيمانهم عن نظر وفكر فى الأدلة ، فيقع الثواب على حسب ذلك ، لو كشف الغطاء ، وحصل لهم العلم الضرورى، بطلت الحكمة التى من أجلها يكون الثواب والعقاب ، إذ لا يؤجر الإنسان على ما ليس من كسبه ، كما لا يؤجر على ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك ، وإنما أعطاهم من الدليل مايقتضى النظر فيه العلم الكسبى، وذلك لايحصل إلا بفعل من أفعال القلب، وهو النظر فى الدليل، وفى وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول، وإلا فقد كان قادرا سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعونه ، ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم ، ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين ، فجعل الأمر يعلم فىالدنيا بنظر واستدلال وتفكر واعتبار، لأنها دار تعبد واختبار، وجعل الأمر يعلم فىالآخرة بمعاينة واضطرار ، لا يستحق به ثواب ولا جزاء ، وإنما يكون الجزاء فيها على ما سبق فى الدار الأولى ، حكمة دبرها ، وقضية أحكمها ، وقد قال الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون » يريد ـ فيما قال أهل التأويل ـ إن التكذيب بالآيات نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم وإنزال الملائكة يوجب فى حكم الله ، ألا يلبث الكافرين بها ، وأن يعاجلهم بالنقمة، كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أعطيت قريش ماسألوه من الآيات ، وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يلبثوا ، ولكن الله أكرم محمدا فى الأمة التى أرسله إليهم ، إذ قد سبق فى علمه أن يكذب به من يكذب ، ويصدق به من يصدق ، وابتعثه رحمة للعالمين بر وفاجر ، أما البر فرحمته إياهم فى الدنيا والآخرة ، وأما الفاجر ، فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء . كذلك قال بعض أهل التفسير فى قوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » مع أنهم لم يسئلوا ما سألوا من الآيات الا تعنتا واستهزاء ، لا على جهة الاسترشاد ، ودفع الشك ، فقد كانوا رأوا من دلائل النبوة ما فيه شفاء لمن أنصف ، قال الله سبحانه : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » وفى هذا المعنى قيل :

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بداهته تنبيك بالخبر

وقد ذكر ابن اسحاق فى غير هذه الرواية أنهم سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو الله لهم ، فنزل جبريل ، فقال لهم : ماشئتم إن شئتم فعلت ما سألتم ، ثم لانلبثكم إن كذبتم بعد معاينة الآية ، فقالوا : لاحاجة لنا بها .

. . . .

عبد الله بن أبى أمية : فصل : وذكر قول عبد الله بن أبى أمية له ، واسم أبى أمية : حذيفة . والله لا أومن بك حتى تتخذ سلماً إلى آخر الكلام ، وقد أسلم عبد الله بن أبى أمية قبل فتح مكة ، وسيأتى ذكر إسلامه .

أبو جهل وإلقاء الحجر : وذكر خبر أبى جهل ، وماهم به من إلقاء الحجر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد . وقد رواه النسوى بإسناد إلى أبى هريرة قال : قال أبو جهل ، وذكر الحديث إلى قوله : فنكص أبو جهل على عقبيه ، فقالوا : مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه لخندقاً من نار ، وهولا وأجنحة ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لودنا لاختطفته الملائكة عضوا عضوا ، وخرجه أيضاً مسلم وذكر النسوى أيضاً بإسناده إلى ابن عباس أن أبا جهل قال له : ألم أنهك ؟ فوالله ما بمكة ناد أعز من نادى ، فأنزل الله تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبداً » إلى قوله : « فليدع ناديه ، سندع الزبانية » .

تفسير أرأيت ولنسفعاً : قال محمد بن يزيد : فى الكلام حذف ، تقديره : أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ، أمصيب هو أو مخطىء ؟ وكذلك فى قوله : « أرأيت إن كان على الهدى » كأنه قال : أليس من ينهاه بضال ؟ وقوله « لنسفعاً بالناصية » أى لنأخذن بها إلى النار ، وقيل معنى السفع هنا : إذلاله وقهره ، والنادى والندى والمنتدى بمعنى واحد ، وهو : مجلس القوم الذين يتنادون إليه ، وقال أهل التفسير فيه أقوالا متقاربة ، قال بعضهم : فليدع حيه ، وقال بعضهم : عشيرته ، وقال بعضهم : مجلسه ، وفى أرأيت معنى : أخبرنى ، ولذلك قال سيبويه : لم يجز إلغاؤها ، كما تلغى : علمت ، إذا قلت : علمت أزيد عندك أم عمرو ، ولا يجوز هذا فى : أرأيت ، ولابد من النصب إذا قلت : أرأيت زيداً ، أبو من هو ؟ قال سيبويه : لأن دخول معنى أخبرنى فيها لا يجعلها بمنزلة : أخبرنى فى جميع أحوالها ، قال المؤلف : وظاهر القرآن يقضى بخلاف ماقال سيبويه إلا بعد البيان ، وذلك أنها فى القرآن ملغاة ، لأن الاستفهام هو مطلوبها ، وعليه وقعت فى قوله : « أرأيت ، إن كذب وتولى ، ألم يعلم » فقوله : ألم يعلم : استفهام ، وعليه وقعت : أرأيت ، وكذلك : أرأيتم ، وأرأيتكم فى الأنعام ، فإن الاستفهام واقع بعدها نحو : « هل يهلك إلا القوم الظالمون » وهذا هو الذى منع سيبويه فى : أرأيت وأرأيتك أبو من أنت ؟ وأما البيان فالذى قاله سيبويه صحيح ، ولكن إذا ولى الاستفهام : أرأيت ، ولم يكن لها مفعول سوى الجملة ، وأما فى هذه المواضع التى فى التنزيل ، فليست الجملة المستفهم عنها هى مفعول : أرأيت ، إنما مفعولها محذوف يدل عليه الشرط ، ولابد من الشرط بعدها فى هذه الصور ؛ لأن المعنى : أرأيتم صنيعكم إن كان كذا وكذا ، كما يقول القائل : أرأيت إن لقيت العدو أتقاتله أم لا ؟ تقدير الكلام . أرأيت رأيك أو صنيعك إن لقيت العدو فحرف الشرط ، وهو : إن ، دال على ذلك المحذوف ، ومرتبط به ، والجملة المستفهم عنها كلام مستأنف منقطع ، إلا أن فيه زيادة بيان لما يستفهم عنه ، ولوزال الشرط ، ووليها الاستفهام لقبح كما قال سيبويه ، ويحسن فى : علمت ، وهل علمت وهل رأيت ، وإنما قبحه مع أرأيت خاصة ، وهى التى دخلها معنى : أخبرنى ، فتدبره .

. . . .

حديث النضر بن الحارث وبعض أخبار الفرس: فصل : وذكر حديث النضر بن الحارث، وما نزل فيه من قول الله تعالى : (قالوا : أساطير الأولين) واحد الأساطير : أسطورة كأحدوثة وأحاديث، وهو ماسطره الأولون، وقيل : أساطير : جمع أسطار ، وأسطار جمع : سطر بفتح الطاء، وأما سطر بسكون الطاء ، فجمعه : أسطر، وجمع الجمع : أساطر بغير ياء ، وذكر أن النضر بن الحارث كان يحدث قريشا بأحاديث رستم وأسفندياذ ، وما نعلم فى بلاد الفرس من أخبارهم ، وذكر ما أنزل الله فى ذلك من قوله ، وقد قيل فيه نزلت : « ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله » .

وأما أحاديث رستم ، ففى تاريخ الطبرى أن رستم بن ريسان كان يحارب كى يستاسب بن كى لهراسب ، بعد ما قتل أباه لطراسب ابن كى أجو . وكى فى أوائل هذه الأسماء عبارة عن البهاء ، ويقال: عبارة عن إدراك الثأر ، ويقال لهؤلاء الملوك : الكينية من أجل هذا ، وكان رستم الذى يقال له : رستم سيد بنى ريسان من ملوك الترك ، وكان كى يستاسب قد غضب على ابنه ، فسجنه حسداً له على ماظهر من وقائعه فى الترك ، حتى صار الذكر له ، فعندها ظهرت الترك على بلاد فارس ، وسبوا بنتين : ليستاسب ، اسم إحداهما : خمانة ، أو نحو هذا ، فلما رأى يستاسب ألا يدين له بقتالهم أطلق ابنه من السجن ، وهو اسفندياذ ، ورضى عنه وولاه أمر الجيوش ، فنهد إلى رستم ، وكانت بينهما ملاحم يطول ذكرها ، لكنه قتل رستم ، واستباح عساكره ، ودوخ فى بلاد الترك ، واستخرج أختيه من أيديهم ، ثم مات اسفندياذ قبل أبيه ، وكان ملك أبيه نحواً من مائة عام ، ثم عهد إلى بهمن ابن اسفندياذ ، فولاه الأمر بعد موته . وبهمن بلغتهم : الحسن النية ، ودام ملكه نيفا على مائة عام ، وكان له ابنان : ساسان ودارا ، وقد أملينا فى أول الكتاب طرفا من حديث ساسان وبنيه ، وهم الساسانية الذين قام عليهم الإسلام ، ورستم آخر مذكور أيضاً قبل هذا فى أحاديث كى قباذ ، وكان قبل عهد سليمان ، ثم كان رستم وزيراً بعد كى قباذ لابنه كى فاووس، وكانت الجن قد سخرت له . يقال إن سليمان أمرهم بذلك ، فبلغ ملكه من العجائب ما لا يكاد أن يصدقه ذوو العقول لخروجها عن المعتاد لكن محمد بن جرير الطبرى ذكر منها أخباراً عجيبة .

وذكر أنه هم بما هم به نمروذ من الصعود إلى السماء ، فطرحته الريح ، وضعضعت أركانه ، وهدمت بنيانه . ثم ثاب إليه بعض جنوده ، فصار كسائر الملوك يغلب تارة ، ويغلب بخلاف ما كان قبل ذلك ، وسار بجنوده إلى اليمن فنهد إليه عمرو ذو الأذعار ، فهزمه عمرو ، وأخذه أسيرا ، وحبسه فى محبس حتى جاء رستم ، وكان صاحب أمره ، فاستنقذه من عمرو ، إما بطوع ، وإما بإكراه ، ورده إلى بلاد فارس . ولابنه شاوخش مع قراسيات ملك الترك خبر عجيب . وكان رستم هو القيم على شاوخش والكافل له فى صغره ، وكان آخر أمر شاوخش بعد عجائب أن قتله قراسيات ، وقام ابنه كى خسرو يطلب بثأره . فدارت بينه وبين الترك وقائع لم يسمع بمثلها ، وكان الظفر له ، فلما ظفروا رأى أمله فى أعدائه ما ملأ عينه قرة ، وقلبه سروراً زهد فى الدنيا ، وأراد السياحة

. . . .

فى الأرض ، فتعات به أبناء فارس ، وحذرته من شتات الشمل بعده ، وشماتة العدو ، فاستخلف عليهم : كى لهراسب ، بن كى اجو ، بن كى كينة ، بن كى قاورس المتقدم ذكره ، ولا أدرى : هل رستم الذى قتله أسفنديار هو رستم صاحب كى قاووس ، أم غيره ، والظاهر أنه ليس به ، لأن مدة ما بين كى قاووس وكى يستاسب بعيدة جدا ، وأحسبه كما قدمنا أنه كان من الترك ، وهذا كله كان فى مدة الكينية ، وعند اشتغالهم بقتال الترك استعملوا بخت نصر البابلى على العراق ، فكان من أموره مع بنى إسرائيل وإثخانه فيهم ، وهدمه لبيت المقدس وإحراقه للتوراة وقتله لأولاد الأنبياء ، واسترقاقه لنساء ملوكهم ولذراريهم مع عيشه فى بلاد العرب حين جاس خلال ديارهم ، ما هو مشهور فى كتب التفاسير ، ومعلوم عند أصحاب التواريخ .

فهذه جملة مختصرة تشرح لك ما وقع فى كتاب ابن إسحاق من ذكر رستم واسفنديار ، وكانت الكينية مدة عيسى بن مريم ، أولهم فى عهد أفريدون قبل موسى عليه السلام بمئتين من السنين ، وآخرهم فى مدة الإسكندر ابن فليس والإسكندر هو الذى سلب ملكهم وقتل دارا بن دارا ، وهو آخرهم ، ثم كانت الأشغانية مع ملوك الطوائف أربعمائة وثمانين عاماً ، وقيل : أقل من ذلك فى قول الطبرى ، وقول المسعودى : خمسمائة وعشر سنين ، فى خلال أمرهم بعث عيسى بن مريم ، ثم كانت الساسانية نحوا من ثلاثين ملكا حتى قام الإسلام ، ففض خدمتهم وخضد شوكتهم ، وهدم هياكلهم ، وأطفأ نيرانهم التى كانوا يعبدون ، وذلك فى خلافة عمر .

سورة الكهف ترد على استفسارات اليهود: فصل : ذكر ابن إسحاق إرسال قريش النضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط إلى يهود وما رجعوا به من عندهم من الفصل بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، فسألوه عن الأمور الثلاثة التى قالت اليهود : إن أخبركم بها فهو نبى وإلا فهو متقول ، فقال لهم : سأخبركم غدا ، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عنه الوحى فى قول ابن إسحاق خمسة عشر يوماً ، وفى سيرة التيمى وموسى بن عقبة أن الوحى إنما أبطأ عنه ثلاثة أيام ، ثم جاء جبريل بسورة الكهف .

افتتاح الرب سبحانه بحمد نفسه : وذكر افتتاح الرب سبحانه بحمد نفسه ، وذكر نبوة نبيه حمده لنفسه تعالى خبر باطنه الأمر والتعليم لعبده كيف يحمده ، إذ لولا ذلك لاقتضت الحال الوقوف عن تسميته ، والعبارات عن جلاله ، لقصور كل عبارة عما هنالك من الجلال ، وأوصاف الكمال ، ولما كان الحمد واجباً على العبد قدم فى هذه الآية ليقترن فى اللفظ بالحمد الذى هو واجب عليه : وليستشعر العبد وجوب الحمد عليه ، وفى سورة الفرقان قال : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » وبدأ بذكر الفرقان الذى هو الكتاب المبارك . قال الله سبحانه : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » فلما افتتح السورة بتبارك الذى ، بدأ بذكر الفرقان ، وهو الكتاب المبارك ، ثم قال : على عبده ، فانظر إلى تقديم ذكر عبده على الكتاب ، وتقديم ذكر الكتاب عليه فى سورة

الفرقان ، وما فى ذلك من تشاكل اللفظ والتئام الكلام نرى الإعجاز ظاهرا ، والحكمة باهرة ، والبرهان واضحاً .

شرح شعر ذى الرمة : وأنشد لذى الرمة :

كأنه بالضحى ترمى الصعيد به دبابة فى عظام الرأس خرطوم

يصف ولد الظبية : والخرطوم : من أسماء الخمر ، أى كأنه من نشاطه دبت الخمر فى رأسه . وأنشد له أيضاً :

طوى النحز والأجراز البيت . والنحز النخس ، والنحاز داء يأخذ الإبل والنحيزة : الغريزة ، والنحيزة : نسيجة كالحزام : والضلوع الجراشع . وهو جمع جرشع . قال صاحب العين . الجرشع : العظيم الصدر ، فمعناه إذاً فى البيت على هذا : الضلوع من الهزال قد نتأت ، وبرزت كالصدر البارز .

معنى الرقيم : فصل : وذكر الرقيم وفيه سوى ما قاله أقوال . روى عن أنس أنه قال : الرقيم : الكلب ، وعن كعب أنه قال : هو اسم القرية التى خرجوا منها ، وقيل : هو اسم الوادى وقيل : هو صخرة ، ويقال : لوح كتب فيه أسماؤهم ودينهم وقصتهم ، وقال ابن عباس : كل القرآن أعلم إلا الرقيم والغسلين وحناناً والأواه ، وقد ذكرت أسماؤهم على الاختلاف فى بعض ألفاظها وهى : مليخا ، كسلميا ، مرطوش ، ابن أنس ، اريطانس ، أيونس ، شاطيطوش . وقيل فى اسم مدينتهم : أفوس ، واختلف فى بقائهم إلى الآن ، فروى عن ابن عباس أنه أنكر أن يكون بقى شىء منهم ، بل صاروا ترابا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال بعض أصحاب الأخبار غير هذا ، وأن الأرض لم تأكلهم ، ولم تغيرهم ، وأنهم على مقربة من القسطنطينية ، فالله أعلم . روى أنهم سيحجون البيت إذا نزل عيسى بن مريم . ألفيت هذا الخبر فى كتاب البدء لابن أبى خيثمة .

إعراب . لنعلم أى الحزبين أحصى .. الآية : وذكر قول الله تعالى : «لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً» قد أملينا فى إعراب هذه الآية نحــواً من كراسة ، وذكرنا ماوهم فيه الزجاج من إعرابها ، حيث جعل أحصى اسما فى موضع رفع على خبر المبتدأ ، وأمدا : تمييز وهذا لا يصح ، لأن التمييز هو الفاعل فى المعنى ، فإذا قلت : أيهم أعلم أبا ، فالأب هو العالم ، وكذلك إذا قلت أيهم أفره عبدا ، فالعبد هو الفاره ، فيلزم على قوله إذاً أن يكون الأمد فاعلا بالإحصاء ، وهذا محال ، بل هو مفعول ، وأحصى : فعل ماض ، وهو الناصب له ، وذكرنا فى الإملاء أن أيهم ، قد يجوز فيه النصب بما قبله إذا جعلته خبرا ، وذلك على شروط بيناها هنالك لمن أراد الوقوف على حقيقتها ، أى : ومواضعها ، وكشفنا أسرارها .

أحوال أهل الكهف فى نومهم وفائدة قصتهم : وقوله سبحانه : فضربنا على آذانهم » أى : أنمناهم ،

وإنما قيل فى النائم : ضرب على أذنه ؛ لأن النائم ينتبه من جهة السمع ، والضرب هنا مستعار من ضرب القفل على الباب ، وذكر قوله تعالى : « تزاور عن كهفهم ذات اليمين » الآية . وقيل فى تقرضهم : تحاذيهم وقيل : تتجاوزهم شيئاً شيئاً من القرض ، وهو القطع ، أى : تقطع ما هنالك من الأرض ، وهذا كله شرح اللفظ ، وأما فائدة المعنى ، فإنه بين أنهم فى مقنوة من الأرض ، لا تدخل عليهم الشمس ، فتحرقهم ، وتبلى ثيابهم، ويقلبون ذات اليمين وذات الشمال . لئلا تأكلهم الأرض ، والفائدة العظمى فى هذه الصفة بيان كيفية حالهم فى الكهف ، وحال كلبهم ، وأين هو من الكهف ، وأنه بالوصيد منه ، وأن باب الكهف إلى جهة الشمال للحكمة التى تقدمت ، وان هذا البيان لا يكاد يعرفه من رآهم ، فإن المطلع عليهم يملأ منهم رعبا ، فلا يمكنه تأمل هذه الدقائق من حالهم، والنبى عليه السلام لم يرهم قط ، ولا سمع بهم ، ولا قرأ كتاباً فيه صفتهم ؛ لأنه أمى فى أمة امية ، وقد جاء كم ببيان لا يأتى به من وصل إليهم حتى إن كلبهم قد ذكر ، وذكر موضعه وبسطه ذراعيه بالوصيد، وهم فى الفجوة، وفى هذا كله برهان عظيم على نبوته ، ودليل واضح على صدقه ، وانه غير متقول، كما زعموا ، فقف بقلبك على مضمون هذه الأوصاف ، والمراد بها تعصم إن شاء الله مما وقعت فيه الملحدة من الاستخفاف بهذه الآية من كتاب الله ، وقولهم : أى فائدة فى أن تكون الشمس تزاور عن كهفهم ، وهكذا هو كل بيت يكون فى مقنوة ، أى : بابه لجهة الشمال ، فنبه أهل المعانى على الفائدة الأولى المنبئة عن لطف الله بهم ، حيث جعلهم فى مقنوة تزاور عنهم الشمس فلا تؤذيهم ، فيقال : لمن اقتصر من أهل التأويل على هذا : فما فى ذكر الكلب وبسط ذراعيه من الفائدة ، وما فيه من معنى اللطف بهم ؟ فالجواب : ما قدمناه من ان الله سبحانه لم يترك من بيان حالهم شيئاً ، حتى ذكر حال كلبهم مع أن تأملهم متعذر على من اطلع عليهم من اجل الرعب ، فكيف من لم يرهم ، ولا سمع بهم ، لولا الوحى الذى جاءه من الله سبحانه بالبيان الواضح الشافى ، والبرهان الكافى ، والرعب الذى كان يلحق المطلع عليهم قيل : كان مما طالت شعورهم واظفارهم . ومن الآيات فى هذه القصة قوله سبحانه : « فى فجوة منه » أى : فى فضاء ، ومع انهم فى فضاء منه ، فلا تصيبهم الشمس . قال ابن سلام : فهذه آية . قال : وكانوا يقلبون فى السنة مرتين، ومن فوائد الآية: انه اخرج الكلب عن التقليب، فقال : باسط ذراعيه ، ومع انه كان لا يقلب لم تأكله الأرض : لأن التقليب كان من فعل الملائكة بهم ، والملائكة اولياء المؤمنين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، والكلب خارج من هذه الآية . ألا تراه كيف قال : بالوصيد ، اى : بفناء الغار لا داخلا معهم ؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب فهذه فوائد جمة قد اشتمل عليها هذا الكلام . قال ابن سلام : وإنما كانوا يقلبون فى الرقدة الأولى قبل أن يبعثوا .

أهل الكهف : فصل : وذكر قول الله سبحانه : « قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً »

وقال : يعنى أصحاب السلطان ، فاستدل بعض أهل العلم على أنهم كانوا مسلمين بقوله : لنتخذن عليهم مسجدا .
وذكر الطبرى أن أهل تلك المدينة تنـــازعوا قبل مبعثهم فى الأجساد والأرواح : كيف تـكون إعادتها يوم القيامة ، فقال قوم : تعاد الأجساد كما كانت بأرواحها ، كما يقوله أهل الإسلام ، وخالفهم آخرون ، وقالوا : تبعث الأرواح دون الأجساد ، كما يقوله النصارى ، وشرى بينهم الشر ، واشتد الخلاف ، واشتد على ملـكهم مانزل بقومه من ذلك ، فلبس المسوح ، وافترش الرماد ، واقبل على البكاء والتضرع إلى الله أن يريه الفصل فيما اختلفوا فيه ، فأحيا الله أصحاب الـكهف عند ذلك ، فكان من حديثهم ماعرف وشهر ، فقال الملك لقومه : هذه آية أظهرها الله لـكم لتتفقوا ، وتعلموا أن الله عزوجل كما أحيا هؤلاء ، وأعاد أرواحهم إلى أجسادهم ، فكذلك يعيد الخلق يوم القيامة كما بدأهم ، فرجع الكل إلى ماقاله الملك ، وعلموا أنه الحق .

واو الثمانية : وذكر قول الله سبحانه (ويقولون : سبعة وثامنهم كلبهم) قد أفردنا للـكلام على هذه الواو التى يسميها بعض الناس : واو الثمانية بابا طويلا ، والذى يليق بهـذا الموضع أن هـذا الواو تدل على تصديق القائلين لأنها عاطفة على كلام مضمر ، تقديره : نعم ، وثامنهم كلبهم ، وذلك أن قائلا لو قال : إن زيدا شاعر ، فقلت له : وفقيه ، كنت قد صدقته ، كأنك قلت : نعم هو كذلك ، وفقيه أيضا ، وفى الحديث : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيتوضأ بما أفضلت الحمر ، فقال : وبما أفضلت السباع . يريد : نعم ، وبما أفضلت السباع . خرجه الدارقطنى . وفى التنزيل : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر » هو من هذا الباب . فـكذلك ما أخبر عنهم من قولهم : ويقولون سبعة ، فقال سبحانه : « وثامنهم كلبهم » وليس كذلك : سادسهم كلبهم ، ورابعهم كلبهم ، لأنه فى موضع النعت لما قبله ، فهو داخل تحت قوله سبحانه : « رجماً بالغيب » ولم يقل ذلك فى آخر القصة .

إلا أن يشاء الله : فصل : وذكر قول الله تعالى (ولا تقولن لشىء) وفسره ، فقال : أى استثن شيئة الله . الشيئة : مصدر شاء يشاء ، كما أن الخيفة مصدر خاف يخاف ، ولـكن هذا التفسير ، وإن كان صحيح المعنى ، فلفظ الآية مشكل جدا ، لأن قوله : « لاتقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً » نهى عن أن يقول هذا الكلام ، ولم ينهه عن أن يصله بالا أن يشاء الله ، فيكون العبد المنهى عن هذا القول منهيا أيضاً عن أن يصله بقوله إلا أن يشاء الله . هذا محال : فقوله إذاً : إلا أن يشاء الله استثناء من الله ، راجع إلى أول الكلام ، وهـذا أيضا إذا تأملته نقض لعزيمة النهى ، وإبطال لحكمه ، فإن السيد إذا قال لعبده : لاتقم إلا أن يشاء الله أن تقوم ، فقد حل عقدة النهى ، لأن مشيئة الله للفعل لاتعلم إلا بالفعل ، فللعبد إذاً أن يقوم ، ويقول : قد شاء الله أن نقوم ، فلا يكون للنهى معنى على هذا ، فإذا لم يكن رد حرف الاستثناء إلى النهى ، ولا هو من الكلام الذى نهى العبد عنه ، فقد تبين إشكاله، والجواب : أن فى الكلام حذفاً وإضماراً تقديره : ولا تقولن : إنى فاعل ذلك غداً إلا ذاكراً إلا أن يشاء الله،

. . . .

أو ناطقاً بأن يشاء الله ، ومعناه : إلا ذاكراً مشيئة الله ، كما قال ابن إسحاق ، لأن المشيئة مصدر ، وأن مع الفعل، فى تأويل المصدر ، وإعراب ذلك المصدر مفعول بالقول المضمر ، والعرب تحذف القول ، وتكتفى بالمقول . ففى التنزيل : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم » أى : يقال لهم : أكفرتم ، فحذف القول ، وبقى الكلام المقول، وكذلك قوله تعالى : « يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم » أى يقولون سلام عليكم ، وهو كثير،وكذلك إذاً قوله « إلا أن يشاء الله » هى من كلام الناهى له سبحانه ، ثم أضمر القول، وهو الذكر الذى قدمناه ، وبقى المقول، وهو : أن يشاء الله ، وهذا القدر يكفى فى هذا المقام ، وإن كان فى الآية من البسط والتفتيش ماهو أكثر من هذا .

ولبثوا فى كهفهم : فصل : وقد فسر قوله تعالى : (ولبثوا فى كهفهم) فقال : معناه أى سيقولون ذلك، وهو أحد التاويلات فيها . وعلى هذا القول قراءة ابن مسعود : وقالوا ؛ لبثوا ، بزيادة قالوا . ثم قال ابن إسحق : قل : ربى أعلم بما لبثوا ، وهم من المؤلف أو غيره ، وإنما التلاوة : (قل : الله أعلم بما لبثوا) وقد قيل : إنه إخبار من الله تعالى عن مقدار لبثهم ، ولكن لما علم استبعاد قريش وغيرهم من الكفار لهذا المقدار ، وعلم أن فيه تنازعا بين الناس ، فمن ثم قال : « قل : الله أعلم بما لبثوا » وقوله : « ثلاثمائة سنين ، وازدادوا تسعا » أى : إنها ثلاثمائة بحساب العجم ، وإن حسبت الأهلة ، فقد زاد العدد تسعا ، لأن ثلاثمائة سنة بحساب الشمس تزيد تسع سنين بحساب القمر فإن قيل : فكيف قال ثلاثمائة سنين ، ولم يقل : سنة ، وهو قياس العدد فى العربية ، لأن المائة تضاف إلى لفظ الواحد، فالجواب أن سنين فى الآية بدل مما قبله ، ليس على حد الإضافة ولا التمييز ، ولحكمة عظيمة عدل باللفظ عن الإضافة إلى البدل ، وذلك أنه لو قال : ثلاثمائة سنة ، لكان الكلام كأنه جواب لطائفة واحدة من الناس ، والناس فيهم طائفتان : طائفة عرفوا طول لبثهم ، ولم يعلموا كمية السنين، فعرفهم أنها ثلاثمائة وطائفة لم يعرفوا طول لبثهم ، ولا شيئا من خبرهم ، فلما قال : ثلاثمائة معرفا للأولين بالكمية التى شكوا فيها ، مبينا للآخرين أن هذه الثلاثمائة سنون ، ليست أياما ولا شهوراً ، فانتظم البيان للطائفتين من ذكر العدد، وجمع المعدود ، وتبين أنه بدل ، إذ البدل يراد به : تبيين ماقبله ، ألا ترى أن اليهود قد كانوا عرفوا أن لأصحاب الكهف نبأ عجيبا ، ولم يكن العجب إلا من طول لبثهم غير أنهم لم يكونوا على يقين من أنها ثلاثمائة أو أقل.فأخبر أن تلك السنين ثلاثمائة ، ثم لو وقف الكلام ههنا لقالت العرب ، ومن لم يسمع بخبرهم : ماهذه الثلاثمائة؟ فقال كالمبين لهم : سنين ، وقد روى معنى هذا التفسير عن الضحاك . ذكره النحاس .

الفرق بين السنة والعام : فصل : وقال : سنين ، ولم يقل أعواماً ، والسنة والعام ، وإن اتسعت العرب فيهما ، واستعملت كل واحد منهما مكان الآخر اتساعا ، ولكن بينهما فى حكم البلاغة والعلم بتنزيل الكلام فرقاً ، فخذه أولا من الاشتقاق ، فإن السنة من سنا يسنو إذا دار حول البئر ، والدابة : هى السانية ، فكذلك السنة دورة من دورات الشمس ، وقد تسمى السنة: دارا ، ففى الخبر: إن بين آدم ونوح ألف دار ، أى : ألف سنة ،

. . . .

هذا أصل الاسم ، ومن ثم قالوا : أ كلتهم السنة ، فسموا شدة القحط سنة ، قال الله سبحانه : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين » ومن ثم قيل : أسنت القوم إذا أقحطوا ، وكأن وزنه أفعتوا ، لا أفعلوا ، كذلك قال بعضهم ، وجعل سيبوية التاء بدلا من الواو، فهى عنده: أفعلوا، لأن الجدوبة والخصب معتبر بالشتاء والصيف، وحساب العجم إنما هو بالسنين الشمسية بها يؤرخون ، وأصحاب الكهف من أمة عجمية ، والنصارى يعرفون حديثهم ، ويؤرخون به ، فجاء اللفظ فى القرآن بذكر السنين الموافقة لحسابهم ، وتمم الفائدة بقوله: وازدادوا تسعا ليوافق حساب العرب ، فإن حسابهم بالشهور القمرية كالمحرم وصفر ونحوهما وانظر بعد هذا إلى قوله: « تزرعون سبع سنين دأبا » ولم يقل أعواماً ، ففيه شاهد لما تقدم ، غير أنه قال : « ثم يأتى من بعد ذلك عام » ، ولم يقل : سنة عدولا عن اللفظ المشترك ، فإن السنة قد يعبر بها عن الشدة والأزمة كما تقدم ، فلو قال : سنة لذهب الوهم إليها لأن العام أقل أياما من السنة ، وإنما دلت الرؤيا على سبع سنين شداد ، وإذا انقضى العدد ، فليس بعد الشدة إلا رخاء ، وليس فى الرؤيا ما يدل على مدة ذلك الرخاء ، ولا يمكن أن يكون أقل من عام ، والزيادة على العام مشكوك فيها ، لا تقتضيها الرؤيا ، فحكم بالأقل ، وترك ما يقع فيه الشك من الزيادة على العام ، فهاتان فائدتان فى اللفظ بالعام فى هذا الموطن ، وأما قوله : « وبلغ أربعين سنة » فإنما ذكر السنين ، وهى أطول من الأعوام، لأنه خبر عن اكتمال الإنسان ، وتمام قوته واستوائه ، فلفظ السنين أولى بهذا الموطن ، لأنها أكمل من الأعوام وفائدة أخرى : أنه خبر عن السن ، والسن معتبر بالسنين ، لأن أصل السن فى الحيوان لا يعتبر إلا بالسنة الشمسية ، لأن النتاج والحمل يكون بالربيع والصيف ، حتى قيل ربعى للبكير وصيفى للمؤخر ، قال الراجز :

إن بنى صبيــة صيفيــون ... أفلح من كان له ربعيــون

فاستعمله فى الآدميين ، فلما قيل فى الفصيل ونحوه : ابن سنة وابن سنتين ، قيل ذلك فى الآدميين ، وإن كان أصله فى الماشية لما قدمنا ، وأما قوله : « وحمله وفصاله فى عامين » فلأنه قال سبحانه : « يسئلونك عن الأهلة ، قل : هى مواقيت للناس والحج » البقرة : ١٨٩ فالرضاع من الأحكام الشرعية ، وقد قصرنا فيها على الحساب بالأهلة ، وكذلك قوله : « يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » ولم يقل : سنة ؛ لأنه يعنى شهر المحرم وربيع إلى آخر العام ، ولم يكونوا يحسبون بأيلول ولا بتشرين ولا بينير ، وهى الشهور الشمسية وقوله سبحانه : « فأماته الله مائة عام » إخبار منه لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته وحسابهم بالأعوام والأهلة كما وقت لهم سبحانه، وقوله سبحانه فى قصه نوح : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً » قيل: إنما ذكر أولا السنين ، لأنه كان فى شدائد مدته كلها إلا خمسين عاماً منذ جاءه الفرج ، وأتاه الغوث ، ويجوز أن يكون الله ـ سبحانه ـ علم أن عمره كان ألفا ، إلا أن الخمسين منها ، كانت أعواما ، فيكون عمره ألف سنة ، تنقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية فى الخمسين خاصة ، لأن خمسين عاماً بحساب الأهله أقل من خمسين سنة شمسية بنحو عام ونصف ، فإن كان الله

. . . . : . . . .

سبحانه قد علم هذا من عمره ، فاللفظ موافق لهذا المعنى ، وإلا ففى القول الأول مقنع، والله أعلم بما أراد ، فتأمل هذا ، فإن العلم بتنزيل الـكلام ، ووضع الألفاظ فى مواضعها اللائقة بها يفتح لك بابا من العلم بإعجاز القرآن ؛ وابن هذا الأصل تعرف المعنى فى قوله تعالى : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . وقوله تعالى : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ، وأنه كلام ورد فى معرض التـكثير والتفخيم ، لطول ذلك اليوم، والسنة أطول من العام ، كما تقدم ، فلفظها أليق بهذا المقام .

قصة ذى القرنين : فصل : وذكر قصة الرجل الطواف ، والحديث الذى جاء فيهعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان ملكا مسح الأرض بالأسباب ، ولم يشرح معنى الأسباب ولأهل التفسير فيه أقوال متقاربة ، قالوا فى قوله تعالى : « وآتيناه من كل شىء سبباً » : أى : علماً يتبعه ، وفى قوله تعالى : « فأتبع سبباً»أى : طريقاً موصلة ، وقال ابن هشام فى غير هذا الـكتاب السبب : حبل من نور ، كان ملك يمشى به بـين يديه ، فيتبعه ، وقد قيل فى اسم ذلك الملك : زياقيل ، وهذا يقرب من قول من قال : سبباً أى : طريقاً ، ويقرب أن يـكون تفسيراً لقول النبى صلى الله عليه وسلم : مسح الأرض بالأسباب ، واختلف فى تسميته بذى القرنين ، كما اختلف فى اسمه، واسم أبيه،فأصح ماجاء فى ذلك ماروى عن أبى الطفيل عامر بن وَاثلة قال : سأل ابن الـكواء على بن أبى طالب، فقال : أرأيت ذا القرنين ، أنبيا كان أم ملـكا ؟ فقال : لانبيا كان ، ولا ملـكا ، ولـكن كان عبداً صالحاً دعا قومه إلى عبادة الله ، فضربوه على قرنى رأسه ضربتين ،وفيكم مثله ـ يعنى : نفسه ، وقيل : كانت له ضفيرتان من شعر والعرب تسمى الخصلة من الشعر : قرنا ، وقيل : إنه رأى فى المنام رؤيا طويلة أنه أخـذ بقرنى الشمس ، فـكان التأويل أنه المشرق والمغرب ، وذكر هذا الخبر على بن أبى طالب القيروانى العابد فى كتاب البستان له ، قال : وبهذا سمى ذا القرنين ، وأما اسمه ، فقال ابن هشام فى هذا الـكتاب : اسمه مرزبى بن مرذبة بذال مفتوحة فى اسم أبيه ، وزاى فى اسمه ، وقيل فيه : هرمس ، وقيل : هرديس . وقال ابن هشام فى غير هذا الـكتاب اسمه الصعب ابن ذى مراثد ،وهو أول التبابعة ،وهو الذى حكم لإبراهيم عليه السلام فى بئر السبع حين حا كم إليه فيها ،وقيل : إنه أفريدون بن أثفيان الذى قتل الضحاك ، ويروى فى خطبة قيس بن ساعـدة التى خطبها بسوق عـكاظ ، أنه قال فيها : يامعشر إياد ! أين الصعب ذو القرنين ، ملك الخافقين ، وأذل الثقلين ، وعمـر ألفين ، ثم كان ذلك كلحظة عين ، وأنشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً ... بالحنو فى جدث أميم مقيم

وقوله بالحنو يريد : حنو قراقر الذى مات فيه ذو القرنين بالعراق ، وقول ابن هشام فى السيرة : إنه من أهـــل مصر ، وإنه الإسكندر الذى بنى الإسكندرية ، فعرفت به : قول بعيد مما تقدم ، ويحتمل أن يكون الإسكندر سمى ذا القرنين أيضاً تشبيها له بالأول ، لأنه ملك مابين المشرق والمغرب فـيما ذكروا أيضاً ، وأذل ملوك فارس ، وقتل دارا بن دارا ، وأذل ملوك الروم وغيرهم ، وقال الطبرى فى الإسكندر : وهو اسكندروس بن قليقوس ، ويقال فيه : ابن قليس ، وكانت أمه زنجية ، وكانت أهديت لدارا الأكبر أو سباها ، فوجد منها نكهة

. . . .

استثقلها ، فعولجت بنقله ، يقال لها : اندروس ، فحملت منه بدارا الأصغر ، فلما وضعته ردها ، فتزوجها والد الإسكندر ، فحملت منه بالإسكندروس ، فاسمه عندهم مشتق من تلك البقلة التى طهرت أمه بها فيما ذكروا ، وذكر عن الزبير : أنه قال : ذو القرنين هو : عبد الله بن الضحاك بن معد وقال ابن حبيب فى المحبر فى ذكر ملوك الحيرة ، قال : الصعب بن قرين : هو ذو القرنين ، ويحتمل أن يكونوا ملوكا فى أوقات شتى ، يسمى كل واحد منهم : ذا القرنين والله أعلم . والأول كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، وهو صاحب الخضر حين طلب عين الحياة فوجدها الخضر، ولم يجدها ذو القرنين . حالت بينه وبينها الظلمات التى وقع فيها هو وأجناده فى خبر طويل مذكور فى بعض التفاسير مشهور عند الأخباريين .

التسمى بأسماء الأنبياء: وأما قول عمر لرجل سمعه يقول : ياذا القرنين : لم يكفكم أن تتسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة ؛ إن كان عمر قاله بتوقيف من الرسول عليه السلام ، فهو ملك ، لايقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا الحق ؛ وإن كان قاله بتأويل تأوله فقد خالف عليا فى الخبر المتقدم ، والله أعلم أى الخبرين أصح نقلا ؛ غير أن الرواية المتقدمة عن على يقويها مانقله أهل الأخبار عن ذى القرنين والله أعلم . وكان من مذهب عمر رحمه الله كراهية التسمى بأسماء الأنبياء ؛ فقد أنكر على المغيرة تكنيته بأبى عيسى ، وأنكر على صهيب تكنيته بأبى يحيى ؛ فأخبر كل واحد منهما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كناه بذلك ؛ فسكت . وكأن عمر إنما كره من ذلك الإكثار ؛ وأن يظن أن المسلمين شرفا فى الاسم إذا سمى باسم نبى أو أنه ينفعه ذلك فى الآخرة ، فكأنه استشعر من رعيته هذا الغرض أو نحوه ، هو أعلم بما كره من ذلك . وإلا فقد سمى بمحمد طائفة من الصحابة منهم : أبو بكر وعلى وطلحة وأبو حذيفة وأبو جهم بن حذيفة ، وخاطب وخطاب ابنا الحارث ، كل هؤلاء المحمدين كانوا يكنون بأبى القاسم إلا محمد بن خطاب ، وسمى أبو موسى ابناً له بموسى ، فكان يكنى به ، وأسيد بن حضير سمى ابنه بيحيى ، وعلم به النبى عليه السلام فلم ينكر عليه ، وكان لطلحة عشرة من الولد ، كلهم يسمى باسم نبى ، منهم : موسى بن طلحة وعيسى ، وإسحاق ويعقوب وإبراهيم ، ومحمد ، وكان للزبير عشرة ، كلهم يسمى باسم شهيد : فقال له طلحة : أنا أسميهم بأسماء الأنبياء ، وأنت تسميهم بأسماء الشهداء ، فقال له الزبير : فإنى أطمع أن يكون بنى شهداء ، ولا تطمع أنت أن يكون بنوك أنبياء ، ذكره بن أبى خيثمة . وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ابنه إبراهيم ، والآثار فى هذا المعنى كثيرة . وفى السنن لأبى داود أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : سموا بأسماء الأنبياء ، وهذا محمول على الإباحة ، لاعلى الوجوب ، وأما التسمى بمحمد ، ففى مسند الحارث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من كان له ثلاثة من الولد ، ولم يسم أحدهم بمحمد فقد جهل ، وفى المعيطى عن مالك أنه سئل عمن أسمه محمد ، ويكنى أبا القاسم ، فلم ير به بأساً ، فقيل له أكنيت ابنك أبا القاسم ، واسمه محمد ؟ فقال : ما كنيته بها ولكن أهله يكنونه بها ، ولم أسمع فى ذلك نهياً ، ولا أرى بذلك بأسا ، وهذا يدل على أن مالكا لم يبلغه ، او لم يصح عنده حديث النهى عن ذلك ، وقد رواه أهل الصحيح فالله أعلم ـ ولعله بلغه حديث عائشة أنه عليه السلام ـ قال : مالذى أحل اسمى وحرم كنيتى ، وهذا هو الناسخ لحديث

النهى ، والله أعلم ، وكان ابن سيرين يكره لكل أحد أن يتكنى بأبى القاسم ، كان اسمه محمداً ، أو لم يكن . وطائفة إنما يكرهونه لمن اسمه محمد ، وفى المعيطى أيضاً أنه سئل عن التسمية بمهدى فكرهه ، وقال : وما علمه بأنه مهدى ، وأباح التسمية بالهادى ، وقال : لأن الهادى هو الذى يهدى إلى الطريق وقد قدمنا كراهية مالك للتسمى بجبريل ، وقد ذكر ابن إسحاق كراهية عمر للتسمى بأسماء الملائكة ، وكره مالك التسمى بياسين .

ويسألونك عن الروح : فصل : وذكر سؤالهم عن الروح وما أنزل فيه من قوله تعالى : « ويسئلونك عن الروح » الآية . وروى عن ابن إسحاق من غير طريق البكائى أنه قال فى هذا الخبر : فناداهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم : هو جبريل ، وهذه الرواية عن ابن إسحاق تدل على خلاف ما روى غيره أن يهود قالت لقريش : اسئلوه عن الروح ، فإن أخبركم به فليس بنبى ، وإن لم يخبركم فهو نبى، وقال ابن إسحاق فيما تقدم من الحديث: اسئلوه عن الرجل الطواف ، وعن الفتية ، وعن الروح ، فإن أخبركم وإلا فالرجل متقول ؛ فسوى فى الخبر بين الروح وغيره .

من هو الروح ؟ واختلف أهل التأويل فى الروح المسئول عنه ، فقال بعضهم : هو جبريل ، لأنه الروح الأمين ، وروح القدس ، وعلى هذا رواية ابن إسحاق أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم قال لقريش حين سألوه : هو جبريل ، وقالت طائفة : الروح خلق من الملائكة على صور بنى آدم ، وقالت طائفة : الروح خلق يرون الملائكة ، ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم ، وروى عن على أنه قال : الروح ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه ، فى كل وجه مائة ألف فم ، فى كل فم مائة ألف لسان ، يسبح الله بلغات مختلفة ، وقالت طائفة : الروح الذى سألت عنه يهود هو : روح الإنسان ، ثم اختلف أصحاب هذا القول ، فمنهم من قال : لم يجبهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سؤالهم ، لأنهم سألوه تعنتاً واستهزاء ، فقال الله له قل الروح من أمر ربى ، ولم يأمره أن يبينه لهم ، وقالت طائفة بل قد أخبرهم الله به ، وأجابهم عما سألوه ، لأنه قال لنبيه : قل الروح من أمر ربى ، وأمر الرب هو الشرع ، والكتاب الذى جاء به فمن دخل فى الشرع وتفقه فى الكتاب والسنة عرف الروح ، فكأن معنى الكلام : ادخلوا فى الدين تعرفوا ما سألتم عنه ، فإنه من أمر ربى ، أى : من الأمر الذى جئت به مبلغاً عن ربى ، وذلك أن الروح لا سبيل إلى معرفته من جهة الطبيعة ، ولا من جهة الفلسفة ولا من جهة الرأى والقياس ، وإنما يعرف من جهة الشرع ، فإذا نظرت إلى ما فى الكتاب والسنة من ذكره نحو قوله سبحانه : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » أى من روح الحياة ، والحياة من صفات الله سبحانه ، والنفخ فى الحقيقة مضاف إلى ملك ينفخ فيه بأمر ربه ، وتنظر إلى ما أخبر به الرسول عليه السلام أن الأرواح جنود مجندة ، وأنها تتعارف وتتشام فى الهواء ، وأنها تقبض من الأجساد بعد الموت ، وأنها تسئل فى القبر ، فتفهم السؤال وتسمع وترى ، وتنعم وتعذب وتلتذ وتألم ، وهذه كلها من صفات الأجسام ، فتعرف أنها أجسام بهذه الدلائل ، ولكنها ليست كالأجساد فى كثافتها وثقلها وإظلامها ، إذ الأجساد خلقت من ماء وطين وحمإ مسنون ،

فهو أصلها ، والأرواح خلقت مما قال الله تعالى ، وهو النفخ المتقدم المضاف إلى الملك . والملائكة خلقت من نور كما جاء فى الصحيح ، وإن كان قد أضاف النفخ إلى نفسه ، فكذلك أضاف قبض الأرواح إلى نفسه فقال : «الله يتوفى الأنفس حين موتها » وأضاف ذلك إلى الملك مجازاً ، وإلى الرب حقيقة ، فهو أيضاً جسم ، ولكنه من جنس الريح ، ولذلك سمى روحاً من لفظ الريح ، ونفخ الملك فى معنى الريح غير أنه ضم أوله ، لأنه نورانى . والريح هواء متحرك . وإذا كان الشرع قد عرفنا من معانى الروح وصفاته بهذا القدر ، فقد عرف من جهة أمره كما قال سبحانه : « قل : الروح من أمر ربى » وقوله : من أمر ربى أيضاً . ولم يقل من أمر الله . ولا من أمر ربكم يدل على خصوص . وعلى ما قدمناه من أنه لا يعلمه إلا من أخذ معناه من قول الله سبحانه . وقول رسوله بعد الإيمان بالله ورسوله واليقين الصادق والفقه فى الدين . فإن كان لم يخبر اليهود حين سألوه عنه . فقد أحالهم على موضع العلم به .

الروح والنفس والفرق بينهما : فصل : ومما يتصل بمعنى الروح وحقيقته أن تعرف : هل هى النفس أو غيرها ، وقد كثرت فى ذلك الأقوال ، واضطربت المذاهب ، فتعلق قوم بظواهر من الأحاديث لا توجب القطع ، لأنها نقل آحاد ، وأيضاً فإن ألفاظها محتملة للتأويل ، ومجازات العرف واتساعاتها فى الكلام كثيرة ، فمما تعلقوا به فى أن الروح النفس قول بلال : « أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك » مع قول النبى عليه السلام : إن الله قبض أرواحنا » وقوله - عز وجل - « الله يتوفى الأنفس » والمقبوضة هى الأرواح ، ولم يفرقوا بين القبض والتوفى ، ولا بين الأخذ فى قول بلال : « أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك » وبين قول النبى عليه السلام : « قبض أرواحنا » ، وتنقيح الأقوال وترجيحها يطول .

وقد روى أبو عمر فى التمهيد حديثاً يدل على خلاف مذهبه فى أن النفس هى الروح ، لكن علله فيه أن الله خلق آدم ، وجعل فيه نفسا وروحا ، فمن الروح : عفافه ، وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاؤه ، ومن النفس : شهوته وطيشه وسفهه وغضبه ، ونحو هذا ، وهذا الحديث معناه صحيح إذا تؤمل ، صح نقله أو لم يصح ، وسبيلك أن تنظر فى كتاب الله أولا ، لا إلى الأحاديث التى تنقل مرة على اللفظ ، ومرة على المعنى ، وتختلف فيها ألفاظ المحدثين ، فنقول قال الله تعالى : « فإذا سويته ، ونفخت فيه من روحى » ولم يقل : من نفسى وكذلك قال : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » ولم يقل من نفسه ، ولا يجوز أيضا أن يقال هذا ، ولا خفاء فيما بينهما من الفرق فى الكلام ، وذلك يدل على أن بينهما فرقا فى المعنى ، وبعكس هذا قوله سبحانه : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ولم يقل : تعلم ما فى روحى ، ولا أعلم ما فى روحك ، ولا يحسن هذا القول أن يقوله غير عيسى ، ولو كانت النفس والروح اسمين لمعنى واحد ، كالليث والأسد لصح وقوع كل واحد منهما مكان صاحبه ، وكذلك قوله تعالى : « يقولون فى أنفسهم » ولا يحسن فى الكلام : يقولون فى أرواحهم ، وقال تعالى : « أن تقول نفس » ولم يقل : أن

. . . .

تقول روح ، ولايقوله أعرابى ، فأين إذاً كون النفس والروح بمعنى واحد لولا الغفلة عن تدبر كلام الله تعالى ؟ !
ولكن بقيت دقيقة يعرف منها السر والحقيقة ، ولا يكون بين القولين اختلاف متباين إن شاء الله ، فنقول وبالله التوفيق : الروح مشتق من الريح ، وهو جسم هوائى لطيف ، به تكون حياة الجسد عادة ، أجراها الله تعالى ، لأن العقل يوجب ألا يكون للجسم حياة ، حتى ينفخ فيه ذلك الروح الذى هو فى تجاويف الجسد ، كما قال ابن فورك وأبو المعالى وأبو بكر المرادى ، وسبقهم إلى نحو منه أبو الحسن الأشعرى ، ومعنى كلامهم واحد أو متقارب .

فإذا ثبت أن الروح سبب الحياة عادة ، أجراها الله تعالى ، فهو كالماء الجارى فى عروق الشجرة صعداً ، حتى تحيا به عادة ، فنسميه ماء باعتبار أوليته ، ونسمى أيضا هذا روحا باعتبار أوليته ، واعتبار النفخة التى هى روح فما دام الجنين فى بطن أمه حيا ، فهو ذو روح ، فإذا نشأ واكتسب ذلك الروح أخلاقا وأوصافا لم تكن فيه ، وأقبل على مصالح الجسم كلفا به ، وعشق مصالح الجسد ولذاته ، ودفع المضار عنه سمى : نفسا ، كما يكتسب الماء الصاعد فى الشجرة من الشجرة أوصافا لم تكن فيه ، فالماء فى العنبة مثلا هو : ماء باعتبار الأصل والبدأة ، ففيه من الماء الميوعة والرطوبة ، وفيه من العنبة الحلاوة ، وأوصاف أخر ، فتسميه مصطاراً إن شئت ، أو خمراً إن شئت ، أو غير ذلك مما أوجبه الاكتساب لهذه الأوصاف ، فمن قال : إن النفس هى الروح على الإطلاق من غير تقييد ، فلم يحسن العبارة ، وإنما فيها من الروح الأوصاف التى تقتضيها نفخة الملك ، والملك موصوف بكل خلق كريم ، ولذلك قال فى الحديث : فمن الروح عفافه وحلمه ووفاؤه وفهمه ، ومن النفس شهوته وغضبه وطيشه، وذلك أن الروح كما قدمنا مازج الجسد الذى فيه الدم ، ويسمى الدم : نفسا ، وهو مجرى الشيطان ، وقد حكمت الشريعة بنجاسة الدم لسر لعله أن يفهم مما نحن بسبيله ، فمن يعرف جوهر الكلام ، وينزل الألفاظ منازلها ، لايسمى روحا إلا ماوقع به الفرق بين الجماد والحى ، والذى كان سببا للحياة ، كما فى الكتاب العزيز عند ذكر إحياء النطفة ، ونفخ الروح فيها ، ولايقال : نفخ النفس فيها إلا عند الاتساع فى الكلام ، وتسمية الشىء بما يؤول إليه ، ومن هاهنا سمى جبريل عليه السلام : روحا ، والوحى : روحا ، لأن به تكون حياة القلوب ، قال الله سبحانه وتعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » وقال الكفار : « أموات غير أحياء » . وقال فى النفس ما تقدم ، وقال : « إن النفس لأمارة بالسوء » ولم يقل إن الروح لأمارة : لأن الروح الذى هو سبب الحياة لايأمر بسوء ، ولايسمى أيضا نفسا ـــ: كما قدمنا حتى يكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة ، وما كان نحوها ، والماء النازل من السماء جنس واحد ، فاذا مازج أجساد الشجر كالتفاح والفرسك والحنظل والعشر ، وغير ذلك اختلفت أنواعه ، كذلك الروح الباطنة التى هى من عند الله ، هى جنس واحد ، وقد أضافها إلى نفسه تشريفا لها حين قال : « ونفخ فيه من روحه » ، ثم يخالط الأجساد التى خلقت من طين ، وقد كان فى ذلك الطين طيب وخبيث ، فينزع كل فرع إلى أصله ، وينزع ذلك الأصل إلى ماسبق فى أم الكتاب ، وإلى مادبره وأحكمه الحكيم الخبير . فعند ذلك تتنافر النفوس ، أو

. . . .

تتقارب ، وتتحاب أو تتباغض على حسب التشا كل فى أصل الخلقة ، وهى معنى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم « فما تعارف منها ائتلف ، وماتنا كر منها اختلف » . وقد كتب بعض الحكماء إلى صديق له : إن نفسى غير مشكورة على الانقياد إليك بغير زمام ، فإنها صادفت عندك بعض جواهرها ، والشىء يتبع بعضه بعضاً .

فصل : وقد يعبر بالنفس عن جملة الإنسان روحه وجسده ، فتقول : عندى ثلاثة أنفس ، ولا تقول : عندى ثلاثة أرواح، لايعبر بالروح إلا عن المعنى المتقدم ذكره،وإنما اتسع فى النفس ، وعبر بها عن الجملة لغلبة أوصاف الجسد على الروح ، حتى صار يسمى نفسا ، وطرأ هذا الاسم بسبب الجسد ، كما يطرأ على الماء فى الشجر أسماء على حسب اختلاف أنواع الشجر من حلو وحامض ومر وحريف ، وغير ذلك. فتحصل من مضمون ما ذكرنا ألا يقال فى النفس : هى الروح على الإطلاق ، حتى تقيد بما تقدم ، ولا يقال فى الروح : هو النفس إلا كما يقال فى المنى هو الإنسان ، أو كما يقال للماء المغذى للكرمة هو : الخمر ، أو الخل ، على معنى أنه ستنضاف إليه أوصاف يسمى بها خمراً أو خلا ، فتقييد الألفاظ هو : معنى الكلام ، وتنزيل كل لفظ فى موضعه ، هو معنى البلاغة فافهمه

فصل : وإذا ثبت هذا فلم يبق إلا قول بلال : أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك ، فذكر النفس ، لأنه معتذر من ترك عمل أمر به ، والأعمال مضافة إلى النفس ، لأن الأعمال جسدانية ، وقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم :إن الله قبض أرواحنا،فذكر الروح الذىهو الأصل،لأنه أنسهم عن فزعهم،فأعلمهم أن خالق الأرواح يقبضها إذا شاء ، فلا نبسط انبساطها فى اليقظة،وروح النائم وإن وصف بالقبض،فلايدل لفظ القبض على انتزاعه بالكلية، كما لايدل قوله سبحانه فى الظل : « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا » على إعدام الظل بالكلية ، وقوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس » فلم يقل : الأرواح ، لأنه وعظ العباد الغافلين عنه ، فأخبر أنه يتوفى أنفسهم، ثم يعيدها حتى يتوفاها ، فلا يعيدها إلى الحشر لتزدجر النفوس بهذه العظة عن سوء أعمالها، إذ الآية مكية ، والخطاب للكفار ، وقد تنزلت الألفاظ منازلها فى الحديث والقرآن ، وذلك معنى الفصاحة وسر البلاغة .

ابن هرمة ونسبه : فصل : واستشهد ابن هشام بقول ابن هرمة ونسبه فقال : فهرى، وإنما هو خلجى،والخلج اسمه : قيس بن الحارث بن فهر، واختلف فى تسمية بنى قيس بن الحارث الخلج، فقيل : لأنهم اختلجوا من قريش وسكان مكة ، وقيل : لأنهم نزلوا بموضع فيه خلج من ماء ، ونسبوا إليه ، وابن هرمه واسمه : إبراهيم بن على ابن هرمة، وهو شاعر من شعراء الدولة العباسية ، وبيته :

وإذا هرقت بكل دار عبرة ... نزف الشئون ودمعك الينبوع

والشئون : مجارى الدمع ، وهى أطباق الرأس ، وهى أربعة للرجل ، وثلاثة المرأة ، كذلك ذكروا عن أهل التشريح ، وكذلك ذكر قاسم بن ثابت فى الدلائل ، فالله أعلم .

. . . . : . . . .

بيت من زخرف : وكل ما شرح ابن هشام من الآيات التى تلاها ابن إسحاق ، فقد تقدم ما يحتاج بيانه ، وفى قوله سبحانه : « بيت من زخرف » دليل على أن البيت يراد به : القصر والمنزل ، وإن كان عظيما ، فإنه يسمى بيتا كما قدمنا فى شرح بيت القصب فى حديث خديجة .

أبو الأشد بن الجمحى : فصل : وذكر ابن إسحاق قول أبى جهل مستهزئا : يزعم محمـــد أن جنود ربه التى يخوفكم بها تسعة عشر ،وأنتم الناس ، إلى آخر القصة.وأهل التفسير يعزون هذه المقالة إلى أبى الأشد بن الجمحى، واسمه : كلدة بن أسيد بن خلف ، وأبو دهبل الشاعر هو ابن أخيه ، واسمه : وهب بن زمعة بن أسيد بن خلف ابن وهب بن حذافة بن جمح ، وكانت عند أبى دهبل التوأمة التى يعرف بها صالح مولى التوأمة ، وهى أخت عبد الله بن صفوان بن أمية ، ولدت له عبد الرحمن ، قتل يوم الجمـــل ، وأنه قال : اكفونى منهم اثنين ، وأنا أكفيكم سبعة عشر إعجابا منه بنفسه ، وكان بلغ من شدته ـ فيما زعموا ـ أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذبه عشرة ، لينتزعوه من تحت قدمه ، فيتمزق الجلد ، ولا يتزحزح عنه ، وقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المصارعة ، وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم مرارا ، فلم يؤمن، وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وسيأتى فى الكتاب ـ والله أعلم .

خزنة جهنم : وأماماقال أهل التأويل فى خزنة جهنم التسعة عشر ، فروى عن كعب أنه قال : بيد كل واحد منهم عمود له شعبتان ، وإنه ليدفع بالشعبة تسعين ألفا إلى النار، وقد أملينا فى معنى أبواب الجنة وأبواب النار فائدة عددها وتسميتها ، وذكر الزبانية ، والحكمة فى كونهم عددا قليلا مسئلة فى قريب من جزء فلتنظر هناك .

الرجل الذى تزعم قريش أنه يعلمه : فصل : وذكر قول قريش : إنما يعلمه رجـــل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا لانؤمن بالرحمن ، فأنزل الله سبحانه : « وهم يكفرون بالرحمن قل :هو ربى » كان مسيلمة بن حبيب الحنفى ، ثم أحد بنى الدول قد تسمى : بالرحمن فى الجاهلية ، وكان من المعمرين ، وذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبد الله أو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

كبير : وأنشد فى تفسير الزبانية :

ومن كبير نفر زبانية

وجدت فى حاشية كتاب الشيخ على هـــذا البيت : كبير : حى من هذيل قال المؤلف : وفى أسد أيضا : كبير بن غنم بن دودان بن أسد ،ومن ذريته : بنوجحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير ولعل الراجز أن يكون أراد هؤلاء ، فإنهم أشهر ، والله أعـــلم ، وبنو كبير أيضا : بطن من بنى غامد ، وهم من الأزد ، والذى تقدم ذكره من هذيل هو : كبير بن طابخة بن لحيان بن سعد بن هذيل .

أشراف قريش يستمعون إلى قراءة النبي (ص)

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأباجهل ابن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ، ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

الأخنس يستفهم من أبي سفيان وأبي جهل عما سمعه : فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أباسفيان في بيته ، فقال : أخبرني ياأباحنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : ياأباثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا مايراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : ياأبا الحكم ، مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ،وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

تعنت قريش عند سماعهم القرآن وما أنزل الله فيهم : قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا تلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، قالوا يهزءون به : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » لانفقه ماتقول : « وفي آذاننا وقر » لانسمع ماتقول : « ومن بيننا وبينك حجاب » قد حال بيننا وبينك « فاعمل » بما أنت عليه « إننا عاملون » بما نحن عليه ، إنا لانفقه عنك شيئا ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قولهم : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً » إلى قوله : « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » أي : كيف فهموا توحيدك ربك إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة ،

وفى آذانهم وقرا ، وبينك وبينهم حجابا بزعمهم ، أى : إنى لم أفعل ذلك . «نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك : وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » أى : ذلك ماتواصوا به من ترك مابعثتك به إليهم . « انظر : كيف ضربوا الك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » أى : أخطئوا المثل الذى ضربوا لك ، فلا يصيبون به هدى ، ولا يعتدل لهم فيه قول «وقالوا : أءذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » أى : قد جئت تخبرنا : أنا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظاما ورفاتا وذلك مالا يكون . «قل : كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة » أى : الذى خلقكم مما تعرفون ، فليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك عليه .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : سألته عن قول الله تعالى : « أو خلقا مما يكبر فى صدوركم » ماالذى أرد الله به؟ فقال : الموت .

ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم .

مالقيه بلال من المشركين وتخليص أبى بكر له : وكان بلال مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، لبعض بنى جمح ، مولدا من مولديهم ، وهو بلال بن رباح ، وكان اسم أمه : حمامة ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية ابن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد .

قال ابن إسحاق : وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه ، قال كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك ، وهو يقول : أحد أحد ، فيقول : أحد ، أحد والله يابلال ، ثم يقبل على أمية بن خلف ، ومن يصنع ذلك به من بنى جمح ، فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا ، حتى مر به أبو بكر الصديق بن أبى قحافة ـ رضى الله عنه ـ يوما ، وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى الله

فى هـذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذى أفسدته ؟ فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعل عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به ، قال : قد قبلت فقال : هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه .

من أعتقهم أبو بكر : ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم : عامر ابن فهيرة ، شهد بدراً وأحداً ، وقتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأم عبيس وزنيرة ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ؛ فقالت : كذبوا — وبيت الله — ما تضر اللات والعزى ، وما تنفعان ، فرد الله بصرها .

وأعتق النهدية وبنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، وهى تقول : والله لا أعتقكما أبداً ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : حلا يا أم فلان ، فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا ، قال : قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها ، قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده إليها ؟ قال : وذلك إن شئتما .

ومر بجارية بنى مؤمل ، حى بنى عدى بن كعب ، وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إنى أعتذر إليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك ، فابتاعها أبو بكر ، فأعتقها .

ما دار بين أبى بكر وأبيه : قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن عبد الله بن أبى عتيق ، عن عامر بن عبد الله ابن الزبير ، عن بعض أهله ، قال :

قال أبو قحافة لأبى بكر : يابنى ، إنى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت رجالا جلداً يمنعونك ، ويقومون دونك ؟ قال : فقال أبو بكر رضى الله عنه : ياأبت ، إنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل ، قال : فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه ، وفيما قال له أبوه . « فأما من أعطى ، واتقى وصدق بالحسنى » إلى قوله تعالى : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » .

آل ياسر وتعذيبهم : قال ابن إسحاق : وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، وبأبيه — وأمه — وكانوا أهل بيت إسلام — إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول ، فيما بلغنى : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، وهى تأبى إلا الإسلام .

وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة

أنبه وأخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك : لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك،ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً ، قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به .

فتنة قريش للمسلمين : قال ابن إسحاق : وحدثنى حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ، ويجيعونه ، ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له ، آللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول نعم ، حتى إن الجعل ليمر بهم ، فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده .

هشام يرفض تسليم الوليد إلى قريش : قال ابن اسحاق : وحدثنى الزبير عن عكاشة بن عبد الله بن أبى أحمد أنه حدث أن رجالا من بنى مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد ، حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد ، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا ، منهم : سلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة . قال : فقالوا له — وخشوا شرهم — إنا قد أردنا أن نعاقب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا ، فإنا نأمن بذلك فى غيرهم . قال : هذا ، فعليكم به . فعاتبوه وإياكم ونفسه . وأنشأ يقول :

ألا لا يقتلن أخى عييش فيبقى بيننا أبداً تلاحى

احذروا على نفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه ، لأقتلن أشرفكم رجلا . قال : فقالوا : اللهم العنه ! من يغرر بهذا الخبيث ، فو الله لو أصيب فى أيدينا لقتل أشرفنا رجلا. قال : فتركوه ونزعوا عنه . قال : وكان ذلك مما دفع الله به عنهم .

ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة

قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يصيب أصحابه من البلاء . وما هو فيه من العافية . بمكانه من الله ، ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهى أرض صدق ، يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج

عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام .

من هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة : وكان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، معه امرأته : رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، معه امرأته : سهلة بنت سهيل بن عمرو ، أحد بنى عامر بن لؤى ، ولدت له بأرض الحبشة محمد ابن أبى حذيفة . ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد . ومن بنى عبد الدار ابن قصى : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . ومن بنى زهرة بن كلاب : عبد الرحمن ابن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة . ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة : أبو سلمة بن الأسد ابن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . ومن بنى جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب : عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح . ومن بنى عدى بن كعب : عامر بن ربيعة : حليف آل الخطاب ، من عنز بن وائل معه امرأته : ليلى بنت أبى حثمة ابن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب . ومن بنى عامر بن لؤى أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، ويقال : بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر . ويقال : هو أول من قدمها . ومن بنى الحارث بن فهر : سهيل بن بيضاء ، وهو : سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث . فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فيما بلغنى .

قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون ، فيما ذكر لى بعض أهل العلم .

قال ابن إسحاق : ثم خرج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتتابع المسلمون ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

المهاجرون من بنى هاشم : ومن بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر : جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، معه امرأته : أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم ، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن جعفر ، رجل .

المهاجرون من بنى أمية : ومن بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن

أمية بن عبد شمس ، معه امرأته : رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأته ، فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث بن خمل بن شق بن رقبة بن مخدج الكنانى ، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، معه امرأته : أميمة بنت خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن بليح من عمرو ، من خزاعة .

قال ابن هشام : ويقال : همينة بنت خلف .

قال ابن إسحاق : ولدت له بأرض الحبشة سعيد بن خالد ، وأمة بنت خالد ، فتزوج أمة بعد ذلك الزبير بن العوام ، فولدت له عمرو بن الزبير وخالد بن الزبير .

المهاجرون من بنى أسد . ومن حلفائهم ، من بنى أسد بن خزيمة : عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر ابن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد ، وأخوه عبيد الله بن جحش ، معه امرأته : أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وقيس بن عبد الله ، رجل من بنى خزيمة ، معه امرأته بركة بنت يسار ، مولاة أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ومعيقيب بن أبى فاطمة ، وهؤلاء آل سعيد بن العاص سبعة نفر .

قال ابن هشام : معيقيب بن دوس :

المهاجرون من بنى عبد شمس : ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وأبو موسى الأشعرى ، واسمه : عبد الله بن قيس حليف آل عتبة بن ربيعة ، رجلان .

المهاجرون من بنى نوفل : ومن بنى نوفل بن عبد مناف : عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نسيب ابن مالك بن الحارث بن مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان ، حليف لهم ، رجل .

المهاجرون من بنى أسد : ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، والأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد ، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد . وعمرو بن أمية ابن الحارث بن أسد ، أربعة نفر .

المهاجرون من بنى عبد وعبد الدار بن قصى : ومن بنى عبد بن قصى : طليب بن عمير بن وهب بن كثير ابن عبد بن قصى ، رجل .

. . . . ،

ومن بنى عبد الدار بن قصى : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وسويط بن سعد ابن حرملة بن مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وجهم بن قيس بن عبد بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار ، معه امرأته أم حرملة بنت عبد الأسود بن جذيمة بن أقيش بن عامر بن بياضة بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو ، من خزاعة ، وابناه : عمرو بن جهم وخزيمة بن جهم ، وأبو الروم بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وفراس بن النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف ابن عبد الدار ، خمسة نفر .

المهاجرون من بنى زهرة : ومن بنى زهرة بن كلاب : عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، وعامر بن أبى وقاص ، وأبو وقاص : مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، والمطلب ابن أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، معه امرأته : رملة بنت أبى عوف بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم ، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب .

المهاجرون من بنى هذيل : ومن حلفائهم من هذيل : عبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم ابن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، وأخوه : عتبة بن مسعود .

المهاجرون من بهراء : ومن بهراء : المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعه بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن زهير بن لؤى بن ثعلبة بن مالك بن الشريد بن أبى أهوز بن أبى فائش بن دريم بن القين بن أهود بن بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن هشام : ويقال هزل بن فاس بن ذر ، ودهير بن ثور .

قال ابن إسحاق : وكان يقال له : المقداد بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وذلك أنه تبناه فى الجاهلية ، وحالفه ، ستة نفر .

المهاجرون من بنى تميم : ومن بنى تيم بن مرة : الحارث بن خالد بن صخر بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، معه امرأته ريطة بنت الحارث بن جبله بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم ، ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث ، وعائشه بنت الحارث ، وزينب بنت الحارث ، وفاطمة بنت الحارث ، وعمرو ابن عثمان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، رجلان .

المهاجرون من بنى مخزوم: ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة : أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ومعه امرأته : أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ولدت له

. . . .

بأرض الحبشة زينب بنت أبي سلمة ، واسم أبي سلمة : عبد الله ، واسم أم سلمة: هند. وشماس بن عثمان بن الشريد ابن سويد بن هرمي بن عامر بن مخزوم .

خبر الشماس : قال ابن هشام : واسم شماس : عثمان ، وإنما سمي شماساً ؛ لأن شماسا من الشمامسة ، قدم مكة فى الجاهلية ، وكان جميلا فعجب الناس من جماله ، فقال عتبة بن ربيعة ـ وكان خال شماس : أنا آتيكم بشماس أحسن منه ، فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان ، فسمي : شماسا . فيما ذكر بن شهاب . وغيره .

قال ابن إسحاق : وهبار بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وأخوه عبد الله ابن سفيان ، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وسلمة بن هشام بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم ، وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

المهاجرون من حلفاء بنى مخزوم : ومن حلفائهم : معتب بن عوف بن عامر بن الفضل بن عفيف بن كليب ابن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو ، من خزاعة ، وهو الذى يقال له : عيهامة ، ثمانية نفر .

قال ابن هشام : ويقال : حبشية بن سلول وهو الذى يقال له معتب بن حمراء .

المهاجرون من بنى جمح : ومن بنى جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب : عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب ابن حذافة بن جمح ، وابنه : السائب بن عثمان ، وأخواه : قدامة بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون ، وحاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، معه امرأته : فاطمة بنت المجلل بن عبد الله بن أبى قيس ابن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وابناه : محمد بن حاطب ، والحارث بن حاطب ، وهما لبنت المجلل ، وأخوه : حطاب بن الحارث ، معه امرأته فكيهة بنت يسار ، وسفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، معه ابناه جابر بن سفيان ، وجنادة بن سفيان ، ومعه امرأته حسنة ، وهى أمهما ، وأخوهما من أمهما : شرحبيل بن حسنة ، أحد الغوث .

قال ابن هشام : شرحبيل بن عبد الله أحد الغوث بن مر ، أخى تميم بن مر .

قال ابن إسحاق : وعثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة بن جمح ، أحد عشر رجلا .

المهاجرون من بنى سهم : ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب : خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى ابن سعد بن سهم ، وعبد الله بن الحارث قيس بن عدى بن سعد بن سهل ، وهشام بن العاص بن وائل بن سعد بن سهم .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم .

قال ابن إسحاق : وقيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وأبو قيس بن الحارث بن قيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وعبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، والحارث ابن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، ومعمر بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وبشر ابن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وأخ له من أمه من بنى تميم ، يقال له : سعيد بن عمرو ، وسعيد ابن الحارث بن عدى بن سعد بن سهم ، والسائب بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وعمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم بن سعد بن سهم ومحمية بن الجزاء ، حليف لهم ، من بنى زبيد ، أربعة عشر رجلا .

المهاجرون من بنى عدى : ومن بنى عدى بن كعب : معمر بن عبد الله بن نضلة بن عبد العزى بن حرثان ابن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى ، وعروة بن عبد العزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى ، وعدى بن نضلة بن عبد العزى بن حرثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى ، وابنه النعمان بن عدى ، وعامر بن ربيعة ، حليف لآل الخطاب ، من عنز بن وائل ، معه امرأته : ليلى بنت أبى حثمة ابن غانم . خمسة نفر .

المهاجرون من بنى عامر : ومن بنى عامر بن لؤى : أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، معه امرأته : أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وعبد الله بن مخرمة بن عبد العزى بن أبى قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر وسليط بن عمرو بن شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وأخوه : السكران بن عمرو ، معه امرأته : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، ومالك بن زمعة بن قيس بن شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، معه امرأته : عمرة بنت السعدى بن وقدان ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن مالك بن حسل بن عامر ، وسعد بن خولة ، حليف لهم . ثمانية نفر .

قال ابن هشام : سعد بن خولة من اليمن .

المهاجرون من بنى الحارث : قال ابن إسحاق : ومن بنى الحارث بن فهر : أبو عبيدة بن الجراح ، وهو : عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وسهيل بن بيضاء ، وهو : سهيل ابن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث ، ولكن أمه غلبت على نسبه ، فهو ينسب إليها ، وهى : دعد بنت جحدم بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر ، وكانت تدعى : بيضاء ، وعمرو بن أبى سرح بن ربيعة

ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث ، وعياض بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث ، ويقال : بل ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث ، وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث ، وعثمان بن عبد غنم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة ابن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث ، وسعد بن قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر ، والحارث بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن ظرب بن الحارث بن فهر . ثمانية نفر .

عدد المهاجرين إلى الحبشة : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا ، إن كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يشك فيه .

ماقيل من الشعر في هجرة الحبشة : وكان مما قيل الشعر في الحبشة ، أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ،حين أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي ، وعبدوا الله ، لايخافون على ذلك أحداً ، وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به ، قال :

يا راكباً بلغن عنى مغلغلة	من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد	ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة	تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة، وخز	ى فى الممات ، وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله ، واطرحوا	قول النبي ، وعالوا فى الموازين
فاجعل عذابك بالقوم الذين بغوا	وعائذا بك أن يعلوا فيطغونى

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً ، يذكر نفى قريش إياهم من بلادهم ، ويعاتب بعض قومه فى ذلك :

أبت كبدى لا أكذبنك قتالهم	على ، وتأباه على أناملى
وكيف قتالى معشراً أدبوكم	على الحق أن لاتأشبوه بباطل
نفتهم عباد الجن من حر أرضهم	فأضحوا على أمر شديد البلابل
فإن تك كانت فى عدى أمانة	عدى بن سعد عن تقى، أو تواصل
فقد كنت أرجوأن ذلك فيكم	بحمد الذى لا يطبى بالجعائل
وبدلت شبلا شبل كل خبيثة	بذى فجر مأوى الضعاف الأرامل

وقال عبد الله بن الحارث أيضا :

وتلك قريش تجحد الله حقه	كما جحدت عاد ومدين والحجر
فإن أنا أبرق فلا يسعننى	من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عبد الإله محمد	أبين ما فى النفس إذ بلغ النقر

فسمى عبد الله بن الحارث ـ يرحمه الله ـ لبيته الذى قال : المبرق .

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، وهو ابن عمه ، وكان يؤذيه فى إسلامه وكان أمية شريفا فى قومه فى زمانه ذلك :

أتيم بن عمرو للذى جـاء بغضة ... ومن دونه الشرمان والبرك أكتع
أأخرجتنى من بطن مكة آمنـا ... وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشهـا ... وتبرى نبالا ريشها لك أجمع
وحاربت أقواما كراماً أعـزة ... وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتـك يوما ملمة ... وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

وتيم بن عمرو ، الذى يدعو عثمان ، جمح ، كان اسمه : تيما .

بعض الحوادث التى وقعت بين رسول الله (ص) وبين قريش

فصل : ذكر استماع أبى جهل وأبى سفيان والأخنس إلى قول أبى جهل : فلما تحاذينا على الركب . وقع فى فى الجمهرة : الجاذى : المقعى على قدميه قال : وربما جعلوا الجاذى والجاثى سواء .

وذكر قول الله سبحانه خبراً عنهم : « جعلنا بينك ، وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً » قال بعضهم : مستور بمعنى : ساتر كما قال : « وكان وعده مأتياً » أى : آتياً ، والصحيح أن مستوراً هنا على بابه ، لأنه حجاب على القلب ، فهو لا يرى .

وذكر حديث ابن عباس حين سئل عن قوله : « أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم » فقال : الموت ، وهو تفسير يحتاج إلى تفسير ، ورأيت لبعض المتأخرين فيه ، قال : أراد ابن عباس أن الموت سيفنى كما يفنى كل شىء كما جاء أنه يذبح على الصراط ، فكان المعنى أن لو كنتم حجارة أو حديداً لأدركم الفناء والموت ، ولو كنتم الموت الذى هو

. . . .

كبير فى صدوركم ، فلابد لكم من الفناء ـ والله أعلم ـ بتأويل ذلك ، وقد بقى فى نفسى من تأويل هذه الآية شىء حتى يكمل الله نعمته بفهمها إن شاء الله تعالى .

وقوله سبحانه : « ولوا على أدبارهم نفوراً » يجوز أن يكون : نفوراً : جمع نافر ، فيكون نصباً على الحال ، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لولوا .

ومما أنزل الله فى استماعهم : « ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم » ألا ترى كيف جمع يستمعون والحمل على اللفظ إذا قرب منه أحسن ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : « ومن يسلم وجهه إلى الله » فأفرد ، حملا على لفظ من ، وقال فى آخر الآية : ولا خوف عليهم ، فجمع حملا على المعنى ، لما بعد عن اللفظ ، وهكذا كان القياس فى قوله : « ومنهم من يستمعون » ، ولكن لما كانوا جماعة ، ونزلت الآية فيهم بأعيانهم ، صار المعنى : ومنهم نفر يستمعون ، يعنى أولئك النفر ، وهم أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق ، ألا ترى كيف قال بعد : « ومنهم من ينظر إليك » فأفرد حملا على اللفظ لارتفاع السبب المتقدم ، والله أعلم .

بحث فى الإكراه على الكفر ، وعلى المعصية : فصل : وذكر تعذيب من أسلم وطرحهم فى الرمضاء ، وكانوا يلبسونهم أدراع الحديد ، حتى أعطوهم بألسنتهم ماسألوا من كلمة الكفر إلا بلالا ـ رحمه الله ـ وأنزل الله فيهم: « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ونزل فى عمار وأبيه : « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ولما كان الإيمان أصله فى القلب ، رخص للمؤمن فى حال الإكراه أن يقول بلسانه إذا خاف على نفسه حتى يأمن .قال ابن مسعود: مامن كلمة تدفع عنى سوطين إلا قلتها هذا فى القول ، فأما الفعل ، فتنقسم فيه الحال : فنه مالا خلاف فى جوازه كشرب الخمر ، إذا خاف على نفسه القتل ، وإن لم يخف إلا مادون القتل ، فالصبر له أفضل ، وإن لم يخف فى ذلك إلا كسجن يوم ، أوطرف من الهوان خفيف ، فلا تحل له المعصية من أجل ذلك ، وأما الإكراه على القتل ، فلا خلاف فى حظره ، لأنه إنما رخص له فيما دون القتل ، ليدفع بذلك قتل نفس مؤمنة ، وهى نفسه ، فأما إذا دفع عن نفسه بنفس أخرى فلا رخصة ، واختلف فى الإكراه على الزنى ، فذكر عن ابن الماجشون أنه قال : لارخصة فيه ، لأنه لاينتشر له إلا عن إرادة فى القلب أو شهوة ، وأفعال القلب لاتباح مع الإكراه ، وقال غيره : بل يرخص فى ذلك لمن خاف القتل لأن انبعاث الشهوة عند المماسة بمنزلة انبعاث اللعاب عند مضغ الطعام ، وقد يجوز أكل الحرام إذا أكره عليه .

فصل : واختلاف الأصوليون فى مسألة من الإكراه ، وهى : هل المكره على الفعل مخاطب بالفعل ، أم لا؟ فقالت المعتزلة : لا يصح الأمر بالفعل مع الإكراه عليه ، وقالت الأشعرية : ذلك جائز ، لأن العزم إنما هو فعل القلب ، وقد يتصور عنه فى ذلك الحين العزم والنية ، وهى القصد إلى امتثال أمر الله تعالى ، وإن كان ظاهره أنه يفعله خوفا من الناس ، وذلك إذا أكره على فرض كالصلاة مثلا ، إذا قيل ، صل وإلا قتلت ، وأما إذا قيل له : إن صليت

. . . .

قتلت ، فظن القاضى أن الخلاف بيننا ، وبين المعتزلة فى ذلك ، وغلطه بعض أصحابه ، وقالوا : لاخلاف فى هذه المسألة أنه مخاطب بالصلاة مأمور بها ، وإن رخص له فى تركها ، فليس الترخيص مما يخرجه عن حكم الخطاب ، وإنما يرفع عنه الإكراه المأثم ، ولا يخرجه عن أن يكون مخاطباً بها ، وهذا الغلط المنسوب إلى القاضى فى هذه المسألة ليس بقول له ، وإنما حكاه فى كتاب التقريب والإرشاد عن طائفة من الفقهاء . قالوا ، لا يتصور القصد والإرادة للفعل مع الإكراه عليه . قال القاضى ، وهذا باطل ، لأنه يتصور انكفافه عنه مع الإكراه ، فكذلك يتصور منه القصد إلى الامتثال له ، وبه يتعلق التكليف ، فإنما غلط من نسب إليه من الأصوليين هذا القول الذى أبطله ، وبين بطلانه ، وإنما ذكرت ما قالوه قبل أن أرى كلامه فى المسألة ، وأقف على حقيقة مذهبه ، وهو برىء من الغلط فيها .

سمية وآل ياسر . فصل : وذكر فيمن عذب فى الله ، سمية أم عمار ، وقد ذكرنا قتل أبى جهل لها ، وهى أول شهيد فى الإسلام ، وروى أن عماراً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صبراً أبا اليقظان ، ثم قال : اللهم لاتعذب أحداً من آل عمار بالنار ، وسمية أمه ، وهى بنت خياط ، كانت مولاة لأبى حذيفة بن المغيرة ، واسمه مهشم ، وهو عم أبى جهل ، وغلط ابن قتيبة فيها ، فزعم أن الأزرق مولى الحارث بن كلدة خلف عليها بعد ياسر ، فولدت له سلمة بن الأزرق ، وقال أهل العلم بالنساء : إنما سمية أم سلمة بن الأزرق سمية أخرى ، وهى أم زياد بن أبى سفيان ، لاأم عمار ، وعمار والحويرث وعبود بنو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانه بن قيس بن الحصين بن لوذين ، ويقال الوذيم بن ثعلة بن عوف بن عامر بن حارثة بن زيام بن عنس بن مالك بن زيد العنسى المذحجى حليف لبنى مخزوم ، ومن ولد عمار : عبد الله بن سعد ابن الحسن بن عثمان بن الحسن بن عبد الله بن عمار بن ياسر ، وهو المقتول بالأندلس ، قتله عبد الرحمن بن معاوية .

زنيرة : فصل : وذكر زنيرة التى أعتقها أبو بكر ، وأول اسمها : زاى مكسورة بعدها نون مكسورة مشددة على وزن فعيلة ، هكذا صحت الرواية فى الكتاب ، والزنيرة : واحدة الزنانير ، وهى الحصا الصغار ، قاله أبو عبيدة ، وبعضهم يقول فيها : زنبرة بفتح الزاى وسكون النون وباء بعدها ، ولا تعرف زنبرة فى النساء ، وأما فى الرجال فزنبرة بن زبير بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، وابنه . خالد بن زنبرة ، وهو الغرق قاله الدارقطنى .

أم عميس : فصل . وذكر أم عميس ، وكانت لبنى تيم بن مرة أعتقها أبو بكر ، وذكر غير ابن إسحاق هؤلاء الذين عذبوا فى الله لما أعطوا بألسنتهم ماسئلوا من الكفر ، جاءت قبيلة كل رجل منهم بأنطاع الأدم فيها الماء ، فوضعوهم فيها وأخذوهم بأطراف الأنطاع ، واحتملوهم إلا بلالا .

بلال : وقول ورقة بن نوفل : لئن قتلتموه يعنى : بلالا ، وهو على هذا الحال لأتخذنه حنانا . أى : لأتخذن

. . . .

قبره منسكاً ومسترحماً . والحنان : الرحمة ، وكان بلال رحمه الله يكنى : أبا عبد الكريم ، وقيل : أبا عبد الله ، وأخته غفرة ، وقد تقدم فى أول الكتاب ذكر عمر مولى غفرة ، وهى هذه ، والغفرة : الأنثى من أولاد الأراوى ، والذكر : غفر .

الهجرة إلى أرض الحبشة

وقد ذكرنا نسب الحبشة فى أول الكتاب ، وأما النجاشى فاسم لكل ملك يلى الحبشة ، كما أن كسرى اسم لمن ملك الفرس ، وخاقان اسم لملك الترك كائنا من كان ، وبطليموس : اسم لمن ملك يونان ، وقد ذكرنا هذا المعنى قبل ، واسم هذا النجاشى : أصحمة بن أبجر وتفسيره : عطية . وذكر فى أول من خرج إلى الحبشة : عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان حين تزوجها يغنيهما النساء :

أحسن شخصين رأى إنسان رقيـة وبعلها عثمان

ولدت رقية لعثمان ابنه عبد الله ، وبه كان يكنى ، ومات وهو ابن ست سنين ، وكان سبب موته أن ديكا نقره فى عينه ، فتورم وجهه فرض ، فمات . وذلك فى جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة ، ثم كنى بعد ذلك أبا عمرو ، وهذا هو عبد الله الأصغر . وعبد الله الأكبر هو ابنه من فاختة بنت غزوان ، وأكبر بنيه بعد هذين عمرو ، ومن بنيه عمر وخالد وسعيد والوليد والمغيرة وعبد الملك وأبان ، وفى السيرة من غير هذه الرواية أن رقية كانت من أحسن البشر ، وأن رجالا من الحبشة رأوها بأرضهم ، فكانوا يدركلون (١) إذا رأوها إعجابا منهم بحسنها ، فكانت تتأذى بذلك ، وكانوا لا يستطيعون لغربتهم أن يقولوا لهم شيئاً ، حتى خرج أولئك النفر مع النجاشى إلى عدوه الذى كان ثار عليه ، فقتلوا جميعاً ، فاستراحت منهم ، وظهر النجاشى على عدوه ، وروى الزبير فى حديث أسنده أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث رجلا بلطف إلى عثمان ورقية ، فاحتبس عليه الرسول ، فقال له عليه السلام : إن شئت أخبرتك ما حبسك ، قال : نعم ، قال : وقفت تنظر إلى عثمان ورقية تعجب من حسنهما .

وذكر ابن إسحاق تسمية المهاجرين إلى أرض الحبشة ، وقد تقدم التعريف ببعضهم ، وذكرنا سبب إسلام عمرو بن سعيد بن العاصى ، وأنه رأى نوراً خرج من زمزم أضاءت له منه نخيل المدينة ، حتى رأوا البسر فيها ، فقص رؤياه ، فقيل له : هذه بئر بنى عبد المطلب ، وهذا النور فيهم يكون ، فكان سبباً لبداره للإسلام .

رؤيا خالد بن العاصى : وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذه الرؤيا إنما كانت لأخيه ، وأن عمراً هو الذى عبرها له ، وهذا هو الصحيح فيها ، والله أعلم ، وأما أخوه خالد بن سعيد ، فكان يرى — قبل أن يسلم — نفسه قد أشفى على نار تأجج ، وكأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أخذ بحجزته ، يصرفه عنها ، فلما استيقظ علم أن نجاته

(١) الدركلة : لعبة من لعب الحبشة .

. . . .

من النار على يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما أظهر إيمانه ضربه أبوه بمقرعة ، حتى كسرها على رأسه ، وحلف ألا ينفق عليه ، وأغرى به إخوته ، فطردوه وآذوه ، فانقطع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى هاجر إلى أرض الحبشة - كما ذكر ابن إسحاق - وأبوه سعيد بن العاصى أبو أحيحة الذى يقول فيه القائل :

أبو أحيحة من يعتم عمته يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

أبو أحيحة وعمامته : وكان إذا اعتم لم يعتم قرشى إعظاماً له ، وقد قيل فى عمته أيضاً ما أنشده عمرو ابن بحر الجاحظ :

وكان أبو أحيحة قد علمتم بمكة غير مهتضم ذميم
إذا شد العصابة ذات يوم وقام إلى المجالس والخصوم
لقد حرمت على من كان يمشى بمكة غير محتقر لئيم

مات أحيحة الذى كان يكنى به فى حرب الفجار ، وأسلم من بنيه أربعة أبان وخالد وعمرو والحكم الذى سماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبد الله . ومات أحيحة بن سعيد وغيرهما من بنيه على الكفر ، قتل العاصى منهم يوم بدر كافرا .

أمة بنت خالد : وذكر أمة بنت خالد بن سعيد التى ولدت بأرض الحبشة ، قال : وتزوجها الزبير بن العوام ، وهى التى كساها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى صغيرة ، وجعل يقول : سناه سناه ياأم خالد !! أى : حسن حسن بلغة الحبشة ، وكانت قد تعلمت لسان الحبشة ، لأنها ولدت بأرضهم ، وولدت للزبير عمراً وخالداً ، يقال: إن أباها خالد بن سعيد أول من كتب . بسم الله الرحمن الرحيم ، مات بأجنادين شهيداً ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد استعمله على صنعاء واليمن، فلما توفى رسول الله - صل الله عليه وسلم - أراد أبو بكر أن يستعمله ، فقال : لا أعمل لأحد بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبداً ، ويروى أن أباه سعيد بن العاص مرض ، فقال : إن رفعنى الله من مرضى لا يعبد إله ابن أبى كبشة بمكة أبداً ، فقال ابنه خالد : اللهم لا ترفعه فهلك مكانه ، فهؤلاء بنو سعيد بن العاصى بن أمية .

عبد شمس أو عبشمس : وعثمان : هو ابن عفان بن أمية بن عبد شمس ، ولا يختلف فى عبد شمس أنه بالدال ، وأما عبشمس بن سعيد بن زيد مناة بن تميم ، فقال فيه أبو عبيد والقتبى : عبد شمس كما فى الأول . وقال أكثر الناس فيه : عبشمس، ثم اختلفوا فى معناه ، فقيل ، معناه : عبد شمس ، لكن أدغمت الدال ، وقيل : بل عبشمس وعب الشمس هو ضوؤها أو صفاؤها، وقيل فى المثل : هو أبرد من عبقر أى : البرد ، وبعضهم يقول: وهو المبرد. من عب قر أى : بياض قر ، ومن حب قر أيضاً . وفيه قول ثالث : أعنى : عبشمس . وهو مروى عن ابن عمر. وقال معناه : عبء شمس بالهمز . ثم حذفت الهمزة تسهيلا . وعب الشمس . وعبوها مثله .

هل هاجر عمار إلى الحبشة : وشك ابن إسحاق فى عمار بن ياسر : هل هاجر إلى أرض الحبشة ، أم لا ؟ والأصح عند أهل السير كالواقدى وابن عقبة . وغيرهما أنه لم يكن فيهم .

. . . .

استدراك على ابن إسحاق فى مهاجرى الحبشة : وذكر ابن إسحاق من بنى الحارث بن قيس من هاجر إلى أرض الحبشة ، ولم يذكر فيهم تميم بن الحارث ، وذكره الواقدى وغيره . والحارث ابن قيس كان أبوه من المستهزئين الذين أنزل الله فيهم : « إنا كفيناك المستهزئين » .

وذكر من بنى زهرة من هاجر إلى أرض الحبشة ، وهم ستة نفر ، ولم يذكر السابع ، وهو: عبد الله بن شهاب جد محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى ، وكان اسمه : عبد الجان ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبد الله مات بمكة بعد الفتح وأخوه عبد الله الأصغر شهد أحداً مع المشركين ، ثم أسلم .

وذكر المطلب بن عبد عوف ولم يذكر أخاه طليبا ، وكلاهما هاجر إلى أرض الحبشة ، ومات بها ، وهما أخوا أزهر بن عبد عوف .

ذكر لبعض المسائل اللغوية التى ذكرت فى شعر الهجرة الحبشية : **فصل** : وأنشد لعبد الله بن الحارث ماقاله فى أرض الحبشة ، وفيه قوله :

ألحق عذابك بالقوم الذين طغوا ‌ ‌ ‌ ‌ وعائذا بك أن يعلو فيطغونى

أنشده سيبويه فيما ينتصب على الفعل المتروك إظهاره ، وذلك لحكمة ، وهى أن الفعل لو ظهر لم يخل أن يكون ماضيا أو مستقبلا ، فالماضى يوهم الانقطاع ، والمتكلم إنما يريد أنه فى مقام العائذ ، وفى حال عوذ ، والفعل المستقبل أيضاً يؤذن بالانتظار ، وفعل الحال مشترك مع المستقبل فى لفظ واحد ، وذلك يوهم أنه غير عائذ ، فكأن مجيئه بلفظ الاسم المنصوب على الحال أدل على ما يريد ، فإن عائذا كقائم وقاعد ، وهو الذى يسمى عند الكوفيين : الدائم ، فالقائل : عائذا بك يارب ، إنما يريد : أنا فى حال عياذ بك ، والعامل فى هذه الحال : تكلمه ونداؤه ، أى : أقول قولى هذا عائذا ، وليس تقديره : عذت ولا أعوذ ، إنما يريد أن يسمعه ربه ، أو يراه عائذا به .

وقوله : أن يعلو يجوز أن تكون أن مع مابعدها فى موضع نصب ، وفى موضع خفض عند النحويين ، أما النصب فعلى إضمار الفعل ، لأنه قال : عائذاً ، فأعلم أنه خائف ، فكأنه قال : أخاف أن يعلو فيطغونى ، وأما الخفض فعلى إضمار حرف الجر ، فكأنه قال : من أن يعلو ، وهو مذهب الخليل وسيبويه فى أن المخففة وأن المشددة نحو قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » تقديره : لأن هذه ، وجاز إضمار حرف الجر فى هذين الموضعين ، وإن كانت حروف الجر لا تضمر ؛ لأنهما موصولتان بما بعدهما ، فطال الاسم بالصلة ، فجاز حذف الجر تخفيفاً .

ولقائل أن يقول : هذه دعوى ادعيتم أن (أن) وما بعدها اسم مخفوض ، وهو لا يظهر فيه الخفض ، ثم بنيتم التعليل على غير أصل ، لأن الخفض لم يثبت بعد ، فنقول : إنما علمنا أنه فى موضع خفض لوقوعه فى موضع لا يقع فيه إلا المخفوض بحرف الجر نحو قوله سبحانه : « وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » ونحو قوله تعالى: « أحق أن تقوم فيه » ونحو قوله : « أن تضل إحداهما » فقوله تعالى : أجدر ألا يعلموا ، معناه : بأن لا يعلموا ،

. . . .

فلو كان قبل أن فعل لقلنا : حذف حرف الجر ، فتعدى الفعل ، فنصب ، ولكن أجدر وأحق اسمان لايعملان ، فمن هاهنا عرف النحويون أنه فى موضع خفض ، إذ لا ناصب له ، وأما ما اعتلوا به من طول الاسم بالصلة ، وأن ذلك هو الذى سوغ لهم إضمار حرف الجر ، فتعليل مدخول ، ينتقض عليهم بالأسماء الموصولة كالذى ومن وما ، فإنها قد طالت بالصلة ، ومع ذلك لايجوز إضمار حرف الجر فيها ، لاتقول : خرجت ماعندك ، ولاهربت الذىعندك، أى : من الذى عندك ، وتقول : خرجتأن يرانى زيد ، وفررت أن يرانى عمرو ، أى : من أن يرانى، ولأن يرانى بدل ، على أن العلة غير ماقالوا ، وهى أن (أن) مع الفعل ليس باسم محض ، وإنما هو فى تأويلاسم، والاسم المحض مادل عليه حرف الجر ، فلا بد إذاً من إظهار حرف الجر إذا جئت به ، لأنه اسم قابل لدخول الخوافض عليه ، وأما أن فحرف محض لا يصح دخول حرف جر عليه ، ولا على الفعل المتصل به فلا تقول : هو اسم مخفوض ، إنما هو فى تأويل اسم مخفوض ، فمن هاهنا فرقت العرب بينه ، وبين غيره من الأسماء ، فإذا أدخلت عليه حرف الجر مظهراً جاز ، لأنه فى تأويل اسم ، وإذا أضمرت حرف الجر جاز أيضاً التفاتاً إلى أن الحرف الجار لا يدخل على الحرف ، ولا على الفعل،فحسن إسقاطه مراعاة لفظ أن ، وللفظ الفعل، وقلنا : هو فى موضع خفض على معنى أن الكلام يئول إلى الاسم المخفوض ، لا أنه يظهر فيه خفض ، أو يقدر تقدير المبنى الذى منعه البناء من ظهورالخفض فيه . حتى يشبه أن . فنقول : هو اسممبنى علىالسكون ، لابل نقول : هى حرف ،والحرف لا يدخل عليه حرف الجر ، لا مضمراً ولا مظهراً ، وإنما هو تقدير فى المعنى ، لا فى اللفظ ، فافهمه .

فصل : واعلم أن (أن) التى فى تأويل المصدر لا يضاف إليها اسم . تقول : هذا موضع أن تقعد ويوم خروجك ، ولا تقول : يوم أن تخرج ، لأنها ليست باسم كما قدمناه ، وإنما تضاف إلى الأسماء المحضة ، لا إلى التأويل ، ولا يضاف إليها أيضاً اسم الفاعل ، لا بمعنى المضى ولا بمعنى الاستقبال ، ولا المصدر إلا على وجه واحد نحو : مخافة أن تقوم ، وذلك إذا أردت معنى المفعول بأن وما بعدها ، وأما على نحو إضافة المصدر إلى الفاعل ، فلا يجوز ذلك : وإنما تكون فاعلة مع الفعل إذا ذكرته قبلها نحو : يسرنى أن تقوم ، وأما مع المصدر مضافا إليها فلا ، وتكون مفعولة مع المصدر ومع الفعل معاً ، وكل هذا الأسرار بديعة موضعها غير هذا .

لكنى أقول ههنا قولا لائقا بهذا الموضع ، فإنى لم أذكر الخفض بإضمارحرف الجر، فى أن وإن إلا مساعدة لمن تقدم، فعليه بنيت التعليل والتأصيل ، وإذا أبيت من التقليد فلا إضمار لحروف الجرفيها ، إنما هو النصب بفعل مضمر أو مظهر ، أماقوله تعالى : « أحق أن تقوم فيه » فإنما لما قال أحق علم أنه يوجب عليه أن يقوم فيه، وكذلك أجدر ألا يعلموا ، ومعنى أجدر : أخلق وأقرب ، ولما ثبت لهم هذه الصفة اقتضى ذلك ألايعلموا ، فصار منصوبا فى المعنى ، ولو جئت بالمصدر الذى هو اسم محض نحو : القيام والعلم لم يصح إضمار هذا الفعل ، لأن أجدر وأحق ونحوهما اسمان يضافان إلى مابعدهما ، فلو جئت بالقيام بعد قولك أحق ، فقلت : أحق قيامك ، لانقلب المعنى . ولو نصبته بإضمار الفعل الذى أضمرت مع أن لم يكن دليل عليه ، لأن الاسم يطلب الإضافة فيمنع من الإضمار والنصب ، وإذا وقعت بعده لم يطلب الإضافة ، لما قدمناه من امتناع إضافة الأسماء إليها .

. . . .

وإنما اخترنا هذا المذهب ، وآثرناه على ما تقدم من إضمار الخافض ، لأنا قد نجدها فى مواضع مجرورة ، ولايجوز إضمار حرف الجر ، كقولك : سر إلى أن تطلع الشمس ، ولا يجوز إضمار إلى ههنا ، وكذلك نقول : هذا خير من أن تفعل كذا ، ولا يجوز أيضاً إضمار من ، ولو كان حرف الجرمعها للعلتين المتقدمتين لاطرد جواز ذلك فيها على الإطلاق ، وإنما هى أبداً إذا إذا لم يكن معها حرف الجر ظاهرا مفعولة بفعل مضمر ، وقد تكون فاعلة ، ولكن بفعل ظاهر نحو : يعجبنى أن تقوم ، وأما خرجت أن أرى زيدا فعلى إضمار الإرادة والقصد ، كأنك أردت : أن أراه ، أو أن لا أراه ، لأن كل من فعل فعلا ، فقد أراد به أمراً ما ، لكنك إن جعلت مكانها المصدر لم يجز الإضمار أو قبح ، لأن المصدر تعمل فيه الأفعال الظاهرة إذا كانت متعدية . وتصل إليه بحرف جر إذا لم تكن متعدية ، وأن مع الفعل لا تعمل فيها الحواس ولا أفعال الجوارح الظاهرة ، تقول : رأيت قيام زيد، ولا تقول : أن يقوم ، وسمعت كلامك ، ولا تقول : سمعت أن تتكلم ، وإنما يتعلق بها ، وتعمل فيها الأفعال الباطنة نحو : خفت واشتهيت وكرهت ، وما كان فى معنى هذا أو قريباً منه فإذا سمع المخاطب أن مع الفعل لم يذهب وهمه بحكم العادة إلا إلى هذه المعانى ، فإن كانت ظاهرة فذاك ، وإلا اعتقدنا أنها مضمرة ، وأن الفعل الظاهر دال عليها ، وغيرها من الأسماء ليس كذلك ، إذا وقع قبلها فعل من أفعل الجوارح الظاهرة ، وقع عليها إن كان متعديا أو وصل بحرف ، إن كان غير متعد ، ومنع من الإضمار أنه لفظى ، والإضمار معنوى ، إلا فى باب المفعول من أجله ، وقد قدمنا فيه سراً بديعاً فيما سبق من هذا الكتاب .

فصل : وأنشد لعبد الله بن الحارث شعراً فيه :

كما جحدت عاد ومدين والحجر

أما عاد فقد تقدم نسبها ، وأما الحجر فليست بأمة ، ولكنها ديار ثمود . أراد : أهل الحجر، وأمامدين فأمة شعيب ، وهم بنو مديان بن إبراهيم عليه السلام ، وأمهم :قطورا بنت يقطان الكنعانية ، ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم ، وقد سميناهم فى كتاب التعريف والإعلام ، وفى أول هذا الكتاب .

وفيه أيضاً قوله : فإن أنا لم أبرق فلا يسعنني. البيت ، قال وبه سمى المبرق ، قال المؤلف : وفى هذا حجة على الأصمعى حين منع أن يقال : أرعد وأبرق ، وذكر له قول الكميت :

أرعد وأبرق يايزيد

فلم يره حجه ، وألحقه بالمحدثين لتأخر زمانه ، كما فعل بذى الرمة حين احتج عليه بقوله :

ذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة

فأبى أن يقول : زوجة بهاء التأنيث ، وقال : طالما أكل ذو الرمة الزيت فى حوانيت البقالين ، وبيت المبرق

. . . .

فى هذا حجة بلا خلاف ، وقد وجد أرعد وأبرق فى غير هذا البيت ، مما تقوم به الحجة أيضاً ، وبيت المبرق هذا يحتمل وجها آخر ، وهو أن يكون من أبرق فى الأرض إذا ذهب بها لا من أرعد وأبرق ، وكذلك وجدته فى حاشية كتاب الشيخ على هذا البيت منسوبا للمصعب ، قال : الإبراق : الذهاب ، وفى العين : أبرقت الناقة بذنبها إذا ضربت به يمينا وشمالا ، وهو فى معنى الذهاب فى الأرض ، لأنه جولان فيها ، وهى البروق . قال نهشل بن دارم لأخيه سليط ـ وقد لامه على ترك الكلام فى بعض المواطن : لا أحسن تأثامك ، ولا تكذابك ، تشول بلسانك شولان البروق . وذكر فى الشعر :

يلين مافى النفس إذ بلغ النقر

ويروى : يلين مافى الصدر . والنقر : البحث عن الشىء ، وأكثر مايقال فيه : التنقير ، واستشهد عبد الله المبرق فى غزوة الطائف ، وكان أبوه الحارث من المستهزئين ، وكان جده قيس أعز قريش فى زمانه ، يروى أن عبد المطلب كان ينقز (يرقص) عبد الله والد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو طفل ، فيقول :

كأنه فى العز قيس بن عدى   فى دار قيس الندى يغتدى

قاله الزبير بن أبى بكر :

فصل : وذكر شعر عثمان بن مظعون

أتيم بن عمرو للذى جاء بغضة

أراه : عجبا للذى جاء ، والعرب تكتفى بهذه اللام فى التعجب ، كقوله عليه السلام : لهذا العبد الحبشى جاء من أرضه وسمائه إلى الأرض التى خلق منها ، قاله فى عبد حبشى دفن بالمدينة ، وقال فى جنازة سعد بن معاذ وهو واقف على قبره ، وتقهقر ثم قال : سبحان الله لهذا العبد الصالح ضم عليه القبر ثم فرج عنه ، وقيل فى قوله سبحانه « لإيلاف قريش » أقوال منها : أنها متعلقة بمعنى التعجب ، كأنه قال : اعجبوا لإيلاف قريش ، وبغضة نصب على التمييز كأنه قال : ياعجبا لما جاء به من بغضة ، ويجوز أن يكون مفعولا من أجله ، وروى الزبير هذا البيت :

أتيم بن عمر للذى فارضغنه

وكذلك روى فى هذا الشعر : فى صرح بيطاء تقدع بالطاء وفتح الباء وكسرها ، وقال بيطاء : اسم سفينة ، وتقدع بالدال ، أى : تدفع ، وزعم أن تيم بن عمرو وهو جمح سمى جمحاً ، لأن أخاه سهم بن عمرو — وكان اسمه زيداً ـ سابقه إلى غاية ، فجمح عنها تيم ، فسمى جمحاً ، ووقف عليها زيد ، فقيل : قد سهم زيد فسمى : سهماً .

وقوله : ومن دوننا الشرمان . الشرم البحر وقال الشرمان بالتثنية ، لأنه أراد البحر الملح ، والبحر العذب ، وفى التنزيل : « مرج البحرين » والشرم من : شرمت الشىء إذا خرقته ، وكذلك البحر من بحرت الأرض إذا خرقتها ومنه سميت البحيرة لخرق أذنها والبرك : ما اطمأن من الأرض واتسع ، ولم يكن منتصبا كالجبال .

. . . .

وقوله : فى صرح بيضاء . يريد : مدينة الحبشة ، وأصل الصرح : القصر ، يريد : أنه ساكن عند صرح النجاشى .
وقوله : تقدع أى : تكره كأنه من أقذعت الشىء ، إذا صادفته قذعاً ويقال أيضاً : قذعت الرجل إذا رميته بالفحش ، يريد أن أرض الحبشة مقذوعة ، وأحسب هذه الرواية تصحيفا ، والصحيح : ماقدمناه من قول الزبير وروايته ، أنه بيطاء بالطاء وتقدع بالدال .

وقوله : وأسلك الأوباش يريد أخلاطا من الناس ، يقال : أوشاب وأوباش ، والأوباش أيضاً شجر متفرق والوبش بياض فى أظفار الأحداث .

من أنساب مهاجرى الحبشة : وذكر فيمن هاجر إلى أرض الحبشة من بنى عدى : معمر بن عبد الله بن نضلة ، وقال فيه على بن المدينى : إنما هو : معمر بن عبد الله بن نافع بن نضلة .

وقال ابن إسحاق : نضلة بن عبد العزى بن حرثان بن عوف بن عبيد وفى حاشية كتاب الشيخ قال : إنما هو نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج ، وذكر أنه قول مصعب فى كتاب النسب . وذكر فى بنى عدى : عروة بن عبد العزى بن حرثان ، كذا فى كتاب المصعب إلا أنه قال : عمرو بن أبى أثاثة أو عروة بن أبى أثاثة على الشك .

وذكره أبو عمر فى كتاب الاستيعاب فقال فيه : عروة بن أبى أثاثة ، ويقال ابن أثاثة بن عبد العزى بن حرثان قال : وأمه ، أم عمرو بن العاصى ، فهو أخوه لأم قال المؤلف : وأمهما اسمها : ليلى ، وتلقب بالنابغة ، وهى من بنى ربيعة ثم من بنى جلان قال أبو عمر . ويقال فيه : ابن أبى أثاثة ، قال المؤلف : وقدمنا أن المصعب الزبيرى شك فيه ، فقال : عروة ، أو عمرو ، وأما الزبير : فقال عمرو بن أبى أثاثة ، ولم يشك ، ثم قال أبو عمر : لم يذكره ابن إسحاق فيمن هاجر إلى أرض الحبشة ، وذكره الواقدى ، وأبو معشر وموسى بن عقبة ، قال المؤلف : وهذا وهم من أبى عمر ـ رحمه الله ـ فإن ابن إسحاق ذكره فيهم ، غير أنه نسبه إلى جده عبد العزى ، وأسقط اسم أبيه أبى أثاثة ، وقال حين ذكر من هاجر من بنى عدى بعد ما عدهم خمسة ، قال : أربعة نفر ، وهو وهم من ابن إسحاق ، وذكر فيهم مع الخمسة : ليلى بنت أبى حثمة امرأة عامر بن ربيعة ، فهم على هذا ستة ، غير أنه يحتمل أن يريد أربعة نفر دون حليفهم عامر ، وما أظنه قصد هذا ، لأن من عادته أن يعد الحلفاء مع الصميم ، لأن الدعوة تجمعهم .

أم سلمة : وذكر أم سلمة وبعلها أبا سلمة ، توفى عنها بالمدينة ، وخلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وذكر اسمها هذا ، وقيل فى اسمها : رملة ، وأبوها أبو أمية اسمه حذيفة يعرف بزاد الراكب .

وذكر أنها ولدت بأرض الحبشة زينب بنت أبى سلمة ، وكان اسم زينب برة فسماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب ، كانت زينب هذه عند عبد الله بن زمعة ، وكانت قد دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم

إرسال قريش إلى الحبشة فى طلب المهاجرين إليها

قال ابن إسحاق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمنوا ، واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشى ، فيردهم عليهم ، ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم ، التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، ثم بعثوهما إليه فيهم .

شعر أبى طالب للنجاشى : فقال أبو طالب ـ حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه ـ أبياتا للنجاشى يحضه على حسن جوارهم ، والدفع عنهم :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر ... وعمرو وأعداء العدو الأقارب

وهل نالت افعال النجاشى جعفراً ... وأصحابه أو عاق ذلك شاغب

تعلم ـ أبيت اللعن ـ أنك ماجد ... كريم فلا يشقى لديك المجانب

تعلم بأن الله زادك بسطة ... وأسباب خير كلها بك لازب

وأنك فيض ذو سجال غزيرة ... ينال الأعادى نفعها والأقارب

وهو يغتسل ، وهى إذ ذاك طفلة ، فنضح فى وجهها من الماء ، فلم يزل ماء الشباب فى وجهها ، حتى عجزت وقاربت المائة ، وكانت من أفقه أهل زمانها ، وأدركت وقعة الحرة بالمدينة ، وقتل لها فى ذلك اليوم ولدان ، اسم أحدهما، كبير ، والآخر : يزيد من عبد الله بن زمعة ، فكانت تبكى على أحدهما ، ولا تبكى على الآخر ، فسئلت عن ذلك ، فقالت : أبكيه لأنه جرد سيفه وقاتل ، والآخر لا أبكيه لأنه لزم بيته ، وكف يده حتى قتل ، روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين ابتنى بأم سلمة دخل عليها بيتها فى ظلمة ، فوطىء على زينب ، فبكت ، فلما كان من الليلة الأخرى دخل فى ظلمة أيضا ، فقال : أنظروا زنابكم أن لا أطأ عليها ، أو قال : أخروا ذكره الزبير ، وفى هذا الحديث توهين رواية من روى أنه كان يرى بالليل ، كما يرى بالنهار .

النجاشى والنور الذى على قبره : فصل : وذكر حديث عائشة : كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبر النجاشى نور ، وقد خرجه أبو داود من طريق سلمة بن الفضل ، وعن ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عائشة، وأورده فى باب : النور يرى عند الشهيد ، وليس فى هذا الحديث ولا غيره مايدل على أن النجاشى مات شهيداً ، وأحسبه أراد : أن يشهد بهذا الحديث ماوقع فى كتب التاريخ من أن عبد الرحمن بن ربيعة أخا سلمان بن ربيعة الذى يقال له : ذو النور ، وكان على باب الأبواب فقتله الترك زمان عمر ، فهو لا يزل يرى على قبره نور ، ويعضد هذا حديث النجاشى ، يقول : فإذا كان النجاشى ـ وليس بشهيد يرى عنده نور ، فالشهيد أحرى بذلك لقول الله سبحانه : « والشهداء عند ربهم ، لهم أجرهم ونورهم » .

حديث أم سلمة عن الرسولين اللذين أرسلتهما قريش للنجاشي : قال ابن اسحاق : حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار : النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيراً . ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ؛ ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم . ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه ، فقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ، ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم : لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه . قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي . قالت : فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم . قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم ، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم فان كانوا كما يقولان ، أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

الحوار الذي دار بين المهاجرين والنجاشي : قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم ، فقال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟! قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ؛ لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا

عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ـ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ـــ فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قالت : فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به الله من شىء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال النجاشى : فاقرأه على ، قالت : فقرأ عليه صدرا من : « كهيعص » . قالت : فبكى والله النجاشى ، حتى أخضلت لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلاوالله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون .

رأى المهاجرين فى عيسى أمام النجاشى : قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم . قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا : لانفعل ، فان لهم أرحاما ، وإن كانوا قد خالفونا . قال . والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم عما يقولون فيه قالت : فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه : قالت : فأرسل إليهم ، ليسألهم عنه قالت : ولم ينزل بنامثلهـــا قط فاجتمع القوم . ثم قال بعضهم لبعض : ماذاتقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول ـ والله ـ ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، وكائنا فى ذلك ماهو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول : . قالت : فضرب النجاشى بيـــده إلى الأرض ، وأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم ما قال هذا العود ، قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى ـ والشيوم الآمنون ـ من سبكم غـــرم ، ثم قال . من سبكم غـــرم ، ثم قال : من سبكم غرم ما أحب أن لى دبراً من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم ـ قال ابن هشام : ويقال : دبرى من ذهب . ويقال فأنتم سيوم ، والدبر ـ بلسان الحبشة الجبـــل ـ ردوا عليهما هداياهم ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخيردار ، مع خير جار .

المهاجرون يفرحون بانتصار النجاشى : قالت : فوالله إنا لعلى ذلك ، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه . قالت : فوالله ما علمنا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك ، تخوفا أن يظهر ذلك الرجل

. . . .

على النجاشى ، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه ، قالت : وسار إليه النجاشى ، وبينهما عرض النيل ، قالت : فقال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ، ثم يأتينا بالخبر؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالوا : فأنت ـ وكان من أحدث القوم سنا ـ قالت فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له فى بلاده ، قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشى ، وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده .قالت : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها . قالت : ورجع النجاشى ؛ وقد أهلك الله عدوه ؛ ومكن له فى بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

قصة تملك النجاشى على الحبشة

قتل أبى النجاشى وتملك عمه : قال ابن إسحاق ؛ قال الزهرى : فحدثت عروة بن الزبير حديث أبى بكر ابن عبد الرحمن عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل تدرى ما قوله : ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيع الناس فيه ؟ قال : قلت : لا ، قال : فان عائشة أم المؤمنين حدثتنى أن أباه كان ملك قومه ، ولم يكن له ولد إلا النجاشى ، وكان للنجاشى عم ، له من صلبه اثنا عشر رجلا ، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة فقالت الحبشة بينها : لو أنا قتلنا أبا النجاشى ، وملكنا أخاه فانه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثنى عشر رجلا ، فتوارثوا ملكه من بعده ، بقيت الحبشة بعده دهراً ، فغدوا على أبى النجاشى فقتلوه ، وملكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا .

الحبشة تبيع النجاشى : ونشأ النجاشى مع عمه ـ وكان لبيبا حازما من الرجال ـ فغلب على أمر عمه ، ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه منه ، قالت بينها : والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه ، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا ، وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه . فمشوا إلى عمه . فقالوا : إما أن تقتل هذا الفتى ، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا ، فانا قد خفناه على أنفسنا ، قال : ويلكم ؟ قتلت أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم قالت : فخرجوا به إلى السوق ، فباعوه من رجل من التجار بمائة درهم ، فقذفه فى سفينته فانطلق به ، حتى إذا كان العشى من ذلك اليوم ، هاجت سحابة من سحائب الخريف ، فخرج عمه يستمطر تحتها ، فأصابته صاعقة ، فقتلته . قالت : ففزعت الحبشة إلى ولده ، فاذا هو محمق ، ليس فى ولده خير ، فمرج على الحبشة أمرهم .

تولية النجاشي الأمر : فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك ، قال بعضهم لبعض : تعلموا والله أن ملككم الذى لا يقيم أمركم غيره للذى بعتم غدوة ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة ، فادركوه الآن . قالت : فخرجوا فى طلب الرجل الذى باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ، ثم جاءوا به ، فعقدوا عليه التاج ، وأقعدوه على سرير الملك ، فملكوه .

حديث التاجر الذى اشتراه : فجاءهم التاجر الذى كانوا باعوه منه ، فقال : إما أن تعطونى مالى ، وإما أن أكلمه فى ذلك ؟ قالوا : لا نعطيك ، قال : إذن والله أكلمه ، قالوا : فدونك وإياه . قالت : فجاءه فجلس بين يديه ، فقال : أيها الملك ، ابتعت غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم ، فأسلموا إلى غلامى ، وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرت بغلامى ، أدركونى ، فأخذوا غلامى ، ومنعونى دراهمى . قالت : فقال لهم النجاشى : لتعطنه دراهمه ، أو ليضعن غلامه يده فى يده ، فليذهبن به حيث شاء ، قالوا : بل نعطيه دراهمه . فلذلك يقول : ما أخذ الله منى رشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيع الناس فيه . قالت : وكان ذلك أول ما خبر من صلابته فى دينه ، وعدله فى حكمه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت : لما مات النجاشى ، كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور .

إسلام النجاشى والصلاة عليه وخروج الحبشة عليه

قال ابن إسحاق : وحدثنى جعفر بن محمد ، عن أبيه ، قال : اجتمعت الحبشة ، فقالوا للنجاشى : إنك قد فارقت ديننا ، وخرجوا عليه قال : فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقال : اركبوا فيها ، وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم وإن ظفرت فاثبتوا . ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة ، وصفوا له ، فقال يا معشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فما لكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبد ، قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟ قالوا : نقول : هو ابن الله ، فقال النجاشى ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئا ، وإنما يعنى ما كتب ، فرضوا وانصرفوا ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما مات النجاشى صلى عليه واستغفر له .

إرسال قريش إلى النجاشى فى أمر أصحاب

النبى صلى الله عليه وسلم

نسب عبد الله بن أبى ربيعة : ذكر ابن اسحاق أنهم أرسلوا عمرو بن العاصى ، وعبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ، وأهدوا معهما هدايا إلى النجاشى . وعبد الله بن أبى ربيعة هذا كان اسمه بحيرا ، فسماه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أسلم : عبد الله ، وأبوه : أبو ربيعة ذو الرمحين ، وفيه يقول ابن الزبعرى :

. . . .

بحيرا ابن ذى الرمحين قرب مجلسى   وراح علينا فضله وهو عاتم

واسم أبى ربيعة عمرو ، وقيل : حذيفة ، وأم عبد الله بن أبى ربيعة : أسماء بنت محربة التميمية ، وهى أم أبى جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة هذا هو والد عمر بن أبى ربيعة الشاعر ، ووالد الحارث أمير البصرة المعروف بالقباع ، وكان فى أيام عمر والياً على الجند ، وفى أيام عثمان ، جاء لينصره ، فسقط عن دابته فمات .

عمارة بن الوليد : فصل : وكان معهما فى ذلك السفر عمارة بن الوليد بن المغيرة تقدم ذكره حين قالت قريش لأبى طالب : خذ عمارة بدلا من محمد ، وادفع إلينا محمدا نقتله ، وكان عمارة من أجمل الناس ، فذكر أصحاب الأخبار أنهم أرسلوه مع عمرو بن العاصى إلى النجاشى ، ولم يذكره ابن إسحاق فى رواية ابن هشام، وذكر حديثه مع عمرو فى رواية يونس ، ولكن فى غير هذه القصة المذكورة هاهنا ، ولعل إرسالهم إياه مع عمرو ، كان فى المرة الأخرى التى سيأتى ذكرها فى السيرة عند حديث إسلام عمرو ، وممن ذكر قصة عمارة بطولها أبو الفرج الأصبهانى ، وذكر أن عمراً سافر بامرأته ، فلما ركبوا البحر ، وكان عمارة قد هوى امرأة عمرو وهويته ، فعزما على دفع عمرو ، أو كان ذلك من عمارة على غير قصد فدفع عمرا فسقط فى البحر ، فسبح عمرو ، ونادى أصحاب السفينة فأخذوه ورفعوه إلى السفينة ، فأضمرها عمرو فى نفسه ، ولم يبدها لعمارة ، بل قال لامرأته - فيما ذكر أبو الفرج - قبلى ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه ، فلما أتيا أرض الحبشة مكر به عمرو ، وقال : إنى قد كتبت إلى بنى سهم ليبرءوا من دمى لك ، فاكتب أنت لبنى مخزوم ليبرءوا من دمك لى ، حتى تعلم قريش أنا قد تصافينا ، فلما كتب عمارة ، إلى بنى مخزوم ، وتبرءوا من دمه لبنى سهم ، قال شيخ من قريش : قتل عمارة - والله - وعلم أنه مكر من عمرو ، ثم أخذ عمرو يحرض عمارة على التعرض لامرأة النجاشى ، وقال له : أنت امرؤ جميل ، وهن النساء يحببن الجمال من الرجال ، فلعلها أن تشفع لنا عند الملك فى قضاء حاجتنا ، ففعل عمارة فلما رأى عمرو ذلك ، وتكرر عمارة على امرأة الملك ، ورأى إنابتها إليه ، أتى الملك منتصحاً ، وجاءه بأمارة عرفها الملك ، قد كان عمار أطلع عمراً عليها ، فأدركته غيرة الملك ، وقال : لولا أنه جارى لقتلته ، ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل ، فدعا بالسواحر فأمرهن أن يسحرنه ، فنفخن فى إحليله نفخة ، طار منها هائما على وجهه ، حتى لحق بالوحوش فى الجبال ، وكان يرى آدميا فيفر منه ، وكان ذلك آخر العهد به إلى زمن عمر بن الخطاب فجاء ابن عمه عبد الله بن ربيعة إلى عمر ، واستأذنه ، فى المسير إليه لعله يجده ، فأذن له عمر فسار عبد الله إلى أرض الحبشة ، فأكثر النشدة عنه ، والفحص عن أمره ، حتى أخبر أنه - بجبل يرد مع الوحوش ، إذا وردت ، ويصدر معها إذا صدرت ، فسار إليه حتى كمن له فى الطريق إلى الماء ، فإذا هو قد غطاه شعره ، وتمزقت عليه ثيابه ، حتى كأنه شيطان ، فقبض عليه عبد الله ، وجعل يذكره بالرحم ويستعطفه وهو ينتفض منه ، ويقول : أرسلنى يا بحير ، وأبى عبد الله أن يرسله ، حتى مات بين يديه ، وهو خبر مشهور اختصره بعض من ألف فى السير ، وطوله أبو الفرج وأوردته على معنى كلامه ، متحريا لبعض ألفاظه .

حديث أصحاب الهجرة مع النجاشى : فصل : وذكر حديث أصحاب الهجرة مع النجاشى ، وما قال له جعفر إلى

. . . .

آخر القصة ، وليس فيها إشكال ، وفيه من الفقه : الخروج عن الوطن ، وإن كان الوطن مكة على فضلها ، إذا كان الخروج فراراً بالدين ، وإن لم يكن إلى إسلام ، فان الحبشة كانوا نصارى يعبدون المسيح ، ولا يقولون : هو عبد الله. وقد تبين ذلك فى هذا الحديث ، وسموا بهذه مهاجرين ، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى الله عليهم بالسبق ، فقال : « والسابقون الأولون» وجاء فى التفسير : أنهم الذين صلوا القبلتين ، وهاجروا الهجرتين ، وقد قيل أيضا : هم الذين شهدوا بيعة الرضوان ، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة ، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار كفر ، لما كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم ، ورجاء أن يخلى بينهم وبين عبادة ربهم ، يذكرونه آمنين مطمئنين ، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر فى بلد ، وأوذى على الحق مؤمن ، ورأى الباطل قاهرا للحق ، ورجا أن يكون فى بلد آخر — أى بلد كان — يخلى بينه وبين دينه ، ويظهر فيه عبادة ربه ، فان الخروج على هذا الوجه حتم على المؤمن ، وهذه الهجرة التى لا تنقطع إلى يوم القيامة : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

فصل : وليس فى باقى حديثهم شىء يشرح ، قد شرح ابن هشام الشيوم ، وهم الآمنون ، فيحتمل أن تكون لفظة حبشية غير مشتقة ، ويحتمل أن يكون لها أصل فى العربية ، وأن تكون من شمت السيف إذا أغمدته ، لأن الآمن مغمد عنه السيف ، أو لأنه مصون فى صوان ، حرز كالسيف فى غمده .

وقوله : ضوى إليك غلمان أى : آووا إليك ، ولاذوا بك ، وأما ضوى بكسر الواو ، فهو من الضوى مقصور ، وهو الهزال ، وقال الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة   فيضوى ، وقد يضوى رديد الغرائب

ومنه الحديث : اغتربوا لا تضووا ، يقول : إن تزويج الغرائب يورث الضوى فى الولد ، والضعف فى القلب ، قال الراجز :

إن بلالا لم تشنه أمه   لم يتناسب خاله وعمه

العين هل هى صفة أو جارحة : وفيه : قومهم أعلى بهم عينا ، أى : أبصر بهم ، أى : عينهم وإبصارهم فوق عين غيرهم فى أمرهم ، فالعين هاهنا بمعنى الرؤية والإبصار ، لا بمعنى العين التى هى الجارحة ، وما سميت الجارحة عيناً إلا مجازا ، لأنها موضع العيان ، وقد قالوا : عانه يعينه عينا إذا رآه ، وإن كان الأشهر فى هذ أن يقال : عاينه معاينة ، والأشهر فى عنت أن يكون بمعنى الإصابة بالعين ، وإنما أوردنا هذا الكلام ، لتعلم أن العين فى أصل وضع اللغة صفة لا جارحة ، وأنها إذا أضيفت

. . . .

إلى البارى سبحانه ، فإنها حقيقة نحو قول أم سلمة لعائشة : بعين الله مهراك ، وعلى رسول الله تردين ؟ وفى التنزيل: « ولتصنع على عينى » وقد أملينا فى المسائل المفردات : مسألة فى هذا المعنى ، وفيها الرد على من أجاز التثنية فى العين مع إضافتها إلى الله تعالى ، وقاسها على اليدين ، وفيها الرد على من احتج بقول النبى عليه السلام : إن ربكم ليس بأعور ، وأوردنا فى ذلك مافيه شفاء ، واتبعناه بمعان بديعة فى معنى عور الدجال ، فلينظر هنالك .

عيسى كلمة الله وروحه : وقول جعفر فى عيسى : هو روح الله وكلمته ، ومعنى : كلمته أى : قال له ، كما قال لآدم حين خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون ، ولم يقل : فكان ، لئلا يتوهم وقوع الفعل بعد القول بيسير ، وإنما هو واقع للحال ، فقوله : فيكون مشعراً بوقوع الفعل فى حال القول ، وتوجه الفعل بيسير على القول ، لا يمكن مستقدم ولا مستأخر ، فهذا معنى الكلمة ، وأما روح الله ، فلأنه نفخة روح القدس فى جيب الطاهرة المقدسة ، والقدس : الطهارة من كل ما يشين ، أو يعيب ، أو تقذره نفس ، أو يكرهه شرع ، وجبريل : روح القدس ، لأنه روح لم يخلق من منى ، ولا صدر عن شهوة ، فهو مضاف إلى الله سبحانه إضافة تشريف وتكريم ، لأنه صادر عن الحضرة المقدسة وعيسى عليه السلام صادر عنه ، فهو : روح الله على هذا المعنى ، إذ النفخ قد يسمى : روحاً أيضاً ، كما قال غيلان يصف النار :

فقلت له : ارفعها إليك ، وأحيها بروحك ، واقدرها لها قيتة قدرا

وأضف هذا الكلام فى روح القدس ، وفى تسمية النفخ روحاً إلى ماذكرناه قبل فى حقيقة الروح ، وشرح معناه فإنه تكملة له .

حديث عائشة عن النجاشى : فصل : وذكر حديث عائشة عن النجاشى حين رد الله عليه ملكه ، وأن قومه كانوا باعوه ، فلما مرج أمر الحبشة ، وأخذوه من سيده واستردوه . وظاهر الحديث يدل على أنهم أخذوه منه قبل أن يأتى به بلاده لقوله : خرجوا فى طلبه ، فأدركوه ، وقد بين فى حديث آخر أن سيده كان من العرب وأنه استعبده طويلا ، وهو الذى يقتضيه قوله : فلما مرج على الحبشة أمرهم ، وضاق عليهم ما هم فيه ، وهذا يدل على طول المدة فى مغيبه عنهم ، وقد روى أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشى علم بها من عنده من المسلمين ، فأرسل إليهم ، فلما دخلوا عليه إذا هو قد لبس مسحاً ، وقعد على التراب والرماد ، فقالوا له : ما هذا أيها الملك ؟ ! فقال : إنا نجد فى الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبده ، وجب على العبد أن يحدث لله تواضعا ، وإن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة ، وهى أن النبى محمداً - صلى الله عليه وسلم - بلغنى أنه التقى هو وأعداؤه بواد يقال له : بدر كثير الأراك ، كنت أرعى فيه الغنم على سيدى ، وهو من بنى ضمرة وأن الله قد هزم أعداءه فيه ، ونصر دينه ، فدل هذا الخبر على طول مكثه فى بلاد العرب ، فمن هنا - والله أعلم - تعلم من

لسان العرب ما فهم به سورة مريم حين تليت عليه ، حتى بكى ، وأخضل لحيته ، وروى عنه أنه قال : إنا نجد فى الإنجيل أن اللعنة تقع فى الأرض إذا كانت إمارة الصبيان .

ما يأخذ من الفقه فى حديث هجرة الحبشة : فصل : ومما فى حديث الهجرة الى الحبشة من الفقه أن جعفر ابن أبى طالب قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم كيف نصلى فى السفينة اذا ركبنا فى البحر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : صل قائماً الا أن تخاف الغرق . خرجه الدارقطنى ، ولكن فى اسناده مقال ، وفى مسند ابن أبى شيبة : وصلى أنس فى السفينة جالسا . وذكر البخارى عن الحسن : يصلى قائما الا أن يضر بأهلها .

كتاب النجاشي والصلاة عليه : فصل : وذكر الكتاب الذى كتبه النجاشى ، وجعله بين صدره وقبائه ، وقال للقوم : أشهد أن عيسى لم يزد على هذا ، وفيه من الفقه أنه لا ينبغى المؤمن أن يكذب كذباً صراحاً ، ولا أن يعطى بلسانه الكفر ، وإن أكره ما أمكنه الحيلة ، وفى المعاريض مندوحة عن الكذب ، وكذلك قال أهل العلم فى قول النبى عليه السلام : ليس بالكاذب من أصلح بين اثنين ، فقال خيرا . روته أم كلثوم بنت عقبة . قالوا : معناه أن يعرض ، ولا يفصح بالكذب ، مثل أن يقول : سمعته يستغفر لك ، ويدعو لك ، وهو يعنى أنه سمعه يستغفر للمسلمين ، ويدعو لهم ؛ لأن الآخر من جملة المسلمين ، ويحتال فى التعريض مااستطاع ، ولا يختلق الكذب اختلاقا ، وكذلك فى خدعة الحرب يورى ، ويكنى ، ولا يخلق الكذب يستحله بما جاء من إباحة الكذب فى خدع الحرب ، هذا كله ماوجد إلى الكناية سبيلا .

وذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : صلى على النجاشى ، واستغفر له ، وكان موت النجاشى فى رجب من سنة تسع ، ونعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فى اليوم الذى مات فيه ، وصلى عليه بالبقيع ، رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه ، وهو بالمدينة فصلى عليه ، وتكلم المنافقون ، فقالوا : أيصلى على هذا العلج ؟! فأنزل الله تعالى « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم » ومن رواية يونس عن ابن إسحاق أن أبا نيزر مولى على بن أبى طالب ، كان ابناً للنجاشى نفسه ، وأن عليا وجده عند تاجر بمكة ، فاشتراه منه ، وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين .

وذكر أن الحبشة مرج عليها أمرها بعد النجاشى ، وأنهم أرسلوا وفداً منهم إلى أبى نيزر ، وهو مع على ليملكوه ويتوجوه ، ولم يختلفوا عليه فأبى وقال : ما كنت لأطلب الملك بعد أن من الله على بالإسلام ، قال وكان أبو نيزر من أطول الناس قامة ، وأحسنهم وجها ، قال : ولم يكن لونه كألوان الحبشة ، ولكن إذا رأيته قلت : هذا رجل من العرب .

إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه واعتزاز المسلمين به

قال ابن إسحاق: ولما قدم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وردهما النجاشى بما يكرهونه ، وأسلم عمر بن الخطاب - وكان رجلا ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره - امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحمزة حتى عازوا قريشاً ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر بن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشاً ، حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

قال البكائى : قال : حدثنى : مسعر بن كدام ، عن سعد بن إبراهيم ، قال : قال عبد الله بن مسعود : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم ، قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه .

حديث أم عبد الله بنت أبى حثمة عن عمر: قال ابن إسحاق: حدثنى عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أمه أم عبد الله بنت أبى حثمة قالت :

والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب ، حتى وقف على ، وهو على شركه - قالت : وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا ، وشدة علينا - قالت : فقال : إنه للانطلاق يا أم عبد الله . قالت : فقلت : نعم والله ، لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجا . قالت: فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة ، لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا . قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقالت له : يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ! قال: أطمعت فى إسلامه؟ قالت : قلت : نعم ، قال : فلا يسلم الذى رأيت ، حتى يسلم حمار الخطاب ؛ يأسا منه ، لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام .

سبب إسلام عمر : قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام من مكة ، رجل من قومه ، من عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورهطا من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمه حمزة ابن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله،

فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابىء ، الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها، وسب آلهتها،فأقتله،فقال له نعيم : والله لقدغرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال :وأى أهل بيتى؟قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد ابن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما ، قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة ، فيها : (طه) يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب فى مخدع لهم ـ أو فى بعض البيت ـ وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ماهذه الهينمة التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك : فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى ، وقال لأخته : اعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا انظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لاتخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك ، طمعت فى إسلامه ، فقالت له : ياأخى ، إنك نجس ، على شركك ، وإنه لايمسها إلا الطاهر ، فقام عمر ، فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها : (طه) فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ماأحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله ياعمر : فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه ، فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ،فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحا السيف ، فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: أئذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال : ماجاء بك يا ابن الخطاب ؟ فو الله ماأرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يارسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، قال : فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

فتفرق أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينتصفون بهما من عدوهم . فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم .

مارواه عطاء ومجاهد فى إسلام عمر : قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح المكى ، عن أصحابه : عطاء ، ومجاهد ، أو عمن روى ذلك : أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه ، أنه كان يقول : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، أحبها وأسر بها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة ، عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومى ، قال : فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك ، قال : فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً . قال : فقلت : لو أنى جئت فلانا الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها . قال : فخرجت فجئته فلم أجده .قال : فقلت: فلو أنى جئت الكعبة ، فطفت بها سبعا أو سبعين . قال :فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود ، والركن اليمانى . قال : فقلت حين رأيته : والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع مايقول ! قال : فقلت : لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه ، فجئت من قبل الحجر ،فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، مابينى وبينه إلا ثياب الكعبة . قال : فلما سمعت القرآن رق له قلبى ، فبكيت ودخلنى الإسلام ، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك ، حتى قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاته ، ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع المسعى ، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب ، وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهرى ، ثم على دار الأخنس ابن شريق ، حتى يدخل بيته ، وكان مسكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الدار الرقطاء ، التى كانت بيدى معاوية ابن أبى سفيان . قال عمر رضى الله عنه : فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس ، ودار ابن أزهر ، أدركته ، فلما سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم حسى عرفنى ، فظن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنى إنما تبعته لأوذيه ، فنهمنى ، ثم قال : ماجاء بك ياابن الخطاب هذه الساعة ؟ قال : قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، قال : فحمد الله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : قد هداك الله ياعمر ، ثم مسح صدري ، ودعالى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

قال ابن إسحاق : والله أعلم أى ذلك كان .

ثبات عمر فى إسلامه : قال ابن إسحاق : وحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن ابن عمر ، قال : لما أسلم أبى عمر ، قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحى . قال : فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر : فغدوت أتبع أثره ، وانظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاء ، فقال له : أعلمت ياجميل أنى قد أسلمت : ودخلت فى دين محمد ؟ قال :فوالله ماراجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر ، واتبعت أبى ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، وهم فى أنديتهم حول باب الكعبة ، ألا إن

. . . .

عمر بن الخطاب قد صبأ ، قال : يقول عمر من خلفه : كذب ، ولكنى قد أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال : وطلح، فقعد وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلثمائة رجل لتركناها لكم ، أو لتركتموها لنا ، قال : فبينما هم على ذلك ، إذ أقبل شيخ من قريش، عليه حلة حبرة ، وقميص موشى ، حتى وقف عليهم ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، فقال : فمه ، رجل اختار لنفسه أمراً ، فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ ! خلوا عن الرجل . قال: فو الله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه .قال: فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت ، من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت ، وهم يقاتلونك؟ فقال : ذلك ، أى بنى ، العاص بن وائل السهمى .

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم ، أنه قال : يا أبت ، من الرجل الذى زجر القوم عنك يوم أسلمت ، وهم يقاتلونك ، جزاه الله خيراً ؟ قال : يا بنى ذاك العاص بن وائل ، لا جزاه الله خيراً .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر ، أو بعض أهله ، قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة ، تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداة حتى آتيه ، فأخبره أنى قد أسلمت، قال : قلت : أبو جهل وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة — قال : فأقبلت حين أصبحت ، حتى ضربت عليه بابه . قال : فخرج إلى أبو جهل ، فقال : مرحباً وأهلا بابن أختى ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ، قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به .

إسلام عمر

فصل : فى حديث إسلام عمر . ذكره إلى آخره ، وليس فيه إشكال ، وكان إسلام عمر والمسلمون إذ ذاك بضعة وأربعون رجلا ، وإحدى عشرة امرأة .

حديث خباب: وفيه : أن خباباً وهو ابن الأرت كان يقرىء فاطمة بنت الخطاب القرآن ، وخباب تميمى بالنسب ، وهو خزاعى بالولاء لأم أنمار بنت سباع الخزاعى ، وكان قد وقع عليه سباء ، فاشترته وأعتقته ، فولاؤه لها ، وكان أبوها حليفا لعوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، فهو زهرى بالحلف ، وهو ابن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكان قينا يعمل السيوف فى الجاهلية، وقد قيل : إن أمه كانت أم سباع الخزاعية ، ولم يلحقه سباء ، ولكنه انتمى إلى حلفاء أمه بنى زهرة ، يكنى : أبا عبد الله ، وقيل : أبا يحيى ، وقيل أبا محمد مات بالكوفة سنة تسع وثلاثين بعد ما شهد مع على صفين والنهروان ، وقيل : بل مات سنة سبع وثلاثين . ذكر أن عمر بن الخطاب سأله عما لقى فى ذات الله ، فكشف ظهره ، فقال عمر : ما رأيت كاليوم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد أوقدت لى نار ، فما أطفأها إلا شحمى .

تطهير عمر ليمس القرآن : فصل: وفيه ذكر تطهير عمر ليمس القرآن ، وقول أخته « لا يمسه إلا المطهرون» والمطهرون فى هذه الآية هم الملائكة ، وهو قول مالك فى الموطأ ، واحتج بالآية الأخرى التى فى سورة عبس ،

. . . .

ولكنهم وإن كانوا الملائكة ، ففي وصفهم بالطهارة مقرونا بذكر المس ما يقتضى ألا يمسه إلا طاهر اقتداء بالملائكة المطهرين، فقد تعلق الحكم بصفة التطهير ، ولكنه حكم مندوب إليه ، وليس محمولا على الفرض ،وكذلك ما كتب به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمرو بن حزم : « وألا يمس القرآن إلا طاهر » ليس على الفرض، وإن كان الفرض فيه أبين منه فى الآية ، لأنه جاء بلفظ النهى عن مسه على غير طهارة ، ولكن فى كتابه إلى هرقل بهذه الآية : « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة » دليل على ما قلناه ، وقد ذهب داود وأبو ثور وطائفة ممن سلف ، منهم الحكم بن عتيبة وحماد بن أبى سليمان إلى إباحة مس المصحف على غير طهارة ، واحتجوا بما ذكرنا من كتابه إلى هرقل، وقالوا : حديث عمرو بن حزم مرسل، فلم يروه حجة، والدارقطنى قد أسنده من طرق حسان ،أقواها: رواية أبى داود الطيالسى عن الزهرى عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه عن جده ، ومما يقوى أن المطهرين فى الآيه هم الملائكة ، أنه لم يقل : المتطهرون .

المطهرون والمتطهرون : وإنما قال المطهرون ، وفرق ما بين المتطهر والمطهر : أن المتطهر من فعل الطهور ، وأدخل نفسه كالمتفقه من يدخل نفسه فى الفقه ، وكذلك المتفعل فى أكثر الكلام ، وأنشد سيبويه :

وقيس عيلان ومن تقيسا

فالآدميون متطهرون إذا تطهروا ، والملائكة مطهرون خلقة ، والآدميات إذا تطهرن : متطهرات ، وفى التنزيل . « فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله »والحور العين مطهرات ، وفى التنزيل : « لهم فيها أزواج مطهرة» وهذا فرق بين وقوة لتأويل مالك رحمه الله ، والقول عندى فى الرسول عليه السلام أنه متطهر ومطهر ،اما متطهر ،فلأنه بشر آدمى يغتسل من الجنابة ، ويتوضأ من الحدث ، وأما مطهر فلأنه قد غسل بطنه ، وشق عن قلبه ، وملىء حكمة وإيمانا فهو مطهر ومتطهر ، واضمم هذا الفصل الى ما تقدم فى ذكر مولده من هذا المعنى ، فإنه تكملة والحمد لله.

وفى تطهر عمر قبل أن يظهر الإسلام قوة لقول ابن القاسم : إن الكافر إذا تطهر قبل أن يظهر إسلامه ،ويشهد الشهادتين أنه يجزىء له ، وقد عاب قول ابن القاسم هذا كثير من الفقهاء ، وكذلك فى خبر اسلام سعد بن معاذ على يدى مصعب بن عمير ، وقد سأله : كيف يصنع من يريد الدخول فى هذا الدين ، فقال : يتطهر ، ثم يشهد بشهادة الحق ، ففعل ذلك هو وأسيد بن حضير، وحديث اسلام عمر ، وان كان من أحاديث السير ، فقد خرجه الدارقطنى فى سننه ، غير انه خرج أيضاً من طريق انس ان اخت عمر قالت له : انك رجس ، ولا يمسه الا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ ، فقام فتوضأ ، ثم اخذ الصحيفة وفيها سورة طه ، ففى هذه الرواية انه كان وضوءاً ، ولم يكن اغتسالا ، وفى رواية يونس : ان عمر حين قرأ فى الصحيفة سورة طه انتهى منها الى قوله : « لتجزى كل نفس بما تسعى » فقال : ما اطيب هذا الكلام واحسنه ، وذكر هذا الحديث بطوله، وفيه ان الصحيفة كان فيها مع سورة طه « إذا الشمس كورت » وان عمر انتهى فى قراءتها الى قوله « علمت نفس ما أحضرت » .

أقوال أخرى فى إسلام عمر : فصل : وذكر ابن سنجر زيادة فى اسلام عمر ، قال : حدثنا ابو المغيرة قال: نا صفوان بن عمرو ، قال : حدثنى شريح بن عبيد ، قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله

. . . .

صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن قال : قلت : هذا والله شاعر ، كما قالت قريش ، فقرأ : « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون » قال : قلت : كاهن عــلم ما فى نفسى ، فقال : « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » إلى آخر السورة قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

ما قاله عمر من الشعر حين أسلم : وقال عمر حين أسلم :

الحمد لله ذى المن الذى وجبت ... له علينا أياد مالها غير
وقد بدأنا فكذبنا ، فقال لنا ... صدق الحديث نبى عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ... ربى عشية قالوا : قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل ... بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة ... والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها ... فكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت : أشهد أن الله خالقنا ... وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبى صدق أتى بالحق من ثقة ... وافى الأمانة ما فى عوده خور

رواه يونس عن ابن إسحاق . وذكر البزار فى إسلام عمر أنه قال :

فلما أخذت الصحيفة ، فإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، فجعلت أفكر : من أى شىء اشتق ، ثم قرأت فيها : « سبح لله ما فى السموات والأرض » . وجعلت أقرأ وأفكر حتى بلغت : « آمنوا بالله ورسوله » فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

الهيمنة ـ فى حديث إسلام عمر : وفى حديث إسلام عمر : قال : ماهذه الهينمة ، والهينمة : كلام لا يفهم ، واسم الفاعل منه مهينم ، كأنه تصغير ، وليس بتصغير ، ومثله المبيطر ، والمهيمن ، والمبيقر بالقاف ، وهو المهاجر من بلد إلى بلد ، والمسيطر ، ولو صغرت واحداً من هذه الأسماء لحذفت الياء الزائدة ، كما تحذف الألف من مفاعل ، وتلحق ياء التصغير فى موضعها ، فيعود اللفظ إلى ما كان ، فيقال فى تصغير مهينم ومبيطر : مهينم ومبيطر ، فإن قيل : فهلا قلتم : إنه لا يصغر ، إذ لا يعقل تصغير على لفظ التكبير ، وإلا فما الفرق ؟ فالجواب أنه قد يظهر الفرق بينهما فى مواضع ، منها : الجمع ، فإنك تجمع مبيطراً : مباطر بحذف الياء ، وإذا كان مصغراً لا يجمع إلا بالواو والنون ، فتقول : مبيطرون ، وذلك أن التصغير لا يكسر ، لأن تكسيره يؤدى إلى حذف الياء فى الخماسى لأنها زائدة كالألف ، فيذهب معنى التصغير ، وأما الثلاثى المصغر فيؤدى تكسيره إلى تحريك ياء التصغير أوهمزها وذلك أن يقال فى فليس فلائس ، فيذهب أيضاً معنى التصغير لتصغير لفظ الياء التى هى دالة عليه ، ولو بنيت اسم فاعل من : بيأس لقلت فيه مبيئس ، ولو سهلت الهمزة حركت الياء فقلت فيه : مبييس ، وتقول فى تصغيره إذا

خبر الصحيفة

ائتمار قريش بالرسول : قال ابن اسحاق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة ابن عبد المطلب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم ، وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى - قال ابن هشام : ويقال : النضر بن الحارث - فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشل بعض أصابعه .

صغرته : مبيس بالإدغام ، كما تقول فى أبوس : أبيس ، ولا تنقل حركة الهمزة إلى الياء إذا سهلت ، كما تنقلها فى اسم الفاعل من بيأس ونحوه ، إذا سهلت الهمزة ، وهذه مسألة من التصغير بديعة يقوم على تصحيحها البرهان .

معنى النهيم وخلوا : فصل : وفى حديث إسلام عمر : فنهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم - أى زجره ، والنهيم : زجر الأسد ، والنهامى : الحداد والنهام : طائر . وفيه قول العاصى بن وائل قال : هكذا خلوا عن الرجل وهى كلمة معناها : الأمر بالتنحى ، فليس يعمل فيها ما قبلها ، كما يعمل إذا قلت : اجلس هكذا ، أى : على هذه الحال ، وإن كان لابد من عامل فيها إذا جعلتها للأمر ، لأنها كاف التشبيه دخلت على ذا ، وها : تنبيه ، فيقدر العامل إذاً مضمراً ، كأنك قلت : ارجعوا هكذا ، وتأخروا هكذا ، واستغنى بقولك : هكذا عن الفعل ، كما استغنى برويداً عن ارفق .

جميل بن معمر : فصل وذكر قول عمر لجميل بن معمر الجمحى : إنى قد أسلمت ، وبايعت محمداً ، فصرخ جميل بأعلى صوته : ألا ان عمر صبأ . جميل هذا هو الذى كان يقال له : ذو القلبين ، وفيه نزلت فى أحد الأقوال «ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وفيه قيل :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر

وهو البيت الذى تغنى به عبد الرحمن بن عوف فى منزله ، واستأذن عمر فسمعه ، وهو يتغنى،وينشد بالركبانية وهو غناء يحدى به الركاب ، فلما دخل عمر قال له عبد الرحمن : إنا إذا خلونا ، قلنا ما يقول الناس فى بيوتهم : وقلب المبرد هذا الحديث ، وجعل المنشد عمر ، والمستأذن عبد الرحمن ، ورواه ازبير كما تقدم ، وهو أعلم بهذا الشأن .

قال ابن إسحاق : فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا إليه ، وخرج من بنى هاشم : أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، إلى قريش ، فظاهرهم .

موقف أبى لهب من رسول الله صلى الله عليه وسلم

تهكم أبى لهب بالرسول وما نزل فيه من القرآن : قال ابن إسحاق : وحدثنى حسين بن عبد الله : أن أبا لهب لقى هند بنت عتبة بن ربيعة ، حين فارق قومه ، وظاهر عليهم قريشاً ، فقال : يا بنت عتبة ، هل نصرت اللات والعزى ، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة .

قال ابن إسحاق : وحدثت أنه كان يقول فى بعض ما يقول : يعدنى محمد أشياء لا أراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ، ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبالكما ، ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد، فأنزل الله تعالى فيه : « تبت يدا أبى لهب وتب » .

قال ابن هشام : تبت : خسرت . والتباب : الخسران . قال حبيب بن خدرة الخارجى : أحد بنى هلال بن عامر بن صعصعة :

يا طيب إنا فى معشر ذهبت ... مسعاتهم فى التبار والتبب

وهذا البيت فى قصيدة له .

شعر أبى طالب فى ذلك قال ابن إسحاق : فلما اجتمعت على ذلك قريش ، وصنعوا فيه الذى صنعوا ، قال أبو طالب :

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا ... لؤيا وخصاً من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خط فى أول الكتب
وأن عليـــه فى العباد محبة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذى ألصقتم من كتابكم ... لكم كائن نحسا كراغية السقب
أفيقوا أفيقوا ، قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنبا كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة ، وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حرباً عوانا ، وربما ... أمر على من ذاقه جلب الحرب
فلسنا ـ ورب البيت ـ نسلم أحمداً ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب

ولما تبن منا ، ومنكم سوالف وأيد أترت بالقساسية الشهب
بمعترك ضيق ترى كسر القنا به والنسور الطخم، يعكفن كالشرب
كأن مجال الخيل فى حجراته ومعمعة الأبطال معركة الحرب
أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب ، حتى تملنا ولا نشتكى ما قد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهى إذا طار أرواح الكماة من الرعب

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء ، إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .

أبو جهل يحكم الحصار على المسلمين : وقد كان أبو جهل بن هشام ـ فيما يذكرون ـ لقى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ، معه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه فى الشعب، فتعلق به ، وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ! ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك ، حتى أفضحك بمكة فجاء أبو البخترى بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله ، فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم ، فقال أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ ! خل سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البخترى لحى بعير ، فضربه به فشجه ، ووطئه وطأ شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، فيشمتوا بهم ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس .

ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه

فجعلت قريش حين منعه الله منها ، وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم ، وبين ما أرادوا من البطش به ، يهمزونه ، ويستهزئون به ، ويخاصمونه ، وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم ، ومنهم من سمى لنا ، ومنهم من سمى لنا .

ما نزل من القرآن فى أبى لهب وامرأته : ومنهم من نزل فيه القرآن فى عامة من ذكر الله من الكفار ، فكان ممن سمى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن : عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب ، لأنها كانت ـ فيما بلغنى ـ تحمل الشوك ، فتطرحه على طريق

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حيث يمر ، فأنزل الله تعالى فيهما : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » .

قال ابن هشام : الجيد : العنق . قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

يوم تبدى لنا قتيلة عن جيـ ـد أسيل تزينه الأطواق

وهذا البيت فى قصيدة له . وجمعه : أجياد . والمسد : شجر يدق كما يدق الكتان ، فتفتل منه حبال . قال النابغة الذبيانى ـ واسمه زياد بن عمرو بن معاوية :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها له صريف صريف القعو بالمسد

وهذا البيت فى قصيدة له ، وواحدته : مسدة .

أم جميل امرأة أبى لهب : قال ابن إسحاق : فذكر لى : أن أم جميل : حمالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها ، وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ، فقد بلغنى أنه يهجونى ؟ والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ثم قالت :

مـــذمما عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينـــا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال . ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

قال ابن هشام : قولها : « ودينه قلينا » عن غير ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : وكانت قريش إنما تسمى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مذمما ، ثم يسبونه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مذمما ، وأنا محمد !

إيذاء أمية بن خلف للرسول : وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه ، فأنزل الله تعالى فيه : « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، إنهـــا عليهم مؤصدة ، فى عمد ممددة » .

قال ابن هشام : الهمزة : الذى يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه عليه ، ويغمز به . قال حسان بن ثابت :

همزتك فاختضعت لذل نفس   بقافية تأجج كالشواظ

وهذا البيت فى قصيدة له . وجمعه : همزات . واللمزة : الذى يعيب الناس سراً ويؤذيهم . قال رؤبة بن العجاج :

فى ظل عصرى باطلى ولمزى

وهذا البيت فى أرجوزة له ، وجمعه : لمزات .

إيذاء العاص للرسول : قال ابن إسحاق : والعاص بن وائل السهمى ، كان خباب بن الأرت صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قينا بمكة يعمل السيوف ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له ، حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه ، فقال له : يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب ، أو فضة ، أو ثياب ، أو خدم ؟ ! قال خباب : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب ، حتى أرجع إلى تلك الدار ، فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظاً فى ذلك ، فأنزل الله تعالى فيه « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ، اطلع الغيب » ... إلى قوله تعالى : « ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » .

إيذاء أبى جهل للرسول : ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنى ـ فقال له : والله يا محمد ، لتتركن سب آلهتنا ، أو لنسبن إلهك الذى تعبد . فأنزل الله تعالى فيه : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم » فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف عن سب آلهتهم ، وجعل يدعوهم إلى الله .

إيذاء النضر للرسول : والنضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ، كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، فحدثهم عن رستم الشديد ، وعن اسفنديار ، وملوك فارس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتتبها كما اكتتبتها . فأنزل الله فيه « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيما » ونزل فيه « إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » ونزل فيه : « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم » .

. . . .

قال ابن هشام : الأفاك : الكذاب . وفى كتاب الله تعالى : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون » وقال رؤبة :

لامرىء أفك قولا إفكا

وهذا البيت فى أرجوزة له .

قال ابن إسحاق : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما - فيما بلغنى - مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث ، حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس غير واحد من قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون » .

قال ابن هشام : حصب جهنم : كل ما أو قدت به . قال أبو ذؤيب الهذلى واسمه : خويلد بن خالد .

فأطفى ، ولا توقد ، ولا تك مخصباً　　　لنار العداة أن تطير شكاتها

وهذا البيت له ويروى : « ولا تك محضأ » . قال الشاعر :

حضأت له نارى فأبصر ضوءها　　　وما كان لولا حضأة النار يهتدى

ابن الزبعرى وماقيل فيه : قال ابن إسحاق : ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وماقعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا : أ كل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما السلام ، فعجب الوليد ، ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله ابن الزبعرى ؛ ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قول ابن الزبعرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ؛ إنهم إنما يعبدون الشياطين ، ومن أمرتهم بعبادته ، فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » أى عيسى ابن مريم ، وعزيرا ، ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله .

ونزل فيما يذكرون ، أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه ، بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون » إلى قوله : « ومن يقل منهم إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » .

وأنزل فيما ذكر من أمر عيسى بن مريم أنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد، ومن حضره من حجته وخصومته: «ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون» أي: يصدون عن أمرك بذلك من قولهم.

ثم ذكر عيسى بن مريم فقال: «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل، ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم» أى: ماوضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: «فلا تمترن بها واتبعون، هذا صراط مستقيم».

الأخنس وما أنزل فيه: والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف بنى زهرة، وكان من أشراف القوم، وممن يستمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرد عليه، فأنزل الله تعالى فيه: «ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم» إلى قوله تعالى: «زنيم»، ولم يقل: زنيم لعيب فى نسبة، لأن الله منه، فكان يصيب من لايعيب أحدا بنسب، ولكنه حقق بذلك نعته ليعرف. والزنيم: العديد للقوم، وقد قال الخطيم التميمى فى الجاهلية:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

الوليد وما أنزل فيه: والوليد بن المغيرة، قال: أينزل على محمد، وأترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟! فأنزل الله تعالى فيه، فيما بلغنى: «وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» .. إلى قوله تعالى: «مما يجمعون».

أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط وما أنزل فيهما: وأبى بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وعقبة ابن أبى معيط، وكانا متصافيين، حسنا مابينهما. فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسمع منه، فبلغ ذلك أبيا، فأتى عقبة، فقال: ألم يبلغنى أنك جالست محمدا، وسمعت منه! ثم قال: وجهى من وجهك حرام أن أكلمك ـ واستغلظ من اليمين ـ إن أنت جلست إليه، أو سمعت منه، أو لم تأته، فتتفل فى وجهه. ففعل عن ذلك عدو الله عقبة بن أبى معيط لعنه الله. فأنزل الله تعالى فيهما «ويوم يعض الظالم على يديه يقول: ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا» ... إلى قوله تعالى: «للإنسان خذولا».

ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظم بال قد ارفت، فقال: يامحمد، أنت تزعم أن يبعث هذا بعد ماأرم، ثم فته بيده، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ماتكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار. فأنزل الله تعالى فيه: «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال: من يحيى العظام، وهى رميم، قل: يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا، فإذا أنتم منه توقدون».

سورة (الكافرون) وسبب نزولها: واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالكعبة ـ فيما بلغنى ـ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمى،

وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا : يامحمد ، هلم فلنعبد ماتعبد ، وتعبد مانعبد ،فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فان كان الذى تعبد خيرا مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرا مماتعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : « قل : يأيها الكافرون ، لاأعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين» . أى : إن كنتم لاتعبدون إلا الله ، إلا أن أعبد ماتعبدون ، فلا حاجة لى بذلك منكم ، لكم دينكم جميعا ولى دينى .

أبو جهل ومانزل فيه : وأبو جهل بن هشام ـ لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفا بها لهم ، قال : يامعشر قريش ، هل تدرون ماشجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقما . فأنزل الله تعالى فيه : « إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم » أى : ليس كما يقول .

قال ابن هشام : المهل : كل شىء أذبته ، من نحاس أو رصاص ، أو ما أشبه ذلك فيما أخبرنى أبو عبيدة .

تفسير لفظ المهل : وبلغنا عن الحسن بن أبى الحسن أنه قال : كان عبد الله بن مسعود واليا لعمر بن الخطاب على بيت مال الكوفة ، وأنه أمر يوما بفضة ، فأذيبت ، فجعلت تلون ألوانا ، فقال : هل بالباب من أحد ؟ قالوا : نعم ، قال : فأدخلوهم ، فأدخلوا فقال : إن أدنى ما أنتم راءون شبها بالمهل لهذا ، وقال الشاعر :

يسقيه ربى حميم المهل يجرعه ‍ ‍ ‍ يشوى الوجوه فهو فى بطنه صهر

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى :

فمن عاش منهم عاش عبداً وإن يمت ‍ ‍ ‍ ففى النار يسقى مهلها وصديدها

وهذا البيت فى قصيدة له .

ويقال : إن المهل : صديد الجسد .

بلغنا أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ لما حضر ، أمر بثوبين كبيسين يغسلان فيكفن فيها ، فقالت له عائشة : قد أغناك الله ياأبت عنهما ، فاشتر كفنا ، فقال : إنما هى ساعة حتى يصير إلى المهل . قال الشاعر :

شاب بالماء منه مهلا كريها ‍ ‍ ‍ ثم عل المتون بعد النهال

قال ابن إسحاق : فأنزل الله تعالى فيه : « والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً » .

ابن أم مكتوم والوليد وسورة عبس : ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه ، وقد طمع فى إسلامه ، فبينا هو فى ذلك ، إذ مر به ابن أم مكتوم الأعمى ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يستقرئه القرآن ، فشق ذلك منه على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى

أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، وماطمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا ، وتركه . فأنزل الله تعالى فيه : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . . . إلى قوله تعالى : « فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة » أى : إنما بعثتك بشيراً ونذيراً ، لم أخص بك أحدا دون أحد ، فلا تمنعه ممن ابتغاه ، ولا تتصدين به لمن لايريده .

قال ابن هشام : ابن أم مكتوم ، أحد بنى عامر بن لؤى ، واسمه : عبد الله ، ويقال : عمرو .

حديث الصحيفة التى كتبتها قريش

تفسير سورة المسد . ذكر فيه قول أبى لهب ليديه : تبا لكما ، لاأرى فيكما ، شيئاً مما يقول محمد ، فأنزل الله تعالى : « تبت » ، هذا الذى ذكره ابن إسحاق يشبه أن يكون سبباً لذكر الله سبحانه يديه ، حيث يقول : « تبت يدا أبى لهب » ، وأما قوله : وتب ، فتفسيره ماجاء فى الصحيح من رواية مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : لما أنزل الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أتى الصفا ، فصعد عليه ، فهتف : ياصباحاه ، فلما اجتمعوا إليه ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا : ماجرّ بنا عليك كذبا قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ! فأنزل الله تعالى : « تبت يدا أبى لهب » ، وقد تب . هكذا قرأ مجاهد والأعمش ، وهى ـ والله أعلم ـ قراءة مأخوذة عن ابن مسعود ، لأن فى قراءة ابن مسعود ألفاظاً كثيرة تعين على التفسير قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ، ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته ، وكذلك زيادة قد فى هذه الآية ، فسرت أنه خبر من الله تعالى ، وأن الكلام ليس على جهة الدعاء ، كما قال تعالى : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » ، أى : إنهم أهل أن يقال لهم هـذا ، فتبت يدا أبى لهب ، ليس من باب : قاتلهم الله ، ولكنه خبر محض بأن قد خسر أهله وماله ، واليدان : آلة الكسب ، وأهله وماله مما كسب فقوله : « تبت يدا أبى لهب » تفسيره : قوله : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » وولد الرجل من كسبه ، كما جاء فى الحديث ، أى : خسرت يداه هذا الذى كسبت ، وقوله : وتب ، تفسيره . « سيصلى ناراً ذات لهب » ، أى : قد خسر نفسه بدخوله النار ، وقول أبى لهب : تبا لكما ، ماأرى فيكما شيئاً ، يعنى : يديه : سبب لنزول تبت يدا كما تقدم .

وقوله فى الحديث الآخر : تبا لك يامحمد ، سبب لنزول قوله سبحانه : « وتب » فالكلمتان فى التنزيل مبنيتان على السببين ، والآيتان بعدها تفسير للتبيين . تباب يديه ، وتبابه هو فى نفسه ، والتبب على وزن التلف لأنه فى معناه ، والتباب كالهلاك والخسار وزناً ومعنى ؛ ولذلك قيل فيه : تبب وتباب .

تفسير ألفاظ ذكرت فى شعر أبى طالب : فصل . ذكر شعر أبى طالب :

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا

قال قاسم بن ثابت :ذات بيننا وذات يده وما كان نحوه . صفة لمحذوف مؤنث ، كأنه يريد الحال التى هى ذات

. . . .

بينهم كما قال الله سبحانه : « وأصلحوا ذات بينكم » فكذلك إذا قلت : ذات يده . يريد أمواله ، أومكتسباته ، كما قال عليه السلام : « أرعاه على زوج فى ذات يده » وكذلك إذا قلت : لقيته ذات يوم ،أى : لقاءةأومرةذات يوم فلما حذف الموصوف ، وبقيت الصفة صارت كالحال لاتتمكن . ولاترفع فى باب مالم يسم فاعله ، كما ترفع الظروف المتمكنة ، وإنما هو كقولك : سير عليه شديداً وطويلا ، وقول الخثعمى ـ واسمه :أنس بن مالك عزمت على إقامة ذات صباح ، ليس هوعندى من هذا الباب ، وإن كان سيبويه قدجعلها لغة لخثعم ، ولكنه على معنى إقامة يوم، وكل يوم هو ذو صباح ، كما تقول : ما كلمنى ذوشفة ، أى : متكلم ، ومامررت بذى نفس ، فلايكون من باب :ذات مرة الذى لايتمكن فى الكلام ، وقد وجدت فى حديث قيلة بنت مخرمة ، وهو حديث طويل وقع فى مسند ابن أبى شيبة:أن أختها قالت لبعلها : إن أختى تريد المسير مع زوجها حريث بن حسان ذا صباح بين سمع الأرض وبصرها ، فهذا يكون من باب : ذات مرة وذات يوم ، غير أنه ورد مذكرا ،لأنه تستثقل تاء التأنيث مع الصاد ، وتوالى الحركات،فحذفوها فقالوا : لقيته ذا صباح ، وهذا لايتمكن : كما لا يتمكن : ذات يوم وذات حين ، ولا يضاف إليه مصدر ولاغيره . وقول الخثعمى :عزمت على إقامة ذى صباح قد أضاف إليه ، فكيف يضيف إليه، ثم ينصبه، أوكيف يضارع الحال مع إضافة المصدر إليه ؟ فكذلك خفضه ، وأخرجه عن نظائره إلا أن يكون سيبويه سمع خثعم يقولون : سرت فى ذات يوم ، أوسير عليه ذات يوم برفع التاء ، فحينئذ يسوغ له أن يقول : لغة خثعم ، وأما البيت الذى تقدم فالشاهد له فيه ، وما أظن خثعم ،ولاأحدا من العرب يجيز التمكن فى نحو هذا ،وإخراجه عن النصب، والله أعلم .

لا التى التبرئة ومحل النصب بها فصل : وفيه : ولاخير ممن خصه الله بالحب .

وهو مشكل جداً لأن لافى باب التبرئة لاتنصب مثل هذا إلا منوناً تقول : لاخيراً من زيد فى الدار ، ولاشرا من فلان ، وإنما تنصب بغير تنوين إذا كان الاسم غير موصول بما بعده كقوله تعالى : « لا تثريب عليكم اليوم » . لأن عليكم ليس من صلة التثريب ، لأنه فى موضع الخبر ، وأشبه مايقال فى بيت أبى طالب أن خير مخفف : من خير كهين وميت وفى التنزيل : « خيرات حسان » هو مخفف من خيرات .

عود إلى شرح شعر أبى طالب : وقوله : ممن ، من ، متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : لاخير أخير ممن خصه الله ، وخير وأخير : لفظان من جنس واحد ، فحسن الحذف استثقالا لتكرار اللفظ ، كما حسن : « ولكن البر من آمن بالله، والحج أشهر معلومات » لما فى تكرار الكلمة مرتين من الثقل على اللسان ، وأغرب من هذا قول الله تعالى : ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير » أى : لوعجله لهم اذا استعجلوا به استعجالا مثل استعجالهم بالخير ، فحسن هذا الكلام لما فى الكلام من ثقل التكرار واذا حذفوا حرفا واحدا لهذه العلة كقولهم : بلحرث بنو فلان وظللت وأحست فأحرى أن يحذفوا كلمة من حروف فهذا أصل مطرد ، ويجوز فيه وجه آخر ، وهو أن يكون حذف التنوين مراعاة لأصل الكلمة لأن خيرا من زيد إنما معناه : أخير من زيد ، وكذلك : شر من فلان ، إنما أصله : أشر على وزن أفعل ، وحذفت الهمزة تخفيفا ، وأفعل لاينصرف ، فإذا انحذفت الهمزة انصرف ونون ، فإذا توهمتها غير ساقطة التفاتا إلى أصل الكلمة، لم يبعد حذف التنوين على هذا الوجه مع مايقويه من ضرورة الشعر .

: . . . .

وقوله : بالقساسية الشهب ، يعنى : السيوف،نسبها إلى قساس ، وهو معدن حديد لبنى أسد ، وقيل اسم للجبل الذى فيه المعدن : قال الراجز يصف فأسا :

أحضر من معدن ذى قساس كأنه فى الحيد ذى الأضراس
يرمى به فى البلد الدهاس

وقال أبو عبيد فى القساسية : لاأدرى إلى أى شىء نسب ، والذى ذكرناه قاله المبرد ، وقوله : ذى قساس كما حكى ، ذو زيد ، أى : صاحب هذا الاسم ، وفى أقيال حمير : ذو كلاع ، وذو عمرو ، أضيف المسمى إلى اسمه، كما قالوا : زيد بطة ، أضافوه إلى لقبه .

وذكر فيه النسور الطخمة ، قيل ، هى السود الرءوس ، قاله صاحب العين ، وقال أيضاً : الطخمة سواد فى مقدم الأنف .

وقوله : كراغية السقب يريد ولد الناقة التى عقرها قدار فرغا ولدها ، فصاح برغائه كل شىء له صوت ، فهلكت ثمود عند ذلك ، فضربت العرب ذلك مثلا فى كل هلكة . كما قال علقمة :

رغا فوقهم سقب السماء فداحص بشكته لم يستلب وسليب

وقال آخر :

لعمرى لقد لاقت سليم وعامر على جانب الثرثار راغية البكر

أم جميل وما نزل فيها :

فصل : وذكر أم جميل بنت حرب عمة معاوية ، وذكر أنها كانت تحمل الشوك ، وتطرحه فى طريق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله فيها : « وامرأته حمالة الحطب » قال المؤلف : فلما كنى عن ذلك الشوك بالحطب ، والحطب لا يكون إلا فى حبل ، من ثم جعل الحبل فى عنقها ، ليقابل الجزاء الفعل .

وقوله : من مسد ، هو من مسدت الحبل إذا أحكمت فتله ، إلا أنه قال:من مسد ، ولم يقل: حبل مسد ولا ممسود لمعنى لطيف ، ذكره بعض أهل التفسير ، قال : المسد يعبر به فى العرف عن حبل الدلو ، وقد روى أنه يصنع بها فى النار ما يصنع بالدلو ، ترفع بالمسد فى عنقها إلى شفير جهنم ، ثم يرمى بها إلى قعرها هكذا أبدا ، وقولهم: إن المسد هو حبل الدلو فى العرف صحيح فانا لم نجده فى كلام العرب إلا كذلك ، كقول النابغة الذبيانى :

له صريف صريف القعو بالمسد

. . . .

وقال الآخر وهو يستقى على إبله :

يامسد الخوص تعوذ منى إن تك لدناً ليناً فإنى

ماشئت من أشمط مقسئن

وقال آخر :

يارب عبس لاتبارك فى أحد فى قائم منهم ، ولا فيمن قعد

غير الأولى شدوا بأطراف المسد

أى : استقوا ، وقال آخر ، وهو يستقى :

ومسد أمر من أيانق ليس بأنياب ولا حقائق

يريد: جمع أينق، وأينق : جمع ناقة مقلوب ، وأصله : أنوق، قلب، وأبدلت الواو ياء ؛ لأنها قد أبدلت ياء للكسرة، إذا قالوا : نياق ، وقلبوه فرارا من اجتماع همزتين لو قالوا: أنوق على الأصل ، يريد أن المسد من جلودها . وفى الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فى المدينة : قد حرمتها إلا لعصفور قتب ، أو السد محالة ، والمحالة : البكرة . وفى حديث آخر: أنه حرمها بريدا فى بريد إلا المنجدة أو مسد ، والمنجدة : عصا الراعى. وقال أبو حنيفة فى النبات : كل مسد رشاء ، وأنشد :

وبكرة ومحورا صرارا ومسداً من أبق مغاراً

والأبق : القنب ، والزبر : الكتان ، وأنشد أيضاً :

أنزعها تمطيا ومثا بالمسد المثلوث أو يرشا

فقد بان بهذا أن المسد حبل البئر ، وقد جاء فى صفة جهنم ـ أعاذنا الله منها كطى البئر لها قرنان ، والقرنان من البئر كالدعامتين للبكرة ، فقد بان لك بهذا كله ، ماذكره أهل التفسير من صفة عذابها أعاذنا الله من عذابه وأليم عقابه ، وبهذا تناسب الكلام وكثرت معانيه ، وتنزه عن أن يكون فيه حشو أو لغو ـ تعالى الله منزله ، فإنه كتاب عزيز .

وقول مجاهد : إنها السلسلة التى ذرعها سبعون ذراعا لاينفى ماتقدم ، إذ يجوز أن يرتبق فى تلك السلسلة أم جميل وغيرها ، فقد قال الدرداء لامرأته : ياأم الدرداء إن لله سلسلة تغلى بها مراجل جهنم منذ خلق الله النار إلى يوم القيامة ، وقد نجاك الله من نصفها بالإيمان بالله ، فاجتهدى فى النجاة من النصف الآخر بالحض على طعام المساكين ، وكذلك قول مجاهد : إنها كانت تمشى بالنمائم لاينفى حملها للشوك ، وهو فى كلام العرب سائغ أيضا ، فقد قال ابن الأسلت لقريش حين اختلفوا :

وتبثتكم شرجين كل قبيلة لها زمل من بين مذك وحاطب

. . . .

فالمذكى الذى يذكى نار العداوة ، والحاطب الذى ينم ويغرى كالمحتطب للنار ، ومن هذا المعنى ، وكأنه منتزع منه قول النبى — صلى الله عليه وسلم : « لايدخل الجنة قتات » والقتات هو الذى يجمع القت ، وهو مايوقد به النار من حشيش وحطب صغار .

الفرق بين الجيد والعنق : وقوله : فى جيدها ؛ ولم يقل : فى عنقها ، والمعروف أن يذكر العنق إذا ذكر الغل ، أو الصفع ، كما قال تعالى : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا » ويذكر الجيد إذا ذكر الحلى أو الحسن ، فإنما حسن ههنا ذكر الجيد فى حكم البلاغة لأنها امرأة ، والنساء تحلى أجيادهن ، وأم جميل لاحلى لها فى الآخرة إلا الحبل المجعول فى عنقها ، فلما أقيم لها ذلك مقام الحلى ذكر الجيد معه ، فتأمله ، فإنه معنى لطيف ، ألا ترى إلى قول الأعشى :

يوم تبدى لنا قتيلة عن جيد

ولم يقل : عن عنق ، وقول الآخر :

وأحسن من عقد المليحة جيدها

ولم يقل : عنقها . ولو قاله لكان غثا من الكلام فإنما يحسن ذكر الجيد حيث قلنا ، وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » أى لابشرى لهم إلا ذلك ، وقول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

أى : لاتحية لهم . كذلك قوله : فى جيدها حبل من مسد ، أى : ليس ثم جيد يحلى ، إنما هو حبل المسد ، وانظر كيف قال : وامرأته ، ولم يقل : وزوجه ، لأنها ليست بزوج له فى الآخرة ، ولأن التزوج حلية شرعية ، وهو من أمر الدين يجردها من هذه الصفة ، كما جرد منها امرأة نوح وامرأة لوط ، فلم يقل : زوج نوح ، وقد قال لآدم : « اسكن أنت وزوجك » وقال لنبيه عليه السلام : « قل لأزواجك » وقال « وأزواجه أمهاتهم » إلا أن يكون مساق الكلام فى ذكر الولادة والحمل ، ونحو ذلك فيكون حينئذ لفظ المرأة لائقا بذلك الموطن ، كقوله تعالى : « وكانت امرأتى عاقرا » ، : « فأقبلت امرأته فى صرة » لأن الصفة التى هى الأنوثة هى المقتضية للحمل والوضع لامن حيث كانت زوجا .

فصل : وأنشد شاهدا على الجيد قول الأعشى :

يوم تبدى لنا قتيله عن جيد أسيل تزينه الأطواق

وقوله : تزينه أى : تزيده حسنا ، وهذا من القصد فى الكلام ، وقد أبى المولدون إلا الغلو فى هذا المعنى ، وأن يغلبوه فقال فى الحماسة حسين بن مطير :

مبتلة الأطراف زانت عقودها ... بأحسن مما زينتها عقودها

. . . .

قال خالد القسرى لعمر بن عبد العزيز : من تكن الخلافة زينته ، فأنت زينتها ، ومن تكن شرفته ، فأنت شرفتها ، وأنت كما قال مالك بن أسماء :

وتزيدين أطيب الطيب طيباً إن تمسيه ، أين مثالك أينا
وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا !

فقال عمر : إن صاحبكم أعطى مقولا ولم يعط معقولا ، قال المؤلف : وإنما لم يحسن هذا من خالد لما قصد به التملق . وإلا فقد صدر مثل هذا المعنى عن الصديق ، فحسن لما عضده من التحقيق والتحرى للحق ، والبعد عن الملق والخلابة ؛ وذلك حين عهد إلى عمر بالخلافة ، ودفع إليه عهده مختوما ، وهو لا يعرف مافيه ، فلما عرف مافيه رجع إليه حزينا كهيئة الثكلى . يقول : حملتنى عبئاً لا أضطلع به ، وأوردتنى موردا لا أدرى : كيف الصدر عنه فقال له الصديق : ما آثرتك بها ، ولكنى آثرتها بك ، وما قصدت مساءتك ، ولكن رجوت إدخال السرور على المؤمنين بك ، ومن ههنا أخذ الحطيئة قوله :

ما آثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بها الإثر

وقد سبك هذا المعنى فى النسيب عبد الله بن عباس الرومى ، فقال :

وأحسن من عقد المليحة جيدها وأحسن من سربالها المتجرد

ومما هو دون الغلو ، وفوق التقصير قول الرضى :

حليه جيده ، لا ما يقلده وكحله مابعينيه من الكحل

ونحو منه ما أنشده الثعالبى :

وما الحلى إلا حيلة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
فأما إذا كان الجمال موفرا فحسبك لم يحتج إلى أن يزورا

وسمعت القاضى أبا بكر محمد بن العربى يقول : حج أبو الفضل الجوهرى الزاهد ذات مرة ، فلما أشرف على الكعبة ، ورأى ما عليها من الديباج تمثل ، وقال :

ماعلق الحلى على صدرها إلا لما يخشى من العين
تقول والدر على نحرها : من علق الشين على الزين

وبيت الأعشى المتقدم بعده :

وشتيت كالأقحوان جلاه الطل فيه عذوبة واتساق
وأثيث جثل النبات ترويـ ـه لعوب غريرة مفتاق
حرة طفلة الأنامل كالدمـ ـية لاعانس ولا مهزاق

الفهر : وذكر قول أم جميل لأبى بكر : لو وجدت صاحبك لشدخت رأسه بهذا الفهر . المعروف فى الفهر التأنيث ، وتصغيره فهيرة ؛ ووقع ههنا مذكرا .

محمد وليس مذمما : وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا ترون إلى ما يدفع الله عنى من أذى قريش ،

يشتمون ويهجون مذمما وأنا محمد ؟ ! » وأدخل النسوى هذا الحديث فى كتاب الطلاق فى باب : « من طلق بكلام لايشبه الطلاق فانه غير لازم » وهو فقه حسن لقول النبى - صلى الله عليه وسلم . ألا ترون إلى مايدفع الله عنى ؛ فجعل أذاهم مصروفا عنه ؛ لما سبوامذمماً لا يشبه أن يكون اسماله ، فكذلك إذا قال لها . كلى واشربى ، وأراد به الطلاق لم يلزمه وكان مصروفا عنه ، لأن مثل هذا الكلام لايشبه أن يكون عبارة عن الطلاق .

حديث خباب : فصل : وذكر حديث خباب مع العاصى بن وائل ، وما أنزل الله فيه من قوله : « أرأيت الذى كفر بآياتنا » وقد تقدم الكلام على : أرأيت ؛ وأنه لايجوز أن يليها الاستفهام ، كما يلى : علمت ونحوها ؛ وهى هنا : عاملة فى الذى كفر ، وقد قدمنا من القول فيها مايغنى عن إعادته ههنا ؛فلينظرفى سورة : اقرأ ، وحديث نزولها .

إثبات الذرائع : فصل : وذكر قول أبى جهل لتكفن عن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك فأنزل الله تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم» وهذه الآية أصل عند المالكية فى إثبات الذرائع ومراعاتها فى البيوع وكثير من الأحكام ، وذلك أن سب آلهتهم كان من الدين ، فلما كان سببا إلى سبهم البارى - سبحانه نهى عن سب آلهتهم ، فكذلك ما يخاف منه الذريعة إلى الربا ، ينبغى الزجر عنه ، ومن الذرائع مايقرب من الحرام ، ومنها مايبعد فتقع الرخصة والتشديد على حسب ذلك ، ولم يجعل الشافعى الذريعة إلى الحرام أصلا ، ولا كره شيئا من البيوع التى تتقى فيها الذريعة إلى الربا ، وقال : تهمة المسلم وسوء الظن به حرام ، ومن حجتهم قول عمر بن الخطاب : إنما الربا على من قصد الربا ، وقول النبى عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى» فيه أيضا متعلق لهم وقالوا ونهيه تعالى عن سب آلهتهم ، لئلا يسب الله تعالى ليس من هذا الباب ، لأنه لاتهمة فيه لمؤمن ولا تضييق عليه ، وكما تتقى الذريعة إلى تحليل ماحرم الله ، فكذلك ينبغى أن يتقى تحريم ماأحل الله ، فكلا الطرفين ذميم ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، والربا معلوم ، فما ليس من الربا فهو من البيع والكلام فى هذه المسألة للطائفتين ، والاحتجاج للفريقين يتسع مجاله ويصدنا عن مقصودنا من الكتاب .

النضر بن الحارث ، وشىء من أخبار الفرس

فصل : حديث النضر بن الحارث ، وقال فى نسبه : كلده بن علقمة وغيره من النساب يقول : علقمة بن كلدة ، وكذلك ألفيته فى حاشية كتاب الشيخ أبى بحر عن الوليد ، وحديث النضر : أنه تعلم أخبار رستم واسبندياذ ، وكان يقول : اكتتبتها كما اكتتبها محمد ، ووقع فى الأصل : اكتتبها كما اكتتبها محمد ، وفى الرواية الأخرى عن أبى الوليد : اكتتبتها كما اكتتبها ، ورستم الشيد بالفارسية معناه : ذو الضياء ، والياء فى الشيد والألف سواء ، ومنه « أرنخشاذ » وقد تقدم شرحه ، ومنه « جم شاذ » ، وهو من أول ملوك الأرض ، وهو الذى قتله الضحاك « بيوراسب » ، ثم عاش إلى مدة « أفريذون وأبيه جم » ، وبين « أفريذون » وبين « جم» تسعة آباء ، وقال له حين قتله : ماقتلتك بجم ، وما أنت له بكفء ، ولكن قتلتك بثور كان فى داره ، وقد تقدم طرف من أخبار رستم واسبندياذ فى الجزء قبل هذا .

. . . .

ابن الزبعرى وعزير : وذكر حديث ابن الزبعرى ، وقوله : إنا نعبد الملائكة ، وأن النصارى تعبد المسيح إلى آخر كلامه ، وما أنزل الله فى ذلك من قوله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى » الآية قال المؤلف : ولو تأمل ابن الزبعرى وغيره من كفار قريش الآية لرأى اعتراضه غير لازم من وجهين :

أحدهما : أنه خطاب متوجه على الخصوص لقريش وعبدة الأصنام ، وقوله إنا نعبد الملائكة حيدة ، وإنما وقع الكلام والمحاجة فى اللات والعزى وهبل ، وغير ذلك من أصنامهم .

والثانى : أن لفظ التلاوة : « إنكم وما تعبدون » ولم يقل : ومن تعبدون ، فكيف يلزم اعتراضه بالمسيح وعزير والملائكة وهم يعقلون ، والأصنام لا تعقل ، ومن ثم جاءت الآية بلفظ : ما الواقعة على مالا يعقل ، وإنما تقع ما على مايعقل ، وتعلم بقرينة من التعظيم والإبهام ، ولعلنا نشرحها ونبينها فيما بعد إن قدر لنا ذلك ، وسبب عبادة النصارى للمسيح معروف ، وأما عبادة اليهود عزيرا ، وقولهم فيه : إنه ابن الله سبحانه وتعالى عن قولهم ، وسببه فيما ذكر عبد بن حميد الكشى ، أن التوراة لما احترقت أيام بخت نصر ، وذهب بذهابها دين اليهود ، فلما ثاب إليهم أمرهم وجدوا لفقدها أعظم الكرب ، فبينما عزير يبكى لفقد التوراة ، إذ مر بامرأة جاثمة على قبر قد نشرت شعرها ، فقال لها عزير : من أنت ؟ قالت : أنا إيليا أم القرى أبكى على ولدى ، وأنت تبكى على كتابك ، وقالت له : إذا كان غداً ، فأت هذا المكان ، فلما أن جاء من الغد للساعة التى وعدته ، إذا هو بإنسان خارج من الأرض فى يده كهيئة القارورة ، فيها نور ، فقال له : افتح فاك ، فألقاها فى جوفه ، فكتب عزير التوراة - كما أنزلها الله ، ثم قدر على التوراة بعد ما كانت دفنت أن ظهرت ، فعرضت التوراة ، وما كان عزير كتب ، فوجدوه سواء ، فمنها قالوا : إنه ولد الله تعالى عن ذلك .

حصب جهنم : وقوله حصب جهنم ، هو من باب القبض والنفض والحصب بسكون الصاد كالقبض والنفض ، ومنه الحاصب فى قوله سبحانه : « أن يرسل عليكم حاصباً » ، ويروى : حضب جهنم بضاد معجمة فى شواذ القراءات ، وهو من حضبت النار بمنزلة حضأتها ، يقال : أرثتها وأثقبتها وحششتها وأذكيتها . وفسر ابن إسحق قوله : يصدون (بضم الصاد) ، ومن قرأ : يصدون فمعناه : يعجبون .

مانزل فى الأخنس : فصل : وذكر ما أنزل الله تعالى فى الأخنس بن شريق - واسمه : أبى من قوله تعالى « عتل بعد ذلك زنيم » وقد قيل نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وقد قيل : فى الأسود بن عبد يغوث الزهرى ، وقال ابن عباس : نزلت فى رجل من قريش له زنمتان كزنمتى الشاه . رواه البخارى بإسناده عنه وفى رواية أخرى أنه قال : الزنيم الذى له زنمتان من الشر يعرف بهما ، كما تعرف الشاة بزنمتها ، وروى عن ابن عباس أيضا مثل ما قال ابن إسحق أن الزنيم الملصق بالقوم ، وليس منهم ، قال ذلك بن الأزرق الحرورى ، وقال : أما سمعت قول حسان : زنيم تداعاه الرجال البيت ، وقد أنشد ابن هشام هذا البيت مستشهداً به ونسبه للخطيم التميمى ، والأعرف أنه لحسان ، كما قال ابن عباس ، وأما العتل فهو الغليظ الجافى من قوله تعالى « خذوه فاعتلوه » ، وقال عليه السلام : « أنا أنبئكم بأهل النار : كل عتل جواظ مستكبر جماع مناع »

. . . .

قل يأيها الكافرون : فصل : وذكر قولهم الذى أنزل الله فيه : « قل : يأيها الكافرون » إلى آخرها فقال: « لا أعبد ماتعبدون » أى : فى الحال :«ولا أنا عابد ماعبدتم » أى : فى المستقبل ، وكذلك : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فإن قيل : كيف يقول لهم : ولا أنتم عابدون ماأعبد ، وهم قد قالوا : هلم فلنعبد ربك ، وتعبد ربنا ، كيف نفى عنهم ما أرادوا وعزموا عليه ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما : أنه علم أنهم لايفعلون ، فأخبر بما علم . الثانى : أنهم لو عبدوه على الوجه الذى قالوه ما كانت عبادة ، ولايسمى عابداً لله من عبده سنة ، وعبد غيره أخرى ، فإن قيل : كيف قال : «ولا أنتم عابدون ماأعبد » ولم يقل : من أعبد ، وقد قال أهل العربية : إن ما تقع على مالا يعقل ، فكيف عبر بها عن البارى تعالى ؟ فالجواب : أنا قد ذكرنا فيما قبل أن ما قد تقع على من يعقل بقرينة ، فهذا أوان ذكرها ، وتلك القرينة : الإبهام والمبالغة فى التعظيم والتفخيم ، وهى فى معنى الإبهام لأن من جلت عظمته ، حتى خرجت عن الحصر ، وعجزت الأفهام عن كنه ذاته ، وجب أن يقال فيه : هو ما هو كقول العرب : سبحان ماسبح الرعد بحمده ، ومنه قوله : « والسماء وما بناها » فليس كونه عالما مما يوجب له من التعظيم ما يوجب له أنه بنى السموات ، ودحا الأرض ، فكان المعنى : إن شيئاً بناها لعظيم ، أو ماأعظمه من شىء ! فلفظ ما فى هذا الموضع يؤذن بالتعجب من عظمته كائناما كان هذا الفاعل لهذا ، فما أعظمه ، وكذلك قوله تعالى فى قصة آدم : « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى » ولم يقل : لمن خلقت ، وهو يعقل ، لأن السجود لم يجب له من حيث كان يعقل ، ولا من حيث كان لايعقل ، ولكن من حيث أمروا بالسجود له ، فكائناً ما كان ذلك المخلوق ، فقد وجب عليهم ما أمروا به ، فمن هاهنا حسنت مافى هذا الموضع ، لامن جهة التعظيم له ، ولكن من جهة مايقتضيه الأمر من السجود له ، فكائنا من كان ، وأما قوله تعالى : « لا أعبد ماتعبدون » فواقعة على مالا يعقل؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ، وقوله :« ولا أنتم عابدون ماأعبد» اقتضاها الإبهام ، وتعظيم المعبود مع أن الحس منهم مانع لهم أن يعبدوا معبوده كائنا ما كان ، فحسنت مافى هذا الموضع لهذه الوجوه ، فبهذه القرائن يحسن وقوع ما على أولى العلم .

وبقيت نكتة بديعة يتعين التنبيه عليها ، وهو قوله تعالى : « ولا أنا عابد ماعبدتم » بلفظ الماضى ، ثم قال : « ولا أنتم عابدون ماأعبد » بلفظ المضارع فى الآيتين جميعاً ، إذا أخبر عن نفسه قال : ما أعبد ، ولم يقل : ماعبدت ، والنكتة فى ذلك أن ما لما فيها من الإبهام - وإن كانت خبرية - تعطى معنى الشرط ، فكأنه قال : مهما عبدتم شيئا ، فانى لاأعبده ، والشرط يحول المستقبل إلى لفظ الماضى ، تقول : إذا قام زيد غداً فعلت كذا ، وإن خرج زيد غداً خرجت ، فما : فيها رائحة الشرط من أجل إبهامها ؛ فلذلك جاء الفعل بعدها بلفظ الماضى ، ولا يدخل الشرط على فعل الحال ، ولذلك قال فى أول السورة :ما تعبدون ؛ لأنه حال لأن رائحة الشرط معدومة فيها مع الحال ، وكذلك رائحة الشرط معدومة فى قوله : عابدون ماأعبد ؛ لأنه - عليه السلام - يستحيل أن يتحول عن عبادة ربه ، لأنه معصوم ، فلم يستقم تقديره بمهما ، كما استقام ذلك فى حقهم ، لأنهم فى قبضة الشيطان يقودهم بأهوائهم ، فجائز أن يعبدوا اليوم شيئاً ، ويعبدوا غداً غيره ، ولكن مهما عبدوا شيئاً ، فالرسول عليه السلام لايعبده ، فلذلك قال : ولا أنتم عابدون ما أعبد فى الحال وفى المآل ، لما علم من عصمة الله له ، ولما علم الله من ثباته على توحيده ، فلا مدخل لمعنى الشرط فى حقه عليه السلام ، وإذا لم يدخل الشرط فى الكلام بقى الفعل المستقبل على لفظه ، كما تراه ، ونظير هذه المسألة قوله تعالى: « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » اضطربوا فى إعرابها وتقديرها لما كانت من بمعنى الذى ، وجاء بكان على لفظ الماضى ، وفهمها الزجاج ، فأشار إلى أن من

العائدون من أرض الحبشة

قال ابن إسحاق : وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة ، إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ماكانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيا .

فيها طرف من معنى الشرط ؛ ولذلك جاءت كان بلفظ المضى بعده ، فصار معنى الكلام : من يكن صبياً ، فكيف يكلم ؟ ! لما أشارت إلى الصبي : أن كلموه ، ولو قالوا : كيف نكلم من هو فى المهد الآن لكان الإنكار والتعجب مخصوصا به ، فلما قالوا : كيف نكلم من كان ، صار الكلام أبلغ فى الاحتجاج للعموم الداخل فيه . إلى هذا الغرض أشار أبو إسحاق ، وهو الذى أراد ، وإن لم يكن هذا لفظه ، فليس المقصود العبارات ، وإنما المقصود تصحيح المعانى المتلقاه من الألفاظ والإشارات .

شجرة الزقوم : فصل : وذكر حديث أبي جهل حين ذكر شجرة الزقوم يقال : إن هذه الكلمة لم تكن من لغة قريش ، وأن رجلا أخبره أن أهل يثرب : يقولون تزقمت : إذا أكلت التمر بالزبد ، فجعل بجهله اسم الزقوم من ذلك استهزاء ، وقيل : إن لهذا الاسم أصلا فى لغة اليمن ، وأن الزقوم عندهم كل مايتقيأ منه . وذكر أبو حنيفة فى النبات : أن شجرة باليمن يقال لها : الزقوم ، لاورق لها وفروعها أشبه شيء برءوس الحيات ، فهى كريهة المنظر ، وفى تفسير ابن سلام والماوردى أن شجرة الزقوم فى الباب السادس من جهنم أعاذنا الله منها ، وأن أهل النار ينحدرون إليها . قال ابن سلام : وهي تحيا باللهب كما تحيا شجرة الدنيا بالمطر .

وقوله : الملعونة فى القرآن ، أي : الملعون آكلها ، وقيل : بل هو وصف لها كما يقال : يوم ملعون أى مشئوم

حديث ابن أم مكتوم فصل : وذكر حديث ابن أم مكتوم ، وذكر اسمه ونسبه . وأم مكتوم : اسمها : عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم .

وذكر الرجل الذى كان شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه الوليد بن المغيرة ، وقد قيل : كان أمية ابن خلف ، وفى حديث الموطأ : عظيم من عظماء المشركين ، ولم يسمه ، وفى قوله سبحانه : « أن جاءه الأعمى » من الفقه أن لاغيبة فى ذكر الإنسان بما ظهرت فى خلقته من عمى أو عرج ، إلا أن يقصد به الازدراء ، فيلحق المأثم به ، لأنه من أفعال الجاهلين . قال الله تعالى : « أتتخذنا هزوا قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » وفى ذكره إياه بالعمى من الحكمة والإشارة اللطيفة التنبيه على موضع العتب ، لأنه قال : « أن جاءه الأعمى » فذكر المجيء مع العمى ، وذلك ينبيء عن تجشم كلفة ومن تجشم القصد إليك على ضعفه ، فحقك الإقبال عليه ، لا الإعراض عنه ، فإذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم ، معتوبا على توليه عن الأعمى ، فغيره أحق بالعتب ، مع أنه لم يكن آمن بعد ، ألا تراه يقول : « وما يدريك لعله يزكى » الآية ولو كان قد صح إيمانه ، وعلم ذلك منه لم يعرض عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو أعرض لكان العتب أشد ، والله أعلم ، وكذلك لم يكن ليخبر عنه ، ويسميه بالاسم المشتق من العمى ، دون الاسم المشتق من الإيمان والإسلام ، لوكان دخل فى الإيمان قبل ذلك والله أعلم ، وإنما دخل فيه بعد نزول الآية ، ويدل على ذلك قوله للنبي - صلى الله عليه وسلم : استدنى يامحمد ولم يقل : استدنى يارسول الله ، مع أن ظاهر الكلام يدل على أن الهاء فى لعله يزكى عائدة على الأعمى ، لا على الكافر ، لأنه لم يتقدم له ذكر بعد ، ولعل تعطى الترجى والانتظار ، ولو كان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حد الترجى والانتظار للتزكى . والله أعلم .

فكان ممن قدم عليه مكة منهم ، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة ، فشهد معه بدراً ، ومن حبس عنه ، حتى فاته بدر وغيره ، ومن مات بمكة . منهم من بنى عبد شمس بن عبد مناف بن قصى : عثمان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، معه امرأته : رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، امرأته سهلة بنت سهيل .

ومن حلفائهم : عبد الله بن جحش بن رئاب .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف : عتبة بن غزوان ، حليف لهم ، من قيس عيلان .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

ومن بنى عبد الدار بن قصى : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وسويبط بن سعد بن حرملة .

ومن بنى عبد بن قصى : طليب بن عمير بن وهب بن أبى كبير بن عبد .

ومن بنى زهرة بن كلاب : عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، والمقداد بن عمرو ، وعبد الله بن مسعود ، حليف لهم .

ومن بنى مخزوم بن يقظة : أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، معه امرأته : أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، وشماس بن عثمان بن الشريد بن سويد بن هرمى بن عامر بن مخزوم . وسلمة ابن هشام بن المغيرة ، حبسه عمه بمكة ، فلم يقدم إلا بعد بدر وأحد والخندق ، وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة هاجر معه إلى المدينة ، ولحق به أخواه لأمه : أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، فرجعا به إلى مكة ، فحبساه بها حتى مضى بدر وأحد والخندق .

ومن حلفائهم : عمار بن ياسر ، يشك فيه ، أكان خرج إلى الحبشة أم لا ؟ ومعتب بن عوف بن عامر من خزاعة .

ومن بنى جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب : عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، وابنه : السائب بن عثمان ، وقدامة بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون .

ومن بنى سهم بن هصيص بن كعب : خنيس بن حذافة بن قيس عدى ، وهشام بن العاص بن وائل ، حبس بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - المدينة ، حتى قدم بعد بدر وأحد والخندق .

ومن بنى عدى بن كعب : عامر بن ربيعة ، حليف لهم ، معه امرأته : ليلى بنت أبى حثمة بن حذافة بن غانم .

ومن بنى عامر بن لؤى : عبد الله بن مخرمة بن عبد العزى بن أبى قيس : وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وكان حبس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة ، حتى كان يوم بدر ، فانحاز من المشركين إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد معه بدراً ، وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى ، معه امرأته : أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، والسكران بن عمرو بن عبد شمس ، معه امرأته : سودة بنت زمعة بن قيس ، مات بمكة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، فخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأته سودة بنت زمعة

ومن حلفائهم سعد بن خولة .

ومن بني الحارث بن فهر : أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح . وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد ، وسهيل بن بيضاء ، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال ، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال « كنيته : أبو سعد كما في الإصابة » .

فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا ، فكان من دخل منهم بجوار ، فيمن سمى لنا : عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، دخل بجوار من أبي طالب بن عبد المطلب ، وكان خاله . وأم أبي سلمة : برة بنت عبد المطلب .

عثمان بن مظعون يرد جوار الوليد

قال ابن إسحاق : فأما عثمان بن مظعون ، فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدثني عمن حدثه عن عثمان ، قال لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - من البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك - وأصحابي ، وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني - لنقص كبير في نفسي ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة ، فقال له : ياأبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : لم يابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن أستجير بغيره ؟ قال : فانطلق إلى المسجد ، فاردد على جواري علانية ، كما أجرتك علانية . قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد على جواري قال : صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان : فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان : صدقت ، قال :

وكل نعيم لامحالة زائل

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لايزول . قال لبيد بن ربيعة : يامعشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل ، فلطم عينه ، فخضرها ، والوليد بن المغيرة

قريب يرى مابلغ من عثمان ، فقال : أما والله ياابن اخى إن كانت عينك عماأصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة قال : يقول عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال له الوليد : هلم يابن أخى ، إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .

ابو سلمة فى جوار ابى طالب

قال ابن إسحاق : وأما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن سلمة بن عمر بن أبى سلمة أنه حدثه : أن سلمة لما استجار بأبى طالب ، مشى إليه رجال من بنى مخزوم ، فقالوا : ياأباطالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بى ، وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى ، فقام أبو لهب ، فقال : يامعشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه ، أو لنقومن معه فى كل ماقام فيه حتى يبلغ ماأراد قال فقالوا بل ننصرف عما تكره ياأباعتبة ، وكان لهم وليا وناصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فابقوا على ذلك ، فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول مايقول ، ورجا أن يقوم معه فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال أبو طالب يحرض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وإن امرءا أبو عتيبة عمه ... لفى روضة ماإن يسام المظالما
أقول له ـ وأين منه نصيحتى ... أبا معتب ثبت سوادك قائما
فلا تقبلن الدهر ماعشت خطة ... تسب بها ، إما هبطت المواسما
وول سبيل العجز غيرك منهم ... فإنك لم تخلق على العجز لازما
وحارب، فإن الحرب نصف وما ترى ... أخا الحرب يعطى الخسف حتى يسالما
وكيف ولم يجنوا عليك عظيمة ... ولم يخذلوك غانما ، أو مغرما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا ... وتيما ومخزوما عقوقا ومأثما
بتفريقهم من بعد ود وألفة ... جماعتنا ، كيما ينالوا المحارما
كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولما تروا يوما لدى الشعب قائما

قال ابن هشام : نبزى : نسلب . قال ابن هشام : وبقى منها بيت تركناه .

دخول ابى بكر فى جوار ابن الدغنة ثم رده عليه

قال ابن إسحاق : وقد كان أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كما حدثنى : محمد بن مسلم الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنهما ، حين ضاقت عليه مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ما رأى ، استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الهجرة ، فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين ، لقيه ابن الدغنة ، أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش .

قال ابن إسحاق : والأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة .

قال ابن هشام : تحالفوا جميعا ، فسموا الأحابيش للحلف .

ويقال : ابن الدغينة .

قال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : فقال ابن الدغنة : أين يا أبابكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذونى ، وضيقوا على قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، ارجع ، وأنت فى جوارى ، فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة ، قام ابن الدغنة فقال : يامعشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له إلا بخير . قالت : فكفوا عنه .

قالت : وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، فكان يصلى فيه ، وكان رجلا رقيقا ، إذا قرأ القرآن استبكى . قالت : فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء ، لما يرون من هيئته . فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة ، فقالوا له : يابن الدغنة ، إنك لم تجر هذا الرجل ، ليؤذينا ! إنه رجل إذا صلى ، وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ، وكانت له هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمره أن يدخل بيته ، فليصنع فيه ما شاء . قالت فمشى ابن الدغنة إليه ، فقال له : يا أبابكر ، إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك ، فاصنع فيه ما أحببت ، قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى قال: قد رددته عليك. قالت فقام ابن الدغنة ، فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه القاسم بن محمد قال : لقيه سفيه من سفهاء قريش ، وهو عامد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه ترابا . قال : فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة ، أو العاص بن وائل . قال : فقال أبو بكر : ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك . قال : وهو يقول : أى رب ، ما أحلمك ! أى رب ، ما أحلمك ! أى رب ، ما أحلمك !

حديث نقض الصحيفة

قال ابن إسحاق : وبنو هاشم ، وبنو المطلب فى منزلهم الذى تعاقدت فيه قريش عليهم فى الصحيفة التى كتبوها ، ثم إنه قام فى نقض تلك الصحيفة التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب نفر من قريش ، ولم يبل فيها

. . . .

أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن عامر بن لؤى ، وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه فكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان ذا شرف فى قومه فكان - فيما بلغنى - يأتى بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ليلا ، قد أوقره طعاما ، حتى إذا أقبل به فم الشعب ، خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه ، فيدخل الشعب عليهم ، ثم يأتى به قد أوقره بزا ، فيفعل به مثل ذلك .

قال ابن اسحاق : ثم انه مشى الى زهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وكانت أمه : عاتكة بنت عبد المطلب - فقال : يازهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لايباعون ، ولا يبتاع منهم ، ولاينكحون ، ولاينكح اليهم ؟ أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ، ثم دعوته الى ما دعاك اليه منهم ، ما أجابك اليه أبداً ، قال : ويحك ياهشام ! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر ، لقمت فى نقضها حتى أنقضها ، قال : قد وجدت رجلا قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال له زهير : أبغنا رجلا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدى ، فقال له : يامطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنهم إليها منكم سراعا ، قال : ويحك ! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانيا ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : أبغنا ثالثا ، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال أبغنا رابعا .

فذهب إلى أبى البخترى بن هشام ، فقال له نحواً مما قال لمطعم بن عدى ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك ، قال : أبغنا خامسا .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمى له القوم .

فاتعدوا خطم الحجون ليلا بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك ، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة ، حتى ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مكة ، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايباع ولايبتاع معهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - وكان فى ناحية المسجد : كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الأسود : إنت والله أكذب ، مارضينا كتابها حيث كتبت ، قال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ماكتب فيها ، ولا نقر به ، قال المطعم ابن عدى : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها ، قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان ، وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها ، إلا : « باسمك اللهم » .

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة . فشلت يده فيما يزعمون .

. . . .

قال ابن هشام : وذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبى طالب : ياعم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش ، فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شراً . فعند ذلك صنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ماصنعوا .

قال ابن إسحاق : فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها . قال أبو طالب ، فيما كان من أمر أولئك النفر الذين قاموا فى نقضها يمدحهم :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك ، وسحر مجمع ... ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقرقر ... فطائرها فى رأسها يتردد
وكانت كفاء رقعة بأثيمة ... ليقطع منها ساعد ومقلد
ويظعن أهل المكتين ، فيهربوا ... فرائصهم من خشية الشر ترعد
ويترك حراث يقلب أمره ... أيتهم فيهم عندك ذاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة ... لها حدج سهم وقوس ومرهد
فمن ينش من حضار مكة عزه ... فعزتنا فى بطن مكة أتلد
نشأنا بها ، والناس فيها قلائل ... فلم تنفك نزداد خيراً ونحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... اذا جعلت أيدى المفيضين ترعد
جزى الله رهطا بالحجون تبايعوا ... على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة ، بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا مامشى فى رفرف الدرع أحرد
جرى على جلى الخطوب ، كأنه ... شهاب بكفى قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤى بن غالب ... إذا سيم خسفا وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد ، سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ، ويحشد
ويبنى لأبناء العشيرة صالحا ... إذا نحن طفنا فى البلاد ، ويمهد
ألظ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ماقضوا فى ليلهم ، ثم أصبحوا ... على مهل ، وسائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضياً ... وسر أبو بكر بها ومحمد

متى شرك الأقوام فى جل أمرنا وكنا قديماً قبلها نتودد
وكنا قديماً لا نقر ظلامة وندرك ما شئنا ، ولا نتشدد
فيا لقصى هل لكم فى نفوسكم وهل لكم فيما يجىء به غد
فإنى وإياكم كما قال قائل لديك البيان لو تكلمت أسود

وقال حسان بن ثابت يبكى المطعم بن عبدى حين مات ، ويذكر قيامه فى نقض الصحيفة :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى بدمع ، وإن أنزفته فاسكبى الدما
وبكى عظيم المشعرين كليهما على الناس معروفا له ما تكلما
فلو كان مجد يخلد الدهر واحداً من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم، فأصبحوا عبيدك ، ما لبى مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها وقحطان ، أو باقى بقية جرهما
لقالوا : هو الموفى بخفرة جاره وذمته يوماً إذا ما تذمما
فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم على مثله فيهم أعز وأعظما
وآبى إذا يأبى وألين شيمة وأنوم عن جار إذا الليل أظلما

قال ابن هشام : قوله « كليهما » عن غير ابن إسحاق .

قال ابن هشام : وأما قوله : « جرت رسول الله منهم » ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم — لما انصرف عن أهل الطائف ، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، من تصديقه ونصرته ، صار إلى حراء ، ثم بعث إلى الأخنس ابن شريق ، ليجيره ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يجير ، فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال : إن بنى عامر لاتجير على بنى كعب . فبعث إلى المطعم بن عدى ، فأجابه إلى ذلك ، ثم تسلح المطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن ادخل ، فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فطاف بالبيت ، وصلى عنده ، ثم انصرف إلى منزله ، فذلك الذى يعنى حسان بن ثابت .

قال ابن اسحاق : وقال حسان بن ثابت أيضاً : يمدح هشام بن عمرو لقيامه فى الصحيفة :

هل يوفين بنو أمية ذمة عقداً كما أوفى جوار هشام
من معشر لا يغدرون بجارهم للحارث بن حبيب بن سخام
وإذا بنو حسل أجاروا ذمة أوفوا وأدوا جارهم بسلام

وكان هشام أخا سخام : قال ابن هشام : ويقال : شحام .

. . . .

عودة المهاجرين من الحبشة

وذكر ما بلغ أهل الحبشة من إسلام أهل مكة ، وكان باطلا ، و سببه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة النجم ، فألقى الشيطان فى أمنيته ، أى : فى تلاوته عند ذكر اللات والعزى ، إنهم لهم الغرانقة العلى ، وإن شفاعتهم لترتجى ، فطار ذلك بمكة ، فسر المشركون ، وقالوا : قد ذكر آلهتنا بخير فسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى آخرها ، وسجد المشركون والمسلمون ، ثم أنزل الله تعالى : « فينسخ الله مايلقى الشيطان» الآية ، فمن هاهنا اتصل بهم فى أرض الحبشة أن قريشا قد أسلموا ، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق من غير رواية البكائى ، وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة ، ومن صححه قال فيه أقوالا ، منها : أن الشيطان قال ذلك وأشاعه . والرسول - عليه السلام - لم ينطق به ، وهذا جيد لولا أن فى حديثهم أن جبريل قال لمحمد : ما أتيتك بهذا ؛ ومنها : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قالها من قبل نفسه ، وعنى بها الملائكة : إن شفاعتهم لترتجى. ومنها : أن النبى - عليه السلام - قال حاكيا عن الكفرة ، وأنهم يقولون ذلك ، فقالها متعجبا من كفرهم ، والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته ، والله أعلم .

وسمى الذين قدموا منهم من أجل ذلك الخبر ، وذكر فيهم طليبا ، وقال فى نسبه : ابن أبى كبير بن عبد ابن قصى ، وزيادة أبى كبير فى هذا الموضع لايوافق عليه وكذلك وجدت فى حاشية كتاب الشيخ التنبيه على هذا وذكره أبو عمر ونسبه كما نسبه ابن إسحق بزيادة : أبى كبير ، وكان بدريا فى إحدى الروايتين عن ابن إسحق ، وكذلك قال الواقدى وابن عقبة ، ومات بأجنادين شهيدا لاعقب له .

حول قول لبيد : فصل : وذكر قول لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وقصة ابن مظعون إلى آخرها ، وليس فيها ما يشكل غير سؤال واحد ، وهو قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل

فصدقه فى هذا القول وهو - عليه السلام - يقول فى مناجاته : « أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق والجنة حق ، والنار حق ، ولقاؤك حق » فكيف يجتمع هذا مع قوله :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فالجواب وجهين أحدهما : أن يريد بقوله : ماخلا الله : ماعداه ، وعدا رحمته التى وعد بها من رحمه ، والنار وماتوعد به من عقابه ، وماسوى هذا فباطل أى : مضمحل والجواب الثانى : أن الجنة والنار وإن كانتا حقا ، فإن الزوال عليهما جائز لذاتهما ، وإنما يبقيان بإبقاء الله لهما ، وأنه يخلق الدوام لأهلهما على قول من جعل الدوام والبقاء معنى زائداً على الذات ، وهو قول الأشعرى ، وإنما الحق على الحقيقة من لايجوز عليه الزوال ،

. . . .

وهو القديم الذى انعدامه محال ، ولذلك قال عليه السلام : أنت الحق بالألف واللام ، أى المستحق لهذا الاسم على الحقيقة ، وقولك الحق ، لأن قوله قديم ، وليس بمخلوق فيبيد ، ووعدك الحق ، كذلك ، لأن وعده كلامه ، هذا مقتضى الألف واللام ، ثم قال : والجنة حق ، والنار حق بغير ألف ولام ، ولقاؤك حق كذلك ، لأن هذه أمور محدثات والمحدث لا يجب له البقاء من جهة ذاته ، وإنما علمنا بقاءها من جهة الخبر الصادق الذى لا يجوز عليه الخلف لا من جهة استحالة البقاء عليها ، كما يستحيل على القديم - سبحانه - الذى هو الحق ، وماخلاه باطل ، فإما جوهر وإما عرض ، وليس فى الأعراض إلا ما يجب له الفناء ، ولا فى الجواهر إلا ما يجوز عليه الفناء والبطول ، وإن بقى ولم يبطل فجائز أن يبطل وأما الحق - سبحانه - فليس من الجواهر والأعراض : فاستحال عليه ما يجب لهما ، أو يجوز عليهما .

حديث أبى بكر مع ابن الدغنة : وذكر حديث أبى بكر حين لقى ابن الدغنة ، واسمه : مالك ، وهو سيد الأحابيش ، وقد سماهم ابن إسحاق ، وهم : بنو الحارث وبنو الهون من كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة تحبشوا ، أى : تجمعوا ، فسموا الأحابيش . قيل : إنهم تحالفوا عند جبيل ، يقال له حبشى ، فاشتق لهم منه الاسم .

وقوله لأبى بكر : إنك لتكسب المعدوم ، يقال : كسبت الرجل مالا ، فتعديه إلى مفعولين . هذا قول الأصمعى ، وحكى غيره : أكسبته مالا ، فمعنى تكسب المعدوم ، أى : تكسب غيرك ماهو معدوم عنده ، والدغنة : اسم امرأة عرف بها الرجال ، والدغن : الغيم يبقى بعد المطر .

الشعب ونقض الصحيفة : فصل : وذكر نقض الصحيفة ، وقيام هشام فيها ونسبه ، فقال : هشام بن الحارث ، بن حبيب ، وفى الحاشية عن أبى الوليد : إنما هو هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ، وهكذا وقع نسبه فى رواية يونس عن ابن إسحاق ، وكان أبوه عمرو أخا نضلة بن هاشم لأمه .

وذكر أنه كان يأتى بالبعير قد أوقره بزا بالزاى المعجمة ، وفى غير نسخة الشيخ أبى بحر : برا ، وفى رواية يونس : بزا أو برا على الشك من الراوى .

وذكر أن منصور بن عكرمة كان كاتب الصحيفة ، فشلت يده ، وللنساب من قريش فى كاتب الصحيفة هو : بغيض ابن عامر بن هاشم بن عبد الدار ، والقول الثانى : أنه منصور بن عبد شرحبيل بن هاشم من بنى عبد الدار أيضا ، وهو خلاف قول ابن إسحاق ، ولم يذكر الزبير فى كاتب الصحيفة غير هذين القولين ، والزبيريون أعلم بأنساب قومهم .

وذكر ما أصاب المؤمنين مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الشعب من ضيق الحصار لا يبايعون ولا يناكحون ، وفى الصحيح : أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة ، وكان فيهم سعد بن أبى وقاص . روى أنه قال : لقد جعت ، حتى أنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب ، فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ماهو إلى الآن ، وفى رواية يونس : أن سعداً قال : خرجت ذات ليلة لأبول ، فسمعت قعقعة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ثم رضضتها ، وسففتها بالماء ، فقويت بها ثلاثا ، وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، فيقوم أبو لهب عدو الله ، فيقول : يامعشر التجار . غالوا على أصحاب محمد ، حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة ، فيمتها أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله ، وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يديه شىء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب ،

. . . .

فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المؤمنون ، ومن معهم جوعا وعرياً ، وهذه إحدى الشدائد الثلاث التى دل عليها تأويل الغطات الثلاث التى غطه جبريل حين قال له : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، وإن كان ذلك فى اليقظة ، ولكن مع ذلك له فى مقتضى الحكمة تأويل وإيماء وقد تقدمت الإشارة إلى هذا قبل ، وإلى آخر حديث الصحيفة ليس فيها مايشكل .

شرح دالية أبى طالب : وقول أبى طالب : ألا قد أتى بحرينا ، يعنى الذين بأرض الحبشة ، نسبهم إلى البحر لركوبهم إياه ، وهكذا وجه النسب إليه ، وقد قال عليه السلام : إذا نشأت بحرية ، وزعم ابن سيدة فى كتاب المحكم له أن العرب تنسب إلى البحر : بحرانى على غير قياس ، وأنه من شوذ النسب ، ونسب هذا القول إلى سيبويه والخليل ، ولم يقله سيبويه قط ، وإنما قال فى شواذ النسب : تقول فى بهراء : بهرانى ، وفى صنعاء : صنعانى ، كما تقول : بحرانى فى النسب إلى البحرين التى هى مدينة ، وعلى هذا تلقاه جميع النحاة ، وتأولوه من كلام سيبويه ، وإنما شبه على ابن سيدة لقول الخليل فى هذه المسألة أعنى مسألة النسب إلى البحرين ، كأنهم بنوا البحر على بحران ، وإنما أراد لفظ البحرين ألا تراه يقول فى كتاب العين : تقول بحرانى فى النسب إلى البحرين ، ولم يذكر النسب إلى البحر أصلا للعلم به ، وأنه على القياس جار ، وفى الغريب المصنف عن اليزيدى أنه قال : إنما قالوا : بحرانى فى النسب إلى البحرين ، ولم يقولوا : بحرى ليفرقوا بينه وبين النسب إلى البحر ، وما زال ابن سيدة يعثر فى هذا الكتاب وغيره عثرات يدمى منها الأظل ، ويدحض دحضات تخرجه إلى سبيل من ضل ألا تراه قال فى هذا الباب : وذكر بحيرة طبرية ، فقال : هى من أعلام خروج الدجال ، وأن ماءها ييبس عند خروجه ، والحديث : إنما جاء فى عين زغر ، وإنما ذكرت بحيرة طبرية فى حديث يأجوج ومأجوج ، وأنهم يشربون ماءها ، وقال فى الجمار فى غير هذا الكتاب : التى ترمى بعرفة ، وهذه هفوة لا تقال ، وعثرة لا لعاً لها وكم له من هذا إذا تكلم فى النسب وغيره ، ومن النسب إلى البحر قوله عليه السلام لأسماء بنت عميس حين قدمت من أرض الحبشة : البحرية الحبشية ، فهذا مثل قول أبى طالب : ألا هل أتى بحرينا .

وقوله : والله بالناس أرود : أى : أرفق ، ، ومنه : رويدك ، أى رفقاً جاء بلفظ التصغير ، لأنهم يريدون به تقليلا أى : ارفق قليلا ، وليس له مكبر من لفظه ، لأن المصدر : إرواد ، إلا أن يكون من باب تصغير الترخيم ، وهو أن تصغر الاسم الذى فيه الزوائد ، فتحذفها فى التصغير ، فتقول فى أسود : سويد ، وفى مثل إرواد : رويد

وقوله : من ليس فيها بقرقر : أى : ليس بذليل ، لأن القرقر : الأرض الموطوءة التى لاتمنع سالكها ، ويجوز أن يريد به : ليس بذى هزل ، لأن القرقرة الضحك .

وقوله : وطائرها فى رأسها يتردد . أى : حظها من الشؤم والشر ، وفى التنزيل : « ألزمناه طائره فى عنقه » وقوله : لها حدج سهم وقوس ومرهد ، وجدت فى حاشية كتاب الشيخ مما كتبه عن أبى الوليد الكنانى على هذا البيت : لعله حدج بضم الحاء والدال جمع حدج على ما حكى الفارسى ، وأنشد شاهدا عليه عن ثعلب :

قنا فآنسنا الحمول والحدج

. . . .

ونظيره : ستر وستر ، ذكر ذلك عنه ابن سيدة فى محكمه ، فيكون المعنى : إن الذى يقوم لها مقام الحدج سهم وقوس ومرهد . إلى هنا انتهى ما فى حاشية كتاب الشيخ . قال المؤلف : وفى العين : الحدج : حسك القطب مادام رطبا فيكون الحدج فى البيت مستعاراً من هذا ، أى : لها حسك ، ثم فسره فقال : سهم وقوس ومرهد ، وهكذا فى الأصل بالراء وكسر الميم فيحتمل أن يكون مقلوباً من مرهد : مفعل من زهد الثوب إذا مزقه ، ويعنى به رمحاً أو سيفاً ، ويحتمل أن يكون غير مقلوب ، ويكون من الرهيد ، وهو الناعم أى : ينعم صاحبه بالظفر ، أو ينعم هو بالرى من الدم ، وفى بعض النسخ : مزهد بفتح الميم والزاى ، فان صحت الرواية به ، فمعناه : مزهد فى الحياة وحرص على الممات ، والله أعلم : وقوله فيها : إذا جعلت أيدى المفيضين ترعد . يعنى : أيدى المفيضين بالقداح فى الميسر ، وكان لا يفيض معهم فى الميسر إلا سخى ، ويسمون من لا يدخل معهم فى ذلك : البرم . وقالت امرأة لبعلها ـ وكان برماً بخيلا ، ورأته يضفقرن بعتين فى الأكل : أبرماً قروناً ويسمونه أيضاً : الحصور : يريد أبو طالب إنهم يطعمون إذا بخـل الناس . والميسر : هى الجزور التى تقسم ، يقال : يسرت إذا قسمت ، هكذا فسره القتبى وأنشد :

أقول لهم بالشعب إذ ييسروننى ... ألم ييأسوا أنى ابن فارس زهدم

قال : ييسروننى أى : يقتسمون مالى ، ويروى : ويأسروننى من الأسر .

وقوله : رفرف الدرع أحرد ، رفرف الدرع : فضولها : وقيل فى معنى : رفرف خضر : فضول الفرش والبسط ، وهو قول ابن عباس ، وعن على أنها : المرافق ، وعن سعيد بن جبير : الرفارف : رياض الجنة والأحرد الذى فى مشيه تثاقل ، وهو من ، الحرد وهو : عيب فى الرجل . وفيه : هم رجعوا سهل بن بيضاء راضياً . سهل هذا هو : ابن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهـر يعرف : بابن البيضاء ، وهى أمه ، واسمها : دعد بنت جحدم بن أمية بن ضرب بن الحارث بن فهـر ، وهم ثلاثة إخوة : سهل وسهيل وصفوان بنو البيضاء . وقوله .

وإنى وإياهم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود

أسود : اسم جبل كان قد قتل فيه قتيل ، فلم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول هذه المقالة ، فذهبت مثلا .

قول حسان فى مطعم وهشام بن عمرو : فصل : وذكر قول حسان فى مطعم بن عدى ، وذكر جواره للنبى ـ عليه السلام ـ وذلك حين رجع من الطائف ، وقيامه فى أمر الصحيفة :

فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا ... من الناس أبقى مجده اليوم مطعما

وهذا عند النحويين من أقبح الضرورة ، لأنه قدم الفاعل ، وهو مضاف إلى ضمير المفعول ، فصار فى الضرورة ، مثل قوله :

جزى ربه عنى عـدى بن حاتم

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مايرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه . وجعلت قريش ، حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس ، ومن قدم عليهم من العرب .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسى يحدث : أنه قدم مكة ـ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ـ فمشى إليه رجال من قريش ـ وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا ـ فقالوا له : ياطفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولاتسمعن منه شيئا .

قال : فوالله مازالوا بى حتى أجمعت أن لاأسمع منه شيئا ، ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فغدوت المسجد ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلى عند الكعبة . قال : فقمت منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله . قال .

غير أنه فى هذا البيت أشبه قليلا لتقدم ذكر مطعم ، فكأنه قال : أبقى مجد هذا المذكور المتقدم ذكره مطعماً . ووضع الظاهر موضع المضمر ، كما لو قلت : إن زيدا ضربت جاريته زيدا ، أى : ضربت جاريته إياه ، ولابأس بمثل هذا ، ولا سيما إذا قصدت قصد التعظيم وتفخيم ذكر الممدوح ، كما قال الشاعر :

ومالى أن أكون أعيب يحيى ويحيى طاهر الأثواب بر

ويجوز نصبه عندى على البدل من قوله : وبكى عظيم المشعرين ، ويكون المفعول من قوله : أبقى مجده محذوفا ، فكأنه قال : أبقاه مجده أبدا ، والمفعول لاقبح فى حذفه ، إذا دل عليه الكلام كما فى هذا البيت .

وذكر قول حسان فى هشام بن عمرو ، وقال فيه : للحارث بن حبيب بن سخام ، وقد تقدم نسبه ، وهو حبيب بالتخفيف تصغير حب ، وجعله حسان تصغير حبيب ، فشدده ، وليس هذا من باب الضرورة ، إذ لايسوغ أن يقال فى فليس : فليس ، ولا فى كليب : كليب فى شعر ولاغيره ، ولكن لما كان الحب والحبيب بمعنى واحد جعل أحدهما مكان الآخر ، وهو حسن فى الشعر ، وسائغ فى الكلام ، وهشام بن عمرو هذا أسلم ، وهو معدود فى المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أربعين رجلا فيما ذكروا .

وقوله : ابن سخام ، هو : اسم أمه ، وأكثر أهل النسب يقولون فيه : شحام بشين معجمة ، وألفيت فى حاشية كتاب الشيخ أن أبا عبيدة النسابة وعوانه يقولون فيه : سخام بسين وخاء مهملتين والذى فى الأصل من قول ابن هشام : سخام بسين مهملة ، وخاء معجمة ولفظ شخام من شخم الطعام ، وخشم إذا تغيرت رائحته ، قاله أبو حنيفة .

فسمعت كلاما حسنا . قال : فقلت فى نفسى : واثكل أمى ! ! والله إنى لرجل لبيب شاعر مايخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل مايقول ! فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يامحمد ، إن قومك قالوالى كذا وكذا ـ للذى قالوا ـ فوالله مابرحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسنا ، فاعرض على أمرك . قال : فعرض على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإسلام ، وتلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، قال : فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يانبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه فقال : اللهم اجعل له آية .

قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر وقع نور بين عينى مثل المصباح ، فقلت : اللهم فى غير وجهى ، إنى أخشى ، أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم . قال : فتحول فوقع فى رأس سوطى . قال : فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية ، قال : حتى جئتهم فأصبحت فيهم .

إسلام والد الطفيل وزوجته

قال : فلما نزلت أتانى أبى ، وكان شيخا كبيرا ، قال : فقلت : إليك عنى ياأبت ، فلست منك ، ولست منى ، قال : ولم يابنى ؟ قال : قلت أسلمت ، وتابعت دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أى بنى ، فدينى دينك ، قال: فقلت : فاذهب ، فاغتسل ، وطهر ثيابك ، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت . قال : فذهب فاغتسل ، وطهر ثيابه . قال : ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم .

قال : ثم أتتنى صاحبتى ، فقلت : إليك عنى ، فلست منك ولست منى ، قالت لم ؟ بأبى أنت وأمى ، قال : قلت : قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : فدينى دينك ، قال : قلت : فاذهبى إلى حنا ذى الشرى ـ قال ابن هشام : ويقال : حمى ذى الشرى ـ فتطهرى منه .

ذو الشرى صنما لدوس ، وكان الحمى حمى حموه له ، به وشل من ماء يهبط من جبل .

قال : قالت : بأبى أنت وأمى ، أتخشى على الصبية من ذى الشرى شيئا ، قال : قلت : لا ، أنا ضامن لذلك ، فذهبت فاغتسلت ، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام ، فأسلمت .

ثم دعوت دوسا إلى الإسلام ، فأبطئوا على ، ثم جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ، فقلت له : يانبى الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : اللهم اهد دوسا ، ارجع إلى قومك فادعهم

وارفق بهم ، قال : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام ، حتى هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخيبر ،حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ـ صلى الله عيله وسلم ـ بخيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين .

ثم لم أزل مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا فتح الله عليه مكة ، قال : قلت : يارسول الله ، ابعثنى إلى ذى الكفين ، صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه .

قال ابن إسحاق : فخرج إليه ، فجعل طفيل يوقد عليه النار ، ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

قال : ثم رجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان معه بالمدينة ، حتى قبض الله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما ارتدت العرب ، خرج مع المسلمين ، فسار معهم ، حتى فرغوا من طليحة ، ومن أرض نجد كلها . ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ـ ومعه ابنه عمرو بن الطفيل ـ فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة ، فقال لأصحابه : إنى قد رأيت رؤيا ، فاعبروها لى ، رأيت أن رأسى حلق ، وأنه خرج من فمى طائر ، وأنه لقيتنى امرأة ، فأدخلتنى فى فرجها ، وأرى ابنى يطلبنى طلبا حثيثا ، ثم رأيته حبس عنى ، قالوا : خيرا . قال : أما أنا والله ، فقد أولتها ، قالوا : ماذا ؟ قال : أما حلق رأسى فوضعه : وأما الطائر الذى خرج من فمى فروحى ، وأما المرأة التى أدخلتنى فرجها ، فالأرض تحفر لى ، فأغيب فيها ، أما طلب ابنى إياى ثم حبسه عنى ، فإنى أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابنى ، فقتل رحمه الله شهيدا باليمامة ، وجرح ابنه جراحة شدة ، ثم قتل عام اليرموك فى زمن عمر رضى الله عنه شهيدا .

قصة أعشى بن قيس بن ثعلبة

قال ابن هشام : حدثنى خلاد بن قرة بن خالد السدوسى وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم : أن أعشى بنى قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر وائل ، خرج إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الإسلام فقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا
وما ذاك من عشق النساء ، وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهددا
ولكن أرى الدهر الذى هو خائن إذا أصلحت كفاى عاد ، فأفسدا
كهولا وشبانا فقدت وثروة فلله هذا الدهر كيف ترددا !!
ومازلت أبغى المال مذ أنا يافع وليداً وكهلا حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المراقيل تغتلى مسافة مابين النجير فصرخدا
ألا أيهذا السائلى أين يممت فإن لها فى أهل يثرب موعدا
فإن تسألى عنى ، فيارب سائل حفى عن الأعشى به حيث أصعدا
أجدت برجليها النجاء ، وراجعت يداها خنافاً لينا غير أحردا
وفيها ـ إذا ماهجرت ـ عجرفية إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا

وآليت لا آوى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
متى ماتناخى عند باب ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندى
نبيا يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقات ماتغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد نبى الإله حيث أوصى ، وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لاتكون كمثله فترصد الأمر الذى كان أرصدا
فإياك والميتات لاتقربنها ولا تأخذن سهما حديداً، لتفصدا
وذا النصب المنصوب لاتنسكنه ولاتعبد الأوثان ،والله فاعبدا
ولا تقربن حرة كان سرها عليك حراما فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذى ضرارة ولا تحسبن المال المرء مخلدا

نهاية الأعشى

فلما كان بمكة أو قريبا منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ليسلم ، فقال له : ياأبا بصير ، إنه يحرم الزنا ، فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالى فيه من أرب ، فقال له : ياأبا بصير ، فإنه يحرم الخمر ، فقال الأعشى . أما هذه فوالله إن فى النفس منها لعلالات ، ولكنى منصرف فأتروى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم . فانصرف فمات فى عامه ذلك ، ولم يعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذلة أبى جهل

قال ابن إسحاق : وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبغضه إياه ، وشدته عليه ، يذله الله له إذا رآه .

أبو جهل والإراشى

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان الثقفى ، وكان واعية ، قال : قدم رجل من إراش ـ قال ابن هشام : ويقال : إراشة ـ بإبل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها . فأقبل الإراشى حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ناحية المسجد جالس ، فقال : يامعشر قريش ، من رجل يؤدينى على أبى الحكم بن هشام ، فإنى رجل غريب ، ابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟ فقال له أهل

ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم يهزءون به ، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة - اذهب إليه ، فإنه يؤديك عليه .

فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ياعبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه ، يأخذ لى حقى منه ، فأشاروا لى إليك فخذ لى حقى منه ، يرحمك الله ، قال : انطلق إليه ، وقام معه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه ، فانظر ماذا يصنع .

قال : وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى جاءه ، فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إلى ، فخرج إليه ، وما فى وجهه من رائحة ، قد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه ، قال : نعم ، لاتبرح حتى أعطيه الذى له ، قال : فدخل ، فخرج إليه بحقه ، فدفعه إليه . قال : ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال للإراشى : الحق بشأنك ، فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى حقى .

قال : وجاء الرجل الذى بعثوا معه ، فقالوا : ويحك ! ماذا رأيت ؟ قال : عجبا من العجب ، والله ماهو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه ومامعه روحه ، فقال له : أعط هذا حقه ، فقال : نعم ، لاتبرح حتى أخرج إليه حقه فدخل فخرج إليه بحقه ، فأعطاه إياه . قال : ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك ! مالك والله مارأينا مثل ماصنعت قط ! قال : ويحكم ، والله ماهو إلا أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ، مارأيت مثل هامته ، ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلنى .

ركانة ومصارعته

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبى إسحاق بن يسار ، قال : كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش ، فخلا يوما برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى بعض شعاب مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياركانة ، ألا تتقى الله ، وتقبل ماأدعوك إليه قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : أفرأيت إن صرعتك ، أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال نعم ، قال : فقم حتى أصارعك . قال : فقام إليه ركانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أضجعه ، وهو لايملك من نفسه شيئا ، ثم قال : عد يامحمد ، فعاد فصرعه ، فقال يامحمد : والله إن هذا للعجب ، أتصرعنى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه ، إن اتقيت الله واتبعت امرى ، قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى ، قال : ادعها ، فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فقال لها : ارجعى إلى مكانك . قال : فرجعت إلى مكانها .

قال : فذهب ركانة إلى قومه ، فقال : يابنى عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله مارأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذى رأى ، والذى صنع .

. . . .

قدوم وفد النصارى من الحبشة

قال ابن إسحاق : ثم قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة ـ عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الله ـ عز وجل ـ وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدموع . ثم استجابوا لله ، وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم ، أو كما قالوا ، فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

ويقال : إن النفر من النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم اى ذلك كان . فيقال ـ والله أعلم ـ فيهم نزلت هؤلاء ، الآيات : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين » . . . إلى قوله : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

قال ابن إسحاق : وقد سألت ابن شهاب الزهرى عن هؤلاء الآيات فيمن أنزلن ، فقال لى ما سمعه من علمائنا أنهن أنزلن فى النجاشى وأصحابه ، والآية من سورة المائدة من قوله : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون » . . . إلى قوله : « فاكتبنا مع الشاهدين » .

قال ابن إسحاق وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ـ إذا جلس فى المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث ، وصهيب ، وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا . فأنزل الله تعالى فيهم : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنى ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصرانى ، يقال له : جبر ، عبد لبنى الحضرمى ، فكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتى به إلا جبر النصرانى ، غلام بنى الحضرمى ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، : إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »

قال ابن هشام : يلحدون إليه : يميلون ، والإلحاد : الميل عن الحق .

قال رؤبة بن العجاج :

إذا تبع الضحاك كل ملحد

ابن هشام : يعنى الضحاك الخارجى ، وهذا البيت فى أرجوزة له

حديث طفيل الدوسى : فصل : وذكر حديث طفيل بن عمرو الدوسى ، وهو طفيل بن عمرو بن طريف ابن العاصى بن ثعلبة بن سليم بن جهم بن دوس إلى آخره وليس فيه إشكال إلا قوله : حنا ذى الشرى ، وقد قال ابن هشام : هو حمى ، وهو موضع حموه لصنمهم ذى الشرى ، فإن صحت رواية ابن إسحاق ، فالنون قد تبدل من الميم ، كما قالوا : حلان وحلام للجدى ، ويجوز أن يكون من حنوت العود ، ومن محنية الوادى ، وهو ما انحنى منه .

حديث ذى الكفين : وقوله : ياذا الكفين لست من عبادكا . أراد : الكفين بالتشديد ، فخفف للضرورة ، غير أن فى نسخة الشيخ أن الصنم كان يسمى : ذا الكفين ، وخفف الفاء بخطه بعد أن كانت مشددة ، فدل أنه عنده مخفف فى غير الشعر ، فان صح هذا فهو محذوف اللام ، كأنه تثنية كف ، ومن كفأت الإناء ، أو إذا كفء بمعنى كفء ؟ ! ثم سهلت الهمزة ، وألقيت حركتها على الفاء ، كما يقال : الخبء ، والخب ، وفى الحديث : أن أهل الحاضر من دوس كانوا يتراءونه فى الثنية ، وفى سوطه كالقنديل المعلق ، وذكره المبرد فقال فى لفظ الحديث : جعلوا ينظرون إلى الجبل ، وهو يهتف من شدة الضياء والنور ، وروى ، أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : لما قال طفيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن دوسا غلب عليها الزنى والربا ، فادع الله عليهم ، قلنا : هلكت دوس ، حتى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم اهد دوسا .

قصيدة الأعشى وحمزة والشرف : فصل : وذكر ابن هشام حديث الأعشى وقصيدته إلى آخرها ، فلما كان قريباً من مكة لقيه بعض المشركين ، فقال : إلى أين يا أبا بصير ؟ الحديث ، وذكر تحريمه الخمر ، وتحريمه الزنا ، وقول الأعشى : أما الخمر ففى النفس منها علالات وقال غير ابن هشام : كان القائل للأعشى هذه المقالة أبو جهل . قالها فى دار عتبة بن ربيعة ، وكان نازلا عنده ، قال المؤلف : وهذه غفلة من ابن هشام ، ومن قال بقوله : فان الناس مجمعون على أن الخمر لم ينزل تحريمها إلا بالمدينة بعد أن مضت بدر وأحد ، وحرمت فى سورة المائدة ، وهى من آخر ما نزل ، وفى الصحيحين من ذلك قصة حمزة حين شربها ، وغنته القينتان : ألا يا حمز ، للشرف النواء فبقر خواصر الشارفين ، واجتب أسنمتها .

وقوله للنبى عليه السلام : هل أنتم إلا عبيد لآبائى ، وهو ثمل . الحديث بطوله . فان صح خبر الأعشى ، وما ذكر له فى الخمر ، فلم يكن هذا بمكة ، وإنما كان بالمدينة ، ويكون القائل له : أما علمت أنه يحرم الخمر ، من المنافقين ، أو من اليهود ، فالله أعلم . وفى القصيدة ما يدل على هذا قوله : فان لها فى أهل يثرب موعدا ، وقد ألفيت للقالى رواية عن أبى حاتم عن أبى عبيدة قال : لقى الأعشى عامر بن الطفيل فى بلاد قيس ، وهو مقبل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر له أنه يحرم الخمر ، فرجع ، فهذا أولى بالصواب ، وقول الأعشى : أتروى منها هذا العام ، ثم أعود فأسلم لا يخرجه عن الكفر باجماع ، قال الإسفراينى فى عقيدته : إذا قال

. . . .

المؤمن سأ كفر : غداً أو بعد غد ، فهو كافر لحينه بإجماع ، وإذا قال الكافر : سأومن غداً ، أو بعد فهو على كفره ، لايخرجه عن حكم الكفر إلا إيمانه إذا آمن ، ولا خلاف فى هذا والله المستعان .

وقوله : ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ، لم ينصب ليلة على الظرف ، لأن ذلك يفسد معنى البيت ، ولكن أراد المصدر فحذفه ، والمعنى : اغتماض ليلة أرمد ، فحذف المضاف إلى الليلة ، وأقامها مقامه ، فصار إعرابها كاعرابه ، وقد روى هذا البيت : ليلك بالكاف ، ومعناه غمض أرمد ، وقيل : بل أرمد على هذه الرواية من صفة الليل ، أى حال منه على المجاز ، كما تقول : ليلك ساهر .

وقوله : تناسيت قبل اليوم خلة مهدداً . فعلل من المهد ؛ ولولا قيام الدليل على أن الميم أصلية لحكمنا بأنه مفعل ؛ لأن الكلمة الرباعية إذا كان أولها ميما أو همزة ، لحملها على الزيادة ، الا أن يقوم دليل على أنها أصلية ؛ والدليل على هذه الكلمة ظهور التضعيف فى الدال ، اذ لو كانت الميم زائدة لما ظهر التضعيف ، ولقلت فيه : مهد كما تقول : مرد ومكر ومفر فى كل ما وزنه مفعل من المضاعف ، وإنما الدال فى مهـــدد ضوعفت ليلحق ببناء جعفر .

وقوله : إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا . والأصيد : المائل العنق ، ولما كانت الحرباء تدور بوجهها مع الشمس كيفما دارت ، كانت فى وسط السماء فى أول الزوال ، كالأصيد . وذلك أحر ما تكون الرمضاء . يصف ناقته بالنشاط . وقوة المشى فى ذلك الوقت .

وقوله . خنافاً إلينا . فى العين : خنفت الناقة تخنف بيديها فى السير ، إذا مالت بهما نشاطاً . وناقة خنوف قال الراجز :

إن الشواء والنشيل والرغف والقينة الحسناء ، والكأس الأنف

للطاعنين الخيل ، والخيل خنف

وقوله : ليناً غير أحردا أى . تفعل ذلك من غير حرد فى يديها . أى اعوجاج . والنجير وصرخد بلدان . وأهل النجير أول من ارتد فى خلافة أبى بكر بعد أهل دبا وكان أهل دبا قد حاصرهم حذيفة بن أسيد . وحاصر أهل النجير زياد بن لبيد بأمر أبى بكر . حتى نزلوا على حكمه . وأما صرخد فبلد طيب الأعناب . وإليه تنسب الخمر الصرخدية . وفى الأمالى . ولذ كطعم الصرخدى تركته .

وقوله : وآليت لا آوى لها من كلالة ، ولا من وجى ، أى : لا أرق لها ، يقال : آويت للضعيف إية ومأوية إذا رقت له كبدك .

وقوله : أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا ، المعروف فى اللغة : غار وأنجد ، وقد أنشدوا هذا البيت : لعمرى غار فى البلاد وأنجدا . والغور : ما انخفض من الأرض ، والنجو : ما ارتفع منها ، وإنما تركوا القياس فى الغور ،

. . . .

ولم يأت على أفعل إلا قليلا ، وكان قياسه أن يكون مثل أنجد ، وأتهم ، لأنه من أم الغور ، فقد هبط ونزل ، فصار من باب غار الماء ، ونحو ذلك ، فإن أردت : أشرف على الغور ، قلت : أغار ، ولا يكون خارجا عن القياس .

وقول : وليس عطاء اليوم مانعه غدا . معناه على رفع العطاء ونصب مانع ، أى : ليس العطاء الذى يعطيه اليوم مانعا له غدا من أن يعطيه ، فالهاء عائدة على الممدوح ، فلو كانت عائدة على العطاء لقال : وليس عطاء اليوم مانعه هو ، بإبراز الضمير الفاعل ، لأن الصلة إذا جرت على غير من هى له برز الضمير المستتر بخلاف الفعل ، وذلك لسر بيناه فى غير هذا الموضع لم يذكره الناس ، ولو نصب العطاء لجاز على إضمار الفعل المتروك إظهاره ، لأنه من باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره ، ويكون اسم ليس على هذا مضمرا فيها عائدا على النبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله : فانكحن أو تأبدا . يريد : أو ترهب ، لأن الراهب أبداً عزب فقيل له : متأبدا اشتق من لفظ الأبد .

وقوله : فالله فاعبدا ، وقف على النون الخفيفة بالألف ، وكذلك فانكحن أو تأبدا ، ولذلك كتبت فى الخط بألف ، لأن الوقف عليها بالألف ، وقد قيل فى مثل هذا : إنه لم يرد النون الخفيفة ، وإنما خاطب الواحد بخطاب الاثنين ، وزعموا أنه معروف فى كلام العرب ، وأنشدوا فى ذلك :

فإن تزجرانى يا ابن عفان أزدجر ... وإن تدعانى أحم عرضاً ممنعا

وأنشدا أيضا فى هذا المعنى :

وقلت لصاحبي : لا تحبسانا ... بنزع أصولها واجتث شيحا

ولا يمكن إرادة النون الخفيفة فى هذين البيتين ، لأنها لا تكون ألفا ، إلا فى الوقف ؛ وهذا الفعل قد اتصل به الضمير ، فلا يصح اعتقاد الوقف عليه دون الضمير ؛ وحكى أن الحجاج قال : ياحرسى اضربا عنقه ، وقد يمكن فيه حمل الوصل على الوقف ، ويحتمل أن يريد : اضرب أنت وصاحبك ، وقد قيل فى قوله سبحانه : « ألقيا فى جهنم » إن الخطاب لمالك وحده حملا على هذا الباب ، وقيل : بل هو راجع إلى قوله تعالى : « سائق وشهيد » وفى القصيدة زيادة لم تقع فى رواية ابن هشام وهى قوله فى وصف الناقة :

فأما إذا ما أدلجت ، فترى لها ... رقيبين نجماً لا يغيب وفرقدا

وقع هذا البيت بعد قوله : لينا غير أحردا .

وقوله فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم : أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا . وبعده :

به أنقذ الله الأنام من العمى ... وما كان فيهم من يريع إلى هدى

حديث الاراشى : فصل : وذكر حديث الإراشى الذى قدم مكة ، واستعدى على أبى جهل .

قال ابن إسحاق : هو من إراش وهو ابن الغوث أو بن عمرو بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وهو والد أنمار الذى ولد بجيلة وخثعم . وإراشة الذى ذكر ابن هشام : بطن من خثعم ، وإراشة مذكورة فى

. . . .

العماليق فى نسب فرعون صاحب مصر ، وفى بلى أيضاً بنو اراشة، وقوله : من رجل يؤدينى على أبى الحكم أى : يعيننى على أخذ حتى منه ، وهو من الأداة التى توصل الإنسان الى مايريد ، كأداة الحرب ، وأداة الصانع ، فالحاكم يؤدى الخصم ، أى يوصله الى مطالبه ، وقد قيل : ان الهمزة بدل من عين ،و ودى و يعدى بمعنى واحد ، أى : يزيل العدوان ، والعداء وهو : الظلم ، كما تقول : يشكيك أى : يزيل شكواك ، وفى حديث خباب : شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حر الرمضاء ، فلم يشكنا معناه على أحد القولين : لم يرفع شكوانا ولم يزلها .

وقوله : فخرج اليه ، ومافى وجهه رائحة ، أى : بقية روح ، فكان معناه : روح باقية ، فلذلك جاء به على وزن فاعله ، والدليل على أنه أراد معنى الروح وإن جاء به على بناء فاعله قول الإراشى فى آخر الحديث : خرج إلى ، وما عنده روحه .

مصارعة ركانة : فصل : وذكر حديث ركانة ومصارعته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تقدم مثل هذا الحديث عن أبى الأشدين الجمحى ، ولعلهما أن يكونا جميعاً صارعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تقدم التعريف بأبى الأشدين ، وباسمه ونسبه ، وركانة هذا هو : ابن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب من مسلمة الفتح وتوفى فى خلافة معاوية ، وهو الذى طلق امرأته ألبتة ، فسأله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نيته فقال : انما أردت واحدة ، فردها عليه ، ومن حديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال : إن لكل دين خلقا ،وخلق هذا الدين الحياء ، ولابنه يزيد بن ركانة صحبة أيضاً ، ويروى عن يزيد بن ركانة ابنه على ، وكان على قد أعطى من الأيد والقوة مالم يعط أحد ، نزع فى ذلك إلى جده ركانة ، وله فى ذلك أخبار ذكرها الفاكهى ، منها : خبره مع يزيد ابن معاوية ، وكان يزيد بن معاوية أشد العرب ، فصارعه يوما ،فصرعه على صرعة لم يسمع بمثلها ، ثم حمله بعد ذلك على فرس جموح لايطلق ، فعلم على مايراد به ،فلما جمح به الفرس ضم عليه فخذيه ضمة نفق منها الفرس ، وذكر عنه أيصا تأبط رجلين أيدين ، ثم جرى بهما ، وهما تحت إبطيه حتى صاحا : الموت الموت ، فأطلقهما .

وفد نصارى الحبشة : فصل : وذكر قدوم وفد النصارى من الحبشة وإيمانهم ، وما أنزل الله فيهم من قوله تعالى : « الذين قالوا إنا نصارى » ولم يقل : من النصارى ولاسماهم هو سبحانه بهذا الاسم ، وإنما حكى قولهم الذى قالوه حين عرفوا بأنفسهم ، ثم شهد لهم بالإيمان ، وذكر أنه أثابهم الجنة ، وإذا كانوا هكذا فليسوا بنصارى ، هم من أمة محمد ـ عليه السلام ـ وإنما عرف النصارى بهذا الاسم ، لأن مبدأ دينهم كان من ناصرة قرية بالشام ، فاشتق اسمهم منها ، كما اشتق اسم اليهود من يهود بن يعقوب ، ثم لايقال لمن أسلم منهم : يهودى . اسم الإسلام أولى بهم جميعا من ذلك النسب .

عن غلام المبيعة وصهيب وأبى فكيهة : فصل : ذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجلس إلى مبيعة غلام . المبيعة : مفعلة مثل المعيشة ، وقد يجوز أن يكون مفعلة بضم العين وهو قول الأخفش ، وأما قولهم : سلعة مبيعة فمفعولة ، حذفت الواو منها فى قول سيبويه حين سكنوا الياء استثقالا للضمة ، وفى قول أبى الحسن الأخفش إن الياء بدل من الواو الزائدة فى مبيوعة،ووزنها عنده : مفولة بحذف العين ، وللكلام على هذين المذهبين موضع غير هذا ،

سبب نزول سورة الكوثر

قال ابن اسحاق : وكان العاص بن وائل السهمى ـ فيما بلغنى ـ إذا ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر ، لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره ، واسترحتم منه ، فأنزل الله فى ذلك : إنا أعطيناك الكوثر . ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ، والكوثر:العظيم .

معنى الكوثر

قال ابن إسحاق : قال لبيد بن ربيعة الكلابى :

وصاحب ملحوب فجعنا بيومه وعند الرداع بيت آخر كوثر

يقول : عظيم .

قال ابن هشام : وهذا البيت فى قصيدة له . وصاحب ملحوب : عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، مات بملحوب . وقوله : عند الرداع بيت آخر كوثر : يعنى شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، مات بالرداع . وكوثر : أراد الكثير ، ولفظه مشتق من لفظ الكثير . قال الكميت بن زيد يمدح هشام بن عبد الملك ابن مروان .

وأنت كثير يابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثر

وهذا البيت فى قصيدة له . وقال أمية بن أبى عائذ الهذلى يصف حمار وحش :

يحامى الحقيق إذا ما احتدمن وحمحمن فى كوثر كالجلال

يعنى بالكوثر : الغبار الكثير ، شبهه لكثرته عليه بالجلال . وهذا البيت فى قصيدة له .

قال ابن إسحاق : حدثنى جعفر بن عمرو — قال بن هشام : هو جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى — عن عبد الله بن مسلم أخى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : يا رسول الله ، ما الكوثر الذى أعطاك الله ؟ قال : نهر كما بين صنعاء إلى أيلة ، آنيته كعدد نجوم السماء ، ترده طيور لها أعناق كأعناق الإبل . قال : يقول عمر بن الخطاب : إنها يارسول الله لنا عمة . قال : أكلها أنعم منها .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت فى هذا الحديث أو غيره أنه قال ـ صلى الله عليه وسلم : « من شرب منه لا يظمأ أبداً » .

وذكر صهيبا وأبا فكيهة ، وسنذكر اسم أبى فكيهة ، والتعريف به فيما بعد لأنه بدرى ، وكذلك صهيب ابن سنان ، ونقتصر فى هذا الموضع على ذكر اسمه وهو يسار مولى عبد الدار .

لولا أنزل عليه ملك

قال ابن إسحاق : ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه إلى الإسلام ، وكلمهم ، فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عبد يغوث ، وأبى بن خلف ، والعاص بن وائل : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ! فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ».

ولقد استهزىء برسل من قبلك

قال ابن إسحاق : ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنى ـ بالوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وبأبى جهل بن هشام ، فغمزوه وهمزوه ، واستهزءوا به ، فغاظه ذلك : فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من أمرهم : « ولقد استهزىء برسل من قبلك : فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

الإسراء والمعراج

قال ابن هشام : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحاق المطلبى قال : ثم أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش ، وفى القبائل كلها .

قال ابن إسحاق ، كان من الحديث فيما بلغنى عن مسراه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عبد الله بن مسعود ، وأبى سعيد الخدرى ، وعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وابن شهاب الزهرى ، وقتادة وغيرهم من أهل العلم ، وأم هانىء بنت أبى طالب ، ما اجتمع فى هذا الحديث ؛ كل يحدث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به ـ صلى الله عليه وسلم ، وكان فى مسراه، وما ذكر عنه بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق ، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

رواية ابن مسعود

فكان عبد الله بن مسعود ـ فيما بلغنى ـ عنه ـ يقول :

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق ـ وهى الدابة التى كانت تحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها فى منتهى طرفها ـ فحمل عليها ثم خرج به صاحبه ، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس ،

فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جمعوا له ، فصلى بهم . ثم أتى بثلاثة آنية ، إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء قال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسمعت قائلا يقول حين عرضت على : إن أخذ الماء ، غرق وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر غوى ، وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هدى ، وهديت أمته . قال : فأخذت إناء اللبن ، فشربت منه ، فقال لى جبريل عليه السلام : هديت وهديت أمتك يا محمد .

حديث الحسن

قال ابن إسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا أنا نائم فى الحجر ، إذ جاءنى جبريل ، فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فعدت إلى مضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فعدت إلى مضجعى ، فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه ، فجلست ، فأخذ بعضدى ، فقمت معه فخرج إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض ، بين البغل ـ والحمار ـ فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه ، يضع يده فى منتهى طرفه ، فحملنى عليه ، ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته .

حديث قتادة

قال ابن إسحاق ، وحدثت عن قتادة أنه قال : حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما دنوت منه ، لأركبه شمس ، فوضع جبريل يده على معرفته ، ثم قال : ألا تستحى يا براق مما تصنع ، فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه . قال : فاستحيا حتى ارفض عرقاً ، ثم قر حتى ركبته .

حديث الحسن

قال الحسن فى حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومضى جبريل عليه السلام معه ، حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء فأمهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى بهم ، ثم أتى بإناءين ، فى أحدهما : خمر ، وفى الآخر : لبن . قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن ، فشرب منه ، وترك إناء الخمر . قال : فقال : له جبريل : هديت للفطرة ، وهديت أمتك يا محمد ، وحرمت عليكم الخمر ، ثم انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله : الأمر البين ، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع الى مكة ! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس الى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع الى مكة . قال : فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ ! فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى الى رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يانبي الله . أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم،قال : يانبي الله ، فصفه لى ، فإنى قد جئته ـ قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفع لى حتى نظرت اليه ـ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يصفه لأبى بكر : ويقول أبو بكر : صدقت أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منهشيئا ، قال :صدقت ، أشهد أنكرسولالله ، حتى انتهى ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى بكر : وأنت يا أبا بكر الصديق ، فيومئذ سماه الصديق .

قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً » .

فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومادخل فيه من حديت قتادة .

الاسراء رؤيا

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض آل أبى بكر : أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الله أسرى بروحه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أن معاوية بن أبى سفيان ، كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كانت رؤيا من الله تعالى صادقة .

فلم ينكر ذلك من قولها ، لقول الحسن : إن هذه الآية نزلت فى ذلك ، قول الله تبارك وتعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » . ولقول الله تعالىفىالخبر عن إبراهيم عليه السلام إذا قال لابنه : « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » . ثم مضى على ذلك . فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظا ونياما .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنى ـ يقول: تنام عيناى ، وقلبى يقظان . والله أعلم أى ذلك كان قد جاءه ، وعاين فيه ماعاين ، من أمر الله ، على أى حاليه كان : نائما ، أو يقظان ، كل ذلك حق وصدق .

الصفات التى وصف بها النبى بعض الرسل

قال ابن إسحاق : وزعم الزهرى عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفلأصحابه ابراهيم وموسى وعيسى حين رآهم فى تلك الليلة ، فقال : أما ابراهيم ، فلم أر رجلا أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه ، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال شنوءة ، وأماعيسى بن مريم، فرجل أحمر ، بين القصير والطويل ، سبط الشعر ، كثير خيلان الوجه ، كأنه خرج من ديماس ، تخال رأسه يقطر ماء ، وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى

قال ابن هشام وكانت صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما ـ ذكر عمر مولى عفرة عن ابراهيم بن

محمد بن علي بن أبي طالب ، قال : كان علي بن أبي طالب عليه السلام . اذا نعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال ـ : لم يكن بالطويل الممغط ، ولا القصير المتردد . وكان ربعة من القوم . ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط، كان جعداً رجلا . ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم وكان أبيض مشرباً ، أدعج العينين، أهدب الاشفار، جليل المشاش الكتد ، دقيق المسربة أجرد ، شثن الكفين والقدمين ، اذا مشى تقلع ، كأنما يمشي في صبب ، واذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

حديث أم هانىء عن الإسراء

قال محمد بن إسحاق : وكان ـ فيما بلغني ـ عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها ـ واسمها : هند ـ في مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنها كانت تقول : ما أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وهو في بيتي ، نائم عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما صلى الصبح ، وصلينا معه ، قال : يا أم هانىء ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي .

ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، ثم قام ليخرج ، فأخذت بطرف ردائه ، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية سطوية ، فقلت له : يا نبي الله ، لا تحدث بهذا الناس ، فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه . قالت : فقلت لجارية لي حبشية : ويحك اتبعي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تسمعي ما يقول للناس ، وما يقولون له . فلما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس أخبرهم ، فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ، قال : آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فأنفرهم حس الدابة ، فند لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا موجه إلى الشام . ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان ، فوجدت القوم نياما ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ، ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء . قالت : فابتدر القوم الثنية ، فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكره ، وند لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه .

الأبتر والكوثر : فصل : وذكر قول العاصي بن وائل : إن محمد أبتر إذا مات انقطع ذكره ، وأنزل الله تعالى فيه قوله من سورة الكوثر على قول ابن إسحاق ، وأكثر المفسرين . وقيل : إن أبا جهل هو الذي قال ذلك . وقد قيل : كعب بن الأشرف ، ويلزم على هذا القول الأخير أن تكون سورة الكوثر مدنية ، وقد روى يونس عن أبي عبد الله الجعفي عن جابر الجعفي عن محمد بن علي ، قال : كان القاسم ابن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغ أن يركب الدابة ، ويسير على النجيبة ، فلما قبضه الله ، قال العاصي : أصبح محمد أبتر من ابنه ، فأنزل الله على نبيه

. . . .

صلى الله عليه وسلم : « إنا أعطيناك الكوثر » عوضا يامحمد من مصيبتك بالقاسم : « فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » ولم يقل : إن شانئك أبتر يتضمن اختصاصه بهذا الوصف ، لأن هو فى مثل هذا الموضع تعطى الاختصاص ، مثل أن يقول قائل : إن زيدا فاسق ، فلا يكون مخصوصا بهذا الوصف دون غيره ، فإذا قلت : إن زيدا هو الفاسق ، فمعناه : هو الفاسق الذى زعمت ، فدل على أن بالحضرة من يزعم غير ذلك ، وهكذا قال الجرجانى وغيره فى تفسير هذه الآية أن هو تعطى الاختصاص ، وكذلك قالوا فى قوله سبحانه : « وأنه هو أغنى وأقنى » لما كان العباد يتوهمون أن غير الله قد يغنى ، قال : هو أغنى وأقنى ، لاغيره ، وكذلك قوله تعالى : « وأنه هو أمات وأحيا » إذ كانوا قد يتوهمون فى الإحياء والإماتة ماتوهمه النمرود حين قال : أنا أحيى وأميت ، أى : أنا أقتل من شئت ، وأستحيى من شئت ، فقال عزوجل : وأنه هو أمات وأحيا أى : لاغيره ، وكذلك قوله تعالى : « وأنه هو رب الشعرى » أى : هو الرب لاغيره ، إذ كانوا قد اتخذوا أربابا من دونه ، منها : الشعرى ، فلما قال : وأنه خلق الزوجين ، وأنه أهلك عاداً استغنى الكلام عن هو التى تعطى معنى الاختصاص ، لأنه فعل لم يدعه أحد ، وإذا ثبت هذا ؛ فكذلك قوله : إن شانئك هو الأبتر أى : لاأنت . والأبتر : الذى لا عقب له يتبعه ، فعدمه كالبتر الذى هو عدم الذنب ، فإذا ما قلت هذا ، ونظرت إلى العاصى ، وكان ذا ولد وعقب ، وولده عمرو وهشام ابنا العاصى بن وائل ، فكيف يثبت له البتر وانقطاع الولد ، وهو ذو ولد ونسل ، ونفيه عن نبيه ، وهو يقول : « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم » فالجواب : أن العاصى ـ وإن كان ذا ولد ـ فقد انقطعت العصمة بينه وبينهم ، فليسوا بأتباع له ، لأن الإسلام قد حجزهم عنه ، فلا يرثهم ولا يرثونه ، وهم من أتباع محمد عليه السلام ، وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم كما قرأ : أبى بن كعب : « وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم ، والنبى أولى بهم » كما قال الله سبحانه ، فهم وجميع المؤمنين أتباع النبى فى الدنيا ، وأتباعه فى الآخرة إلى حوضه ، وهذا معنى الكوثر ، وهو موجود فى الدنيا لكثرة أتباعه فيها ، ليغذى أرواحهم بما فيه حياتهم من العلم ، وكثرة أتباعه فى الآخرة ليسقيهم من حوضه ما فيه الحياة الباقية ، وعدو الله العاصى على هذا هو الأبتر على الحقيقة ، إذ قد انقطع ذنبه وأتباعه ، وصاروا تبعاً لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك قوبل تعييره للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبتر بما هو ضده من الكوثر ؛ فإن الكثرة تضاد معنى القلة ، ولو قال فى جواب اللعين : إنا أعطيناك الحوض الذى من صفته كذا وكذا لم يكن رداً عليه ، ولا مشاكلا لجوابه ، ولكن جاء باسم يتضمن الخير الكثير ، والعدد الجم الغفير المضاد لمعنى البتر ، وأن ذلك فى الدنيا والآخرة بسبب الحوض المورود الذى أعطاه ، فلا يختص لفظ الكوثر بالحوض ، بل يجمع هذا المعنى كله ، ويشتمل عليه ، ولذلك كانت آنيته كعدد النجوم ويقابل : هذه الصفة فى الدنيا : علماء الأمة من أصحابه ومن بعدهم ، فقد قال : « أصحابى كالنجوم » ، وهم يروون العلم عنه ، ويؤدونه إلى من بعدهم ، كما تروى الآنية فى الحوض ، وتسقى الواردة عليه : تقول : رويت الماء ، أى : استقيته ، كما تقول : رويت العلم ، وكلاهما فيه حياة ، ومنه قيل لمن روى علما أو شعرا : راوية تشبيها بالمزادة أو الدابة التى يحمل عليها الماء ، وليس من باب علامة ونسابة ، وفى حديث أبى برزة فى صفة الحوض أنها تنزو فى أكف المؤمنين ، يعنى الآنية ، وحصباء الحوض : اللؤلؤ والياقوت ، ويقابلهما فى الدنيا الحكم المأثورة عنه ، ألا ترى أن اللؤلؤ فى علم التعبير حكم وفوائد علم ، وفى صفة الحوض له المسك ، أى : حمأته ويقابله فى الدنيا . طيب الثناء على العلماء ، وأتباع النبى الأتقياء كما أن المسك فى علم التعبير : ثناء حسن ،

وعلم التعبير من علم النبوءة مقتبس . وذكر فى صفة الحوض الطير التى ترده كأعناق البخت ، ويقابله من صفة العلم فى الدنيا ورود الطالبين من كل صقع وقطر على حضرة العلم وانتيابهم إياها فى زمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعده ، فتأمل صفة الكوثر معقولة فى الدنيا ، محسوسة فى الآخرة مدركة بالعيان ـ هنالك يبين لك إعجاز التنزيل ومطابقة السورة ـ لسبب ـ نزولها ، ولذلك قال فضيل : « فصل لربك وانحر » أى : تواضع لمن أعطاك الكوثر بالصلاة له ، فإن الكثرة فى الدنيا تقتضى فى أكثر الخلق الكبر : وتحدو إلى الفخر والجبرية فلذلك كان عليه السلام طأطأ رأسه عام الفتح حين رأى كثرة أتباعه ، وهو على الراحلة حتى ألصق عثنونه بالرحل امتثالا لأمر ربه ، وكذلك أمره بالنحر شكراً له ، ورفع اليدين إلى النحر فى الصلاة عند استقبال القبلة التى عندها ينحر ، وإليها يهدى معناه : الجمع بين الفعلين . النحر المأمور به يوم الأضحى ، والإشارة إليه فى الصلاة برفع اليدين إلى النحر ، كما أن القبلة محجوجة مصلى إليها ، فكذلك ينحر عندها ، ويشار إلى النحر عند استقبالها ، وإلى هذا التفت عليه السلام حين قال : « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، ونسك نسكنا فهو مسلم » ، وقد قال الله سبحانه : « قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » فقرن بين الصلاة إلى الكعبة ، والنسك إليها ، كما قرن بينهما حين قال : « فصل لربك وانحر » وذكر فى صفة الحوض : كما بين صنعاء وأيلة وقد جاء فيه أيضاً فى الصحيح « كما بين جرباء وأذرح » وبينهما مسافة بعيدة ، وفى الصحيح أيضاً فى صفته : كما بين عدن أبين إلى عمان ، وقد تقدم ذكر أبين ، وأنه ابن زهير بن أيمن بن حمير ، وأن عدن سميت برجل من حمير عدن بها ، أى : أقام : وتقدم أيضاً ما قاله الطبرى أن عدن وأبين هما ابنا عدنان أخوا معد ، وأما عمان بتشديد الميم وفتح العين ، فهى بالشام قرب دمشق ، سميت بعمان بن لوط بن هاران كان سكنها ـ فيما ذكروا ـ وأما عمان بضم العين وتخفيف الميم . فهو باليمن سميت بعمان بن سنان ، وهو من ولد إبراهيم ـ فيما ذكروا ـ وفيه نظر إذ لا يعرف فى ولد إبراهيم لصلبه من اسمه سنان . وفى صفة الحوض أيضاً كما بين الكوفة ومكة ، وكما بين بيت المقدس والكعبة ، وهذه كلها روايات متقاربة المعانى . وإن كانت المسافات بعضها أبعد من بعض ، فكذلك الحوض أيضاً له طول وعرض وزوايا وأركان » فيكون اختلاف هذه المسافات التى فى الحديث على حسب ذلك جعلنا الله من الواردين عليه ، ولا أظمأ أكبادنا فى الآخرة إليه . ومما جاء فى معنى الكوثر ما رواه ابن أبى نجيح عن عائشة ـ قالت : الكوثر نهر فى الجنة ، لا يدخل أحد إصبعيه فى أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر ؛ وقع هذا الحديث فى السيرة من رواية يونس ؛ ورواه الدارقطنى من طريق مالك بن مغول عن الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « إن الله أعطانى نهرا يقال له الكوثر لايشاء أحد من أمتى أن يسمع خرير ذلك الكوثر إلا سمعه ، فقلت : يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال : أدخلى أصبعيك فى أذنيك وشدى ، فالذى تسمعين فيهما من خرير الكوثر » ويروى الدارقطنى من طريق جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعلى : « والذى نفسى بيده إنك لذائد عن حوضى يوم القيامة تذود عنه كفار الأمم ، كما تذاد الإبل الضالة عن الماء بعصا من عوسج » إلا أن هذا الحديث يرويه حرام بن عثمان عن ابنى جابر ؛ وقد سئل مالك عنه ، فقال : ليس بثقة ، وأغلظ فيه الشافعى القول وأما قوله ـ عليه السلام : ومنبرى على حوضى ، فقد قيل فى معناه أقوال ، ويفسره عندى الحديث الآخر ، وهو قوله عليه السلام ، وهو على المنبر : « إنى لأنظر إلى حوضى الآن من مقامى هذا » فتأمله .

. . . .

استشهاد ابن هشام على معنى الكوثر : وذكر ابن هشام فى الاستشهاد على معنى الكوثر قول لبيد بن ربيعة:

وصاحب ملحوب فجعنا بيومه وعند الرداع بيت آخر كوثر
وبالفورة الحراب ذو الفضل عامر فنعم ضياء الطارق المتنور

يعنى عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وهو عم لبيد ، وسنذكر : لم سمى ملاعب الأسنة إذا جاء ذكره إن شاء الله تعالى . وصاحب ملحوب عوف بن الأحوص ، وقد ذكره ابن هشام. والذى عند الرداع : شريح بن الأحوص فى قوله ، وقال غيره : هو حبان بن عتبة بن مالك بن جعفر بن كلاب . والرداع : من أرض اليمامة . وملحوب : مفعول من لحبت العود ، إذا قشرته ، فكأن هذا الموضع سمى ملحوبا ؛ لأنه لا أكم فيه ولا شجر .

حديث المستهزئين : وذكر حديث المستهزئين برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل الله فيهم من قوله تعالى : « ولقد استهزىء برسل من قبلك» فقال فيها : استهزىء برسل ثم قال : فحاق بالذين سخروا منهم ، ولم يقل : استهزءوا ، ثم قال : ما كانوا به يستهزئون ولم يقل : يسخرون . ولا بد فى حكمة فى هذا من جهة البلاغة وتنزيل الكلام منازله ، فقوله : استهزىء برسل ، أى : أسمعوا من الكلام الذى يسمى استهزاء ما ساءهم تأنيساً له ، ليتأسى بمن قبله من الرسل ، وإنما سمى استهزاء إذا كان مسموعاً ، وهو من فعل الجاهلين : قال الله تعالى : « أتتخذنا هزواً قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » وأما السخر والسخرى ، فقد يكون فى النفس غير مسموع ، ولذلك تقول : سخرت منه ، كما تقول : عجبت منه إلا أن العجب لا يختص بالمعنى المذموم ، كما يختص السخر ، وفى التنزيل خبراً عن نوح : « إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم ، كما تسخرون » ولم يقل : نستهزىء بكم كما تستهزئون ؛ لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء ، انما هو من فعل الجاهلين كما قدمنا من قول موسى عليه السلام ، فالنبى يسخر : أى ، يعجب من كفر من يسخر به ، ومن سخر عقولهم . فإن قلت : فقد قال الله تعالى : « الله يستهزىء بهم » قلنا : العرب تسمى الجزاء على الفعل باسم الفعل كما قال الله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » وهو مجاز حسن وأما الاستهزاء الذى كنا بصدده ، فهو المسمى استهزاء حقيقة ، ولا يرضى به إلا جهول : ثم قال سبحانه: « فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » أى حاق بهم من الوعيد المبلغ لهم على ألسنة الرسل ما كانوا يستهزئون به بألسنتهم فنزلت كل كلمة منزلها ، و يحسن فى حكم البلاغة وضع واحدة مكان الأخرى . وذكر أيضاً قوله سبحانه « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » أى : لو جعلنا الرسول إليهم من الملائكة لم يكن إلا على صورة رجل ، ولدخل عليهم من اللبس فيه ما دخل فى أمر محمد وقوله : لبسنا يدل على أن الأمر كله منه سبحانه ، فهو يعمى من شاء عن الحق ، ويفتح بصيرة من شاء ، وقوله : ما يلبسون على غيرهم ، لأن أكثرهم قد عرفوا أنه الحق ، ولكن جحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ، فجعلوا ، يلبسون أى يلبس ، بعضهم على بعض ويلبسون على أهليهم وأتباعهم ، أى : يخلطون عليهم بالباطل ، تقول العرب : لبست عليهم الأمر ألبسه ، أى : سترته وخلطته ، ومن لبس الثياب : لبست ألبس ، لأنه فى معنى كسيت ، وفى مقابلة عريت ، فجاء على وزنه ، والآخر فى معنى : خلطت أو سترت فجاء على وزنه .

شرح ما فى حديث الإسراء

اتفقت الرواة على تسميته إسراء ، ولم يسمه أحد منهم : سرى ، وإن كان أهل اللغة قد قالوا : سرى وأسرى

بمعنى واحد ، فدل على أن أهل اللغة لم يحققوا العبارة ، وذلك أن القراء لم يختلفوا فى التلاوة من قوله : « سبحان الذى أسرى بعبده » ولم يقل : سرى ، وقال : والليل إذا يسر ، ولم يقل : يسرى ، فدل على أن السرى من سريت إذا سرت ليلا ، وهى مؤنثة تقول : طالت سراك الليلة ، والإسراء متعد فى المعنى ، ولكن حذف مفعوله كثيراً حتى ظن أهل اللغة أنهما بمعنى واحد ، لما رأوهما غير متعديين إلى مفعول فى اللفظ ، وإنما أسرى بعبده ، أى : جعل البراق يسرى ، كما تقول : أمضيته ، أى : جعلته يمضى ، لكن كثر حذف المفعول لقوة الدلالة عليه ، أو للاستغناء عن ذكره ، إذ المقصود بالخبر ذكر محمد ، لا ذكر الدابة التى سارت به ، وجاز فى قصة لوط عليه السلام ، أن يقال له : فأسر بأهلك : أى فاسر بهم ، وإن يقرأ فأسر بأهلك بالقطع ، أى : فأسر بهم ما يتحملون عليه من دابة أو نحوها ، ولم يتصور ذلك فى السرى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يجوز أن يقال سرى بعبده بوجه من الوجوه ، فلذلك لم تأت التلاوة إلا بوجه واحد فى هذه القصة فتدبره . وكذلك تسامح النحويون أيضاً فى الباء والهمزة ، وجعلوهما بمعنى واحد فى حجم التعدية ، ولو كان ما قالوه أصلا لجاز فى : أمرضته أن تقول . مرضت به ، وفى أسقمته : أن تقول : سقمت به ، وفى أعميته أن تقول : عميت به قياساً على : أذهبته وأذهبت به ويأبى الله ذلك والعالمون ، فإنما الباء تعطى مع التعدية طرفاً من المشاركة فى الفعل ، ولا تعطيه الهمزة ، فإذا قلت : أقعدته ، فمعناه : جعلته يقعد ، ولكنك شاركته فى القعود ، فجذبته بيدك إلى الأرض ، أو نحو ذلك ، فلا بد من طرف من المشاركة إذا قعدت به ، ودخلت به ، وذهبت به بخلاف أدخلته وأذهبته .

فإن قلت : فقد قال الله سبحانه ذهب الله بنورهم ، وذهب بسمعهم وأبصارهم ، ويتعالى - سبحانه - عن أن يوصف بالذهاب ، أو يضاف إليه طرف منه ، وإنما معناه : أذهب نورهم وسمعهم . قلنا : فى الجواب عن هذا أن النور والسمع والبصر كان بيده سبحانه ، وقد قال : بيده الخير ، وهذا من الخير الذى بيده ، وإذا كان بيده فجائز أن يقال ذهب به على المعنى الذى يقتضيه قوله سبحانه بيده الخير كائناً ما كان ذلك المعنى ، فعليه ينبنى ذلك المعنى الآخر الذى فى قوله : ذهب الله بنورهم مجازاً كان أو حقيقة ، ألا ترى أنه لما ذكر الرجس كيف قال : « ليذهب عنكم الرجس » ولم يقل يذهب به ، وكذلك قال : « ويذهب عنكم رجس الشيطان » تعليما لعباده حسن الأدب معه ، حتى لا يضاف إلى القدوس سبحانه - لفظا ومعنى شيء من الأرجاس ، وإن كانت خلقاً له وملكا فلا يقال : هى بيده على الخصوص ، تحسيناً للعبارة وتنزيها له ، وفى مثل النور والسمع والبصر يحسن أن يقال : هى بيده ، فحسن على هذا أن يقال : ذهب به . وأما أسرى بعبده . فإن دخول الباء فيه ليس من هذا القبيل ، فإنه فعل يتعدى إلى مفعول ، وذلك المفعول المسرى هو الذى سرى بالعبد فشاركه بالسرى . كما قدمنا فى قعدت به أنه يعطى المشاركة فى الفعل . أو فى طرف منه . فتأمله .

أ كان الاسراء يقظة أم مناما : فصل : وتقدم بين يدى الكلام فى هذا الباب : هل كان الإسراء فى يقظة بجسده ، أو كان فى نومه بروحه ، كما قال سبحانه : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » وقد ذكر ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنها كانت رؤيا حق ، وأن عائشة قالت : لم تفقد بدنه ، وإنما عرج بروحه تلك الليلة ، ويحتج قائل هذا القول بقوله سبحانه : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » . ولم يقل : الرؤية ، وإنما يسمى رؤيا ما كان فى النوم فى عرف اللغة ، ويحتجون أيضاً بحديث البخارى عن أنس بن مالك

قال : « ليلة أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه ، وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو هذا ، وهو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم فكان تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى ، فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه ، حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل » . الحديث بطوله ، وقال فى آخره : « واستيقظ ، وهو فى المسجد الحرام » وهذا نص لا إشكال فيه أنها كانت رؤيا صادقة ، وقال أصحاب القول الثانى : قد تكون الرؤيا بمعنى الرؤية فى اليقظة ، وأنشدوا الراعى يصف صائدا :

وكبر للرؤيا ، وهش فؤاده   وبشر قلبا كان جما بلابله

قالوا : وفى الآية بيان أنها كانت فى اليقظة ، لأنه قال : « وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » ولو كانت رؤيا نوم مافتتن بها الناس حتى ارتد كثير ممن أسلم ، وقال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس ، ورجع إلى مكة ليلته ، والعير تطرد إليها شهراً مقبلة وشهراً مدبرة ، ولو كانت رؤيا نوم ، لم يستبعد أحد منهم هذا ، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه فى السماء ، وفى المشرق والمغرب ، فلا يستبعد منه ذلك واحتج هؤلاء أيضا بشربه الماء من الإناء الذى كان مغطى عند القوم ، ووجدوه حين أصبح لاماء فيه ، وبإرشاده للذين ند بعيرهم حين أنفرهم حس الدابة ، وهو البراق حتى دلهم عليه ، فأخبر أهل مكة بأمارة ذلك ، حتى ذكر الغرارتين السوداء والبرقاء كما فى هذا الكتاب ، وفى رواية يونس : أنه وعد قريش بقدوم العير التى أرشدهم إلى البعير ، وشرب إناءهم ، وأنهم سيقدمون ويخبرون بذلك ، فقالوا : يا محمد متى يقدمون ؟ فقال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم ، ولم يقدموا ، حتى كربت الشمس أن تغرب ، فدعا الله فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف ، قال : ولم يحبس الشمس إلا له ذلك اليوم ، وليوشع بن نون وهذا كله لايكون إلا يقظة ، وذهبت طائفة ثالثة ، منهم : شيخنا القاضى أبو بكر رحمه الله إلى تصديق المقالتين ، وتصحيح الحديثين ، وأن الإسراء كان مرتين ، إحداهما : كان فى نومه توطئة له وتيسيراً عليه ، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة ، ليسهل عليه أمر النبوة فإنه عظيم تضعف عنه القوى البشرية ، وكذلك الإسراء سهله عليه بالرؤيا ؛ لأن هوله عظيم ، فجاءه فى اليقظة على توطئة وتقدمة ، رفقا من الله بعبده وتسهيلا عليه ، ورأيت المهلب فى شرح البخارى قد حكى هذا القول عن طائفة من العلماء ، وأنهم قالوا : كان الإسراء مرتين : مرة فى نومه ، ومرة فى يقظته ببدنه ـ صلى الله عليه وسلم .

قال المؤلف : وهذا القول هو الذى يصح ، وبه تتفق معانى الأخبار ، ألا ترى أنه قال فى حديث أنس الذى قدمنا ذكره : أتاه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه ، ومعلوم أن الإسراء كان بعد النبوة ، وحين فرضت الصلاة كما قدمنا فى الجزء قبل هذا : وقيل كان قبل الهجرة بعام ، ولذلك قال فى الحديث : فارتد كثير ممن كان قد أسلم ، ورواة الحديثين حفاظ فلا يستقيم الجمع بين الروايتين إلا أن يكون الإسراء مرتين ، وكذلك ذكر فى حديث أنس : أنه لقى إبراهيم فى السماء السادسة وموسى فى السابعة ، وفى أكثر الروايات الصحيحة أنه رأى إبراهيم عند البيت المعمور فى السماء السابعة ، ولقى موسى فى السادسة ، وفى رواية ابن إسحاق أتى بثلاثة آنية ، أحدها ماء فقال قائل : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمته ، وفى إحدى روايات البخارى فى الجامع الصحيح : أنه أتى بإناء فيه عسل ، ولم يذكر الماء

. . . .

والرواة أثبات ، ولا سبيل إلى تكذيب بعضهم ولا توهينهم ، فدل على صحة القول بأنه كان مرتين ، وعاد الاختلاف إلى أنه كان كله حقا ، ولكن فى حالتين ووقتين مع مايشهد له من ظاهر القرآن ، فان الله سبحانه يقول : « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى » ثم قال : « ما كذب الفؤاد ما رأى » فهذا نحو ماوقع فى حديث أنس من قوله : فيما يراه قلبه ، وعينه نائمة والفؤاد : هو القلب ، ثم قال : « أفتمارونه على ما يرى » ولم يقل : ما قد رأى ، فدل على أن ثم رؤية أخرى بعد هذه ، ثم قال : « ولقد رآه نزلة أخرى » أى : فى نزلة نزلها جبريل إليه مرة ، فرآه فى صورته التى هو عليها « عند سدرة المنتهى . . . . إذ يغشى السدرة مايغشى » قال : يغشاها فراش من ذهب ، وفى رواية : ينتثر منها الياقوت ، وثمرها مثل قلال هجر ثم قال : « مازاغ البصر » ولم يقل : الفؤاد ، كما قال فى التى قبل هذه ، فدل على أنها رؤية عين وبصر فى النزلة الأخرى ، ثم قال : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ، وإذا كانت رؤية عين ؛ فهى من الآيات الكبرى ، ومن أعظم البراهين والعبر ، وصارت الرؤيا الأولى بالإضافة الى الأخرى ليست من الكبر ؛ لأن مايراه العبد فى منامه دون ما يراه فى يقظته لا محالة . وكذلك قال فى أكثر الاحاديث انه رأى عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين ونهرين باطنين ، وأخبره جبريل أن الظاهرين : النيل والفرات ، وذكر فى حديث أنس أنه رأى هذين النهرين فى السماء الدنيا ، وقال له الملك : هما النيل والفرات ، أصلهما وعنصرهما ، فيحتمل أن يكون رأى فى حال اليقظة منبعهما ، ورأى فى المرة الأولى النهرين دون أن يرى أصلهما والله أعلم . فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض » أنهما النيل والفرات أنزلا من الجنة من أسفل درجة منها على جناح جبريل ، فأودعهما بطون الجبال . ثم إن الله سبحانه سيرفعهما ، ويذهب بهما عند رفع القرآن وذهاب الإيمان ، فلا يبقى على الأرض خير ، وذلك قوله تعالى : « وإنا على ذهاب به لقادرون » وفى حديث مسند ذكره النحاس فى المعانى بأتم من هذا فاختصرته . ووقع فى كتاب المعلم المازرى قول رابع فى الجمع بين الأقوال قال : كان الإسراء بجسده فى اليقظة الى بيت المقدس ، فكانت رؤيا عين ، ثم أسرى بروحه الى فوق سبع سموات ، ولذلك شنع الكفار قوله : وأتيت المقدس فى ليلتى هذه ، ولم يشنعوا قوله فيما سوى ذلك .

شماس البراق : فصل ومما يسأل عنه فى هذا الحديث شماس البراق حين ركبه النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال له جبريل : أما تستحى يابراق ، فما ركبك عبد لله قبل محمد هو أكرم عليه منه ، فقد قيل : فى نفرته ماقاله ابن بطال فى شرح الجامع الصحيح ، قال : كان ذلك لبعد عهد البرق بالأنبياء ، وطول الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وروى غيره فى ذلك سببا آخر قال فى روايته فى حديث الإسراء : قال جبريل لمحمد عليه السلام حين شمس به البراق : لعلك يامحمد مسست الصفراء اليوم فأخبرهم النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه مامسها الا أنه مر بها ، فقال : تبا لمن يعبدك من دون الله ، ومامسها الا لذلك ، وذكر هذا الرواية أبو سعيد النيسابورى فى شرف المصطفى ، فالله أعلم ، وقد جاء ذكر الصفراء فى مسند البزار ؛ وأنها كانت صنما بعضه من ذهب فكسرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم الفتح ، وفى الحديث الذى خرجه الترمذى من طريق بريدة الأسلمى أنه – عليه السلام – حين انتهى إلى بيت المقدس ، قال جبريل : بإصبعه إلى الصخرة ، فخرقها فشد بها البراق ، وصلى ، وإن حذيفة أنكر هذه الرواية ، وقال : لم يفر منه وقد سخره له عالم الغيب والشهادة ، وفى هذا من الفقه على رواية بريدة : التنبيه على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل ، وأن الإيمان بالقدر كما – روى عن وهب بن منبه – لايمنع الحازم من توقى المهالك . قال وهب : وجدته فى سبعين كتابا من كتب الله القديمة ، وهذا نحو من قوله

. . . .

صلى الله عليه وسلم : « قيدها وتوكل » فإيمانه صلى الله عليه وسلم بأنه قد سخر له كإيمانه بقدر الله وعلمه بأنه سبق فى علم الكتاب ماسبق ، ومع ذلك كان يتزود فى أسفاره ويعد السلاح فى حروبه ، حتى لقد ظاهر بين درعين فى غزوة أحد . وربطه للبراق فى حلقة الباب من هذا الفن ، وهو حديث صحيح ، وقد رواه غير بريدة ووقع فى حديث الحارث بن أبى أسامة من طريق أنس ، ومن طريق أبى سعيد ، وغيرهما أعنى ربطه للبراق فى الحلقة التى كانت تربطه فيها الأنبياء ، غير أن الحديث يرويه داود بن المحبر ، وهو ضعيف .

معنى قول الملائكة فى كل سماء : من معك : ومما يسأل عنه قول الملائكة فى كل سماء لجبريل : من معك ، فيقول : محمد ، فيقولون : أوقد بعث إليه فيقول : نعم ، هكذا لفظ الحديث فى الصحاح ، ومعنى سؤالهم عن البعث إليه فيما قال بعض أهل العلم ، أى : قد بعث اليه إلى السماء ، كما قد وجدوا فى العلم أنه سيعرج به ، ولو أرادوا بعثه إلى الخلق ، لقالوا : أو قد بعث ، ولم يقولوا إليه ، مع أنه يبعد أن يخفى عن الملائكة بعثه إلى الخلق ، فلا يعلمون به إلى ليلة الإسراء ، وفى الحديث الذى تقدم فى هذا الكتاب بيان أيضا حين ذكر تسبيح ملائكة السماء السابعة ، ثم تسبيح ملائكة كل سماء ، ثم يسأل بعضهم بعضا : مم سبحتم حتى ينتهى السؤال إلى ملائكة السماء السابعة ، فيقولون : قضى ربنا فى خلقه كذا ، ثم ينتهى الخبر إلى سماء الدنيا - الحديث بطوله ، وفى هذا مايدل على أن الملائكة قد علمت بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حين نبىء ، وإنما قالت : أوقد بعث إليه ، أى قد بعث إليه بالبراق كما تقدم على أن فى حديث أنس أن ملائكة سماء الدنيا قالت لجبريل : أوقد بعث ، كما وقع فى السيرة وليس فى أول الحديث : إليه ، هذا إنما جاء فى حديث الرؤيا التى رآها بقلبه ، كما قدمنا ، وأن ذلك قبل أن يوحى إليه كما جاء فى الحديث بعينه ، وفى هذا قوة لما تقدم من أن الإسراء كان رؤيا ثم كان رؤية ، ولذلك لم نجد فى رواية من الروايات أن الملائكة قالوا : أو قد بعث إليه إلا فى ذلك الحديث ، فالله أعلم .

باب الحفظة : وذكر باب الحفظة ، وأن عليه ملكا يقال له : إسماعيل ، وقد جاء ذكره فى مسند الحارث ، وفيه أن تحت يده سبعون ألف ملك تحت يد كل ملك سبعون ألف ملك ، هكذا لفظ الحديث فى رواية الحارث ، وفى رواية ابن إسحاق : اثنا عشر ألف ملك هكذا لفظ الحديث ، وفى مسند الحارث أيضاً .

وذكر سدرة المنتهى ، فقال : لو غطيت بورقة من ورقها هذه الأمة لغطتهم ، وفى صفتها من رواية الجميع : فإذا ثمرها كقلال هجر ، وفى حديث القلتين من كتاب الطهارة ، من رواية ابن جريج : إذا كان الماء قلتين من قلال هجر لم يحمل الخبث قالوا : والقلتان منها تسعان خمسمائة رطل ، قال الترمذى : وذلك نحو من خمس قرب ، وفى تفسير ابن سلام قال عن بعض السلف : إنها سميت سدره المنتهى ، لأن روح المؤمن ينتهى به إليها ، فتصلى عليه هنالك الملائكة المقربون . قال ذلك فى تفسير عليين .

آدم والأسودة : فصل : وفيه أنه رأى آدم فى سماء الدنيا ، وعن يمينه أسودة ، وعن شماله أسودة ، وأن جبريل أعلمه أن الأسودة التى عن يمينه هم : أصحاب اليمين ، وفى رواية ابن إسحاق ؛ تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا نظر إلى الذين عن يمينه ضحك ، وقد سئل عن هذا ، فقيل : كيف رأى عن يمينه أرواح أصحاب اليمين ،

. . . .

ولم يكن إذ ذاك من أصحاب اليمين إلا نفر قليل ، ولعله لم يكن مات تلك الليلة منهم أحد ، وظاهر الحديث يقضى أنهم كانوا جماعة . فالجواب أن يقال : إن كان الإسراء رؤيا بقلبه ، فتأويلها أن ذلك سيكون ، وإن كانت رؤيا عين ، كما قال ابن عباس وغيره بمعناه : أن ذلك أرواح المؤمنين رآها هنالك ، لأن الله تعالى يتوفى الخلق فى منامهم ، كما قال فى التنزيل : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » فصعد بالأرواح إلى هنالك ، فرآها ثم أعيدت إلى اجسادها . وجواب آخر : وهو أن أصحاب اليمين الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة المدثر فى قوله تعالى « إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين » قال ابن عباس : هم الأطفال الذين ماتوا صغاراً ، ولذلك سألوا المجرمين : « ما سلككم فى سقر » ، لأنهم ماتوا قبل أن يعلموا بكفر الكافرين ، وقد ثبت فى الصحيح أن أطفال المؤمنين والكافرين فى كفالة إبراهيم عليه السلام ، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل حين رآهم فى الروضة مع إبراهيم : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : أولاد المؤمنين الذين يموتون صغاراً ، فقال له : وأولاد الكافرين ، قال : وأولاد الكافرين . خرجه البخارى فى الحديث الطويل من كتاب الجنائز ، وخرجه فى موضع آخر ، فقال فيه : أولاد الناس ، فهو فى الحديث الأول نص ، وفى الثانى عموم ، وقد روى فى أطفال الكافرين أنهم خدم لأهل الجنة ، فعلى هذا لا يبعد أن يكون الذى رآه عن يمين آدم من نسم ذريته أرواح هؤلاء ، وفى هذا ما يدفع تشعيب هذا السؤال والاعتراض منه .

حكم من أحكام الماء : وفيه شربه من إناء القوم ، وهو مغطى ، والماء وإن كان لا يملك والناس شركاء فيه ، وفى النار والكلأ كما جاء فى الحديث ، لكن المستقى إذا أحرزه فى وعائه ، فقد ملكه ، فكيف استباح النبى صلى الله عليه وسلم شربه وهو ملك لغيره ، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذ ، ولا دماؤهم .

فالجواب أن العرب فى الجاهلية كان فى عرف العادة عندهم إباحة الرسل لابن السبيل فضلا عن الماء ، وكانوا يعهدون بذلك إلى رعائهم ، ويشترطونه عليهم عند عقد إجارتهم : ألا يمنعوا الرسل ، وهو اللبن من أحد مر بهم وللحكم فى العرف فى الشريعة أصول تشهد له ، وقد ترجم البخارى عليه فى كتاب البيوع ، وخرج حديث هند بنت عتبة ، وفيه : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف .

بيت المقدس : فصل : وذكر فيه أنه دخل بيت المقدس ، ووجد فيه نفراً من الأنبياء ، فصلى بهم ، وفى حديث الترمذى الذى قدمناه عن حذيفة أنه أنكر أن يكون صلى بهم ، وقال : ما زال من ظهر البراق ، حتى رأى الجنة والنار ، وما وعده الله تعالى ، ثم عاد إلى الأرض ، وزيادة العدل مقبولة ، ورواية من أثبت مقدمة على رواية من نفى ، وذكر فيه صفة الأنبياء ، وقال فى عيسى : كأن رأسه يقطر ماء وليس به ماء ، وكأنه خرج من ديماس والديماس : الحمام ، وأصله : دماس ويجمع على دماميس : وقد قيل فى جمعه : دياميس : ومثله : قيراط ودينار وديباج ، الأصل فيها كلها : التضعيف ، ثم قلب الحرف المدغم ياء ، فلما جمعوا وصغروا ، ردوه إلى أصله ، فقالوا : قراريط ودنانير ، غير أنهم لم يقولوا : ديانير ولا قياريط ، كما قالوا : دياميس ، وقالوا : دبابيج وديابيج ، وأصل الدمس : التغطية ومنه ليل دامس ، وفى هذه الصفة من صفات عيسى عليه السلام إشارة إلى الرى والخصب الذى يكون فى أيامه إذ أهبط إلى الأرض والله أعلم .

وذكر فى صفة موسى أنه آدم طوال ، ولوصفه إياه بالأدمة أصل فى كتاب الله تعالى ، قال الطبرى عند تفسير قوله : « تخرج بيضاء من غير سوء » ، قال : فى خروج يده بيضاء آية فى أن خرجت بيضاء مخالفاً لونها لسائر لون جسده وذلك دليل بين على الأدمة التى هى خلاف البياض .

. . . .

وذكر إبراهيم فقال : لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ، يعنى : نفسه ، وفى آخر هـذا الكلام إشكال من أجل أن أشبه منصوب فى الموضعين ، ولكن إذا فهمت معناه ، عرفت إعرابه ، ومعناه : لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم به منه ، ثم كرر أشبه توكيداً فصارت لغواً كالمقحم وصاحبكم معطوف على الضمير الذى فى أشبه الأول الذى هـو نعت لرجل ، وحسن العطف عليه ، وإن لم يؤكد بهو ، كما حسن فى قوله تعالى : « ما أشركنا ولا آباؤنا » من أجل الفصل بلا النافية ، ولو أسقط من الكلام أشبه الثانى ، لكان حسناً جداً ، ولو أخر صاحبكم فقال : ولا أشبـه به صاحبكم منه لجاز ، ويكون فاعـلا بأشبه الثانية ، ويكون من باب قولهم : ما رأيت رجلا أحسن فى عينـه الكحل من زيد ؛ وهى مسألة عذراء لم تفترعها أيدى النحاة بعد ، ولم يشف منها متقدم منهم ، ولا متأخر عن رأينا كلامه فيها ، وقد أملينا فى غير هذا الكتاب فيها تحقيقا شافياً .

فصل : وصف على النبى صلى الله عليه وسلم وذكر فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم — مما نعته به على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال : لم يكن بالطويل الممغط بالغين المعجمة ، وفى غير هذه الرواية بالعين المهملة ، وذكر الأوصاف إلى آخرها وقد شرحها أبو عبيد ، فقال عن الأصمعى ، والكسائى وأبى عمرو وغير واحد : قوله . ليس بالطويل الممغط أى : ليس بالبائن الطويل ، ولا القصير المتردد يعنى : الذى تردد خلقه بعضه على بعض ، وهو مجتمع ليس بسبط الخلق يقول : فليس هو كذلك ، ولكن ربعة بين الرجلين ، وهكذا صفته — صلى الله عليه وسلم — وفى حديث آخر :ضرب اللحم بين الرجلين .

وقوله : ليس بالمطهم ، قال الأصمعى:هو التام كل شىء منه على حدته ، فهو بارع الجمال ، وقال غير الأصمعى المكلثم المدور الوجه ، يقول : ليس كذلك ، ولكنه مسنون، وقوله : مشرب يعنى الذى أشرب حمرة ، والأدعج العين : الشديد سواد العين قال الأصمعى : الدعجة : هى السواد ، والجليل المشاش : العظيم العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين ، وقوله : الكتد هو : الكاهل ، وما يليه من جسده ، وقوله شثن الكفين والقدمين يعنى : أنهما إلى الغلظ . وقوله : ليس بالسبط ولا الجعد القطط ، فالقطط : الشديدالجعودة مثل شعور الحبشة ، ووقع فى غريب الحديث لأبى عبيد التام كل شىء منه على حدته . يقول : ليس كذلك ، ولكنه بارع الجمال ، فهذه الكلمة ، أعنى : ليس كذلك ، مخلة بالشرح ، وقد وجدته فى رواية أخرى عن أبى عبيد بإسقاط : يقـول كذلك ، ولكن على نص ذكرناه آنفا عنه عن الأصمعى ، والذى فى غريب الحديث من تلك الزيادة وهم وقع فى الكتاب . والله أعلم .

وأما ما رواه الترمذى عن الأصمعى فى شرح المطهم قال : هو البادن : الكثير اللحم ، ذكره عن أبى جعفر ، عن الأصمعى وذكر عنه فى الممغط نحو ما قدمناه ، قال : وسمعت أعرابيا يقول تمغط فى نشابة أى : مدها ، وفى كتاب العين : مغطت الشىء إذا مددته ، وقال فى باب العين المهملة معطت الشىء إذ مددته ، كما قال فى الغين المعجمة ، فعلى هذا يقال فيه ممغط وممعط ، ووزنه منفعل ، واندغمت النون فى الميم ، كما اندغمت فى محوته فامحى لما أمن

قصة المعراج

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس ، أتى بالمعراج - ولم أر شيئا قط أحسن منه - وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر ، فأصعدني صاحبي فيه ، حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء ، يقال له : باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة ، يقال له : إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك - قال : يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين حدث بهذا الحديث : وما يعلم جنود ربك إلا هو - فلما دخل بي ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا محمد . قال : أوقد بعث ؟ قال نعم . قال : فدعا لي بخير ، وقاله .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم عمن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال : تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقني ملك إلا ضاحكا مستبشرا ، يقول خيرا ويدعو به ، حتى لقيني ملك من الملائكة ، فقال مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : يا جبريل من هذا الملك الذى قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك إلي ، ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم؟ قال : فقال لي جبريل : أما إنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك ، أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك ، لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك خازن النار ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت لجبريل ، وهو من الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم « مطاع ثم أمين » ألا تأمره أن يريني النار ؟ فقال : بلى ، يا مالك ، أر محمدا النار ، قال : فكشف عنها غطاءها ، ففارت ، وارتفعت ، حتى ظننت : لتأخذن ما أرى . قال : فقلت لجبريل : يا جبريل ، مره ، فليردها إلى مكانها ، قال : فأمره ، فقال لها : اخبى ، فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه . فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل . حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها .

قال أبو سعيد الخدري في حديثه : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لما دخلت السماء الدنيا ، رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها ، إذا عرضت عليه خيرا ويسر به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه : أف ، ويعبس بوجهه ويقول : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث . قال : قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم ، تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها ، وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب . وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها ، وكرهها ، وساء ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

قال ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل ، في أيديهم قطع من نار كالأفهار ، يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما .

التباسه بالمضاعف ، ولم يدغموا النون في الميم في شاة زنماء ، ولا في غنم لئلا يلتبس بالمضاعف ، لو قالوا : أزماء وغما ، وقد ذكرنا قبل ماوهم فيه الترمذى من تفسير زر الحجلة حيث قال : يقال إنه بيض له ، حيث تكلمنا على خاتم النبوة وصفته ، واختلاف الرواية فيه - والحمد لله .

قال : ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون، يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار، يطئونهم لايقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك قال قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا .

قال : ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم ثمين طيب ، إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون السمين الطيب . قال : قلت : من هؤلاء ياجبريل؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

قال : ثم رأيت نساء معلقات بثديهن ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هولاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى جعفر بن عمرو ، عن القاسم بن محمد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ، فأكل حرائبهم ، وأطلع على عوراتهم .

عود إلى حديث الخدرى : ثم رجع إلى حديث أبى سعيد الخدرى ، قال : ثم أصعدنى إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، قال : ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قال : قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب . قال : ثم أصعدنى إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل فسألته : من هو ؟ قال : هذا إدريس - قال : يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ورفعناه مكانا عليا - قال : ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة فاذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية ، عظيم العثنون ، لم أر كهلا أجمل منه ، قال قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا المحبب فى قومه هارون ابن عمران ، قال : ثم أصعدنى إلى السماء السادسة ، فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى كأنه من رجال شنوءة ، فقلت له : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران . ثم أصعدنى إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لايرجعون فيه إلى يوم القيامة . لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ، ولاصاحبكم أشبه به منه ، قال : قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا أبوك ابراهيم . قال : ثم دخل بى الجنة ، فرأيت فيها جارية لعساء ، فسألتها : لمن أنت ؟ وقد أعجبتنى حين رأيتها ، فقالت : لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة .

قال ابن إسحاق : ومن حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى : أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها : من هذا ياجبريل ؟ فيقول : محمد ، فيقولون : أوقد بعث ؟ فيقول : نعم ، فيقول : حياه الله من أخ وصاحب ، حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به الى ربه ، ففرض عليه خمسين صلاة فى كل يوم .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعا ، فلما مررت بموسى بن عمران ونعم الصاحب كان لكم ، سألنى كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت خمسين صلاة كل يوم ، فقال : إن الصلاة ثقيلة ، وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى ، وعن أمتى ، فوضع

عنى عشرا . ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعت فسألت ربى ، فوضع عنى عشراً ، ثم انصرفت ، فمررت على موسى ، فقال لى مثل ذلك،فرجعت فسألته فوضع عنى عشراً ، ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، قال : فارجع فاسأل ، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى، إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة ثم رجعت إلى موسى فقال لى مثل ذلك ، فقلت : قد راجعت ربى وسألته ، حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل رواه البيهقى فى كتاب دلائل النبوة وابن جرير وابن أبى حاتم .

فمن أداهن منكم إيمانا بهن ، واحتسابا لهن ، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة . رواه . وفى الحديث غرابة ونكارة .

مبحث فى رؤية النبى ربه:فصل:وقد تكلم العلماء فى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه ليلة الإسراء ، فروى مسروق عن عائشة أنها أنكرت أن يكون رآه ، وقالت من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية، واحتجت بقوله سبحانه « لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار » وفى مصنف الترمذى عن ابن عباس وكعب الأحبار أنه رآه ، قال كعب : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ، وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قلت ؟ يارسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : رأيت نوراً ، وفى حديث آخر من كتاب مسلم أنه قال : نوراً أنى أراه ؟ وليس فى هذا الحديث بيان شاف أنه رآه ، وحكى عن أبى الحسن الأشعرى أنه قال : رآه بعينى رأسه ، وفى تفسير النقاش عن ابن حنبل أنه سئل : هل رأى محمد ربه ، فقال : رآه رآه رآه حتى انقطع صوته ، وفى تفسير عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى وذكر إنكار عائشة أنه رآه ، فقال لزهرى : ليست عائشة أعلم عندنا من ابن عباس ، وفى تفسير ابن سلام عن عروة أنه كان إذ ذكر إنكار عائشة أن يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه يشتد ذلك عليه ، وقول أبى هريرة فى هذه المسألة كقول ابن عباس أنه رآه ؟ روى يونس عن ابن إسحاق عن داود بن الحصين قال : سأل مروان أباهريرة : هل رأى محمد ربه ؟ قال : نعم ، وفى رواية يونس أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله : هل رأى محمد ربه ؟ فقال : نعم رآه ، فقال ابن عمر : وكيف رآه ، فقال ابن عباس كلاما كرهت ان أورده بلفظه لما يوهم من التشبيه ، ولوصح لكان له تأويل والله أعلم، والمتحصل من هذه الأقوال - والله أعلم - أنه رآه لاعلى أكمل ماتكون الرؤية على نحو مايراه فى حظيرة القدس عند الكرامة العظمى والنعيم الأكبر ، ولكن دون ذلك ، وإلى هذا يومى قوله : رأيت نوراً ونوراً أنى أراه فى الرؤية الأخرى والله أعلم .

وأما الدنو والتدلى فهما خبر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - عن بعض المفسرين ، وقيل إن الذى تدلى هو جبريل عليه السلام تدلى إلى محمد حتى دنامنه وهذا قول طائفة أيضا ، وفى الجامع الصحيح فى إحدى الروايات منه : فتدلى الجبار ، وهذا مع صحة نقله لايكاد أحد من المفسرين يذكره لاستحالة ظاهره، أو للغفلة عن موضعه، ولا استحالة فيه ، لأن حديث الإسراء إن كان رؤيا رآها بقلبه وعينه نائمة - كما فى حديث أنس فلا إشكال فيما يراه فى نومه عليه السلام فقد رآه فى أحسن صورة ووضع كفه بين كتفيه، حتى وجد بردها بين ثدييه رواه الترمذى من طريق معاذ فى حديث طويل ، ولما كانت هذه رؤيا لم ينكرها أحد من أهل العلم ،ولا استبشعها ، وقد بينا آنفا أن حديث الإسراء كان رؤيا ثم كان يقظة فإن كان قوله فتدلى الجبار فى المرة التى كان فيها غير نائم ، وكان الإسراء بجسده ، فيقال فيه من التأويل مايقال فى قوله : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا ، فليس بأبعد منه فى باب التأويل ، فلا نكارة فيه كان فى نوم أو يقظة ، وقد أشرنا إلى تمام هذا المعنى فى شرح ماتضمنه لفظ القوسين من قوله : قاب قوسين

في جزء أمليناه في شرح سبحان الله وبحمده ، تضمن لطائف من معنى التقديس والتسبيح ، فلينظر هناك وأملينا أيضاً في معنى رؤية الرب سبحانه في المنام ، وفي عرصات القيامة مسألة لقناع الحقيقة في ذلك كاشفة فمن أرادفهم الرؤية والرؤيا فلينظرها هنالك ، ويقوى ماذكرناه من معنى إضافة التدلى إلى الرب سبحانه كما في حديث البخارى مارواه ابن سنجر مسنداً إلى شريح بن عبيد ، قال : لما صعد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى السماء ، فأوحى إلى عبده ما أوحى فلما أحس جبريل بدنو الرب خر ساجداً ، فلم يزل يتسبح سبحان رب الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة حتى قضى الله إلى عبده ماقضى، قال : ثم رفع رأسه ، فرأيته في خلقه الذى خلق عليه منظوماً أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت ، فخيل إلى أن مابين عينيه قد سد الأفقين، وكنت لاأراه قبل ذلك إلا على صور مختلفة ، وكنت أكثر ماأراه على صورة دحية بن خليفة الكلبي وكان أحيانا لا يراه قبل ذلك إلا كما يرى صاحبه من وراء الغربال .

لقاؤه للنبيين : فصل : ومما سئل عنه من حديث الإسراء ، وتكلم فيه لقاؤه لآدم في السماء الدنيا ، ولإبرهيم في السماء السابعة ، وغيرهما من الأنبياء الذين لقيهم في غير هاتين ، والحكمة في اختصاص كل واحدمنهم بالسماء التى رآه فيها ، وسؤال آخر في اختصاص هؤلاء الأنبياء باللقاء دون غيرهم ، وان كان رأى الأنبياء كلهم ، فما الحكمة في اختصاص هؤلاء الأنبياء بالذكر؟ تكلم أبو الحسن بن بطال في شرح البخارى على هذا السؤال ، فلم يصنع شيئا ، ومغزى كلامه الذى أشار اليه أن الأنبياء لما علموا بقدومه عليهم ابتدروا الى لقائه ابتدار اهل الغائب للغائب القادم ، فمنهم من أسرع ، ومنهم من أبطأ . الى هذا المعنى أشار فلم يزد عليه ، والذى أقول في هذا : ان مأخذ فهمه من علم التعبير ، فإنه من علم النبوءة ، وأهل التعبير يقولون : من رأى نبيا بعينه في المنام ، فإن رؤياه تؤذن بما يشبه حال ذلك النبي من شدة أو رخاء أو غير ذلك من الامور التى أخبر بها عن الأنبياء في القرآن ، والحديث ، الإسراء كان بمكة وهى حرم الله وأمنه وقطانها جيران الله ، لأن فيها بيته ، فأول مارأى عليه من الأنبياء آدم الذى كان في أمن الله وجواره ، فأخرجه عدوه إبليس منها وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي - صلى الله عليه وسلم حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته ، فكربه ذلك وغمه . وأشبهت قصته في هذا قصة آدم ، مع أن آدم تعرض عليه أرواح ذريته البر والفاجر منهم ، فكان في السماء الدنيا بحيث يرى الفريقين ، لأن أرواح أهل الشقاء لاتلج في السماء ولاتفتح لهم أبوابها كما قال الله تعالى ، ثم رأى في الثانية عيسى ويحيى وهما الممتحنان باليهود ، أما عيسى فكذبته اليهود وآذته ، وهموا بقتله فرفعه الله ، وأما يحيى فقتلوه ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان ، وكانت محنته فيها باليهود ، آذوه وظاهروا عليه وهموا بإلقاء الصخرة عليه ، ليقتلوه فنجاه الله تعالى كما نجى عيسى منهم ، ثم سموه في الشاة ، فلم تزل تلك الأكلة تعاوده ، حتى قطعت أبهره كما قال عند الموت ، وهكذا فعلوا بابنى الخالة : عيسى ويحيى ، لأن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم ، أمهما ، حنة . وأما لقاؤه ليوسف في السماء الثالثة ، فإنه يؤذن بحالة ثالثة تشبه حال يوسف ، وذلك بأن يوسف ظفر بإخوته بعد ما أخرجوه من بين ظهرانيهم فصفح عنهم ، وقال لاتثريب عليكم الآية ، وكذلك نبينا - عليه السلام أسر يوم بدر جملة من أقاربه الذين أخرجوه فيهم عمه العباس ، وابن عمه عقيل ، فمنهم من أطلق ، ومنهم من قبل فداءه ، ثم ظهر عليهم بعد ذلك عام الفتح فجمعهم فقال لهم أقول ما قال أخى يوسف لاتثريب عليكم اليوم ، ثم لقاؤه لإدريس في السماء الرابعة ، فكان ذلك مؤذنا

بحالة رابعة ، وهى علو شأنه ـ عليه السلام ـ حتى أخاف الملوك وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، حتى قال أبو سفيان ، وهو عند ملك الروم، حين جاءه كتاب النبى عليه السلام، ورأى ما رأى من خوف هرقل : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة ، حتى أصبح يخافه ملك بنى الأصفر ، وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض ، فنهم من اتبعه على دينه كالنجاشى ، وملك عمان ، ومنهم من هادنه ، وأهدى إليه وأتحفه كهرقل والمقوقس ومنهم من تعصى عليه ، فأظهره الله عليه ؛ فهذا مقام على ، وخط بالقلم كنحو ما أوتى إدريس ـ عليه السلام ـ ولقاؤه فى السماء الخامسة لهارون المحبب فى قومه يؤذن بحب قريش ، وجميع العرب له بعد بغضهم فيه ، ولقاؤه فى السماء السادسة لموسى يؤذن بحالة تشبه حالة موسى حين أمر بغزو الشام فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها ، وأدخل بنى إسرائيل البلد الذى خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم ، وكذلك غزا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبوك من أرض الشام ، وظهر على صاحب دومة حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيرا ، وافتتح مكة ، ودخل أصحابه البلد الذى خرجوا منه ، ثم لقاؤه فى السماء السابعة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ لحكمتين : إحداهما : أنه رآه عند البيت المعمور مسنداً ظهره إليه والبيت المعمور حيال مكة ، وإليه تحج الملائكة ، كما أن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة ، وأذن فى الناس بالحج إليها والحكمة الثانية أن آخر أحوال النبى ـ صلى الله عليه وسم حجه إلى البيت الحرام ، وحج معه نحو من سبعين ألفا من المسلمين ، ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل تؤذن بالحج ، لأنه الداعى إليه والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة ، فقد انتظم فى هذا الكلام الجواب عن السؤالين المتقدمين، أحدهما : السؤال عن تخصيص هؤلاء بالذكر ، والآخر : السؤال عن تخصيصهم بهذه الأماكن من السماء الدنيا إلى السابعة ، وكان الحزم ترك التكلف لتأويل مالم يرد فيه نص عن السلف ، ولكن عارض هذا الغرض ما يجب من التفكير فى حكمة الله ، والتدبر لآيات الله ، وقول الله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، وقد روى أى تفكر ساعة خير من عبادة سنة مالم يكن النظر والتفكير مجردا من ملاحظة الكتاب والسنة ، ومقتضى كلام العرب ، فعندذلك يكون القول فى الكتاب والسنة بغير علم عصمنا الله ـ تعالى ـ من ذلك ، وجعلنا من الممتثلين لأمره حيث يقول : فاعتبروا يا أولى الأبصار وليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ، ولولا إسراع الناس إلى إنكار ماجهلوه ، وغلظ الطباع عن فهم كثير من الحكمة لأبدينا من سر هذا السؤال ، وكشفنا عن الحكمة فى هؤلاء الأنبياء المسلمين فى هذه المراتب أكثر مما كشفنا .

البيت المعمور : فصل : وذكر البيت المعمور، وأنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك . روى ابن سنجر عن على ـ رحمه الله ـ قال : البيت المعمور بيت فى السماء السابعة يقال له : الضراح ، واسم السماء السابعة : عريبا ، روى أبو بكر الخطيب بإسناد صحيح إلى وهب بن منبه قال : من قرأ البقرة وآل عمران يوم الجمعة كان له نور يملأ ما بين عريباء وجريباء وجريبا ، وهى الأرض السابعة ، وذكر عن عبد الله بن أبى الهذيل قال : البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف دحية عند كل دحية سبعون ألف ملك رواه عنه أبو التياح . قال أبو سلمة : قلت ما الدحية ؟ قال : الرئيس . وروى ابن سنجر أيضاً من طريق أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : فى السماء السابعة بيت يقال له : المعمور بحيال مكة وفى السماء السابعة نهر يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسة ، ثم يخرج فينتفض انتفاضة ، يخر عنه سبعون ألف قطرة ، يخلق الله من كل قطرة ملكا ويؤمرون أن يأتوا البيت المعمور ويصلوا فيه فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً ، يولى عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفاً . يسبحون الله إلى أن تقوم الساعة .

فرض الصلاة في الحضرة المقدسة فصل : وأما فرض الصلاة عليه هنالك ، ففيه التنبيه على فضلها ، حيث لم تفرض إلا فى الحضرة المقدسة ، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ، ومن شرائط أدائها ، والتنبيه على أنها مناجاة الرب ، وأن الرب تعالى مقبل بوجهه على المصلى يناجيه يقول : حمدنى عبدى ، أثنى على عبدى إلى آخر السورة ، وهذا مشاكل لفرضها عليه فى السماء السابعة حيث سمع كلام الرب ، وناجاه ، ولم يعرج به حتى طهر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يتطهر المصلى للصلاة ، وأخرج عن الدنيا بجسمه ، كما يخرج المصلى عن الدنيا بقلبه ، ويحرم عليه كل شىء إلا مناجاة ربه وتوجهه إلى قبلته فى ذلك الحين ، وهو بيت المقدس ، ورفع إلى السماء كما يرفع المصلى يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القبلة العليا فهى البيت المعمور ، وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلى له سبحانه .

فرض الصلوات خمسين فصل : وأما فرض الصلوات خمسين ثم حط منها عشراً بعد عشر إلى خمس صلوات . وقد روى أيضاً أنها حطت خمساً بعد خمس ، ويمكن الجمع بين الروايتين لدخول الخمس فى العشر ، فقد تكلم فى هذا النقص من الفريضة : أهو نسخ أم لا ؟ على قولين ، فقال قوم : هو من باب نسخ العبادة قبل العمل بها ، وأنكر أبو جعفر النحاس هذا القول من وجهين ، أحدهما البناء على أصله ومذهبه فى أن العبادة لا يجوز نسخها قبل العمل بها لأن ذلك عنده من البداء ، والبداء محال على الله سبحانه . والثانى : أن العباده إن جاز نسخها قبل العمل بها عند من يرى ذلك ، فليس يجوز عند أحد نسخها قبل هبوطها إلى الأرض ووصولها إلى المخاطبين . قال : وإنما ادعى النسخ فى هذه الصلوات الموضوعة عن محمد وأمته القاشانى ، ليصحح بذلك مذهبه فى أن البيان لا يتأخر ، ثم قال أبو جعفر : إنما هى شفاعة شفعها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته ومراجعة راجعها ربه ليخفف عن أمته ، ولا يسمى مثل هذا نسخاً .

قال المؤلف : أما مذهبه فى أن العبادة لا تنسخ قبل العمل بها ، وأن ذلك بداء فليس بصحيح ، لأن حقيقة البداء أن يبدو للآمر رأى يتبين له الصواب فيه بعد أن لم يكن تبينه ، وهذا محال فى حق من يعلم الأشياء بعلم قديم ، وليس النسخ من هذا فى شىء إنما النسخ تبديل حكم بحكم ، والكل فى سابق علمه ومقتضى حكمته ، كنسخه المرض بالصحة ، والصحة بالمرض ، ونحو ذلك ، وأيضاً بأن العبد المأمور يجب عليه عند توجه الأمر إليه ثلاث عبادات : الفعل الذى أمر به ، والعزم على الامتثال عند سماع الأمر ، واعتقاد الوجوب إن كان واجباً فإن نسخ الحكم قبل الفعل ، فقد حصلت فائدتان : العزم واعتقاد الوجوب . وعلم الله ذلك منه ، فصح امتحانه له واختباره إياه ، وأوقع الجزاء على حسب ما علم من نيته ، وإنما الذى لا يجوز ، نسخ الأمر قبل نزوله ، وقبل علم المخاطب به ، والذى ذكر النحاس من نسخ العبادة بعد العمل بها ، فليس هو حقيقة النسخ ، لأن العبادة المأمور بها قد مضت ، وإنما جاء الخطاب بالنهى عن مثلها لا عنها ، وقولنا فى الخمس والأربعين صلاة الموضوعة عن محمد وأمته أحد وجهين ، إما أن يكون نسخ ما وجب على النبى ـ صلى الله عليه وسلم من أدائها ورفع عنه استمرار العزم واعتقاد الوجوب ، وهذا قد قدمنا أنه نسخ على الحقيقة ، ونسخ عنه ما وجب عليه من التبليغ ، فقد كان فى كل مرة عازماً على تبليغ ما أمر به ، وقول أبى جعفر : إنما كان شافعاً ومراجعاً ينفى النسخ فإن النسخ قد يكون عن سبب معلوم ، فشفاعته عليه السلام لأمته كانت سبباً للنسخ لا مبطلة لحقيقته ، ولكن المنسوخ ما ذكرنا من حكم التبليغ الواجب عليه قبل النسخ وحكم الصلوات الخمس فى خاصته ، وأما أمته فلم ينسخ عنهم حكم إذ لا يتصور نسخ الحكم قبل بلوغه إلى المأمور ، كما قدمنا ، وهذا كله أحد الوجهين فى الحديث .

والوجه الثانى أن يكون هذا خبراً لم يدخله النسخ، ومعنى الخبر أنه عليه السلام أخبره ربه أن على أمته خمسين صلاة ، ومعناه : أنها خمسون فى اللوح المحفوظ ، وكذلك قال فى آخر الحديث : هى خمس وهى خمسون، والحسنة بعشر أمثالها فتأول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنها خمسون بالفعل ، فلم يزل يراجع ربه حتى بين له أنها خمسون فى الثواب لا بالعمل . فإن قيل : فما معنى نقصها عشرا بعد عشر ؟ قلنا : ليس كل الخلق يحضر قلبه فى الصلاة من أولها إلى آخرها ، وقد جاء فى الحديث أنه يكتب له منها ما حضر قلبه فيها ، وأن العبد يصلى الصلاة ، فيكتب له نصفها ربعها حتى انتهى إلى عشرها ، ووقف ، فهى خمس فى حق من كتب له عشرها ،وعشر فى حق من كتب له أكثر من ذلك ، وخمسون فى حق من كملت صلاته وأداها بما يلزمه من تمام خشوعها وكال سجودها وركوعها .

من أوصاف الملائكة فصل : وذكر أنه عليه السلام لم يلقه ملك من الملائكة إلا ضاحكا مستبشراً إلا مالكا خازن جهنم ، وذلك أنه لم يضحك لأحد قبله ، ولاهو ضاحك لأحد ، ومصداق هذا فى كتاب الله تعالى ، قال الله سبحانه « عليها ملائكة غلاظ شداد » وهم موكلون بغضب الله تعالى ، فالغضب لا يزايلهم أبداً ، وفى هذا الحديث معارضة للحديث الذى فى وصفه ميكائيل أنه ما ضحك منذ خلق الله جهنم ، وكذلك يعارضه ماخرج الدارقطنى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبسم فى الصلاة ، فلما انصرف سئل عن ذلك، فقال : رأيت ميكائيل راجعاً من طلب القوم ، على جناحيه الغبار فضحك إلى فتبسمت إليه ، وإذا صح الحديثان ، فوجه الجمع بينهما : أن يكون لم يضحك منذ خلق الله النار إلى هذه المدة التى ضحك فيها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيكون الحديث عاماً يراد به الخصوص،أو يكون الحديث الأول حدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل هذا الحديث الأخير ثم حدث بعد بما حدث به من ضحكه إليه ، والله أعلم . ولم ير مالكا على الصورة التى يراه عليها المعذبون فى الآخرة ، ولو رآه على تلك الصورة ما استطاع أن ينظر إليه .

جزاء أكلة الربا : وذكر أكلة الربا وأنهم بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة ، وهى العطاش ، والهيام : شدة العطش ، وكان قياس هذا الوصف ألا يقال فيه مهيومة ، كما لا يقل معطوشة، إنما يقال هائم وهيمان ، وقد يقال : هيوم ويجمع على هيم ، ووزنه فعل بالضم لكن كسر من أجل الياء كما قال تعالى : « فشاربون شرب الهيم » ولكن جاء فى الحديث مهيومة ، كأنه شىء فعل بها كالمحمومة والمجنونة وكالمنهوم ، وهو الذى لا يشبع وكان قياس الياء أن تعتل ، فيقال : مهيمة ، كما يقال : مبيعة فى معنى مبيوعة ، ولكن صحت الياء ، لأنها فى معنى الهيومة كما صحت الواو فى عور لأنه فى معنى أعور، كما صحت فى اجتوروا لأنه فى معنى: تجاوروا، وإنما رآهم منتفخة بطونهم ؛ لأن العقوبة مشاكلة للذنب ، فآكل الربا يربو بطنه ، كما أراد أن يربو ماله بأكل ماحرم عليه ، فمحقت البركة من ماله ، وجعلت نفخاً فى بطنه ، حتى يقوم كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، وإنما جعلوا بطريق آل فرعون يمرون عليهم غدوا وعشيا لأن آل فرعون هم أشد الناس عذابا يوم القيامة ، كما قال سبحانه : « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » فخصوا بسبيلهم ، ليعلم أن الذين هم أشد الناس عذابا يطئونهم فضلا عن غيرهم من الكفار ، وهم لا يستطيعون القيام، ومعنى كونهم فى طريق جهنم بحيث يمر بالكفار عليهم، أن الله سبحانه قد أوقف أمرهم بين أن ينتهوا ، فيكون خيرالهم ، وبين أن يعودوا ويصروا ، فيدخلهم النار ، وهذه صفة من هو فى طريق النار قال الله تعالى : « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله » إلى آخر الآية وفى بعض المسندات أنه رأى بطونهم كالبيوت ، يعنى : أكلة الربا ، وفيها حيات ترى خارج البطون . فإن قيل : هذه الأحوال

. . . .

التى وصفها عن أكلة الربا إن كانت عبارة عن حالهم فى الآخرة ، فآل فرعون فى الآخرة قد أدخلوا أشد العذاب ، وإنما يعرضون على النار غدواً وعشيا فى البرزخ ، وإن كانت هذه الحال التى رآهم عليها فى البرزخ ، فأى بطون لهم ، وقد صاروا عظاما ورفاتا ، ومزقوا كل ممزق فالجواب أنه إنما رآهم فى البرزخ ، لأنه حديث عما رأى ، وهذه الحال هى حال أرواحهم بعد الموت . وفيها تصحيح لمن قال : الأرواح أجساد لطيفة قابلة للنعيم والعذاب ، فيخلق الله فى تلك الأرواح من الآلام مايجده من انتفخ بطنه حتى وطىء بالأقدام ، ولا يستطيع من قيام ، وليس فى هذا الحديث دليل على أنهم أشد عذابا من آل فرعون ، ولكن فيه دليل على أنهم يطؤهم آل فرعون ، وغيرهم من الكفار الذين لم يأكلوا الربا ماداموا فى البرزخ إلى أن يقوموا يوم القيامة ، كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ثم ينادى منادى الله « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وكذلك مارأى من النساء المعلقات بثديهن يجوز أن يكون رأى أرواحهن ، وقد خلق فيها من الآلام مايجده من هذه حاله ، ويحتمل أيضا أن يكون مثلت له حالهن فى الآخرة ، وذكر الذين يدعون ماأحل الله من نسائهم ، ويأتون ماحرم عليهم ، وهذا نص على تحريم إتيان النساء فى أعجازهن، وقد قام الدليل على تحريمه من الكتاب والسنة والإجماع ، وقد ذكرنا المواضع التى يقوم منها التحريم على هذه المسألة من كتاب الله ، ومن حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكرنا ماجاء فى ذلك عن ابن عباس من قوله : هو الكفر ، وقول ابن عمر : هى اللوطية الصغرى ، وأما الإجماع ، فإن المرأة ترد بداء الفرج ، ولو جاز وطؤها فى المسلك الآخر ما أجمعوا على ردها بداء الفرج ، وقد مهدنا الأدلة على هذه المسألة مفردة فى غير هذا الإملاء بما فيه شفاء والحمد لله .

نسب الولد لغير رشدة : وقوله : فأكل حرائبهم : الحريبة: المال ، وهو من الحرب ، وهو السلب ، يريد أن الولد إذا كان لغير رشدة نسب إلى الذى ولد على فراشه ، فيأكل من ماله صغيرا ، وينظر إلى بناته من غير أمه وإلى أخواته ، ولسن بعمات له ، وإلى أمه وليست بجدة له ، وهذا فساد كبير ، وإنما قدم ذكر الأكل من حريبته وماله قبل الاطلاع على عوراته ، وإن كان الاطلاع على العورات اشنع ، لأن نفقته عليه أول من حال صغره ، ثم قد يبلغ حد الاطلاع على عوراته ، أولا يبلغ ، فإن الأم أرضعته بلبانها ، ولم تدفعه إلى مرضعة كان الزوج أبأله من الرضاعة ، وكان حكمه حكم الابن من الرضاعة ، وفى ذلك نقصان من الشناعة ، فإن بلغ الصبى ، وتابت الأم ، وأعلمته أنه لغير رشدة ليستعف عن ميراثهم ، ويكف عن الاطلاع على عوراتهم ، أو علم ذلك بقرينة حال وجب عليه ذلك وإن كان شر الثلاثة كما جاء فى الحديث فى ابن الزنا ، وقد تؤول حديث شر الثلاثة على وجوه ، هذا أقربها إلى الصواب ، لقوله عليه السلام : أكل حرائبهم ، واطلع على عوراتهم ، ومن فعل هذا عن عمد وقصد فهو شر الناس . وإن لم يعلم فأكله واطلاعه شر عمل ، وأبواه حين زنيا فارقا ذلك العمل الخبيث لحينهما والابن فى عمل خبيث،من منشئه إلى وفاته ، فعله شر عمل .

حكم الحاكم لايحل حراما : وفى هذا الحديث من الفقه أيضاً أن حكم الحاكم لا يحل حراماً ، وذلك أن الولد فى حكم الشريعة للفراش إلا أن ينفى باللعان ، فإذا حكم الحاكم بهذا ، وعلم الولد عند بلوغه خلاف ما حكم به الحاكم لم يحل له بهذا الحكم ما حرم الله عليه من أكل الحرائب والاطلاع على العورات ، وفى هذا رد لمذهب أبى حنيفة من قوله : إن حكم الحاكم قد يحل ما يعلم أنه حرام مثل أن يشهد شاهدان على رجل أنه طلق ، وهما

. . . .

يعلمان أنه لم يطلق فيقبل القاضى شهادتهما فيطلق المرأة على الرجل ، فإذا بانت منه كان لأحد الشاهدين أن ينكحها مع علمه بأنه قد شهد زوراً ، لم يقل أبو حنيفة بهذا القول فى الأموال لقول النبى عليه السلام « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من صاحبه ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » فى هذا الحديث مع الذى تقدم رد لمذهبه ، ولا حجة له فى أن يقول ذلك مخصوص بالأموال من وجهين : أحدهما : أن القياس أصل من أصوله ، وقياس المسألتين واحد ، الثانى : أنه قال من حق أخيه ، ولم يقل من مال أخيه ، وهذا لفظ يعم الحقوق كلها قال المؤلف : وعنـــدى أن أبا حنيفة رحمه الله : إنما بنى هذه المسألة على أصله فى طلاق المكره ، فانه عنده لازم فإذا أكره الرجل على الطلاق ، وقلنا يلزم الطلاق له ، فقد حرمت المرأة عليه ، وإذا حرمت عليه جاز أن ينكحها من شاء فالإثم إنما تعلق فى هذا المذهب بالشهادة دون النكاح ، وقد خالفه فقهاء الحجاز فى طلاق المكره ، وقولهم يعضده الأثر ، وقول أبى حنيفة يعضده النظر ، والخوض فى هذه المسألة يصدنا عما نحن بسبيله .

ورفعناه مكانا عليا . فى قصة إدريس : فصل : وذكره لإدريس فى السماء الرابعة مع قوله تعالى : « ورفعناه مكاناً عليا » ، مع أنه قد رأى موسى وإبراهيم فى مكان أعلى من مكان ادريس فذلك والله أعلم لما ذكر عن كعب الأحبار أن ادريس خص من جميع الأنبياء أن رفع قبل وفاته إلى السماء الرابعة ، ورفعه ملك كان صديقا له ، وهو الملك الموكل بالشمس فيما ذكر ، وكان إدريس سأله أن يريه الجنة ، فأذن له الله فى ذلك ، فلما كان فى السماء الرابعة رآه هنالك ملك الموت ، فعجب ، وقال أمرت أن أقبض روح إدريس الساعة فى السماء الرابعة ، فقبضه هنالك ، فرفعه حياً إلى ذلك المكان العلى خاص له دون الأنبياء .

ترحيب الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم : فصل : وذكر من قول الأنبياء له فى كل سماء : مرحباً بالأخ الصالح ، وقول آدم وابراهيم : بالابن الصالح وقد ذكرنا فى أول هذا الكتاب حجة لمن قال : إن إدريس ليس بجد لنوح ، ولا هو من آباء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم لأنه قال مرحباً بالأخ الصالح ، ولم يقل : بالابن الصالح .

موسى يطلب أن يكون من أمة محمد : وأما اعتناء موسى ـ عليه السلام ـ بهذه الأمه وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ، ويسأل التخفيف عنها ، فلقوله ـ والله أعلم ـ حين قضى إليه الأمر بجانب الغربى ، ورأى صفات أمة محمد عليه السلام فى الألواح ، وجعل يقول : إنى أجد فى الألواح أمة صفتهم كذا ، اللهم اجعلهم أمتى ، فيقال له : تلك أمة أحمد ، وهو حديث مشهور ، فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتنى بالقوم من هو منهم ، لقوله : اللهم اجعلنى منهم ، والله أعلم .

عصمة الله له : ومما جاء فى حديث الإسراء مما لم يذكره ابن اسحاق فى مسند الحارث ابن أبى أسامة أنه ـ عليه السلام ـ ناداه مناد ، وهو على ظهر البراق : يامحمد ، فلم يعرج عليه ، ثم ناداه آخر يامحمد يامحمد ثلاثا ، فلم يعرج عليه ، ثم لقيته امرأة عليها من كل زينة ناشرة يديها ، تقول : يامحمد يامحمد ، حتى تغشته ، فلم يعرج عليها ، ثم سأل جبريل عما رأى ، فأخبره ، فقال : أما المنادى الأول فداعى اليهود لو أجبته لتهودت أمتك ، وأما الآخر فداعى النصارى ، ولو أجبته لتنصرت أمتك ، وأما المرأة التى كان عليها من كل زينة ، فانها الدنيا لو أجبتها لآثرت الدنيا على الآخرة .

المستهزئون وكفاية الله أمرهم

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر الله تعالى صابرا محتسبا ، مؤديا إلى قومه النصيحة على مايلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء وكان عظماء المستهزئين ـ كما حدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير خمسة نفر من قومهم وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم .

من بنى أسد بن عبد العزى بن كلاب : الأسود بن المطلب بن أسد أبوزمعة ، وكان رسول الله ـ فيما بلغنى ـ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به ، فقال : اللهم أعم بصره وأثكله ولده .

ومن بنى زهرة بن كلاب : الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة .

ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة : الوليد بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب : العاص بن وائل بن هشام . قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سهم .

ومن بنى خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن لؤى بن ملكان .

فلما تمادوا فى الشر ، وأكثروا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » .

قال ابن إسحاق فحدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يطوفون بالبيت ، فقام ، وقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنبه فمر به الأسود ابن المطلب ، فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ؛ ومر به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى فمات منه حبنا . ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يجر سبله ، وذلك أنه مر برجل من خزاعة وهو يريش نبلا له ، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش فى رجله ذلك الخدش ، وليس بشىء ، فانتقض به ، فقتله . ومر به العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص رجله ؛ وخرج على حمار له يريد الطائف ، فربض به على شبارقة ، فدخلت فى أخمص رجله شوكة ، فقتلته ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه ، فامتخض قيحا فقتله .

وصاة الوليد لأولاده : قال ابن إسحاق : فلما حضرت الوليد الوفاة دعا بنيه ، وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد والوليد بن الوليد ، وخالد بن الوليد ، فقال لهم : أى بنى ، أوصيكم بثلاث ، فلا تضيعوا فيهن : دمى فى خزاعة فلا تطلنه ، والله إنى لأعلم أنهم منه برآء ولكنى أخشى أن تسبوا به بعد اليوم ، وربای فى ثقيف ، فلا تدعوه حتى تأخذوه ، وعقرى عند أبى أزيهر ، فلا يفوتنكم به . وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتا ، ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات .

فلما هلك الوليد بن المغيرة ، وثب بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم عقل الوليد ، وقالوا : إنما قتله سهم

صاحبكم ـ وكان لبنى كعب حلف من بنى عبد المطلب بن هاشم ـ فأبت عليهم خزاعة ذلك ، حتى تقاولوا أشعاراً، وغلظ بينهم الأمر ـ وكان الذى أصاب الوليد سهمه رجلا من بنى كعب بن عمرو من خزاعة ـ فقال عبدالله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم :

إنى زعيم أن تسيروا ، فتهربوا وأن تتركو الظهران تعوى ثعالبه
وأن تتركوا ماء بجزعة أطرقا وأن تسألوا : أى الأراك أطايبه
فإنا أناس لاتطل دماؤنا ولا يتعالى صاعداً من نحاربه

وكانت الظهران والأراك منازل بنى كعب ، من خزاعة . فأجابه الجون بن أبى الجون : أخوبنى كعب بن عمرو الخزاعى ، فقال :

والله لانؤتى الوليد ظلامة ولما تروا يوما تزول كواكبه
ويصرع منكم مسمن بعد مسمن وتفتح بعد الموت قسراً مشاربه
إذا ما أكلتم خبزكم وخزيركم فكلكم با كى الوليد ونادبه

ثم إن الناس ترادوا وعرفوا أنما يخشى القوم السبة ، فأعطتهم خزاعة بعض العقل ، وانصرفوا عن بعض . فلما اصطلح القوم قال الجون بن أبى الجون :

وقائلة لما اصطلحنا تعجبا لما قد حملنا للوليد وقائل
ألم تقسموا تؤتوا الوليد ظلامة ولما تروا يوما كثير البلابل
فنحن خلطنا الحرب بالسلم فاستوت فأم هواه آمنا كل راحل

ثم لم ينته الجون بن أبى الجون حتى افتخر بقتل الوليد، وذكر أنهم أصابوه ،وكان ذلك باطلا .فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك ماحذره ، فقال الجون بن أبى الجون:

ألا زعم المغيرة أن كعبا بمكة منهم قدر كثير
فلا تفخر مغيرة أن تراها بها يمشى المعلهج والمهير
بها آباؤنا ، وبها ولدنا كما أرسى بمثبته ثبير
وما قال المغيرة ذاك إلا ليعلم شأننا أو يستثير
فإن دم الوليد يطل إنا نطل دماء أنت بها خبير
كساه الفاتك الميمون سهما زعافا وهو ممتلىء بهير
فخر ببطن مكة مسلحبا كأنه عند وجبته بعير
سيكفينى مطال أبى هشام صغار جعدة الأوبار خور

قال ابن هشام : تركنا منها بيتا واحدا أقذع فيه .

ثورة بنى عبد مناف لمقتل أبى أزيهر : قال ابن إسحاق : ثم عدا هشام بن الوليد على أبى أزيهر ،وهو بسوق

. . . .

ذى المجاز ، وكانت عند أبى سفيان بن حرب بنت أزيهر وكان أبو أزيهر رجلا شريفا فى قومه ـ فقتله بعقر الوليد الذى كان عنده ، لوصية أبيه إياه ، وذلك بعد أن هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ومضى بدر وأصيب به من أصيب من أشراف قريش من المشركين ، فخرج يزيد بن أبى سفيان ، فجمع بنى عبد مناف ، وأبو سفيان بذى المجاز ،فقال الناس أخفر أبو سفيان فى صهره فهو ثائر به ، فلما سمع أبو سفيان بالذى صنع ابنه يزيد ـ وكان أبو سفيان رجلا حليما منكراً ، يحب قومه حبا شديداً ـ انحط سريعا إلى مكة ، وخشى أن يكون بين قريش حدث فى أبى أزيهر ، فأتى ابنه وهو فى الحديد ، فى قومه من بنى عبد مناف والمطيبين ، فأخذ الرمح من يده ، ثم ضرب به على رأسه ضربة هده منها ، ثم قال له ، قبحك الله ! أتريد أن تضرب قريشا بعضهم ببعض فى رجل من دوس . سنؤتيهم العقل إن قبلوه ، وأطفأ ذلك الأمر .

فانبعث حسان بن ثابت يحرض فى دم أبى أزيهر ، ويعير أبا سفيان خفرته ويجبنه ، فقال :

غدا أهل ضوجى ذى المجاز كليهما	وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو
ولم يمنع العير الضروط ذماره	وما منعت مخزاة والدها هند
كساك هشام بن الوليد ثيابه	فأبل وأخلف مثلها جدداً بعد
قضى وطراً منه فأصبح ماجداً	وأصبحت رخواً ما تخب وما تعدو
فلو أن أشياخا ببدر تشاهدوا	لبل نعال القوم معتبط ورد

فلما بلغ أبا سفيان قول حسان قال : يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض فى رجل من دوس ! بئس والله ما ظن !

تحريم الربا : ولما أسلم أهل الطائف كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى ربا الوليد، الذى كان فى ثقيف ، لما كان أبوه أوصاه به .

قال ابن إسحاق : فذكر لى بعض أهل العلم أن هؤلاء الآيات من تحريم ما بقى من الربا بأيدى الناس نزلن فى ذلك من طلب خالد الربا : « يأيها الذين آمنو اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » إلى آخر القصة فيها .

دوس تحاول الثأر لأبى أزيهر : ولم يكن فى أبى أزيهر ثأر نعلمه ، حتى حجز الإسلام بين الناس ، إلا أن ضرار ابن الخطاب بن مرداس الفهرى خرج فى نفر من قريش إلى أرض دوس ، فنزلوا على امرأة يقال لها أم غيلان ، مولاة لدوس ، وكانت تمشط النساء ، وتجهز العرائس ، فأرادت دوس قتلهم بأبى أزيهر ،فقامت دونهم أم غيلان ونسوة معها ، حتى منعتهم ، فقال ضرار بن الخطاب فى ذلك :

جزى الله عنا أم غيلان صالحا	ونسوتها إذ هن شعث عواطل
فهن دفعن الموت بعد اقترابه	وقد برزت للثائرين المقاتل
دعت دعوة دوسا فسالت شعابها	بعز وأدتها الشراج القوابل
وعمراً جزاه الله خيرا فما ونى	وما بردت منه لدى المفاصل
فجردت سيفى ثم قمت بنصله	وعن أى نفس بعد نفسى أقاتل

. . . .

أم غيلان وأم جميل : قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة : أن التي قامت دون ضرار أم جميل ، ويقال : أم غيلان ، قال : ويجوز أن تكون أم غيلان قامت مع أم جميل فيمن قام دونه .

فلما قام عمر بن الخطاب أتته أم جميل ، وهي ترى أنه أخوه : فلما انتسبت له عرف القصة ، فقال : إني لست بأخيه إلا في الإسلام ، وهو غاز ، وقد عرفت منتك عليه ، فأعطاها على أنها ابنة سبيل .

قال الراوي : قال ابن هشام : وكان ضرار لحق عمر بن الخطاب يوم أحد ، فجعل يضربه بعرض الرمح ، ويقول : انج يابن الخطاب لاأقتلك ، فكان عمر يعرفها له بعد إسلامه .

من كان يؤذي رسول الله (ص) قال بن إسحاق : وكان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته أبا لهب ، والحكم بن العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ، وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص ، فكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له . حتى اتخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حجراً يستتر به منهم إذا صلى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ، كما حدثني عمر ابن عبد الله بن عروة ابن لزبير ، يخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ! ثم يلقيه في الطريق .

وفاة أبي طالب وخديجة وماعاناه الرسول بعدهما

قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو اليها ، وبهلك عمه أبي طالب ، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصرا على قومه ، وذلك قبل مهاجره الى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى مالم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك التراب دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لاتبكي يابنية ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : مانالت مني قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب .

المشركون يطلبون عهدا بينهم وبين الرسول قبل وفاة أبي طالب : قال ابن إسحاق : ولما اشتكى أبو طلب ، وبلغ قريش ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر ، قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

قال ابن إسحاق : فحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله ، عن ابن عباس ، قال : مشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت . وقد حضرك ماترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ لنا منه ، ليكف عنا ، ونكف عنه ،

وليدعنا وديننا ، فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه فقال : يابن أخى : هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم . قال : فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ماتعبدون من دونه . قال: فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يامحمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن أمرك لعجب : ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ماهذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا ، وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . قال : ثم تفرقوا .

رجاء الرسول فى إسلام أبى طالب: فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا ابن أخى ، مارأيتك سألتهم شططاً ؛ فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إسلامه ، فجعل يقول له : أى عم فأنت فقلها ، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة . قال : فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يابن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك ، وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش إنى قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لاأقولها إلا لأسرك بها . قال : فلما تقارب من أبى طالب الموت ، قال : نظر العباس إليه يحرك شفتيه ، قال : فأصغى إليه بأذنه ، قال فقال يابن أخى ، والله لقد قال أخى ، الكلمة التى أمرته أن يقولها ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

مانزل فيمن طلبوا العهد على الرسول عند أبى طالب : قال : وأنزل الله تعالى فى الرهط الذين كانوا اجتمعوا إليه ، وقال لهم ما قال ، وردوا عليه ماردوا : «ص . والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق» . . إلى قوله تعالى : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشئ عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة » يعنون النصارى ، لقولهم : « إن الله ثالث ثلاثة » « إن هذا إلا اختلاق » ثم هلك أبو طالب .

شرح حديث المستهزئين

فصل : وذكر حديث المستهزئين الذين أنزل الله فيهم : «إنا كفيناك المستهزئين ذكر فيهم الحارث بن الطلاطلة ، والطلاطلة : أمه ، قاله أبو الوليد الوقشى ، والطلاطلة فى اللغة : الداهية ، قال أبو عبيد : كل داء عضال فهو : طلاطلة وذكر فى نسبه عبد عمرو بن ملكان بالضبطين جميعا ، وفى حاشية كتاب الشيخ الحافظ أبى بحر ، قال : قد تقدم من قول ابن حبيب النحوى أن الناس ليس فيهم ملكان بفتح الميم واللام إلا ملكان بن جرم بن زبان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وملكان بن عباد بن عياض بن عقبة بن السكون بن أشرس ، وإخوة عدى هم : تجيب عرفوا بأمهم تجيب بنت دهم بن ثوبان ، وهم من كندة وكل من فى الناس وغيرهما ملكان مكسور الميم ساكن اللام ، وقال مشايخ خزاعة : فى خزاعة ملكان بفتح الميم ، قال القاضى : يعنى ابن حبيب : ملكان بن أفصى بن حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وقال غير ابن حبيب كالذى يخرج من عبارته : إن الذى فى خزاعة إنما هو ملكان ابن أفصى مثل ملكان بن عدى بن عبد مناة من الرباب الذين منهم ذو الرمة الشاعر ، ومثل ملكان بن عبد مناة من الرباب أيضاً رهط سفيان بن سعيد الثورى . وذكر فى المستهزئين الأسود بن عبد يغوث الزهرى روى أنه لما أنزل الله تعالى « إنا كفيناك المستهزئين » نزل جبريل عليه السلام فحنا ظهر الأسود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خالى خالى ، فقال له جبريل : خل عنك ، ثم حناه حتى قتله ، ذكره الدارقطنى .

. . . .

حديث الوليد بن المغيرة فصل : وذكر وفاة الوليد بن المغيرة ، وقوله لبنيه : وعقرى عند أبى أزيهر الدوسى لاتدعوه . العقر : دية الفرج المغصوب ، وأصله فى البكر من أجل التدمية ، ومنه عقر السرج الفرس : إذا أدماه ، وبيضة العقر منه ؛ لأنهم كانوا يقيسون البكر بالبيضة ليعرفوا بكورتها ، وقيل : عقر بضم العين ، لأنه بمعنى بضع .

مقتل أبى أزيهر وموقف دوس : وذكر قتل هشام بن الوليد لأبى أزيهر وخبر أم غيلان مع ضرار حين أجارته ، ومن تمام الخبر : أن دوسا لما بلغها مقتل أبى أزيهر الدوسى ، وثبت على رجال من قريش كانوا عندهم، فقتلوا منهم بجير بن العوام أخا الزبير وأرادوا قتل ضرار بن الخطاب ، فأجارته أم غيلان وابنها عوف ، قال ضرار : لقد أدخلتنى بين درعها وبدنها ، حتى إنى لأجد تسبيد ركبها ، والتسبيد : موضع الحالق من الشعر ، وكان الذى قتل بجيراً صبيح بن سعد أو مليح بن سعد جد أبى هريرة لأمه . لأن أمه أميمة بنت مليح أو صبيح .

تفسير ألفاظ وقعت فى شعر عبد الله بن أبى أمية : فصل : وذكر شعر عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة وفيه :

وأن تتركوا ماء بجزعة أطرقا

والجزعة والجزع بمعنى واحد ، وهو معظم الوادى ، وقال ابن الأعرابى : هو ما انثنى منه ، وأطرقا اسم علم لموضع سمى بفعل الأمر للاثنين ، فهو محكى لايعرب ، وقيل : إن أصل تسميته بذلك أن ثلاثة نفر مروا بها خائفين ، فسمع أحدهم صوتا ، فقال لصاحبيه : أطرقا ، أى : أنصتا ، حتى نرى ماهذا الصوت ، فسمى المكان بأطرقا ، والله أعلم . وذكر شعر الجون بن أبى الجون ، وفيه :

ألم تقسموا تؤتوا الوليد ظلامة

أراد : أن تؤتوا ، ومعناه : ان لاتؤتوا كما جاء فى التنزيل : « يبين الله لكم أن تضلوا » فى قول طائفة ، ومعناه عندى : كره لكم أن تضلوا ، وقد قدمنا فى الجزء قبل هذا كلام على أن ، ومقتضاها وشيئا من أسرارها فيه غنية ، وإذا كان الكلام محمولا على معناها فالنصب جائز ، والرفع جائز أيضا ، كما أنشدوا :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى

بنصب : أحضر ورفعه ، وأنشد سيبويه :

ونهنهت نفسى بعدما كدت أفعله

يريد : أن أفعله ، وإذا رفعت فى هذا الموضع لم يذهب الرفع معنى أن فقد حكى سيبويه : مره يحفرها ، وقدره تقديرين ، أحدهما : أن يريد الحال أى : مره حافراً لها ، والثانى : أن يريد : مره أن يحفرها ، وارتفع الفعل لما ذهبت أن من اللفظ ، وبين ابن جنى الفرق بين التقديرين ، وقال : إذا نويت أن فالفعل مستقبل ، وإذا لم تنوها فالفعل حاضر ، وههنا مسألة من العرب ذكرها الطبرى ، قال : العرب تقول لمن توجه فى أمر : تصنع ماذا وتفعل ماذا ؟ على تقدير : تريد أن تصنع ماذا ، فإذا قالوا : تريد ماذا لم يكن إلا رفعا ، لأن المعنى الذى يجلب معنى أن الناصبة ليس فى قوله : تريد ، إذ لايستقيم أن تقول : تريد أن تريد ماذا ، يعنى : أن الإرادة لاتراد .

شرح شعر الجون : وذكر شعر الجون أيضا ، وفيه :

بها يمشى المعلهج والمهير

المهير : ابن المهورة الحرة ، والمعلهج : المتردد فى الإماء كأنه منحوت من أصلين : من العلج لأن الأمة : علجة ، ومن اللهج ، كأن واطىء الأمة قد لهج بها ، فنحت لفظ المعلهج من هذين اللفظين .

وفيـــه :

كما أرمى بمثبته ثبير

كذا صحت الرواية فى أرمى بالتخفيف وهو زحاف داخل على زحاف ، لأن تسكين اللام من مفاعلتن فى الوافر زحاف، ولكنه حسن كثير ،فلما كثر شبهه هذا الشاعر بمفاعيل ، لأنه على وزنه ، ومفاعيلن يحسن حذف الياء منها فى الطويل ، فيصير فعولن مفاعلن فلذلك أدخل هذا الشاعر الزحاف على مفاعلتن لأنه بعد السكون فى وزن مفاعيلن التى تحذف ياؤها حذفا مستحسنا ، فتدبره ، فإنه مليح فى علم العروض .

شرح شعر حسان : فصل : وأنشد لحسان بن ثابت :

غدا أهل ضوجى ذى المجاز بسحرة

ضوج الوادى : جانبه ، وذو المجاز : سوق عند عرفة كانت العرب إذا حجت أقامت بسوق عكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج ، وكانوا يتفاخرون فى سوق عكاظ شهر شوال إذا اجتمعوا ، ويقال : عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخر ، فسميت عكاظ لذلك .

وذكر :

لبل نعال القوم معتبط ورد

يعنى : الدم العبيط [الطرى]

ما أنزل الله فى الربا: فصل : وذكر ما أنزل الله فى الربا الآيات من سورة البقرة ، وقد قدمنا فى حديث بنيان الكعبة من قولهم : لاتنفقوا فيها ربا ولا مهر بغى ، وأن فى ذلك دليلا على قدم تحريمه عليهم فى شرع إبراهيم عليه السلام ، أو فى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك أنه من أقبح الأعمال لما فيه من هدم جانب المروءة ، وإيثار الحرص مع بعد الأمل ، ونسيان بغتة الأجل ، وترك التوسعة وحسن المعاملة ، ومن تأمل أبواب الربا لاح له سر التحريم من جهة الجشع المانع من حسن المعاشرة والذريعة إلى ترك القرض ، وما فيه ، وفى التوسعة من مكارم الأخلاق ، ولذلك قال سبحانه . « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » : غضبا منه على أهله ، ولهذه النكتة قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم : أبلغى زيدا تعنى زيد بن أرقم أن قد أبطل جهاده مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين ذكرت لها عنه مسألة من البيوع تشبه الربا ،

فقالت : أبطل جهاده ، ولم تقل صلاته ولا صيامه ، لأن السيئات لاتحبط الحسنات ولكن خصت الجهاد بالإبطال، لأنه حرب لأعداء الله وآكل الربا قد أذن بحرب من الله ، فهو ضده ، ولايجتمع الضدان. وهذا معنى ذكره أبو الحسن بن بطال فى شرح الجامع ، وتلك المسألة مذكورة فى المدونة ، لكن إسنادها إلى عائشة ضعيف.

وفاة ابى طالب ووصيته

ذكر ابن إسحاق وفاة أبى طالب إلى آخر القصة ، وفيها قال العباس : والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته بها فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :لم أسمع .

قال المؤلف . شهادة العباس لأبى طالب لو أداها بعد ما أسلم ، لكانت مقبولة ، ولم يرد بقوله لم أسمع، لأن الشاهد العدل إذا قال : سمعت وقال من هو أعدل منه : لم أسمع أخذ بقول من أثبت السماع لأن عدم السماع يحتمل أسبابا منعت الشاهد من السمع ، ولكن العباس شهد بذلك قبل أن يسلم مع أن الصحيح من الأثر، قد أثبت لأبى طالب الوفاة على الكفر والشرك وأثبت نزول هذه الآية فيه : « ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين »وثبت فى الصحيح أيضا أن العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، ويغضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال : « نعم وجدته فى غمرات من النار ، فأخرجته إلى ضحضاح » وفى الصحيح أيضا من طريق أبى سعيد ، أنه ـ عليه السلام ـ قال : «لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » وفى رواية أخرى : كما يغلى المرجل بالقمقم ، وهى مشكلة ، وقال بعض أهل العلم : القمقم : هو البسر الأخضر يطبخ فى المرجل استعجالا لنضجه ، يفعل ذلك أهل الحاجة ؛ وفى رواية يونس عن ابن إسحاق زيادة وهى أنه قال : يغلى منها دماغه حتى يسيل على قدميه ؛ ومن باب النظر فى حكمة الله ، ومشاكلة الجزاء للعمل أن أبا طالب كان مع رسول الله بجملته متحزبا له إلا أنه مثبت لقدميه على ملة عبد المطلب، حتى قال عند الموت : أنا على ملة عبد المطلب فسلط العذاب على قدميه خاصة لتثبيته إياهما على ملة آبائه ، ثبتنا الله على الصراط المستقيم .

وذكر قول الله تعالى: « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» وقد استغفر عليه السلام يوم أحد فقال اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لايعلمون ، وذلك حين جرح المشركون وجهه وقتلوا عمه . وكثيرا من أصحابه، ولا يصح أن تكون الآية نزلت فى عمه ناسخة لاستغفاره يوم أحد ، لأن وفاة عمه كانت قبل ذلك بمكة ، ولا ينسخ المتقدم المتأخر ، وقد أجيب عن هذا السؤال بأجوبة : أن قيل : استغفاره لقومه مشروط بتوبتهم من الشرك ، كأنه أراد الدعاء لهم بالتوبة حتى يغفر لهم ويقوى هذا القول رواية من روى : اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون وقد ذكرها ابن إسحاق ، رواها عنه بعض رواة الكتاب بهذ اللفظ ، وقيل مغفرة تصرف عنهم عقوبة الدنيا من المسخ والخسف، ونحو ذلك ، ووجه ثالث، وهو أن تكون الآية تأخر نزولها فنزلت بالمدينة ناسخة للاستغفار للمشركين ، فيكون سبب نزولها متقدما، ونزولها متأخراً ، لاسيما وهى فى سورة براءة وبراءة ، من آخر مانزل ، فتكون على هذا ناسخة للاستغفارين جميعا ، وفى الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل على أبى طالب عند موته ، وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبى أمية ، فقال : ياعم قل : لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال له أبو جهل وابن أبى أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب ، فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، وظاهر الحديث يقتضى أن عبد المطلب مات على الشرك ، ووجدت فى بعض كتب المسعودى

. . . .

اختلافا فى عبد المطلب ، وأنه قد قال فيه : مات مسلما لما رأى من الدلائل على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلم أنه لا يبعث إلا بالتوحيد ، فالله أعلم، غير أن فى مسند البزار،وفى كتاب النسوى من حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لفاطمة ، وقد عزت قوما من الأنصار عن ميتهم : لعلك بلغت معهم الكدى ، ويروى الكرى بالراء ، يعنى : القبور فقالت : لا ، فقال : لو كنت معهم الكدى أو كما قال ، مارأيت الجنة ، حتى يراها جد أبيك ، وقد أخرجه أبو داود ، ولم يذكر فيه حتى يدخلها جد أبيك ، كذلك لم يذكر فيه : مادخلت الجنة ، وفى قوله : جد أبيك ، ولم يقل : جدك يعنى : أباه توطئة للحديث الضعيف الذى قدمنا ذكره أن الله أحيا أمه وأباه ،وآمنا به ،فالله أعلم ، ويحتمل أن يكون أراد تخويفها بقوله، حتى يدخلها جد أبيك فتتوهم أنه الجد الكافر ، ومن جدوده عليه السلام : إسماعيل وإبراهيم ، لأن قوله عليه السلام حق ، وبلوغها معهم الكدى لا يوجب خلودا فى النار فهذا من لطيف الكناية فافهمه ، وحكى عن هشام بن السائب أو ابنه أنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش ، فأوصاهم، فقال : يامعشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلكم على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حزب ، وعلى حربكم ألب ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية [الكعبة] ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش،وثباتا للوطأة ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها،فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل ، وسعة فى العدد، واتركوا البغى والعقوق ، ففيهما هلكة القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والممات ، عليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب،وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ، وإذا أعظمهم عليه ، أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادها ، دونكم يامعشر قريش ابن أبيكم ،كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، ولأجلى تأخير ؛ لكففت عنه الهزاهز ، ولدافعت عنه الدواهى ، ثم هلك .

تفسير المشى فى سورة ص : فصل : وذكر ماأنزل الله تعالى فى قولهم : « أن امشوا ، واصبروا على آلهتكم » وذكر بعض أهل التفسير أن قولهم : امشوا من المشاء ، لا من المشى والمشاء : نماء المال وزيادته ، يقال مشى الرجل ؛ وأمشى : إذا نما ماله قال الشاعر :

وكل فتى وإن أمشى وأثرى ستخلجه عن الدنيا منون

وقال الراجز :

والشاة لاتمشى على الهملع

الرسول يسعى إلى الطائف وموقف ثقيف منه

قال ابن إسحاق : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ماجاءهم به من الله عز وجل فخرج إليهم وحده .

قال ابن إسحاق : فحدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وعمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بماجاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ؛ وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً . لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله، ماينبغى لى أن أكلمك فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم ـ فيما ذكر لى ـ : إذا فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم ذلك عليه . قال ابن هشام قال عبيد بن الأبرص :

ولقد أتانى عن تميم أنهم ذئروا لقتلى عامر وتعصبوا

فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعه ينظران إليه ، ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكر لى ـ المرأة التى من بنى جمح ، فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك ؟

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فيما ، ذكر لى : اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟

أى : لاتكثر ، والهملع : الذئب ، وقاله الخطابى فى معنى الآية ، كأنهم أرادوا أن المشاء والبركة فى صبرهم على آلهتهم ، وحملها على المشى أظهر فى اللغة ، والله أعلم .

تتابع المصائب بموت خديجة وأبى طالب: وذكر تتابع المصائب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بموت خديجة ثم بموت عمه ، وذكر الزبير فى حديث أسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة ، وهى فى الموت ، فقال : تكرهين ماأرى منك ياخديجة ، وقد يجعل الله فى الكره خيرا أشعرت أن الله قد أعلمنى أنه سيزوجنى معك فى الجنة مريم ابنة عمران ، وكلثوم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون فقالت . آلله أعلمك بهذا يا رسول الله ؟ فقال : نعم ، فقالت : بالرفاء والبنين ، وذكر أيضاً فى الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أطعم خديجة من عنب الجنة ؟ .

أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

قال : فلما رآه ابنا ربيعة ، عتبة وشيبة ، وما لقى ، تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا ، يقال له عداس فقالا له : خذ قطفا من العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال له كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصرانى وانا رجل من اهل نينوى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى ، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما عداس ، قالا له : ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى ، قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

وفد جن نصيبين : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعا إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم - فيما ذكر لى - سبعة من جن أهل نصيبين فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل « وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله تعالى : « ويجركم من عذب أليم » وقال تبارك وتعالى : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل : قال ابن إسحاق : ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ، ممن آمن به . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم ، إذا كانت ، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به .

قال ابن إسحاق : فحدثنى من أصحابنا ، من لا أتهم ، عن زيد بن أسلم عن ربيعة بن عباد الديلى أو من حدثه أبو الزناد عنه - قال ابن هشام : ربيعة بن عباد .

قال ابن إسحاق : وحدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، قال : سمعت ربيعة بن عباد ، يحدثه أبى ، قال : إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى ، حتى أبين عن الله ما بعثنى به . قال : وخلفه رجل

أحول وضىء ، له غديرتان عليه حلة عدنية ،فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله، وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يابنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش ، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولاتسمعوا منه .

قال : فقلت لأبى : ياأبت ، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبولهب :

قال ابن هشام : قال النابغة :

كأنك من جمال بنى أقيش ... يقعقع خلف رجليه بشن

قال ابن إسحاق : حدثنا ابن شهاب الزهرى : أنه أتى كندة فى منازلهم ، وفيهم سيد لهم يقال له : مليح ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين : أنه أتى كلبا فى منازلهم ، إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يابنى عبد الله ، إن الله عز وجل قدأحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ماعرض عليهم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى أنه أتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم - يقال له : بيحرة بن فراس . قال ابن هشام:فراس بن عبد الله بن سلمة بن قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر بعدك؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، قال : فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لاحاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السن ، حتى لايقدر أن يوافى معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا . قال :فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذناباها من مطلب ، والذى نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلى قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟!

عرض نفسه فى المواسم . قال ابن إسحاق : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ماعنده .

حديث سويد بن صامت . قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ، ثم الظفري عن أشياخ من قومه قالوا :

قدم سويد بن صامت ، أخو بني عمرو بن عوف ، مكة حاجا أو معتمرا ، وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم : الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، وهو الذي يقول :

ألا رب من تدعو صديقا ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يفري
مقالته كالشهد ما كان شاهدا ... وبالغيب مأثور على ثغرة النحر
يسرك باديه وتحت أديمه ... نميمة غش تبتري عقب الظهر
تبين لك العينان ما هو كاتم ... من الغل والبغضاء بالنظر الشزر
فرشني بخير طالما قد بريتني ... وخير الموالي من يريش ولا يبري

وهو الذي يقول : ونافر رجلا من بني سليم ، ثم أحد بني زعب بن مالك مائة ناقة ، إلى كاهنة من كهان العرب ، فقضت له فانصرف عنها هو والسلمي ليس معهما غيرهما ، فلما فرقت بينهما الطريق ، قال : مالي ، يا أخا بني سليم قال : أبعث إليك به ، قال : فمن لي بذلك إذا فتني به ؟ قال : أنا ، قال : كلا ، والذي نفس سويد بيده ، لاتفارقني حتى أوتى بمالي ، فاتخذا فضرب به الأرض ، ثم أوثقه رباطا ثم انطلق به إلى دار بني عمرو بن عوف ، فلم يزل عنده حتى بعثت إليه سليم بالذي له ، فقال في ذلك :

لا تحسبني يا بن زعب بن مالك ... كمن كنت تردي بالغيوب وتختل
تحولت قرنا إذ صرعت بعزة ... كذلك إن الحازم المتحول
ضربت به إبط الشمال فلم يزل ... على كل حال خده هو أسفل

في أشعار كثيرة كان يقولها .

فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها علي فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى علي ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم . وكان قتله قبل يوم بعاث .

إسلام إياس بن معاذ وقصة أبي الحيسر

قال ابن إسحاق : وحدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد ، قال : لما قدم أبو الحيسر ، أنس بن رافع ، مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : هل

لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وماذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب. قال : ثم ذكر لهم الإسلام ،وتلا عليهم القرآن . قال : فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاما حدثا : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له.قال : فيأخذ أبو الحيسر ، أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنامنك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . قال : فصمت إياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الاوس والخزرج .

قال : ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . قال محمود بن لبيد : فأخبرنى من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلما ، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ماسمع .

اسلام الأنصار

قال ابن إسحاق : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الانصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أشياخ من قومه ، قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قدتركنا قومنا،ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا .

اسماء من التقوا به صلى الله عليه وسلم من الخزرج : قال ابن إسحاق : وهم ـ فيما ذكر لى : ستة نفر من الخزرج ، منهم من بنى النجار ـ وهو تيم الله ـ ثم من بنى مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن عمرو بن عامر : أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن مالك بن النجـــار ، وهو أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار ، وهو ابن عفراء .

قال ابن هشام : وعفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار .

قال ابن إسحاق : ومن بنى زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج : رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق .

قال ابن هشام : ويقال عامر بن الأزرق .

قال ابن إسحاق . ومن بنى سلمة بن سعد بن على بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج ، ثم من بنى سواد ابن كعب بن سلمة : قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد .

قال ابن هشام : عمرو بن سواد ، وليس لسواد ابن يقال له : غنم

قال ابن إسحاق . ومن بنى حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة : عقبة بن عامر بن زيد بن حرام .

ومن بنى عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة : جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان ابن عبيد .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

وسنذكر السبب فى تسميتها بالطائف ، وأن الدمون رجل من الصدف من حضرموت نزلها ، فقال لأهلها . ألا أبنى لكم حائطا يطيف ببلدتكم فبناه ، فسميت : الطائف ، وقيل غير ذلك مما سنذكره .

وقوله : فيذئرها عليه ، قد فسره ابن هشام ، وأنشد :

ذئروا لقتلى عامر وتعصبوا

وفى الحديث لما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب النساء قال ذئر النساء على أزواجهن ، وفسره أبو عبيد بالنشوز على الأزواج ، وأنشد البيت الذى أنشده ابن هشام ، ومعنى كلامهما واحد .

وذكر ما لقى من أشراف ثقيف ، وذكر موسى بن عقبة زيادة فى الحديث حين أغروا به سفهاءهم ، قال : وكان يمشى بين سماطين منهم ، فكلما نقلوا قدما ، رجموا عراقيبه بالحجارة ، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وذكر التيمى كما ذكر ابن عقبة ، وزاد قال : كان إذا أذلقته الحجارة ، قعد إلى الأرض ، فيأخذون بعضديه ، فيقيمونه فإذا مشى رجموه ، وهم يضحكون حتى انتهى إلى الموضع الذى ذكره ابن إسحاق من حائط عتبة وشيبة .

قال ابن إسحاق : فجلس إلى ظل حبلة ، والحبلة الكرمة ، اشتق اسمها من الحبل ، لأنها تحمل بالعنب ، ولذلك فتح حمل الشجرة والنخلة ، فقيل : حمل بفتح الحاء تشبيها بحمل المرأة ، وقد يقال فيه : حمل بالكسر تشبيها بالحمل الذى على الظهر ، ومن قال فى الكرمة حبلة بسكون الباء ، فليس بالمعروف ، وقد قال أبو الحسن بن كيسان

. . . .

فى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن بيع حبل الحبلة ، إنه بيع العنب قبل أن يطيب ، كما جاء فى الحديث الآخر من نهيه عن بيع التمر قبل أن يبدو صلاحه وهو قول غريب لم يذهب إليه أحد فى تأويل الحديث ، وقد قال عمر بن الخطاب فى الأرضين التى افتتحت فى زمانه - وقد قيل له : قسمها على الذين افتتحوها - فقال : والله لأدعنها حتى يجاهد بها حبل الحبلة ، يريد : أولادها فى البطون . ذكره أبو عبيد فى كتاب الأموال ، والقول الذى ذكره أبو الحسن فى حبل الحبلة وقع فى كتاب الألفاظ ليعقوب وإنما أشكل عليه وعلى غيره دخول الهاء فى الحبلة ، حتى قالوا فيه أقوالا كلها هباء ، فمنهم من قال : إنما قال الحبلة لأنها بهيمة أو جنينة ، ومنهم من قال : دخلت للجماعة، ومنهم من قال : للمبالغة ، وهذا كله ينعكس عليهم بقوله : حبل الحبلة ، فانه لم تدخل التاء إلا فى أحد اللفظين دون الثانى ، وتبطل أيضاً على من قال أراد : معنى البهيمة بحديث عمر المتقدم ، وإنما النكتة فى ذلك أن الحبل مادام حبلا لا يدرى : أذكر هو أم أنثى ، لم يسم حبلا ، فاذا كانت أنثى ، وبلغت حد الحمل ، فحبلت فذاك الحبل هو الذى نهى عن بيعه ، والأول قد علمت أنوثته بعد الولادة ، فعبر عنه بالحبلة ، وصار معنى الكلام أنه نهى عن بيع حبل الجنينة التى كانت حبلا لا يعرف ماهى ، ثم عرف بعد الوضع ، وكذلك فى الآدميين ، فاذاً لا يقال لها : حبلة إلا بعد المعرفة بأنها أنثى ، وعند ذكر الحبل الثانى لان هذه أنثى قبل أن تحبل ، وهى صغيرة :رخلى ، وتسمى أيضا حائلا وأشباه ذلك ، وقد زال عنها اسم الحبل فإذا حبلت ، وذكر حبلها وازدوج ذكره مع الحالة الأولى التى كانت فيها حبلا فرق بين اللفظين بتاء التأنيث ، وخص اللفظ الذى هو عبارة عن الأنثى بالتاء دون اللفظ الذى لا يدرى ماهو : أذكر أم أنثى ، وقد كان المعنى قريبا والمأخذ سهلا لا يحتاج إلى هذه الإطالة لولا ما قدمناه من تخليطهم فى تأويل هذا الكلام الفصيح البليغ الذى لا يقدر قدره فى البلاغة إلا عالم بجوهر الكلام .

وجه الله : وذكر دعاءه - عليه السلام - عند الشدة ، وقوله:اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى إلى آخر الدعاء ، وفيه : أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ويسأل عن النور هنا ، ومعنى الوجه ، وإشراق الظلمات ، أما الوجه إذا جاء ذكره فى الكتاب والسنة ، فهو ينقسم فى الذكر الى موطنين: موطن تقرب واسترضاء بعمل ، كقوله تعالى : « يريدون وجهه » وكقوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» فالمطلوب فى هذا الموطن : رضاه وقبوله للعمل ، وإقباله على العبد العامل ، وأصله أن من رضى عنك ، أقبل عليك ، ومن غضب عليك أعرض عنك ، ولم يرك وجهه ، فأفاد قوله : بوجهك هاهنا معنى الرضى والقبول ، والإقبال ، وليس بصله فى الكلام كما قال أبو عبيدة لأن قوله ذلك هراء من القول ، ومعنى الصلة عنده : أنها كلمة لا تفيد الا تأكيداً للكلام ، وهذا قول من غلظ طبعه وبعد بالعجمة عن فهم البلاغة قلبه وكذلك قال هو ومن قلده فى قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك » أى يبقى ربك ، وكل شىء هالك إلا وجهه،أى : إياه ، فعلى هذا قد خلا ذكر الوجه من حكمة ، وكيف تخلو كلمة منه من الحكمة ، وهو الكتاب الحكيم ، ولكن هذا هو الموطن الثانى من مواطن ذكر الوجه، والمعنى به ماظهر إلى القلوب والبصائر من أوصاف جلاله ومجده ، والوجه لغة ماظهر من الشىء معقولا كان أو محسوسا ، تقول : هذا وجه المسألة ،ووجه الحديث ، أى : الظاهر إلى رأيك منه ، وكذلك الثوب ماظهر إلى بصرك منه ، والبصائر لا تحيط بأوصاف جلاله ،ومايظر لها من ذلك أقل مما يغيب عنها ، وهو الظاهر والباطن - تعالى وجل - وكذلك فى الجنة نظر أهلها إلى وجهه سبحانه إنما هو نظر إلى مايرون من ظاهر جلاله إليهم عند تجليه ، ورفع الحجاب دونهم ، ومالا يدركون من ذلك أكثر مما أدركوا .

. . . .

وقوله سبحانه « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » لما كانت السموات والأرض، قد أظهرت من قدرته وسلطانه ، ما أظهرت ،أخبر تعالى أن فناءها لا يغير ما علم من سلطانه وظهر إلى البصائر من جلاله ، فقد كان ذلك الجلال قبل أن يخلقها ، وهو باق بعد فنائها كما كان فى القدم ، فهو ذو الجلال والإكرام ، قال الحسن : معناه: تجالل بالبهاء وأكرم من شاء بالنظر إلى وجهه أما الأشعرى فذهب فى معنى الوجه إلى ماذهب فيه من معنى العين واليد وأنها صفات لله تعالى لم تعلم من جهة العقول ، ولا من جهة الشرع المنقول ، وهذه عجمة أيضاً فإنه نزل بلسان عربى مبين ، فقد فهمته العرب لما نزل بلسانها ، وليس فى لغتها أن الوجه صفة ولا إشكال على المؤمن منهم ،ولا على الكافر فى معنى هذه الآى التى احتيج آخر الزمان إلى الكلام فيها مع العجمان،لأن المؤمن لم يخش على عقيدته شكا ولا تشبيها ، فلم يستفسر أحد منهم رسول الله عليه السلام ، ولا سأله عن هذه الآية التى هى اليوم مشكلة عند عوام الناس ، ولا الكافر فى ذلك الزمان لم يتعلق بها فى معرض المناقضة والمجادلة ، كما فعلوا فى قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » ولا قال أحد منهم : يزعم محمد أن الله مايشبهه شىء من خلقه ، ثم يثبت له وجها ويدين إلى غير ذلك فدل على أنهم لم يروا فى الآية إشكالا ، وتلقوا معانيها على غير التشبيه ، وعرفوا من سماتة الكلام ، وملاحة الاستعارة أنه معجز ، فلم يتعاطوا له معارضة ، ولا توهموا فيه مناقضة ، وقد أملينا فى معنى اليدين والعين مسألة بديعة جدا ، فلتنظر هنالك .

وأما النور فعبارة عن الظهور وانكشاف الحقائق الإلهية ، وبه أشرقت الظلمات ، أى أشرقت محالها وهى القلوب التى كانت فيها ظلمات الجهالة والشكوك ، فاستنارت القلوب بنور الله ، وقد قال المفسرون فى قوله تعالى : « مثل نوره»أى : مثل نوره فى قلب المؤمن كمشكاة ، فهو إذاً نور الإيمان والمعرفة ، المجلى لكل ظلمة وشك ، قال كعب : المشكاة مثل لفهمه ، والمصباح مثل للسانه ، والزجاجة : مثل لصدره ، أو لقلبه أى قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال أعوذ بنور وجهك ، ولو قال : بنورك لحسن ، ولكن توسل إليه بما أودع قلبه من نوره ، فتوسل إلى نعمته بنعمته وإلى فضله ورحمته، بفضله ورحمته وقد تكون الظلمات ها هنا أيضاً الظلمات المحسوسة وإشراقها جلالتها على خالقها ، كذلك الأنوار المحسوسة ، الكل دال عليه فهو نور النور ، أى:مظهر منور الظلمات، أى جاعلها نوراً فى حكم الدلالة عليه سبحانه وتعالى .

عداس غلام ابنى ربيعة : فصل : وذكر خبر عداس غلام عتبة وشيبة ابنى ربيعة حين جاء بالقطف من عندهما إلى آخر القصة ، وفيه قبول هدية المشرك ، وأن لايتورع عن طعامه ، وسيأتى استقصاء ذلك إن شاء الله تعالى ، وزاد التيمى فيها أن عداساً حين سمعه يذكر يونس بن متى قال : والله لقد خرجت منها يعنى : نينوى ، وما فيها عشرة يعرفون : ما متى ، فمن أين عرفت أنت متى ، وأنت أمى ، وفى أمة أمية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو أخى ، كان نبيا ، وأنا نبى ، وذكروا أيضاً أن عداساً لما أراد سيداه الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال لهما أقتال ذلك الرجل الذى رأيته بحائطكما تريدان ، والله ماتقوم له الجبال ،فقالا له:ويحك ياعداس قد سحرك بلسانه ، وعند مالقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل الطائف ، مالقى ، ودعا بالدعاء المتقدم نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال كما روى البخارى عن عبد الله بن يوسف ، عن يونس ، عن ابن شهاب قال : حدثنى عروة أن عائشة زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثته أنها قالت للنبى عليه السلام : هل أتى عليك يوم

. . . .

كان أشد عليك من أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت على وجهى ، وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال ، فسلم على فقال : يامحمد ذلك لك ، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً . هكذا قال فى الحديث : ابن عبد كلال ، وهو خلاف مانسبه ابن إسحاق .

وفد جن نصيبين : وذكر حديث وفد جن نصيبين ، وماأنزل الله فيهم ، وقد أملينا أول المبعثين من هذا الكتاب طرفا من أخبارهم وبينا هنالك أسماءهم ، ونصيبين مدينة بالشام أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم روى أنه قال : رفعت إلى نصيبين حتى رأيتها فدعوت الله أن يعذب نهرها . وينضر شجرها ، ويطيب ثمرها أو قال : ويكثر ثمرها ، وتقدم فى أسمائهم ماذكره ابن دريد قال : هم منشى وماشى وصاصر وماصر والأحقب ، ولم يزد على تسمية هؤلاء ، وقد ذكرنا تمام أسمائهم فيما تقدم ، وفى الصحيح أن الذى أذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجن ليلة الجن شجرة ، وأنهم سألوه الزاد . فقال : كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى يد أحدهم أوفر مايكون لحماً ، وكل بعر علف لدوابهم . زاد ابن سلام فى تفسيره أن البعر يعود خضراً لدوابهم ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يستنجى بالعظم والروث ، وقال : إنه زاد إخوانكم من الجن ، ولفظ الحديث فى كتاب مسلم كما قدمناه : « كل عظم ذكر اسم الله عليه » ، ولفظه فى كتاب أبى داود : « كل عظم لم يذكر اسم الله عليه » ، وأكثر الأحاديث تدل على رواية أبى داود ، وقال بعض العلماء رواية مسلم فى الجن المؤمنين ، والرواية الأخرى فى حق الشياطين منهم ، وهذا قول صحيح تعضده الأحاديث إلا أنا نكره الإطالة ، وفى هذا رد على من زعم أن الجن لايأكل ولايشرب ، وتأولوا قوله ـ عليه السلام إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله على غير ظاهره وهم ثلاثة أصناف كما جاء فى حديث آخر : صنف على صور الحيات ، وصنف على صور الكلاب سود وصنف ريح طيارة او قال : هفافة ذوو اجنحة ، وزاد بعض الرواة فى الحديث : وصنف يحلون ويظعنون ، وهم السعالى ، ولعل هذا الصنف الطيار هو الذى لايأكل ولايشرب إن صح القول المتقدم والله اعلم . وروينا فى حديث سمعته يقرأ على الشيخ الحافظ ابى بكر بن العربى بسنده الى جابر بن عبد الله ، قال : بينا انا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نمشى اذ جاءت حية ، فقامت الى جنبه ، وأدنت فاها من أذنه ، وكانت تناجيه ، أو نحو هذا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم فانصرفت ، قال جابر : فسألته ، فاخبرنى : أنه رجل من الجن ، وأنه قال له : مر أمتك لايستنجوا بالروث ، ولا بالرمة ، فإن الله جعل لنا فى ذلك رزقا .

عرض نفسه على القبائل : فصل : وذكر عرضه نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على القبائل ، ليؤمنوا به ، ولينصروه قبيلة قبيلة ، فذكر بنى حنيفة ، واسم حنيفة : أثال بن لجيم ، ولجيم : تصغير اللجم ، وهى دويبة ، قال قطرب ، وأنشد :

لها ذنب مثل ذيل العروس إلى سبة مثل جحر اللجم

ابن صعب بن على بن بكر بن وائل ، وسمى حنيفة لحنف كان فى رجليه ، وقيل : بل حنيفة أمهم ، وهى بنت

كاهل بن أسد عرفوا بها ، وهم أهل اليمامة ، وأصحاب مسيلمة الكذاب ، وقد أملينا فى أول الكتاب سبب نزولهم اليمامة وأول من نزلها منهم .

وذكر بيحرة بن فراس العامرى ، وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفنهدف نحورنا للعرب دونك نهدف أى : نجعلها هدفا لسهامهم ، والهدف : الغرض .

وذكر قول الشيخ : هل لها من تلاف ، أى : تدارك ، وهو تفاعل من : تلافيتهم ، وهل لذناباها من مطلب : مثل ضرب لما فاته منها ، وأصله : من ذنابى الطائر : اذا أفلت من الحبالة ، فطلبت الأخذ بذناباه ، وقاله : ماتقولها إسماعيلى قط أى : ماادعى النبوة كاذبا أحد من بنى اسماعيل

فصل . وذكر عرضه نفسه على كندة ، وهم بنو ثور بن مرة بن أدد بن زيد بن ميسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ على أحد الأقوال بين النسابين فى كندة وسمى كندة لأنه كند أباه ، أى عقه وسمى ابنه مرتعاً لأنه كان يجعل لمن أتاه من قومه مرتعاً ، فهم بنو مرتع بن ثور ، وقيل ان ثوراً هو مرتع ، وكندة أبوه .

فصل : وذكر غير ابن اسحاق مالم يذكر ابن اسحاق مما رأيت املاء بعضه فى هذا الكتاب تتمة لفائدته . ذكر قاسم بن ثابت والخطابى عرضه نفسه على بنى ذهل بن ثعلبة ، ثم على بنى شيبان بن ثعلبة ، فذكر الخطابى وقاسم جميعا ما كان كلام أبى بكر مع دغفل بن حنظلة الذهلى زاد قاسم تكملة الحديث فرأينا ان نذكر زيادة قاسم ، فإنها مما تليق بهذا الكتاب قال : ثم دفعنا الى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار ، فتقدم ابو بكر ، فسلم قال على : وكان ابو بكر مقدما فى كل خير ، فقال ممن القوم فقالوا ، من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت ابو بكر الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى انت وأمى ، هؤلاء غرر فى قومهم ، وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء ابن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ؛ وكان مفروق بن عمر قد غلبهم جمالا ولساناً وكانت له غديرتان تسقطان على تريبتيه [1] ، وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر ، فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ قال له مفروق إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب ألف من قلة فقال أبو بكر : كيف المنعة فيكم ؟ فقال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد ، فقال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً لحين نلقى ، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يديلنا مرة ويديل علينا ، لعلك أخو قريش ؟ فقال أبو بكر أو قد بلغكم أنه رسول الله ، فهاهو ذا فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، فإلى ما تدعو إليه يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنى رسول الله ، وإلى أن تؤوونى ، وتنصرونى ، فإن قريشا قد ظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد ، فقال مفروق : وإلى ما تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

---

(١) عظام صدره .

. . . .

فقال مفروق : وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، والله لقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وكأنه أراد أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة ، فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا ، وصاحب ديننا ، فقال هانىء : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة وإنما تكون الزلة من العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى ، فقال : وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا ، فقال المثنى قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب : هو جواب هانىء بن قبيصة فى تركنا ديننا ، واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، وإنا إنما نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ماهذان الصريان ؟ فقال أنهار كسرى ، ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى ، فذنب صاحبيه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب ، فذنبه مغفور وعذره مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثا ، وإنى أرى هذا الأمر الذى يدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب ، فعلنا فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماأسأتم فى الرد ، إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ، فقال النعمان بن شريك . اللهم لك ذا ، فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ثم نهض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ بيدى ، فقال : يا أبا بكر يا أبا حسن أية أخلاق فى الجاهلية ، ما أشرفها بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض ، وبها يتحاجزون فيما بينهم قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، فما نهضنا حتى بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا صدقاء صبراء ، وروى فى حديث مسند إلى طارق ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : رأيته بسوق ذى المجاز يعرض نفسه على القبائل ، يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وخلفه رجل له غديرتان يرجمه بالحجارة ، حتى أدمى كعبيه ، يقول : ياأيها الناس لا تسمعوا منه ، فإنه كذاب ، فسألت عنه ، فقيل : هو غلام عبد المطلب ، قلت ومن الرجل يرجمه ، فقيل لى : هو عمه عبد العزى أبو لهب ، وذكر الحديث بطوله . خرجه الدارقطنى ، ووقع أيضا فى السيرة من رواية يونس .

حديث سويد بن صامت : فصل : ذكر حديث سويد بن صامت وشعره ، وفى الشعر :

وبالغيب مأثور على ثغرة النحر

يعنى السيف ، ومأثور من الأثر وهو : فرند السيف ، ويقال فيه : أثر وإثر . قال الشاعر :

جلاها الصيقلون فأخلصوها خفافاً كلها يتقى بأثر

أراد : يتقى ، وسويد هو : الكامل ، وهو ابن الصلت بن حوط بن حبيب بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس وأمه ليلى بنت عمرو النجارية أخت سلمى بنت عمرو بن غنم بن عدى بن النجار أم عبد المطلب بن هاشم

. . . .

فسويد هذا ابن خالة عبد المطلب ، وبنت سويد هي أم عاتكة أخت سعيد بن زيد بن نفيل امرأة عمر بن الخطاب فهو جدها لأمها واسم أمها : زينب وقيل جليسة بنت سويد ، هكذا ذكر الزبير بن أبي بكر .

مجلة لقمان : فصل : وذكر مجلة لقمان ، وهي الصحيفة ، وكأنها مفعلة من الجلال والجلالة ، أما الجلالة فمن صفة المخلوق ، والجلال من صفه الله تعالى ، وقد أجاز بعضهم أن يقال في المخلوق جلال وجلالة وأنشد :

فلا ذا جلال هبنه لجلالة ولا ذا ضياع هن يتركن للفقر

ولقمان كان نوبيا من أهل أيلة وهو لقمان بن عنقاء بن سرور فيما ذكروا وابنه الذي ذكر في القرآن هو ثاران فيما ذكر الزجاج وغيره ، وقد قيل في اسمه غير ذلك ، وليس بلقمان بن عاد الحميري .

قدوم أبي الحيسر : فصل : وذكر قدوم أبي الحيسر أنس بن رافع يطلب الحلف ، وذلك بسبب الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج ، وهي حرب بعاث المذكورة ، ولهم فيها أيام مشهورة هلك فيها كثير من صناديدهم وأشرافهم ، وبعاث اسم أرض بها عرفت .

إسلام الأنصار

ولم يكن الأنصار اسما لهم في الجاهلية ، حتى سماهم الله به في الإسلام ، وهم : بنو الأوس والخزرج ، والخزرج الريح الباردة وقال بعضهم : وهي الجنوب خاصة ، ودخول الألف واللام في الأوس على حد دخولها في التيم جمع : تيمي وهو من باب : رومي وروم ، لأن الاوس هي العطية أو العوض ، ومثل هذا اذا كان علماً لا يدخله الألف واللام ألا ترى أن كل أوس في العرب غير هذا ، فإنه بغير ألف ولام كأوس بن حارثة الطائي وغيره وكذلك ، أوس وأويس : الذئب قال الراجز :

ياليت شعري عنه والأمر عمم مافعل اليوم أويس بالغنم

وأبوهم حارثة بن ثعلبة وهو أيضاً : والد خزاعة على أحد القولين ، وأمهم قيلة بنت كاهل بن عذرة قضاعية ويقال هي بنت جفنة واسمه علبة بن عمرو بن عامر ، وقيل : بنت سبيع بن الهون بن خزيمة بن مدركة ، قاله الزبير بن أبي بكر في كتاب أخبار المدينة .

والأنصار : جمع لأناصر على غير قياس في جمع فاعل ولكن على تقدير حذف الألف من ناصر ، لأنها زائدة ، فالاسم على تقدير حذفها : ثلاثي والثلاثي يجمع على أفعال ، وقد قالوا في نحوه صاحب وأصحاب وشاهد وأشهاد

وذكر قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنفر من الأنصار : أمن موالي يهود أنتم أي من حلفائهم ، والمولى يجمع : الحليف وابن العم والمعتق والمعتق لأنه مفعل من الولاية ، وجاء على وزن مفعل ، لأنه مفزع وملجأ لوليه فجاء على وزن ما هو في معناه .

وذكر النفر القادمين في العام الثاني الذين بايعوه بيعة النساء ، وقد ذكر الله تعالى بيعة النساء في القرآن فقال : « يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا » الآية ، فأراد ببيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال ، وكانت مبايعته

بيعة العقبة الأولى

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب .

منهم من بنى النجار ، ثم بنى مالك بن النجار : أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، وهو أبو أمامة ، وعوف ومعاذ ، ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن النجار ، وهما ابنا عفراء .

ومن بنى زريق بن عامر : رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق ، وذكوان بن عبد قيس ابن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق .

قال ابن هشام : ذكوان ، مهاجرى أنصارى .

ومن بنى عوف بن الخزرج ، ثم من بنى غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، وهم القواقل : عبادة ابن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبه بن غنم ؛ وأبو عبد الرحمن ، وهو يزيد بن ثعلبة بن خزيمة بن أصرم بن عمرو بن عمارة ، من بنى غصينة ، من بلى ، حليف لهم .

قال ابن هشام وإنما قيل لهم : القواقل ، لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل دفعوا له سهما ، وقالوا له قوقل به بيثرب حيث شئت .

قال ابن هشام : القوقلة : ضرب من المشى .

وقال ابن إسحاق : ومن بنى سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج ، ثم من بنى العجلان بن زيد بن غنم بن سالم : العباس بن نضلة بن مالك بن العجلان .

ومن بنى سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج ، ثم من بنى حرام بن كعب بن غنم بن سلمة : عقبة بن عامر بن نابى بن زيد بن حرام .

ومن بنى سواد بن غنم بن كعب بن سلمة : قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن سواد .

للنساء أن يأخذ عليهن العهد والميثاق ، فإذا أقررن بألسنتهن قال : قد بايعتكن ، وما مست يده يد امرأة فى مبايعة كذلك قالت عائشة ، وقد روى أنهن كن يأخذن بيده فى البيعة من فوق ثوب ، وهو قول عامر والشعبى ، ذكره عنه ابن سلام فى تفسيره ، والأول أصح وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن المقرى النقاش فى صفة بيعة النساء وجها ثالثا أورد فيه آثارا ، وهو أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يغمس يده فى إناء وتغمس المرأة يدها فيه عند المبايعة ، فيكون ذلك عقداً للبيعة ، وليس هذا بالمشهور ، ولا هو عند أهل الحديث بالثبت ، غير أن ابن اسحاق أيضاً قد ذكره فى رواية عن يونس عن أبان بن أبى صالح ، وذكر أنساب الذين بايعوه ، وسنعيده فى بيعة العقبة وغزاة بدر ، وهناك يقع التنبيه على ما يحتاج اليه بعون الله .

وشهدها من الأوس بن حارثه بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ثم من بنى عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج ابن مالك بن الأوس : أبو الهيثم بن التيهان ، واسمه مالك .

قال ابن هشام : التيهان : يخفف ويثقل ، كقوله ميت وميت .

ومن بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس : عويم بن ساعدة .

نص البيعة : قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى مرثد بن عبد الله اليزنى ، عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحى ، عن عبادة بن الصامت ، قال كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . فان وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر .

قال ابن إسحاق وذكر ابن شهاب الزهرى ، عن عائذ الله بن عبد الله الخولانى أبى إدريس أن عبادة بن الصامت حدثه أنه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك ، فأخذتم بحده فى الدنيا ، فهو كفارة له ؛ وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر .

الرسول يبعث مصعب بن عمير مع وفد العقبة : قال ابن إسحاق : فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة : مصعب . وكان منزله على أسعد بن زرارة ابن عدس ، أبى أمامة .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن قتادة : أنه كان يصلى بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض .

اول جمعة اقيمت بالمدينة

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، عن أبيه أبى أمامة ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، قال : كنت قائد أبى ، كعب بن مالك ، حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة ، فسمع الأذان بها صلى على أبى أمامة ، أسعد بن زرارة . قال : فمكث حينا على ذلك : لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له قال : فقلت فى نفسى : والله إن هذا بى لعجز ، ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة ؟ قال : فخرجت به فى يوم جمعة كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذان للجمعة صلى عليه واستغفر له . قال : فقلت له : يا أبت مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبى أمامة ؟ قال ، أى بنى ، كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم النبيت ، من حرة بنى بياضة ، يقال له : نقيع الخضمات ، قال قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلا .

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : قال ابن إسحاق : وحدثنى عبيد الله بن معيقب ، وعبد الله ابن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار بنى عبد الأشهل ، ودار بنى ظفر ، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر .

قال ابن هشام : واسم ظفر : كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس ـ قالا : على بئر يقال لها : بئر مرق ، فجلسا فى الحائط ، واجتمع اليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدما ، قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك ، فاصدق الله فيه ، قال مصعب إن يجلس أكلمه . قال : فوقف عليهما متشتما ، فقال ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره قال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقالا : فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا ، قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ! قال كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك قال : فقام سعد مغضبا مبادراً ، تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيداً انما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد ابن زرارة يا أبا أمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة مارمت هذا منى ، أتغشانا فى دارينا بما نكره ـ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أى مصعب ، جاءك والله سيد من وراءه قومه ، ان يتبعك لا يتخلس عنك منهم اثنان . قال : فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره قال سعد . أنصفت ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا ، فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون اذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟ قالا تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين ، قال . فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامداً الى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير .

قال : فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يابنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ؛ قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله .

قالا : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة ، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ، وهم من الأوس ابن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت ، وهو صيفى ، وكان شاعراً لهم قائدا يستمعون منه ويطيعون ، فوقف بهم عن الإسلام ، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، وقال فيما رأى من الإسلام ، وما اختلف الناس فيه من أمره :

أرب النـــاس أشياء ألمت ... يلف الصعب منها بالذلول

أرب الناس أما إذ ضللنـــا ... فيسرنا لمعروف السـبيل

فلولا ربنـــا كنا يهوداً ... وما دين اليهود بذى شكول

ولولا ربنـــا كنا نصارى ... مع الرهبان فى جبل الجليل

ولـكنا خلقنـــا إذ خلقنا ... حنيفاً ديننا عن كل جيل

نسوق الهدى ترسف مذعنات ... مكشفة المناكب فى الجلول

قال ابن هشام : أنشدنى قوله : فلولا ربنا ، وقوله : لولا ربنا ، وقوله : مكشفة المناكب فى الجاول ، رجل من الأنصار ، أو من خزاعة .

امر العقبة الثانية

قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من الأنصار المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ، من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ، والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

البراء بن معرور يصلى إلى الكعبة : قال ابن إسحاق : حدثنى معبد بن كعب بن مالك بن أبى كعب بن القين ، أخو بنى سلمة ، إن أخاه عبد الله بن كعب ، وكان من أعلم الأنصار ، حدثه أن أباه كعبا حدثه ، وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، قال : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور ، سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا ، وخرجنا من المدينة ، قال البراء لنا : يا هؤلاء ، إنى قد رأيت رأيا ، فوالله ما أدرى ، أتوافقوننى عليه ، أم لا ؟ قال : قلنا : وما ذاك ؟ قال قد رأيت أن لا أدع هذه البنية منى بظهر ، يعنى : الكعبة ، وأن أصلى إليها . قال : فقلنا ، والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى

إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . قال : فقال : إنى لمصل إليها قال : فقلنا له : لكنا لانفعل . قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، وصلى إلى الكعبة ، حتى قدمنامكة . قال : وقد كناعبنا عليه ماصنع ، وأبى إلا الإقامة على ذلك . فلما قدمنا مكة قال لى : يابن أخى ، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،حتى نسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه . قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا لانعرفه ، ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلا من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، قال : قال : فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب عمه ؟ قال : قلنا : نعم ـ قال :وقد كنا نعرف العباس ، كان لايزال يقدم علينا تاجراً ـ قال : فإذا دخلتما المسجدفهو الرجل الجالس مع العباس . قال : فدخلنا المسجد فاذا العباس جالس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس :هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ،هذا البراء بن معرور ، سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك . قال : فوالله ماأنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : آلشاعر ؟ قال : نعم . فقال البراء بن معرور : يانبى الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للإسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهرٍ ، فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفس شىء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها . قال : فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى معنا إلى الشام . قال : وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات ، وليس ذلك كما قالوا ، نحن أعلم به منهم .

قال ابن هشام : وقال عون بن أيوب الأنصارى :

ومنا المصلى أول الناس مقبلا على كعبة الرحمن بين المشاعر

يعنى البراء بن معرور . وهذا البيت فى قصيدة له .

إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام

قال ابن إسحاق : حدثنى معبد بن كعب ، أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه أن أباه كعب بن مالك حدثه ، قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة من أوسط أيام التشريق . قال فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ،ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أباجابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ،وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غدا ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة . قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا .

امرأتان فى البيعة

قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ،حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا

امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب ، أم عمارة ، احدى نساء بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى ، احدى نساء بنى سلمة ، وهى أم منيع .

العباس والأنصار

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج ـ قال وكانت العرب انما يسمون هذا الحى من الأنصار ، الخزرج، خزرجها وأوسها ـ : ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ،ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده : قال ، فقلنا له ، قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت .

عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على الأنصار

قال ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، قال، أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال ، فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال ، نعم ، والذى بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر . قال فاعترض القول ، والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا ، وانا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

قال ابن هشام . ويقال : الهدم الهدم : أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

قال كعب : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

اسماء النقباء الاثنى عشر

قال ابن هشام : من الخزرج ـ فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن محمد بن إسحاق المطلبى ـ : أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن مالك بن النجار ، وهو : تيم الله بن ثعلبة عمر بن الخزرج

ابن حارثة ، وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج ابن الحارث بن رواحة ، بن ثعلبـــة بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج ابن الحارث بن الخزرج ، ورج افع بن مالك بن العجلان بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن عضب ابن جشم بن الخزرج، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن أسد بن ساردة تزيد بن الخزرج ، وعبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة ابن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج ، وعبادة بن الصامت بن قيس بن فهر بن ثعلبة ابن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج .

قال ابن هشام : هو غنم بن عوف ، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج :

قال ابن إسحاق : وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج ، والمنذر بن عمرو بن خنيس حارثة بن لوذان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرن ـ قال بن هشام : ويقال : بن خنيس .

النقباء من الأوس

ومن الأوس أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم ابن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة ، وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب ابن النحاط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم بن امرىء القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة ، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس .

شعر كعب بن مالك فى النقباء

قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة .وقال كعب بن مالك يذكرهم، فيما أنشدنى أبو زيد الأنصارى :

أبلغ أبيا أنه قال رأيه ... وحان غداة الشعب والحين واقع
أبى الله ما منتك نفسك إنه ... بمرصاد أمر الناس راء وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد قد بدا لنا ... بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبن فى حشد أمر تريده ... وألب وجمع كل ما أنت جامع
ودونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حين تبايعوا
أباه البراء وابن عمرو كلاهما ... وأسعد يأباه عليك ورافع
وسعد أباه الساعدى ومنذر ... لأنفك إن حاولت ذلك جادع

وما ابن ربيع إن تناولت عهده ... بمسلمه لايطمعن ثم طامع
وأيضاً فلا يعطيكه ابن رواحة ... وإخفاره من دونه السم ناقع
وفاء به والقوقلى بن صامت ... بمندوحة عما تحاول يافع
أبو هيثم أيضاً وفى بمثلها ... وفاء بما أعطى من العهد خانع
وما ابن حضير إن أردت بمطمع ... فهل أنت عن أحموقة الغى نازع؟
وسعد أخو عمرو بن عوف فإنه ... ضروح لما حاولت م الأمر مانع
أولاك نجوم لايغبك منهم ... عليك بنحس فى دجى الليل طالع

فذكر كعب فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولم يذكر رفاعة .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى - يعنى المسلمين - قالوا : نعم .

ما قاله العباس بن عبادة للخزرج

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ، أخو بنى سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله - إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعناقهم .

وأما عبد الله بن أبى بكر فقال : ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة ، رجاء أن يحضرها عبد الله ابن أبى بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم . فالله أعلم أى ذلك كان .

قال ابن هشام : سلول : امرأة من خزاعة ، وهى أم أبى بن مالك بن الحارث .

أول من ضرب على يد الرسول فى بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة ، أسعد بن زرارة ، كان أول من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان .

قال ابن إسحاق : قال الزهرى : حدثنى معبد بن كعب بن مالك ، فحدثنى فى حديثه، عن أخيه عبدالله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك ، قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ، ثم بايع بعد القوم .

الشيطان يصرخ بعد بيعه العقبه

فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب - والجباجب : المنازل - هل لكم فى مذمم والصباة معه ، قد اجتمعوا على حربكم . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أزب العقبة ، هذا ابن أزيب - قال ابن هشام : ويقال ابن أزيب استمع أى عدو الله، أما والله لأفرغن لك .

الأنصار تطلب الحرب والرسول لايستجيب

قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا إلى رحالكم . قال فقال له العباس بن عبادة بن فضلة والله الذى بعثك بالحق : إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . قال : فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا .

مجادلة قريش للأنصار

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، حتى جاءونا فى منازلنا ، فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا ، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم . قال : فانبعث من هناك عن مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه . قال : وقد صدقوا ، لم يعلموه . قال : وبعضنا ينظر إلى بعض . قال : ثم قام القوم ، وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وعليه نعلان له جديدان . قال : فقلت له كلمة - كأنى أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا -: يا أبا جابر ، أما تستطيع أن تتخذ ، وأنت سيد من ساداتنا ، مثل نعلى هذا الفتى من قريش ؟ قال : فسمعها الحارث ، فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلى ، وقال : والله لتنتعلنهما . قال : يقول : أبو جابر : مه ، أحفظت والله الفتى ، فاردد إليه نعليه . قال : قلت لا : والله لاأردهما ، فأل والله صالح ، لئن صدق الفأل لأسلبنه .

قال ابن إسحاق : وحدثنا عبدالله بن أبى بكر : أنهم أتوا عبدالله بن أبى بن سلول ، فقالوا له مثل ماقال كعب من القول ، فقال لهم : إن هـــذا الأمر جسيم ، ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا ، وما علمته كان . قال : فانصرفوا عنه .

قريش تأسر سعد بن عبادة

قال : ونفر الناس من منى ، فتنطس القوم الخبر ، فوجدوه قدكان ، وخرجوا فى طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر ، والمنذر بن عمرو ، أخا بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيبا . فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير .

خلاص سعد

قال سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع على نفر من قريش ، فيهم رجل وضىء أبيض ، شعشاع ، حلو من الرجال . قال ابن هشام : الطويل الحسن قال رؤبة : * يمطوه من شعشاع غير مودن * يعنى عنق البعير غير قصير يقول مودن اليد أى : ناقص اليد يمطوه من السير شعشاع : حلو من الرجال .

قال : قلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، قال فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة . قال : قلت فى نفسى ، لا والله ماعندهم بعد هذا من خير . قال : فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى رجل ممن كان معهم ، فقال : ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال : قلت : بلى ، والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قال : ويحك ! فاهتف باسم الرجلين ، واذكر مابينك وبينهما . قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ليهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما ، جواراً ، قالا . من هو ؟ قال سعد بن عبادة ، قالا : صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارنا ، ويمنعهم أن يظلموا ببلده . قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم، فانطلق. وكان الذى لكم سعداً ، سهيل بن عمرو ، أخو بنى عامر بن لؤى .

قال ابن هشام : وكان الرجل الذى أوى إليه ، أبا البخترى بن هشام .

قال ابن إسحاق : وكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين ، قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس ، أخو بنى محارب بن فهر :

تداركت سعدا عنوة فأخذته ... وكان شفاء لو تداركت منذرا

ولو نلته طلت هناك جراحه ... وكانت حريا أن يهان ويهدرا

قال ابن هشام : ويروى .

وكان حقيقا أن يهان ويهدرا

قال ابن إسحاق : فأجابه حسان بن ثابت فيهما فقال :

لست إلى سعد ولا المرء منذر إذا مامطايا القوم أصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرت قصائد على شرف البرقاء يهوين حسرا
أتفخر بالكتان لما لبسته وقد تلبس الأنباط ريطا مقصرا
فلا تك كالوسنان يحلم أنه بقرية كسرى أو بقرية قيصر
ولا تك كالشكلى وكانت بمعزل عن الشكل لوكان الفؤاد تفكرا
ولا تك كالشاة التى كان حتفها بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا
ولا تك كالعاوى فأقبل نحره ولم يخشه سهماً من النبل مضمرا
فإنا ومن يهدى القصائد نحونا كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا

وذكر فى أنساب المبايعين له فى العقبة الأولى فى بنى سلمة منهم : سادرة بن تزيد بن جشم ، وتزيد بتاء منقوطة باثنتين من فوق ، ولايعرف فى العرب تزيد إلا هذا ، وتزيد بن الحاف بن قضاعة ، وهم الذين تنسب إليهم الثياب التزيدية ، وأما سلمة بكسر اللام ، فهم من الأنصار سمى بالسلمة واحدة السلام ، وهى الحجارة ، قال الشاعر :

ذاك خليلى وذو يعاتبنى يرمى ورائى بالسهم والسلمة

وفى جعفى : سلمة بن عمرو بن دهل بن مروان بن جعفى ،وفى جهينة سلمة بن نصر بن غطفان قاله بن حبيب النسابة وفى الصحابة عمرو بن سلمة أبو بريدة الجرمى الذى أم قومه ، وهو ابن ست سنين أو سبع ، وفى الرواة عبد الله ابن سلمة وينسب إلى بنى سلمة هؤلاء سلمى بالفتح ، كما ينسب إلى بنى سلمة ، وهم بطنان من بنى عامر يقال لهم : السلمات ، يقال لأحدهم سلمة الخير ، وللآخر سلمة الشر ابنا قصير بن كعب بن ربيعة بن عامر ، وأما بنو سليمة بياء فنى دوس ، وهم بنو سليمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس ، وسليمة هذا هو أخو جذيمة الأبرش ، وهو الذى قتل أخاه مالكا بسهم قتل خطأ ، ويقال فى النسب إليه : سلمى أيضا وهو القياس ، وقد قيل : سليمى كما قيل فى عميرة عميرى .

وذكر بنى جدارة من بنى النجار ، وجدارة : وخدارة : أخوان ، وغيره يقول فى جدارة : خدارة بالخاء المضمومة ، وهكذا قيده أبو عمرو ، كذلك ذكره ابن دريد فى الاشتقاق ، وهو أشبه بالصواب لأنه أخو خدرة ،وكثيرا ما يجعلون أسماء الإخوة مشتقة بعضها من بعض .

وذكر القواقل وهم بنوعمرو بن غنم بن مالك ، وذكر تسميتهم القواقل ، وأن ذلك لقولهم إذا أجاروا أحدا : قوقل حيث شئت ، وفى الأنصار : القواقل والجعادر وهما بطنان من الأوس ، وسبب تسميتهما واحد فى المعنى ، أما الجعادر فكانوا إذا أجاروا أحد أعطوه سهما ، وقالوا له : جعدربه حيث شئت ، كما كانت القواقل تفعل ،وهم بنوزيد ، بن عمرو بن مالك بن ضبيعة يقال لهم كسر الذهب ، وهما جميعاً من الأوس . قال الشاعر :

فإن لنا بين الجوارى وليدة مقابلة بين الجعادر والكسر
متى تدع فى الزيدين زيد بن مالك وزيد بن عمرو تأتها عزة الخفر

وذكر فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولم ينسبه ، ولا نسبه فى أهل العقبة الثانية ، ولا فى غزوة بدر ، وهو مالك

. . . .

ابن التيهان ، واسم التيهان أيضاً مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعون ، بن جشم بن الحارث ابن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأنصارى حليف بنى عبد الأشهل كان أحد النقباء ليلة العقبة ، ثم شهد بدرا ، واختلف فى وقت وفاته ، فأصح ماقيل فيه إنه شهد مع على صفين ، وقتل فيها رحمه الله ، وأحسب ابن إسحاق وابن هشام تركا نسبه على جلالته فى الأنصار وشهوده هذه المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا ختلاف فيه ، فقد وجدت فى شعر عبد الله بن رواحة حين أضاف أبو الهيثم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى منزله ومعه أبو بكر وعمر ، فذبح لهم عناقاً وأتاهم بقنو من رطب الحديث بطوله ، فقال ابن رواحة فى ذلك :

فلم أر كالإسلام عزا لأهله ولا مثل أضياف الأراشى معشرا

فجعله إرشيا كما ترى ، والأراشى منسوب إلى إراشة فى خزاعة ،أو إلى إراش بن لحيان بن الغوث فالله أعلم : أهو أنصارى بالحلف أم بالنسب المذكور قبل هذا ، ونقلته من قول أبى عمر فى الاستيعاب ، وقد قيل : إنه بلوى من بنى إراشة بن فاران بن عمرو بن بلى ، والهيثم فى اللغة : فرخ النسر ، أو العقاب ، والهيثم أيضاً ضرب من العشب فيما ذكر أبو حنيفة [١] ، وبه سمى الرجل هيثما أو بالمعنى الأول وأنشد :

رعت بقران الحزن روضاً منوراً عميما من الظلاع والهيثم الجعد

ذكر بيعتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بيعة النساء ألا يسرقوا ، ولايزنوا إلى آخر الآية ، وقيل فى قوله عز وجل خبرا عن بيعة النساء : « ولا يأتين ببهتان » أنه الولد تنسبه إلى بعلها ، وليس منه ، وقيل: هو الاستمتاع بالمرأة فيما دون الوطء كالقبلة والجسة ونحوها ، والأول يشبه أن يبايع عليه الرجال ، وكذلك قيل فى قوله تعالى : « ولا يعصينك فى معروف » أنه النوح، وهذا أيضا ليس من شأن الرجال ، فدل على ضعف قول من خصه بالنوح ، وخص البهتان بإلحاق الولد بالرجل،وليس منه،وقيل : يفترينه بين أيديهن يعنى:الكذب وعيب الناس بناليس فيهم ، وأرجلهن يعنى : المشى فى معصية ، ولا يعصينك فى معروف ، أى:فى خير تأمرهن به، والمعروف : اسم جامع لمكارم الأخلاق ، وماعرف حسنه ولم تنكره القلوب ، وهذا معنى يعم الرجال والنساء ، وذكر ابن إسحاق فى رواية يونس فيما أخذه عليه السلام عليهن : أن قال : ولا تغششن أزواجكن ، قالت : إحداهن وماغش أزواجنا فقال : أن تأخذى من ماله فتحابى به غيره .

هجرة مصعب بن عمير : فصل : وذكر هجرة مصعب بن عمير وهو المقرىء ، وهو أول من سمى بهذا ، أعنى المقرىء يكنى أبا عبد الله ، كان قبل إسلامه من أنعم قريش عيشا وأعطرهم ، وكانت أمه شديدة الكلف به ، وكان يبيت وقعب الحيس عند رأسه ، يستيقظ فيأكل، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غير لونه وأذهب لحمه ، ونهكت جسمه حتى كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليه ، وعليه فروة قد رقعها ، فيبكى لما كان يعرف من نعمته ، وحلفت أمه حين أسلم وهاجر ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها ، فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشيا عليها ، وكان بنوها يحشون فاها بشجار ، وهو عود فيصبون فيه الحساء لئلا تموت ، وسنذكر اسمها ونسبها عند ذكره فى البدريين إن شاء الله تعالى ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكره ، فيقول : ما رأيت بمكة أحسن لمة ، ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير ذكره الواقدى . وذكر أيضاً بإسناد له ، قال : كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالا وسنا وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة يلبس الحضرمى من النعال .

---

(١) هو أبو حنيفة الدينورى .

. . . .

وذكر أن منزله كان على أسعد بن زرارة ، منزل بفتح الزاى ، وكذلك كل ما وقع فى هذا الباب من منزل فلان على فلان ، فهو بالفتح ، لأنه أراد المصدر ، ولم يرد المكان ، وكذا قيده الشيخ أبو بحر بفتح الزاى ، وأما أم قيس بنت محصن المذكورة فى هجرة بنى أسد ، فاسمها آمنة وهى أخت عكاشة ، وهى التى ذكرت فى الموطأ وأنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أول جمعة بالمدينة : فصل : وذكر أول من جمع بالمدينة ، وهو أبو أمامة ، وذكر غيره أن أول من جمع بهم مصعب بن عمير ، لأنه أول من قدم المدينة من المهاجرين ، ثم قدم بعده ابن أم مكتوم ، وقد ذكرنا فى أول الكتاب من جمع فى الجاهلية بمكة فخطب وذكر وبشر بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وحض على اتباعه ، وهو كعب بن لؤى ويقال : إنه أول من سمى العروبة الجمعة ، ومعنى العروبة الرحمة فيما بلغنى عن أهل العلم ، وكانت قريش تجتمع إليه فيها فيما حكى الزبير بن بكار ، فيقول : أما بعد فاعلموا وتعلموا إنما الأرض لله مهاد ، والجبال أوتاد ، والسماء بناء ، والنجوم سملا ، ثم يأمرهم بصلة الرحم ، ويبشرهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويقول : حرمكم يا قوم عظموه ، فسيكون له نبأ عظيم ، ويخرج منه نبى كريم ، ثم يقول فى شعر ذكره :

على غفلة يأتى النبى محمد ... فيخبر أخباراً صدوق خبيرها

صروف رأيناها تقلب أهلها ... لها عقد ما يستحيل مريرها

ثم يقول :

ياليتنى شاهد فحواء دعوته ... إذا قريش تبغى الحق خذلانا

وأما أول من جمع فى الإسلام فهو من ذكرنا .

بقيع الخضمات : وذكر ابن إسحاق أنه جمع بهم أبو أمامة عند هزم النبيت فى بقيع يقال له بقيع الخضمات . بقيع بالباء وجدته فى نسخة الشيخ أبى بحر ، وكذلك وجدته فى رواية يونس عن ابن إسحاق ، وذكره البكرى فى كتاب معجم ما استعجم من أسماء البقع أنه نقيع بالنون ، ذكره فى باب النون والقاف وقال : هزم النبيت : جبل على بريد من المدينة ، وفى غريب الحديث : أنه عليه السلام حمى غرز النقيع قال الخطابى : النقيع : القاع ، والغرز شبه الثمام وسيأتى تفسيره فيما بعد إن شاء الله تعالى ، ومعنى الخضمات من الخضم ، وهو الأكل بالفم كله ، والقضم بأطراف الأسنان ، ويقال : هو أكل اليابس ، والخضم : أكل الرطب ، فكأنه جمع خضمة ، وهى الماشية التى تخضم ، فكأنه سمى بذلك لخصب كان فيه ، وأما البقيع بالباء فهو أقرب إلى المدينة منه بكثير ، وأما بقيع الخبجبة بخاء وجيم وباءين ، فجاء ذكره فى سنن أبى داود : والخبجبة : شجرة عرف بها .

أصل الجمعة : فصل : وتجميع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجمعة وتسميتهم إياها بهذا الاسم وكانت تسمى العروبة ـ كان عن هداية من الله تعالى لهم قبل أن يؤمروا بها ، ثم نزلت سورة الجمعة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فاستقر فرضها واستمر حكمها ، ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى يوم الجمعة : أضلته اليهود والنصارى ، وهداكم الله إليه .

. . . .

ذكر الكشى ، وهو عبد بن حميد قال : نا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، وقبل أن تنزل الجمعة ، وهم الذين سموا الجمعة ، قال الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلم ، فلنجعل يوما نجتمع فيه ، ونذكر الله ، ونصلى ونشكر ، أو كما قالوا ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوا يوم العروبة ، كانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة ، فصلى بهم يومئذ ركعتين فذكرهم ، فسموا الجمعة حين اجتمعوا إليه ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا من شاة ، وذلك لقلتهم ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ فى ذلك : « إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » .

قال المؤلف : ومع توفيق الله لهم إليه فيبعد أن يكون فعلهم ذلك عن غير إذن من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم فقد روى الدارقطنى عن عثمان بن أحمد بن السماك ، قال : نا أحمد بن غالب الباهلى ، قال : نا محمد بن عبد الله أبوزيد المدنى ، قال : نا المغيرة بن عبد الرحمن ، قال : حدثنى مالك عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس ، قال : أذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجمعة قبل أن يهاجر ، ولم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يجمع بمكة ، ولا يبدى لهم ، فكتب إلى مصعب بن عمير : أما بعد : فانظر اليوم الذى يجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم فاجمعوا نساءكم وأبناءكم ، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة ، فتقربوا إلى الله بركعتين قال : فأول من جمع : مصعب بن عمير ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ، فجمع عند الزوال من الظهر ، وأظهر ذلك ، ومعنى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أضلته اليهود والنصارى ، وهدانا الله إليه فيما ذكر أهل العلم أن اليهود أمروا بيوم من الأسبوع ، يعظمون الله فيه ، ويتفرغون لعبادته ، فاختاروا من قبل أنفسهم السبت فألزموه فى شرعهم ، كذلك النصارى أمروا على لسان عيسى بيوم من الأسبوع ، فاختاروا من قبل أنفسهم الأحد ، فألزموه شرعاً لهم .

قال المؤلف : وكان اليهود إنما اختاروا السبت ، لأنهم اعتقدوه اليوم السابع ، ثم زادوا لكفرهم أن الله استراح فيه ، تعالى الله عن قولهم ، لأن بدء الخلق عندهم الأحد ، وآخر الستة الأيام التى خلق الله فيها الخلق الجمعة ، وهو أيضاً مذهب النصارى ، فاختاروا الأحد لأنه أول الأيام فى زعمهم ، وقد شهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للفريقين بإضلال اليوم ، وقال فى صحيح مسلم إن الله خلق التربة يوم السبت ، فبين أن أول الأيام التى خلق الله فيها الخلق السبت ، وآخر الأيام الستة إذاً الخميس ، وكذلك قال ابن إسحاق فيما ذكر عنه الطبرى ، وفى الأثر أن يوم الجمعة سمى الجمعة ، لأنه جمع فيه خلق آدم ، روى ذلك عن سلمان وغيره ، وقد قدمنا فى حديث الكشى أن الأنصار سموه جمعة لاجتماعهم فيه ، فهداهم الله إلى التسمية ، وهداهم إلى اختيار اليوم ، وموافقة الحكمة أن الله تعالى لما بدأ فيه خلق أبينا آدم ، وجعل فيه بدء هذا الجنس ، وهو البشر ، وجعل فيه أيضا فناءهم وانقضاءهم إذ فيه تقوم الساعة ، وجب أن يكون يوم ذكر وعبادة ، لأنه تذكرة بالمبدأ وتذكرة بالمعاد ، وانظر إلى قوله تعالى : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » وخص البيع لأنه يوم يذكر باليوم الذى لا بيع فيه ولا خلة مع أنه وتر للأيام التى قبله فى الاصح من القول ، والله يحب الوتر ، لأنه من أسمائه فكان من هدى الله لهذه الأمة أن سموا إليه ثم أقروا عليه لما وافقوا الحكمة فيه ، فهم الآخرون السابقون يوم القيامة ، كما قال عليه السلام ، كما أن اليوم الذى اختاروه سابق لما اختارته اليهود والنصارى ، ومتقدم عليه ، ولذلك كان يقرأ

. . . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة السجدة فى صبح يوم الجمعة رواه سعيد بن إبراهيم عن الأعرج عن أبى هريرة، ورواه مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس كلاهما عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ورواه عن سعيد ابن جبير أيضاً عروة بن عبد الرحمن ذكره البزار ، ورواه الترمذى فى كتاب العلل له عن الأحوص ، ورواه أيضاً عن أبى الأحوص ، وعن علقمة عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيه من ذكر الستة الأيام واتباعها بذكر خلق آدم من طين ، وذلك فى يوم الجمعة تنبيها منه عليه السلام على الحكمة ، وتذكرة للقلوب بهذه الموعظة .

وأما قراءته « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » فى الركعة الثانية ، فلما فيها من ذكر السعى وشكر الله لهم عليه يقول : « وكان سعيكم مشكورا » مع مافى أولها من ذكر بدء خلق الإنسان ، وأنه لم يكن قبل شيئاً مذكوراً ، وقد قال فى يوم الجمعة « فاسعوا إلى ذكر الله » فنبه بقراءته إياها على التأهب للسعى المشكور عليه والله أعلم ، ألا ترى أنه كان كثيراً ما يقرأ فى صلاة الجمعة أيضا بهل أتاك حديث الغاشية ، وذلك أن فيها : « لسعيها راضية » كما فى سورة الجمعة ، « فاسعوا إلى ذكر الله » فاستحب عليه السلام أن يقرأ فى الثانية مافيه رضاهم بسعيهم المأمور به فى السورة الأولى .

معنى الجمعة : ولفظ الجمعة مأخوذ من الاجتماع ، كما قدمنا وكان على وزن فعلة وفعلة لأنه فى معنى قربة وقربة والعرب تأتى بلفظ الكلمة على وزن ماهو فى معناها ، وقالوا : عمرة ، فاشتقوا اسمها من عمارة المسجد الحرام ، وبنو على فعلة لأنها وصلة وقربة إلى الله ، ولهذا الأصل فروع فى كلام العرب ، ونظائر لهذين الإسمين يفيتنا تتبعه عما نحن بسبيله ، وفيما قدمناه ماهو أكثر من لمحة داله ، وقالوا فى الجمعة جمع بتشديد الميم كما قالوا عيد إذا شهد العيد ، وعرف إذا شهد عرفة ، ولايقال فى غير الجمعة إلا جمع بالتخفيف ، وفى البخارى : أول من عرف بالبصرة ابن عباس ، والتعريف إنما هو بعرفات ، فكيف بالبصرة ، ولكن معناه أنه رضى الله عنه إذا صلى العصر يوم عرفة أخذ فى الدعاء والذكر والضراعة إلى الله تعالى إلى غروب الشمس ، كما يفعل أهل عرفة .

أيام الاسبوع وأسماؤها : وليس فى تسميته هذه الأيام والإثنين إلى الخميس مايشد قول من قال : إن أول الأسبوع الأحد وسابعها السبت ، كما قال أهل الكتاب لأنها تسمية طارئة ، وإنما كانت أسماؤها فى اللغة القديمة شيار وأول وأهون وجبار ودبار ومؤنس والعروبة ، وأسماؤها بالسريانية قبل هذا أبو جاد هوز حطى إلى آخرها ، ولو كان الله تعالى ذكرها فى القرآن بهذه الأسماء المشتقة من العدد ، لقلنا : هى تسمية صادقة على المسمى بها ، ولكنه لم يذكر منها إلا الجمعة والسبت ، وليسا من المشتقة من العدد ، ولم يسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالأحد والاثنين إلى سائرها إلا حاكيا للغة قومه لامبتدئاً لتسميتها ولعل قومه أن يكونوا أخذوا معانى هذه الأسماء من أهل الكتاب المجاورين لهم ، فألقوا عليها هذه الأسماء اتباعا لهم ، وإلا فقد قدمنا ماورد فى الصحيح من قوله عليه السلام : إن الله خلق التربة يوم السبت والجبال يوم الأحد ، الحديث ، والعجب من الطبرى على تبحره فى العلم كيف خالف مقتضى هذا الحديث . وأعنق فى الرد على ابن إسحاق وغيره ، ومال إلى قول اليهود فى أن الأحد هو الأول ويوم الجمعة سادس لاوتر وإنما الوتر فى قولهم يوم السبت مع ماثبت من قوله عليه السلام : أضلته اليهود والنصارى، وهدا كم الله إليه ، وما احتج به الطبرى من حديث آخر ، فليس فى الصحة كالذى قدمناه، وقد يمكن فيه التأويل

. . . .

أيضا ، فقف بقلبك على حكمة الله تعالى فى تعبد الخلق به لما فيه من التذكرة بإنشاء هذا الجنس ومبدئه ، كما قدمنا ولما فيه أيضاً من التذكرة بأحدية الله سبحانه ، وانفراده قبل الخلق بنفسه ، فإنك إذا كنت فى الجمعة ، وتفكرت فى كل جمعة قبله حتى يترقى وهمك إلى الجمعة التى خلق فيها أبوك آدم ثم فكرت فى الأيام الستة التى قبل يوم الجمعة وجدت فى كل يوم منها جنساً من المخلوقات موجوداً إلى السبت ، ثم انقطع وهمك فلم تجد فى الجمعة التى تلى ذلك السبت وجوداً إلا للواحد الصمد الوتر ، فقد ذكرت الجمعة من تفكر بوحدانية الله وأوليته ، فوجب أن يؤكد فى هذا اليوم توحيد القلب للرب بالذكر له ، كما قال تعالى : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » . وأن يتأكد ذلك الذكر بالعمل ، وذلك بأن يكون العمل مشاكلا لمعنى التوحيد ، فيكون الاجتماع فى مسجد واحد من المساجد ، وإلى إمام واحد من الأئمة ، ويخطب ذلك الإمام ، فيذكر بوحدانية الله تعالى وبلقائه ، فيشا كل الفعل القول ، والقول المعتقد ، فتأمل هذه الأغراض بقلبك ، فانها تذكرة بالحق ، وقد زدنا على ماشرطنا فى أول الكتاب معانى لم تكن هنالك ، وعدنا بها ، ولكن الكلام يفتح بعضه باب بعض ، ويحدو المتكلم قصد البيان إلى الإطالة ، ولا بأس بالزيادة من الخير ، والله المستعان .

إسلام سعد بن معاذ واسيد بن حضير

وسمع أهل مكة هاتفا يهتف ، ويقول قبل إسلام سعد :

فإن يسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فحسبوا أنه يريد بالسعدين : القبيلتين سعد هذيم من قضاعة ، وسعد بن زيد مناة بن تميم ، حتى سمعوه يقول:

فياسعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ... وياسعد سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعى الهدى ، وتمنيا ... على الله فى الفردوس منية عارف

فعلموا حينئذ أنه يريد سعد بن معاذ وسعد بن عباده .

هل يغتسل الكافر إذا أسلم: وذكر فيه اغتسالهما بأمر مصعب بن عمير لهما بذلك ، فذلك السنة فى كل كافر يسلم ، ثم اختلف فى نية الكافر إذا أسلم باغتساله ، فقال بعضهم ينوى به رفع الجنابة عن نفسه ، وقال بعضهم : ينوى التعبد ، ولا حكم للجنابة فى حقه ، لأن معنى الأمر به استباحة الصلاة ، والكافر لا يصلى ، وإن كان مخاطباً فى أصح القولين ، ولكنه أمر مشروط بالإيمان ، فإذا لم يكن الإيمان ـ وهو الشرط الأول ـ فأجدر بأن يكون الشرط الثانى ـ وهو الغسل من الجنابة غير مقيد بشىء ، فإذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله ، فلم يجب عليه إعادة صلاة مضت ، وإذا سقطت الصلوات سقطت عنه شروطها ، واستأنف الأحكام الشرعية ، فتجب عليه الصلوات من حين يسلم بشروط أدائها من وضوء وغسل من جنابة ، إذا أجنب بعد إسلامه ، وغير ذلك من شروط صحة الصلاة ، ورأيت لبعض المتأخرين أن اغتساله سنة لا فريضة وليس عندى بالبين لأن الله سبحانه يقول : « إنما المشركون نجس » ، وحكم النجاسة إنما يرفع بالطهارة ولم يحكم عليهم بالتنجيس لموضع الجنابة ؛ لأنه قد علق الحكم بصفة الشرك والحكم المعلل بالصفة مرتبط بها فإذا ارتفع حكم الشرك بالإيمان لم يبق للجنابة حكم كما إذا كان المسلم جنباً ، ثم بال فالطهور من الجنابة يرفع عنه حكم الحدث الأصغر ، وهو حدث الوضوء ، لأن

. . . .

الطهارة الصغرى داخلة فى الكبرى ، وتطهره من تنجيس الشرك بإيمانه هو أيضاً بالإضافة إلى الطهر من الجنابة ، الطهارة الكبرى ، فينبغى أن تكون مغنية عنها ، كما كانت الطهارة من الجنابة مغنية عن الطهارة من الحدث ، إذ ليست واحدة من هذه الطهارات مزيلة لعين نجاسة فيها ، فينبغى بعد هذا أن أمره بالاغتسال تعبد ، والحكم بأنه غير فرض تحكم والله أعلم ، غير أن الترمذى خرج حديث قيس بن عاصم حين أسلم فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغتسل . قال الترمذى : وعلى هذا العمل عند أهل العلم يستحبون للكافر إذا أسلم أن يغتسل ويغسل ثيابه، فقال : يستحبون ، وجعلها مسألة استحباب .

شرح شعر ابن الأسلت : فصل : وذكر شعر أبى قيس بن الأسلت ، وفيه قوله :

ولولا ربنا كنا يهودا وما دين اليهود بذى شكول

أراد جمع : شكل ، وشكل الشىء - بالفتح - هو مثله ، والشكل بالكسر الدل والحسن ، فكأنه أراد أن دين اليهود بدع ، فليس له شكول أى : ليس له نظير فى الحقائق ، ولا مثيل يعضده من الأمر المعروف المقبول ، وقد قال الطائى :

وقلت : أخى قالوا : أخ من قرابة فقلت لهم : إن الشكول أقارب
قريبى فى رأيى ودينى ومذهبى وإن باعدتنا فى الخطوب المناسب

وقال فيه : مع الرهبان فى جبل الجليل. الجليل بالجيم الشام ، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم .

البراء بن معرور ، وصلاته إلى القبلة

ذكر حديث كعب بن مالك حين حج فى نفر من قومه مع البراء بن معرور ، فكانوا يصلون إلى بيت المقدس، وكان البراء يصلى إلى الكعبة الحديث - إلى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ففقه قوله : لو صبرت عليها : أنه لم يأمره بإعادة ما قد صلى ، لأنه كان متأولا .

قبلة الرسول صلى الله عليه وسلم : وفى الحديث : دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يصلى بمكة إلى بيت المقدس ، وهو قول ابن عباس ، وقالت طائفة : ماصلى إلى بيت المقدس إلا مذ قدم المدينة سبعة عشر شهرا أو ستة عشر شهرا ، فعلى هذا يكون فى القبلة نسخان نسخ سنة بقرآن ، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف فى هذه المسألة ، فروى عنه من طرق صحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس ، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، فلما كان عليه السلام يتحرى القبلتين جميعا لم يبن توجهه إلى بيت المقدس للناس ، حتى خرج من مكة والله أعلم . قال الله تعالى له فى الآية الناسخة : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » أى : من أى جهة جئت إلى الصلاة ، وخرجت إليها فاستقبل الكعبة كنت مستدبرا لبيت المقدس ، أو لم تكن ، لأنه كان بمكة يتحرى فى استقباله بيت المقدس أن تكون الكعبة بين يديه، وتدبر قوله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك » وقال لأمته : « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره »

. . . . ، - . . . . : . . . .

ولم يقل: حيثما خرجتم، وذلك أنه كان عليه السلام إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم إلى كل صلاة ليصلى بهم، وكان ذلك واجبا عليه إذ كان الإمام المقتدى به فأفاد ذكر الخروج فى خاصته فى هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا، يقتضى الخروج، ولا سيما النساء. ومن لاجماعة عليه، وكرر البارى تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام فى ثلاث آيات، لأن المنكرين لتحويل القبلة، كانوا ثلاثة أصناف من الناس اليهود، لأنهم لايقولون بالنسخ فى أصل مذهبهم، وأهل الريب النفاق اشتد إنكارهم له أنه كان أول نسخ نزل، وكفار قريش قالوا: ندم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه، فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم واسماعيل وآثر عليها قبلة اليهود، فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة «لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم» على الاستثناء المنقطع، أى: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون وقال سبحانه «الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» من الذين شكوا وامتروا، ومعنى: الحق من ربك أى الذى أمرتك به من التوجه إلى البيت الحرام، هو الحق الذى كان عليه الأنبياء قبلك فلا تمتر فى ذلك وقال: «وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق» وقال: «وإن فريقا منهم ليكتمون الحق، وهم يعلمون» يكتمون ماعلموا من أن الكعبة هى قبلة الأنبياء، وروى أبو داود السنجرى فى كتاب الناسخ والمنسوخ له وهو فى روايتنا عنه بسند رفيع حدثنا الإمام الحافظ أبو بكر بن العربى قال: أنا أبو على ابن شاذان قال: أنا أبو بكر الفقيه النجار أحمد بن سليمان عنه، قال: نا أحمد بن صالح، قال: نا عنبسة عن يونس عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبد الملك لايعظم إيلياء كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه، وهو ولى عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، قال سليمان: وهو جالس فيه: والله إن فى هذه القبلة التى صلى إليها المسلمون والنصارى لعجباً، قال خالد بن يزيد: أما والله إنى لأقرأ الكتاب الذى أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - وأقرأ التوراة، فلم يجدها اليهود فى الكتاب الذى أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة، فلما غضب الله تعالى على بنى إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم، وروى أبو داود أيضاً أن يهوديا خاصم أبا العالية فى القبلة، فقال أبو العالية: إن موسى عليه السلام كان يصلى عند الصخرة، ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلة، وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهودى: بينى وبينك مسجد صالح النبى صلى الله عليه وسلم، فقال أبو العالية: فإنى صليت فى مسجد صالح وقبلته الكعبة، وأخبر أبو العالية أنه رأى مسجد ذى القرنين وقبلته الكعبة، وروى أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم، كان يقول لجبريل: وددت أن الله حولنى عن قبلة اليهود، فيقول له جبريل: إنما أنا عبد مأمور، وروى غيره أنه كان يتبعه بصره إذا عرج إلى السماء حرصاً على أن يأمره بالتوجه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى «قد نرى تقلب وجهك فى السماء».

نسيبة وأسماء فى بيعة العقبة الثانية: وذكر بيعة العقبة، وذكر عدة أصحاب بيعة العقبة، وأنهم كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، وهما: أم عمارة وهى نسيبة بنت كعب امرأة زيد بن عاصم شهدت بيعة العقبة وبيعة الرضوان، وشهدت يوم اليمامة، وباشرت القتال بنفسها، وشاركت ابنها عبد الله فى قتل مسيلمة، فقطعت يدها، وجرحت اثنا عشر جرحا، ثم عاشت بعد ذلك دهراً، وكان الناس يأتونها بمرضاهم، لتستشفى لهم، فتمسح بيدها الشلاء على العليل. وتدعو له، فقل مامسحت بيدها ذا عاهة إلا برىء.

. . . .

والأخرى : أسماء بنت عمرو أم منيع ، وقد رفع فى نسبها ونسب الأخرى ابن إسحاق ، ويروى أن أم عمارة قالت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماأرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى للنساء شيئا ، فأنزل الله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات » الآية .

البراء بن معرور : وذكر قول البراء بن معرور ، وهو أول من ضرب بيده على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالبيعة على اختلاف فى ذلك قد ذكره ابن إسحاق ، فقال : نبايعك على أن نمنعك مما نمنع منه أزرنا ، أراد : نساءنا ، والعرب تكنى عن المرأة بالإزار وتكنى أيضاً بالإزار عن النفس ، وتجعل الثوب عبارة عن لابسه كما قال :

رموها بأثواب خفاف فلاترى ... لها شبهاً إلا النعام المنفرا

أى : بأبدان خفاف ، فقوله مما نمنع أزرنا يحتمل الوجهين جميعا ، وقد قال الفارسى فى قول الرجل الذى كتب إلى عمر من الغزو يذكره بأهله :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا ... فدى لك من أخى ثقة إزارى

قال : الإزار : كناية عن الأهل ، وهو فى موضع نصب بالإغراء أى : احفظ إزارى ، وقال ابن قتيبة : الإزار فى هذا البيت كناية عن نفسه ، ومعناه فدآ لك نفسى ، وهذا القول هو المرضى فى العربية ، والذى قاله الفارسى بعيد عن الصواب ، لأنه أضمر المبتدأ ، وأضمر الفعل الناصب للإزار ، ولادليل عليه لبعده ، عنه ، وبعد البيت مايدل على صحة القول المختار وهو :

قلائصنا هداك الله مهلا ... شغلنا عنكم زمن الحصار

فنصب قلائصنا بالإضمار الذى جعله الفارسى ناصبا للإزار .

والبراء بن معرور يكنى أبا بشر بابنه بشر بن البراء وهو الذى أكل مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الشاة المسمومة ، فمات ومعرور اسم أبيه ، معناه : مقصود يقال : عره واعتره اذ قصد ، والبراء هذا ممن صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قبره بعد موته وكبر أربعاً ، وفى هذا الحديث الصلاة على القبر ، وقدرويت من ست طرق عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قاله أحمد بن حنبل ، وذكرها كلها أبو عمر فى التمهيد ، وزاد ثلاث طرق لم يذكرها ابن حنبل ، فهى إذن تروى من - تسع طرق أعنى أن - تسعة من الصحابة رووا صلاته عليه السلام على القبر ، فمنهم ابن عباس ، وأنس بن مالك وبريدة وأبو هريرة ، وزيد بن ثابت ، وعامر بن فهيرة وأبو قتادة الأنصارى وسهل بن حنيف ، وعبادة بن الصامت ، وحديثه مرسل ، وأصحها إسناداً حديث ابن عباس وأبى هريرة .

الهدم : وذكر قول النبى - صلى الله عليه وسلم - للمبايعين له : بل الدم الدم والهدم الهدم ، وقال ابن هشام : الهدم بفتح الدال . قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمى دمك وهدمى هدمك ، أى : ماهدمت من الدماء هدمته أنا ، ويقال أيضاً : بل اللدم اللدم والهدم الهدم وأنشد :

ثم الحقى بهدمى ولدمى

. . . .

فاللدم : جمع لادم ، وهم أهله الذين يلتدمون عليه إذا مات ، وهو من لدمت صدره : اذا ضربته . والهدم قال ابن هشام : الحرمة ، وانما كنى عن حرمه الرجل وأهله بالهدم ، لأنهم كانوا أهل نجعة وارتحلوا ، ولهم بيوت يستخفونها يوم ظعنهم فكلما ظعنوا هدموها ، والهدم بمعنى المهدوم كالقبض بمعنى المقبوض ، ثم جعلوا الهدم وهو البيت المهدوم عبارة عما حوى ، ثم قال : هدمى هدمك أى : رحلتى مع رحلتك أى لا أظعن وأدعك وأنشد يعقوب :

تمضى إذا زجرت عن سوأة قدماً كأنها هدم فى الجفر منقاض

النقباء : فصل : وذكر الاثنى عشر نقيبا، وشعر كعب فيهم إلى آخره ، وليس فيه مايشكل، وإنما جعلهم عليه السلام اثنى عشر نقيبا اقتداء بقوله تعالى فى قوم موسى « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » وقد سمينا أولئك بأسمائهم فى كتاب التعريف والإعلام ، فلينظر هنالك .

وروى عن الزهرى أنه قال : قال النبى عليه السلام للأوس والخزرج حين قدم عليهم النقباء : لايغضبن أحدكم فإنى أفعل ماأومر ، وجبريل عليه السلام إلى جنبه يشير إليهم واحدا بعد واحد ، وروى فى المعيطى عن ابن أنس أنه روى حديث النقباء عن شيخ من الأنصار ، قال مالك : وكنت أعجب كيف جاء هذا رجلان من قبيلة ، ورجل من أخرى حتى حدثت بهذا الحديث ، وأن جبريل هو الذى ولاهم ، وأشار على النبى - صلى الله عليه وسلم - بهم .

صراخ الشيطان : وذكر أن الشيطان صرخ من رأس العقبة بأنفذ صوت . قال الشيخ أبو بحر : هكذا وقع فى الأمهات ، وأصلحناه عن القاضى أبى الوليد . بأبعد ، قال المؤلف : ولا معنى لهذا الإصلاح، لأن وصف الصوت بالنفاذ صحيح هو أفصح من وصفه بالبعد ، وقد مضى فى حديث عمر مع الكاهن ، قال : لقد سمعت من صوت العجل صوتا ماسمعت أنفذ منه ، وفى الصحيح : أن الله تعالى يحشر الخلق يوم القيامة فى صردح واحد ، فينفذهم البصر ويسمعهم الداعى، وكذلك وجدته فى رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق : بأنفذ صوت كما كان فى الأصل .

الجباجب : وقوله : ياأهل الجباجب ، يعنى : منازل منى ، وأصله : أن الأوعية من الأدم كالزبيل ونحوه يسمى : جبجبة، فجعل الخيام والمنازل لأهلها كالأوعية ، وقوله عليه السلام حين صرخ إبليس : ياأهل الجباجب ، هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب . قال ابن هشام : ويقال : ابن أزيب كذا تقيد فى هذا الموضع أزب العقبة وقال ابن ماكولا : أم كرز بنت الأزب بن عمرو بن بكيل من همدان جدة العباس ، أم أمه : سيلة ، لايعرف الأزب فى الأسماء إلا هذا وأزب العقبة ، وهو اسم شيطان ، ووقع فى هذه النسخة فى غزوة أحد إزب العقبة بكسر الهمزة وسكون الزاى ، وفى حديث ابن الزبير مايشهد له حين رأى رجلا طوله شبران على بردعة رحله فأخذ سوطه فأتاه ، فقال : ماأنت فقال أزب قال وماأزب؟ قال : رجل من الجن ، فضربه على رأسه بعود السوط ، حتى باص ، أى هرب ، وقال يعقوب فى الألفاظ الأزب : القصير وحديث ابن الزبير ذكره العتبى فى الغريب ، فالله أعلم أى اللفظين أصح ؟ وابن أزيب فى رواية ابن هشام يجوز أن يكون فعيلا من الإزب أيضاً والأزيب : البخيل ، وأزيب : اسم ريح من الرياح الأربع ، والأزيب الفزع أيضا ، والأزيب : الرجل المتقارب المشى ، وهو على وزن أفعل ، قاله صاحب العين ، ويحتمل

. . . .

أن يكون ابن أزيب من هذا أيضاً ، وأما البخيل فأزيب على وزن فعيل لأن يعقوب حكى فى الألفاظ :امرأة أزيبة ولو كان على وزن أفعل فى المذكر لقيل فى المؤنث زيبا إلا أن فعيلا فى أبنية الأسماء عزيز ، وقد قالوا فى ضهياء ، وهى التى لاتحيض من النساء ، فعل جعلوا الهمزة زائدة وهى عندى فعيل لأن الهمزة فى قراءة عاصم لام الفعل فى قوله تعالى (يضاهون)والضهيأ من هذا لأنها تضاهى الرجل أى : تشبهه ويقال فيه: ضهياء بالمد ، فلا إشكال فيها أنها للتأنيث على لغة من قال ضاهيت بالياء ، وقد يجوز أن يكون أزيب وأزيبة مثل أرمل وأرملة فلا يكون فعيلا وروى أبو الأشهب عن الحسن قال لما بويع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنى صرخ الشيطان ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا أبو لبينى قد أنذر بكم ، فتفرقوا .

تذكير فعيل وتأنيثها فصل : وذكر الحارث بن هشام حين رمى بنعليه إلى جابر : قال :وكان عليه نعلان جديدان والنعل : مؤنثة ، ولكن لايقال : جديدة فى الفصيح من الكلام وإنما يقال : ملحفة جديد لأنها فى معنى مجدودة أى مقطوعة فهى من باب كف خضيب ،وامرأة قتيل ، قال سيبويه : ومن قال جديدة ، فإنما أراد معنى حديثة ،أراد سيبويه أن حديثة بمعنى حادثة وكل فعيل بمعنى فاعل يدخله التاء فى المؤنث .

من معانى الطويل : وذكر قول سعد حين أسرته قريش: فأتانى رجل وضىء شعشاع . والشعشع والشعشعانى والشعشعان : الطويل من الرجال ، وكذلك السلهب والصقعب والشوقب والشرجب والخبق والشوذب الطويل مع رقة فى أسماء كثيره .

وقوله أوى إليه رجل أى رق له ، يقال أوى إية مأوية .

وقوله فتنطس القوم الخبر أى أكثروا البحث عنه ، والتنطس، تدقيق النظر . قال رؤبة بن العجاج

وقد أكون عندها نقريسا طبا بأدواء النساء نطيسا

وذكر قول ضرار بن الخطاب :

وكان شفاء وتداركت منذرا

وضرار بن الخطاب : وضرار كان شاعر قريش وفارسها ، ولم يكن فى قريش أشعر منه ثم ابن الزبعرى بن قيس بن عدى ، وكان جده مرداس رئيس بنى محارب بن فهر فى الجاهلية يسير فيهم بالمرباع ، وهو ربع الغنيمة ، وكان أبوه أيام الفجار رئيس بنى محارب بن فهر أسلم ضرار عام الفتح .

قصيدة حسان : وذكر قول حسان يجيبه :

لست إلى عمرو ولا المرء منذر إذ مامطايا القوم أصبحن ضمرا

يعنى بعمرو عمرو بن خنيس والد المنذر . يقول لست إليه ولا إلى ابنه المنذر أى :أنت أقل من ذلك، والمنذر ابن عمرو هذا يقال له : أعنق ليموت ، هو أحد النقباء كما ذكر ابن إسحاق فى المواخاة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخى بينه ، وبين أبى ذر الغفارى ، وأنكر ذلك الواقدى محمد بن عمر ، وقال : انما آخى بينه وبين طليب بن عمرو قال : وكيف يواخى بينه وبين أبى ذر ، والمواخاة كانت قبل بدر ، وأبوذر كان اذ ذاك

قصـــة صنم عمرو بن الجموح

فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو ابن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة ، وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة ، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة ، وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب ، يقال له : مناة، كما كانت الأشراف يصنعون ، تتخذه إلها تعظمه وتطهره ، فلما أسلم فتيان بنى سلمة : معاذ بن جبل ، وابنه معاذ بن عمرو، فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ،كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة ، وفيها عذر الناس ، منكسا على رأسه ، فاذا أصبح عمرو ، قال : ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ قال : ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه . فإذا أمسى ونام عمرو ،عدووا عليه ،ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى ، فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يغدون عليه إذا أمسى ، فيفعلون به مثل ذلك فلما أكثروا عليه ،استخرجه من حيث ألقوه يوما ،فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال : إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك . فلما أمسى ونام عمرو ، غدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار سلمة ، فيها عذر من عذر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به .

- **إسلام عمرو وما قاله من الشعر :** فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من قومه ، فأسلم برحمة الله ، وحسن إسلامه .فقال حين أسلم ،وعرف من الله ماعرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف لملقاك إلها مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمة قبر مرتهن

بأحمد المهدى النبى المرتهن

غائبا عن المدينة ، ولم يقدم إلا بعد بدر ، وقد قطعت بدر المواخاة ونسخها قوله سبحانه : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » والمنذر بن عمرو حديث واحد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس له غيره ، يرويه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده عن المنذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد عن السهو قبل التسليم ، وعبد المهيمن ضعيف . وقول حسان :

ولاتك كالشاة التى كان حتفها ... بحفر ذراعيها،فلم ترض محفرا

تقوله العرب فى مثل قديم فيمن أثار على نفسه شرا كالباحث عن المـــدية وأنشد أبو عثمان عمرو بن بحر

وكان يجير الناس من سيف مالك ... فأصبح يبغى نفسه من يجيرها
وكان كعنز السوء قامت بظلفها ... إلى مدية تحت التراب تثيرها

شروط البيعه فى العقبه الأخيرة

قال ابن إسحاق : وكان فى بيعة الحرب ، حين أذن الله لرسوله فى القتال شروطا سوى شرطه عليهم فى العقبة الأولى ، كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، فلما أذن الله له فيها ، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، عن أبيه الوليد ، عن جده عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء ، قال :

بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب — وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوه فى العقبة الأولى على بيعة النساء — على السمع والطاعة ، فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لانخاف فى الله لومة لائم .

اسماء من شهد العقبة

قال ابن إسحاق : وهذه تسمية من شهد العقبة ، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين .

شهدها من الأوس ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، ثم من بنى عبد الأشهل ابن جشم بن الحارث بن الخزرج ابن عمرو بن مالك بن الأوس أسيد بن حضير بن عتيك بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل ، نقيب لم يشهد بدرا . وأبو الهيثم بن التيهان ، واسمه مالك ، شهد بدراً . وسلمة بن سلامة بن وقش بن زغبه بن زعوراء ابن عبد الأشهل ، شهد بدراً ، ثلاثة نفر . قال ابن هشام . ويقال : ابن زعوراء بفتح العين .

قال ابن إسحاق : ومن بنى حارثة ابن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس : ظهير بن رافع بن عدى بن زيد بن جشم بن حارثة . وأبو بردة بن نيار ، واسمه هانىء بن نيار بن عمرو بن عبيد بن كلاب بن دهمان بن غنم بن ذبيان بن هميم بن كاهل بن ذهل بن دهنى بن بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، حليف لهم ، شهد بدراً ونهير بن الهيثم ، من بنى نابى بن مجدعة بن حارثة . ثلاثة نفر .

ومن بنى عمرو بن عوف مالك بن الأوس : سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النحاط بن كعب ابن حارثة بن غنم بن السلم بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس ، نقيب ، شهد بدراً ، فقتل به مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شهيداً .

قال ابن هشام : ونسبه ابن إسحاق فى بنى عمر بن عوف ، وهو من بنى غنم بن السلم ، لأنه ربما كانت دعوة الرجل فى القوم ، ويكون فيهم فينسب إليهم .

. . . .

قال ابن إسحاق : ورفاعة بن عبد المنذر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو ، نقيب ، شهد بدراً . وعبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن البرك — واسم البرك : امرؤ القيس بن ثعلبة بن عمرو شهد بدراً ، وقتل يوم أحد شهيداً أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة ، ويقال : أمية بن البرك ، فيما قال ابن هشام

قال ابن إسحاق : ومعن بن عدى بن الجد بن العجلان بن ضبيعة لهم من بلى شهد بدراً وأحداً والخندق ، ومشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها ، قتل يوم اليمامة شهيداً فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وعويم ابن ساعدة ، شهد بدراً والخندق . خمسة نفر .

فجميع من شهد العقبة من الأوس أحد عشر رجلا .

وشهدها من الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، ثم من بنى النجار ، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج : أيوب ، وهو خالد بن زيد بن كليب بن عبد بن عوف بن مالك بن النجار شهد بدراً وأحداً والخندق ، والمشاهد كلها ، مات بأرض الروم غازيا فى زمن معاوية بن أبى سفيان . ومعاذ بن الحارث ابن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار ، شهد بدراً وأحداً والخندق ، والمشاهد كلها ، وهو ابن عفراء . وأخوه : عوف بن الحارث ، شهد بدراً وقتل به شهيداً ، وهو الذى قتل أبا جهل بن هشام بن المغيرة وهو لعفراء - ويقال : رفاعة بن الحارث بن سواد ، فيما قال ابن هشام — وعمارة بن حزم بن زيد بن لوذان ابن عمرو بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار . شهد بدراً وأحداً والخندق ، والمشاهد كلها ، قتل يوم اليمامة شهيداً فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، نقيب ، مات قبل بدر ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى ، وهو أبو أمامة . ستة نفر .

ومن بنى عمرو بن مبذول - ومبذول : عامر بن مالك بن النجار : سهل بن عتيك بن نعمان بن عمرو بن عتيك ابن عمرو ، شهد بدراً . رجل .

ومن بنى عمرو ابن مالك بن النجار ، وهم بنو حديلة - قال ابن هشام : حديلة : بنت مالك بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن عضب بن جشم بن الخزرج - أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة ابن عدى بن عمرو بن مالك ، شهد بدراً : وأبو طلحة ، وهو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك ، شهد بدراً . رجلا .

ومن بنى مازن بن النجار : قيس بن أبى صعصعة ، واسم أبى صعصعة : عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول ابن عمرو بن غنم بن مازن ، شهد بدراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعله على الساقة يومئذ . وعمرو ابن غزية بن عمرو بن ثعلبة بن خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن . رجلان . فجميع من شهد العقبة من بنى النجار أحد عشر رجلا .

قال ابن هشام : عمرو بن غزية بن عمرو بن ثعلبة بن خنساء ، هذا الذى ذكره ابن إسحاق ، إنما هو غزية بن عطية بن خنساء .

. . . .

قال ابن إسحاق : ومن بلحارث بن الخزرج : سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير بن امرىء القيس بن مالك ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، نقيب ، شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيداً . وخارجة بن زيد بن أبى زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث ، شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيداً وعبد الله بن رواحة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج ابن الحارث ، نقيب ، شهد بدراً وأحداً والخندق ومشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها ، إلا الفتح وما بعده ، وقتل يوم مؤتة شهيداً أميراً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبشير بن سعد بن ثعلبة بن الجلاس بن زيد ابن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث ، أبو النعمان بن بشير شهد بدراً . وعبد الله بن زيد بن ثعلبة ابن عبد ربه بن زيد بن الحارث بن الخزرج شهد بدراً ، وهو الذى أرى النداء للصلاة ، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر به . وخلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة ابن كعب بن الخزرج بن الحارث شهد بدراً وأحداً والخندق وقتل يوم بنى قريظة شهيداً ، طرحت عليه رحى من أطم من آطامها فشدخته شدخاً شديدا ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يذكرون ـ إن له لأجر شهيدين . وعقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عسيرة بن جدارة بن عوف بن الحارث وهو أبو مسعود وكان أحدث من شهد العقبة سناً ، مات فى أيام معاوية ، لم يشهد بدراً . سبعة نفر .

ومن بنى بياضة بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج : زياد بن لبيد ابن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدى بن أمية بن بياضة ، شهد بدراً . وفروة بن عمرو بن وذفة بن عبيد ابن عامر بن بياضة ، شهد بدراً . قال ابن هشام : ويقال ودفة .

قال ابن إسحاق : وخالد بن قيس بن مالك بن العجلان بن عامر بن بياضة ، شهد بدراً . ثلاثة نفر .

ومن بنى زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج : رافع بن مالك ابن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق ، نقيب : وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق وكان خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معه بمكة وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فكان يقال له : مهاجرى أنصارى ، شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيدا . وعباد بن قيس ابن عامر بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق ، شهد بدراً : والحارث بن قيس بن خالد بن مخلد بن عامر ابن زريق ، وهو أبو خالد شهد بدراً . أربعة نفر

ومن بنى سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج ، ثم من بنى عبيد بن عدى ابن غنم بن كعب بن سلمة : البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم ، نقيب ، وهو الذى تزعم بنو سلمه أنه كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرط له ، واشترط عليه ثم توفى قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وابنه بشر بن البراء بن معرور ، شهد بدراً وأحداً والخندق، ومات بخيبر من أكلة أكلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الشاة التى سم فيها ـ وهو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سأل بنى سلمة من سيدكم يا بنى سلمة ؟ فقالوا : الجد بن قيس ، على بخله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأى داء أكبر من البخل ! سيد بنى سلمة الأبيض الجعد بشر بن البراء بن

. . . .

معرور . وسنان بن صيفى بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد ، شهد بدرا ، والطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان ابن عبيد ، شهد بدراً ، وقتل يوم الخندق شهيداً . ومعقل بن المنذر بن سرح بن خناس بن عبيد ، شهد بدراً . ويزيد بن المنذر بن سرح بن خناس بن سنان بن عبيد شهد بدراً ، ومسعود بن يزيد بن سبيع بن خنساء بن سنان بن عبيد . والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عبيد ، شهد بدراً ، ويزيد بن خدام أو ابن سبيع بن خنساء ابن سنان بن عبيد . وجبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد شهد بدراً .

قال ابن هشام : ويقال : جبار بن صخر بن أمية بن خناس .

قال ابن إسحاق : والطفيل بن مالك بن خنساء بن سنان بن عبيد ، شهد بدرا . أحد عشر رجلا . ومن بنى سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ، ثم من بنى كعب بن سواد : كعب مالك بن أبى كعب بن القين بن كعب . رجل .

ومن بنى غنم بن سواد غنم بن كعب بن سلمة : سليم بن عمرو بن حديدة بن عمرو بن غنم ، شهد بدراً . وقطبة بن عامر ابن حديده بن عمرو بن غنم ، شهد بدرا . ويزيد بن عامر بن حديدة بن غنم ، وهو أبو المنذر ، شهد بدراً . وأبو اليسر ، واسمه : كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غنم ، شهد بدراً . وصيفى بن سواد بن عباد بن عمرو ابن غنم . خمسة نفر .

قال ابن هشام : صيفى بن أسود بن عباد بن عمرو بن غنم بن سواد ، وليس لسواد ابن يقال له : غنم .

قال ابن إسحاق : ومن بنى نابى بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة : ثعلبة بن غنمة بن عدى بن نابى ، شهد بدراً ، وقتل بالخندق شهيداً . وعمرو بن غنمة بن عدى بن نابى ، وعبس بن عامر بن عدى بن نابى ، شهد بدراً . وعبد الله بن أنيس ، حليف لهم من قضاعة . وخالد بن عمرو بن عدى بن نابى . خمسة نفر .

قال ابن إسحاق : ومن بنى حرام بن كعب بن غنم بن سلمه : عبد الله بن عمرو بن ثعلبة بن حرام ، نقيب ، شهد بدراً ، وقتل يوم أحد ، شهيداً ، وابنه جابر بن عبد الله . ومعاذ بن عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام ، شهد بدراً . وثابت بن الجذع - والجذع : ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام - شهد بدراً ، وقتل بالطائف شهيداً . وعمير بن الحارث بن ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام ، شهد بدراً . قال ابن هشام : عمير بن الحارث بن لبدة ابن ثعلبة .

قال ابن إسحاق : وخديج بن سلامة بن أوس بن عمرو بن الفرافر حليف لهم من بلى ومعاذ بن جبل بن عمرو ابن أوس بن عائذ بن عدى بن كعب بن أدى بن سعد بن على بن أسد ، ويقال أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج ، وكان فى بنى سلمة شهد بدراً ، والمشاهد كلها ومات بعمواس ، عام الطاعون بالشام ، فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وإنما ادعته بنو سلمة أنه كان أخا سهل بن محمد بن الجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان ابن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة لأمه . سبعة نفر .

قال ابن هشام : أوس : ابن عباد بن عدى بن كعب بن عمرو بن أدى ابن سعد .

قال ابن إسحاق : ومن بنى عوف بن الخزرج ، ثم من بنى سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج : عبادة ابن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف ، نقيب ، شهد بدراً والمشاهد كلها

. . . .

قال ابن هشام : هو غنم بن عوف ، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج .

قال ابن إسحاق . والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف ، وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فأقام معه بها فكان يقال له : مهاجرى أنصارى وقتل يوم أحد شهيدا . وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم بن عمرو بن عمارة ، حليف لهم من بنى غصينة من بلى . وعمرو بن الحارث بن لبدة بن عمرو بن ثعلبة : أربعة نفر ، وهم القوافل .

ومن بنى سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج ، وهم بنو الحبلى - قال ابن هشام : الحبلى : سالم بن غنم بن عوف وإنما سمى : الحبلى - لعظم بطنه : رفاعة بن عمرو بن زيد بن ثعلبة بن مالك بن سالم بن غنم ، شهد بدراً ، وهو أبو الوليد .

قال ابن هشام : ويقال : رفاعة : ابن مالك ، ومالك : ابن الوليد بن عبد الله بن مالك بن جشم بن مالك ابن سالم .

قال ابن إسحاق : وعقبة بن وهب بن كلدة بن الجعد بن هلال بن الحارث بن عمرو بن عدى بن جشم بن عوف بن بهثة بن عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان ؛ حليف لهم ، شهد بدراً ، وكان ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا من المدينة إلى مكة ، فكان يقال له : مهاجرى أنصارى .

قال ابن هشام : رجلان .

قال ابن إسحاق : ومن بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج : سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبى خزيمة ابن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة ، نقيب ، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان بن عبد ود ابن زيد بن ثعلبة بن جشم بن الخزرج بن ساعدة ، نقيب ، شهد بدرا وأحداً ، وقتل يوم بئر معونة أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان يقال له : أعنق ليموت . رجلان .

قال ابن إسحاق : فجميع من شهد العقبة من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان منهم ، يزعمون أنهما قد بايعتا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن ، قال : اذهبن فقد بايعتكن .

ومن بنى مازن بن النجار : نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن ، وهى أم عمارة ، كانت شهدت الحرب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهدت معها أختها . وزوجها زيد بن عاصم بن كعب ، وابناها : حبيب بن زيد ، وعبد الله بن زيد ، وابنها حبيب الذى أخذه مسيلمة الكذاب الحنفى ، صاحب اليمامة ، فجعل يقول له : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أفتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ، فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات فى يده ، لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال لا أسمع - فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين ، فباشرت الحرب بنفسها . حتى قتل الله مسيلمة ، ورجعت وبها اثنا عشر جرحا ، من بين طعنه وضربة .

قال ابن إسحاق: حدثنى هذا الحديث عنها محمد بن يحيى بن حبان ، عن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة .

ومن بنى سلمة: أم منيع ، واسمها : أسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة .

. . . .

نزول الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى القتال

بسم الله الرحمن الرحيم . قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام ، قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن محمد بن إسحاق المطلبى : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحلل له الدماء إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفى كل وجه ؛ فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ماأرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه ، واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال ، لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى «أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره، ان الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » أى أنى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة : أى : حتى لايفتن مؤمن عن دينه ، ويكون الدين لله » أى حتى يعبد الله لايعبد معه غيره .

الاذن لمسلمى مكة بالهجرة إلى المدينة : قال ابن إسحاق : فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب وبايعه هذا الحى من الانصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنون بها . فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخرج من مكة ، والهجرة إلى المدينة

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين من بنى مخزوم . أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، واسمه : عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجرا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى أبى إسحاق بن يسار ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة ، عن جدته أم سلمة ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بى بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم قاموا إليه ، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذونى منه . قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبى سلمة .

فقالوا : لا والله ، لانترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا . قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى . قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى ، حتى أمسى سنة أو قريبا منها حتى مر بى رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت . قالت : ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى . قالت : فارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة . قالت : وما معى أحد من خلق الله . قالت : فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخا بنى عبد الدار فقال لى : إلى أين يابنت أبى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو مامعك أحد؟ قالت : فقلت : لاوالله ، إلا الله وبنى هذا . قال : والله مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ماصحبت رجلا من العرب قط ، أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح ، قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال : اركبى . فاذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه ، فقاده ، حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلا - فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة .

قال : فكانت تقول والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

قال ابن إسحاق : ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة ، حليف بنى عدى بن كعب معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عدى بن كعب . ثم عبد الله بن جحش بن رئاب ابن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة ، حليف بنى أمية بن عبد شمس ، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش ، وهو أبو أحمد، وكان أبو احمد رجلا ضرير البصر ، وكان يطوف مكة ، أعلاها وأسفلها ، بغير قائد ، وكان شاعراً ، وكانت عنده الفرعة بنت أبى سفيان بن حرب . وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم فغلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة . والعباس بن عبد المطلب ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، وهى دار أبان بن عثمان اليوم التى بالردم ، وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عقبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ، ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحوب

قال ابن هشام : وهذا البيت لأبى دؤاد الإيادى فى قصيدة له . والحوب : التوجع .

قال ابن إسحاق : ثم قال عتبة : أصبحت : دار بنى جحش خلاء من أهلها ! فقال أبو جهل : وما تبكى عليه من قل بن قل .

قال ابن هشام القل : الواحد . قال لبيد بن ربيعة :

كل بنى حرة مصيرهم قل وإن أكثرت من العدد

. . . .

قال ابن إسحاق : ثم قال : هذا عمل ابن أخى هذا ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وقطع بيننا فكان منزل أبى سلمة بن عبد الأسد ، وعامر بن ربيعة ، وعبد الله بن جحش ، وأخيه أبى أحمد بن جحش، على مبشر بن عبد المنذر ابن زنبر بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، ثم قدم المهاجرون إرسالا ، وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام ، قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرة رجالهم ونساؤهم : عبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد بن جحش ، وعكاشة بن محصن ، وشجاع ، وعقبة ، ابنا وهب ، وأربد بن جميرة .

قال ابن هشام : ويقال ابن حميرة .

قال ابن إسحاق : ومنقذ بن نباته ، وسعيد بن رقيش ، ومحرز بن نضلة ، ويزيد بن رقيش ، وقيس بن جابر ، وعمرو بن محصن ، ومالك بن عمرو ، وصفوان بن عمرو ، وثقف بن عمرو ، وربيعة بن أكثم ، والزبير بن عبيد وتمام بن عبيدة ، وسخبرة بن عبيدة ، ومحمد بن جحش .

ومن نسائهم : زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن ، وأم حبيب بنت ثمامة ، وآمنة بنت رقيش ، وسخبرة بنت تميم ، وحمنة بنت جحش .

وقال أبو أحمد بن جحش بن رئاب ، وهو يذكر هجرة بنى أسد ابن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيعابهم فى ذلك حين دعوا إلى الهجرة :

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتها بالله برت يمينها
لنحن الألى كنا بها ، ثم لم نزل ... بمكة حتى عاد غثا سمينها
بها خيمت غنم ابن دودان وابتنت ... وما إن غدت غنم وخف قطينها
إلى الله تغدو بين مثنى وواحد ... ودين رسول الله بالحق دينها

وقال أبو أحمد بن جحش أيضا :

لما رأتنى أم أحمد غاديا ... بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول : فإما كنت لابد فاعلا ... فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشاء الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهى والرسول ومن يقم ... إلى الله يوما وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكى بدمع وتندب
ترى أن وترا نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بنى غنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس ملحب
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين : أما منهما فموفق ... على الحق مهدى ، وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلى قول النبى محمد ... فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمت بأرحام إليهم قريبة ... ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب
فأى ابن أخت بعدنا يأمننكم ... وأية صهر بعد صهرى ترقب
ستعلم يوما أينا إذ تزايلوا ... وزيل أمر الناس للحق أصوب

قال ابن هشام : قوله « ولتنا يثرب » ، وقوله « إذ لا نقرب » ، عن غير ابن إسحاق قال ابن هشام : يريد بقوله : « إذ » إذا ، كقول الله عز وجل : « إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » قال أبو النجم العجلى :

ثم جزاه الله عنا إذ جزى جنات عدن فى العلالى والعلا

اسلام عمرو بن الجموح وصنمه

فصل فى إسلام عمرو بن الجموح : وذكر صنمه الذى كان يعبده ، واسمه مناة ، وزنه فعله من منيت الدم وغيره إذا صببته ، لأن الدماء كانت تمنى عنده تقربا إليه ، ومنه سميت الأصنام الدمى ، وفى الحديث : لا والدمى لا أرى بما تقول بأسا ، وكذلك مناة الطاغية التى كانوا يهلون إليها بقديد والحظ من هذا المطالع ما فى قوله تعالى « ومناة الثالثة الأخرى » ، من الفائدة جعلها ثالثة للات والعزى ، وأخرى بالإضافة إلى مناة التى كان يعبدها عمرو بن الجموح وغيره من قومه ، فهما مناتان ، وإحداهما عن الأخرى بالإضافة إلى صاحبتها .

الآن فتشناك عن سوء الغبن

وقوله :

الغبن فى الرأى يقال غبن رأيه كما يقال سفه نفسه ، فنصبوا ، لأن المعنى : خسر نفسه ، وأوبقها وأفسد رأيه ونحو هذا .

وقوله إلها مستدن ، من السدانة ، وهى خدمة البيت وتعظيمه .

وقوله ديان الدين : الدين جمع دينه ، وهى العادة ، ويقال لها دين أيضا ، وقال ابن الطثرية ، واسمه يزيد :

أرى سبعة يسعون للوصل كلهم له عند ليلى دينة يستدينها
فألقيت سهمى بينهم حين أوخشوا فما صار لى فى القسم إلا ثمينها

ويجوز أن يكون أراد بالدين : الأديان أى هو ديان أهل الأديان ، ولكن جمعها على الدين ، لأنها ملل ونحل ، كما قالوا فى جمع : الحرة : حرائر ، لأنهن فى معنى الكرائم والعقائل ، وكذلك مرائر الشجر : وإن كانت الواحدة مرة ، ولكنها فى معنى فعيلة : لأنها عسيرة فى الذوق ، وشديدة على الأكل ، وكريهة إليه .

تسمية بعض من شاهد العقبة : فصل : وذكر ابن إسحاق تسمية من حضر العقبة ، وذكر أنسابهم إلا أبا الهيثم بن التيهان ، وقد ذكرنا اسمه واسم أبيه ، وما قيل فى نسبه فى ذكر العقبة الأولى .

وذكر قطبة بن عامر ، والقطبة فيما ذكر أبو حنيفة واحدة القطب ، وهى شوكة مدحرجة فيها ثلاث شويكات ، وهى تشبه حسك السعدان ، وقد بان بنعت أبى حنيفة له أنه الذى نسميه ببلادنا حمص الأمير . والقطبة : طرف النصل .

وذكر ذكوان بن عبد قيس ، ونسبه إلى عامر بن زريق بن عامر بن زريق بن رواحة بن غضب بن جشم ، والغضب فى اللغة : الشديد الحمرة ، وجشم معدول عن جاشم ، وهو من جشمت الأمر كما عدلوا عمر عن عامر وقد أملينا جزءاً فى أسرار ما ينصرف ، وما لا ينصرف شرحنا فيه فائدة العدل عن فاعل إلى فعل ، وما حقيقة العدل والمقصود به ، ولم لم يعدل عن أسماء الأجناس ، ولم لم يكن من الصفات إلا فى مثل عامر

. . . .

وزافر وقاثم ، ولم يكن فى مالك وصالح وسالم ، ولم خص فعل هذا البناء بالعدل إليه ، وهل عدل إلى بناء غيره أم لا ولم منع الخفض والتنوين إذا كان معدولا إلى هذا البناء ، فمن اشتاق إلى معرفة هذه الأسرار فلينظرها هنالك ، فإن ابن جنى قد حام فى كتاب الخصائص على بعضها ، فما ورد ، وصاصأ فما فقح .

وذكر فى بنى بياضة عمرو بن وذفة بذال معجمة . وقال ابن هشام : ودفة بدال مهملة : وهو الأصح ، والودفة : الروضة الناعمة سميت بذلك ، لأنها تقطر ماء من نعمتها ، والأداف الذكر وأصله : وداف سمى بذلك الموضع قطر الماء والمنى منه ، ويقال للروضة الناعمة : الدفرى ، وعمرو بن ودفة هذا هو البياضى الذى روى عنه مالك فى كتاب الصلاة ، ولم يسمه ، وفى الأنصار بنو النجار ، وهم تيم الله بن ثعلبة، سمى النجار فيما ذكروا لأنه نجر وجه رجل بقدوم وقيل : كان نجاراً ، وثعلبة فى العرب كثير فى الرجال ، وقل ما يسمون بثعلب ، وإن كان ذلك هو القياس كما يسمون بنمر وسبع وذئب ، ولكن الثعلب اسم مشترك ، إذ يقال ثعلب الرمح ، وثعلب الحوض ، وهو مخرج الماء منه ، وفى الحديث حتى قام أو لبابة يسد ثعلب مربده بردائه ، فكأنهم عدلوا عن التسمية بثعلب لهذا الاشتراك ، مع أن الثعلبة أحمى لأدراصها وأغير على أجرائها من الثعلب .

وذكر قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبنى سلمة من سيدكم ؟ فقالوا جد بن قيس على بخل فيه ، فقال : وأى داء أكبر من البخل ؟ بل سيدكم الأبيض الجعد : بشر بن البراء ، وروى عن الزهرى وعامر الشعبى أنهما قالا فى هذا الحديث عن النبى عليه السلام : بل سيدكم عمرو بن الجموح ،وقال شاعر الأنصار فى ذلك :

وقال رسول الله ، والحق قوله   لمن قال منا من تعدون سيدا

فقالوا له : جد بن قيس على التى   نبخله فيها ، وما كان أسودا

فسود عمرو بن الجموح لجوده   وحق لعمرو عندنا أن يسودا

فصل : وذكر خديج بن سلامة البلوى ،وهو : خديج بخاء منقولة مفتوحة ودال مكسورة ، كذا ذكره الدارقطنى وغيره ، وذكره الطبرى ، وقال : شهد بدرا ، وقال يكنى أبا رشيد :

وذكر معاذ بن جبل ونسبه إلى أدى بن سعد بن على أخى سلمة ، وقد انقرض عقب أدى ، وآخر من مات منهم عبد الرحمن بن معاذ بن جبل ، وقد يقال فى أدى أيضا : أذن فى غير رواية ابن إسحاق وابن هشام .

وذكر أن معاذ بن جبل مات فى طاعون عمواس ، هكذا تقيد فى النسخة عمواس بسكون الميم ، وقال فيه البكرى فى كتاب المعجم من أسماء البقع : عمواس بفتح الميم والعين ، وهى قرية بالشام عرف الطاعون بها لأنه منها بدأ وقيل : إنما سمى : طاعون عمواس لأنه عم وآسى أى جعل بعض الناس أسوة بعض .

وذكر يزيد بن ثعلبة بن خزمة بسكون الزاى كذا قال فيه ابن إسحاق وابن الكلبى ، وقال الطبرى فيه خزمة بتحريك الزاى ، وهو بلوى من بنى عمارة بفتح العين وتشديد الميم ، ولا يعرف عمارة فى العرب إلا هذا ، كما لا يعرف عمارة بكسر العين إلا أبى بن عمارة الذى يروى حديثا فى المسح على الخفين ، وقد قيل فيه عمارة بضم العين ، وأما سوى هذين فعمارة بالضم ، غير أن الدارقطنى ذكر عن محمد بن حبيب عن ابن الكلبى فى نسب قضاعة : قال مدرك بن عبد الله القمقام بن عمارة بن زويد بن مالك . وفى النساء عمارة بنت نافع ، وهى أم محمد ابن عبد الله بن عبد الرزاق ، وفى الأنصار خزمة سوى هذا المذكور بفتح الزاى كثير .

وذكر بنى الحبلى والنسب إليه حبلى بضم الحاء والباء قاله سيبويه على غير قياس النسب ، وتوهم بعض من ألف فى العربية أن سيبويه قال فيه : حبلى بفتح الباء لما ذكره مع جذمى فى النسب إلى جذيمة ولم يذكره سيبويه معه ، لأنه على وزنه ، ولكن لأنه شاذ مثله فى القياس الذى ذكرناه عن سيبويه من تقييده بالضم ،ذكره أبوعلى القالى فى البارع ، وقال هكذا تقيد فى النسخ الصحيحة من سيبويه ، وحسبك من هذا أن جميع المحدثين يقولون : أبو عبد الرحمن الحبلى بضمتين ، لا يختلفون فى ذلك ، فدل هذا كله على غلط من نسب إلى سيبويه أنه بفتح الباء .

هجرة أم سلمة وعثمان بن أبى طلحة : فصل : وذكر هجرة أم سلمة وصحبة عثمان بن طلحة لها ، وهو يومئذ على كفره ، وإنما أسلم عثمان فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، وقتل يوم أحد إخوته مسافع ، وكلاب والحارث ، وأبوهم وعمه عثمان بن أبى طلحة قتل أيضا يوم أحد كافراً وبيده كانت مفاتيح الكعبة ودفعها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الفتح إلى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، وإلى ابن عمه شيبة بن أبى عثمان بن أبى طلحة وهو جد بنى شيبة حجبة الكعبة ، واسم أبى طلحة جدهم : عبد الله بن عبد العزى وقتل عثمان رحمه الله شهيداً بأجنادين فى أول خلافة عمر .

هجرة بنى جحش : وذكر هجرة بنى جحش ، وهم : عبد الله وأبو أحمد واسمه : عبد ، وقد كان أخوهم عبيد الله أسلم ثم تنصر بأرض الحبشة ، وزينب بنت جحش أم المؤمنين التى كانت عند زيد بن حارثة ونزلت فيها : فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ، وأم حبيب بنت جحش التى كانت تستحاض ، وكانت تحت عبد الرحمن بن عوف وحمنة بنت جحش التى كانت تحت مصعب بن عمير ، وكانت تستحاض أيضا ، وقد روى أن زينب استحيضت أيضا ، ووقع فى الموطأ أن زينب بنت جحش التى كانت تحت عبد الرحمن بن عوف ، وكانت تستحاض ولم تك قط زينب عند عبد الرحمن بن عوف ، ولا قاله أحد ، والغلط لا يسلم بشر منه ، وإنما كانت تحت عبد الرحمن أختها أم حبيب ، ويقال فيها أم حبيبة ، غير أن شيخنا أبا عبد الله محمد بن نجاح أخبرنى أن أم حبيب كان اسمها : زينب فهما زينبان غلبت على إحداهما الكنية ، فعلى هذا لايكون فى حديث الموطأ وهم ولا غلط والله أعلم . وكان اسم زينب بنت جحش : برة فسماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب ، وكذلك زينب بنت أم سلمة ربيبته عليه السلام ،كان اسمها برة ، فسماها زينب كأنه كره أن تزكى المرأة نفسها بهذا الاسم ، وكان اسم جحش بن رئاب : برة بضم الباء ، فقالت زينب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله لو غيرت اسم أبى ، فان البرة صغيرة ، فقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : لو أبوك مسلما لسميته باسم من أسمائنا أهل البيت ، ولكنى سميته جحش والجحش أكبر من البرة . وذكر هذا الحديث مسنداً فى كتاب المؤتلف والمختلف أبو الحسن الدار قطنى .

الشعر الذى تمثل به أبو سفيان : فصل : ذكر البيت الذى تمثل به أبو سفيان حين مر بدار بنى جحش تخفق أبوابها ، وهو قوله :

وكل بيت وإن طالت سلامته	يوما ستدركه النكباء والحوب
كل امرىء بلقاء الموت مرتهن	كأنه غرض للموت منصوب

والشعر لأبى دؤاد الإيادى واسمه : حنظلة بن شرقى ، وقيل جارية بن الحجاج دار بنى جحش ، وأنها عند دار أبان بن عثمان بالردم ؛ والردم حفر ردم بالقتلى فى الجاهلية ، فسمى : الردم ؛ وذلك فى حرب كانت بين

بنى جمح ، وبين بنى الحارث بن فهر ، وكانت الدبرة فيها على بنى الحارث ، ولذلك قل عددهم ، فهم أقل قريش عدداً .

وذكر ابن إسحاق شعر أبى أحمد بن جحش وفيه :

إلى الله وجهى والرسول ومن يقم　　　إلى الله يوما وجهه لايخيب

هكذا يروى بكسر الباء على الإقواء ، ولو روى بالرفع لجاز على الضرورة ويكون تقديره : فلا يخيب بإضمار الفاء فى مذهب أبى العباس ، وفى مذهب سيبويه : يجوز أيضاً لا على إضمار الفاء ، ولكن على نية التقديم للفعل على الشرط كما أنشدوا :

إنك إن يصرع أخوك تصرع

وهو مع إن أحسن ، لأن التقدير إنك تصرع إن يصرع أخوك . وأنشدوا أيضاً :

من يفعل الحسنات الله يشكره

على هذا التقدير ، وفى الشعر أيضاً :

ولا قرب بالأرحام إذ لاتقرب

وتأول ابن هشام إذ هنا بمعنى : إذا وهو خطأ من وجهين ، أحدهما : أن الفعل المضارع لايحسن بعد إذا مع حرف النفى ، وإنما يحسن بعد إذ كقوله سبحانه : « إذ يقول المنافقون » ولو قلت : سآتيك إذا تقول كذا ، كان قبيحا إذا أخرتها ، أو قدمت الفعل لما فى إذا من معنى الشرط ، وإنما يحسن هذا فى حروف الشرط مع لفظ الماضى ، يقول : سآتيك إن قام زيد ، ويقبح : سآتيك إن يقم زيد ، لأن حرف الشرط إذا أخر ألغى ، وإذا ألغى لم يقع الفعل المعرب بعده ، غير أنه حسن فى كيف نحو قوله سبحانه « ينفق كيف يشاء » ويبسطه فى السماء كيف يشاء ، لسر بديع لعلنا نذكره إن وجدنا لشفرتنا محزاً ، ويحسن الفعل المستقبل مع إذا بعد القسم كقوله تعالى : « والليل إذا يسرى » لانعدام معنى الشرط فيه ، فهذا وجه ، والوجه الثانى : أن إذ بمعنى إذا غير معروف فى الكلام ، ولا حكاه ثبت ، وما استشهد به من قول رؤبة ليس على ماظن إنما معناه : ثم جزاه الله ربى إن جزى ، أى من أجل أن نعمى وجزى عنى ، كما قال تعالى : « يوم لاتجزى نفس عن نفس شيئاً » ففاعل جزى : مضمر عائد على الرجل الممدوح ، وإذ بمعنى أن المفتوحة كذا قال سيبويه فى سواد الكتاب ، ويشهد له قوله سبحانه : « بعد إذ أنتم مسلمون » وعليه يحمل قوله سبحانه « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم » وغفل الفسوى عما فى الكتاب من هذا ، وجعل الفعل المستقبل الذى بعد ان عاملا فى الظرف الماضى ، فصار بمنزلة من يقول : سآتيك اليوم أمس ، وهذا هراء من القول ، وغفلة عما فى كتاب سيبويه ، وليت شعرى مايقول فى قوله سبحانه : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » فإن جوز وقوع المستقبل فى الظرف الماضى على أصله الفاسد . فكيف يعمل مابعد الفاء فيما قبلها لاسيما مع السين ، وهو قبيح أن تقول : غدا سآتيك ، فكيف إن قلت : غدا فسآتيك . فكيف إن زدت على هذا وقلت : أمس فسآتيك ، وإذ على أصله بمنزلة أمس ، فهذا فضائح لاغطاء عليها .

فإن قال قائل : فكيف الوجه فى قوله سبحانه « ولو ترى إذ وقفوا » وكذلك : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم » أليس هذا كما قال ابن هشام بمعنى إذا التى تعطى الاستقبال ؟ .

قيل له : وكيف تكون بمعنى إذا ، وإذا لايقع بعدها الابتداء والخبر . وقد قال سبحانه : « إذ المجرمون

. . . .

ناكسو رءوسهم ، وإنما التقدير : ولو ترى ندمهم وحزنهم فى ذلك اليوم بعد وقوفهم على النار ، فإذ ظرف ماض على أصله ، ولكن بالإضافة إلى حزنهم وندامتهم ، فالحزن والندامة واقعان بعد المعاينة والتوقيف ، فقد صار وقت التوقيف ماضيا بالإضافة إلى ما بعده ، والذى بعده هو مفعول ترى ، وهذا نحو مما يتوهم فى قوله سبحانه : «فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها» فيتوهم أن إذا هاهنا بمعنى إذ ، لأنه حديث قد مضى ، وليس كما يتوهم ، بل هى على بابها ، والفعل بعدها مستقبل بالإضافة إلى الانطلاق ، لأنه بعده ، والانطلاق قبله ، ولولا حتى ، ماجاز أن يقال إلا انطلقا إذ ركبا ، ولكن معنى الغاية فى حتى دل على أن الركوب كان بعد الانطلاق وإذا كان بعده ، فهو مستقبل بالإضافة إليه ، وكذلك مسألتنا الحزن ، وسوء الحال الذى هو مفعول لترى ، وإن كان غير مذكور فى اللفظ ، فهو بعد وقت الوقوف ، فوقت الوقوف ماض بالإضافة إليه ، وإذ لم يكن بد من حذف ، فكذلك نقدر حذفا فى قوله تعالى : «وإذ لم يهتدوا به» ونحوه لأنها وإن كانت بمعنى أن ، فلا بد لها من تعلق ، كأنه قال : جزيتم بهذا من أجل أن ظلمتم ، أو من أجل أن لم يهتدوا به ضلوا .

جذامة — من نساء بنى جحش : وذكر فى نساء بنى جحش : جذامة بنت جندل ، وأحسبه أراد جذامة بنت وهب بن محصن ، وهى المذكورة فى حديث الرضاع فى الموطأ ، وقال فيها خلف بن هشام البزار : جذامة بالذال المنقوطة هكذا ذكر عنه مسلم بن الحجاج والمعروف : جدامة بالدال ، وقد يقال فيها جدامة بالتشديد ، والجدامة قصب الزرع ، وأملى علينا أبو بكر الحافظ ، وكتبت عنه بخط يدى قال المبارك بن عبد الجبار عن أبى إسحاق البرمكى عن محمد بن زكريا بن حبويه عن أبى عمر الزاهد المطرز قال : الجدامة : بتشديد الدال طرف السعفة وبه سميت المرأة ، وكانت جدامة بنت وهب تحت أنيس بن قتادة الأنصارى وأما جدامة بنت جندل ، فلا تعرف فى آل جحش الأسديين ، ولا فى غيرهم ، ولعله وهم وقع فى الكتاب ، وأنها بنت وهب بن محصن بنت أخى عكاشة بن محصن ، كما قدمنا والله أعلم .

ثقف بن عمرو : وذكر فى بنى أسد ثقف بن عمرو ، ويقال فيه : ثقاف شهد هو وأخوه مدلاج بدرا وقتل يوم أحد شهيدا وقال موسى بن عقبة قتل يوم خيبر قتله أسير اليهودى

أم حبيب بنت ثمامة : وذكر فيهم أم حبيب بنت ثمامة ، وهى مما أغفله أبو عمرو فى كتابه ، وأغفل أيضاً ذكر ثمام بن عبيدة ، وهو ممن ذكره ابن إسحاق فى هذه الجملة المذكورين من بنى أسد .

أربد بن جميرة : وذكر ابن اسحاق فى هذه الجملة أربد بن جميرة الأسدى بالجيم ، وقاله ابن هشام : حميرة بالحاء ، ورواه إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق بخلاف ما رواه البكائى وابن هشام ، فقال فيه ابن حمير بتشديد الياء ، كأنه تصغير حمار .

محرز بن نضلة : وذكر فيهم محرز بن نضلة ، ولم يرفع نسبه ، وهو ابن نضلة بن عبد الله بن مرة بن غنم بن دودان بن أسد قتل فى غزوة ذى قرد شهيداً ، وكان قد شهد بدراً ، وكان يعرف بالأخرم ، ويلقب : فهيرة ، وقال فيه موسى بن عقبة محرز بن وهب ، ولم يقل ابن نضلة .

يزيد بن رقيش : وذكر ابن اسحاق أيضاً يزيد بن رقيش ، وبعضهم يقول فيه : أربد ولا يصح ، وهو ابن رئاب بن يعمر بن كبير بن غنم بن دودان وذكر فيهم ربيعة بن أكثم ، ولم ينسبه وهو ابن سخبرة بن عمرو بن نفير بن عامر بن غنم بن دودان بن أسد يكنى : أبا يزيد ، وكان قصيراً دحداحاً قتل يوم خيبر بالنطاة قتله الحارث اليهودى .

هجرة عمر عياش

قال ابن إسحاق : ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى حتى قدما المدينة . فحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله بن عمر ، عن أبيه عمر بن الخطاب ، قال . اتعدت ، لما أردنا الهجرة إلى المدينه ، أنا وعياش بن أبى ربيعة ، وهشــــام بن العاصى بن وائل السهمى التناضب من أضاة بنى غفار ، فوق سرف ، وقلنا : أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه . قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب ، وحبس عنا هشام ، وفتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فـكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك : فرق لها ، فقلت له : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت : قال : أبر قسم أمى ، ولى هنالك مال فآخذه . قال : فقلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما . قال : فأبى على إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك ، قال : قلت له : أما إذ قد فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فان رابك من القوم ريب ، فانج عليها . فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل : يا ابن أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ قال : بلى : قال : فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة ، وفتناه فافتتن .

قال ابن إسحاق : فحدثنى به بعض آل عياش بن أبى ربيعة : أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً ، ثم قالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفيهنا هذا .

كتاب عمر إلى هشام بن العاصى : قال ابن إسحاق : وحدثنى نافع ، عن عبد الله بن عمر ، عن عمر فى حديثه ، قال : فكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ! قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أنزل الله تعالى فيهم ، وفى قولنا وقولهم لأنفسنا : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » .

قال عمر بن الخطاب . فكتبتها بيدى فى صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاصى قال : فقال هشام بن العاصى : فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى ، أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها ، حتى قلت اللهم فهمنيها . قال : فألقى الله تعالى فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيرى ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بالمدينة .

أمر الوليد بن الوليد مع عياش وهشام : قال ابن هشام : فحدثنى من أثق به : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

. . . .

قال ، وهو بالمدينة : من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاصى ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج إلى مكة ، فقدمها مستخفياً ، فلقى امرأة تحمل طعاماً ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين ـ تعنيهما ـ فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما فكان يقال لسيفه: « ذو المروة » . لذلك ، ثم حملهما على بعيره ، وساق بهما ، فعثر فدميت أصبعه ، فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت ‌ ‌ ‌ ‌ وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة .

منازل المهاجرين بالمدينة

قال ابن إسحاق : ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ، ومن لحق به من أهله وقومه ، وأخوه زيد بن الخطاب ، وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر وخنيس بن حذافة السهمى ـ وكان صهره على ابنته حفصة بنت عمر ، فخلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده ـ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وواقد بن عبدالله التميمى ، حليف لهم ، وخولى بن أبى خولى ، ومالك بن أبى خولى حليفان لهم .

قال ابن هشام : أبو خولى من بنى عجل بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل .

قال ابن إسحاق : وبنو البكير أربعتهم : إياس بن البكير ، وعاقل ابن البكير ، وعامر بن البكير ، وخالد ابن البكير ، وحلفاؤهم من بنى سعد بن ليث ، على رفاعة بن المنذر بن زنبر ، فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وقد كان منزل عياش بن أبى ربيعة معه عليه حين قدما المدينة .

ثم تتابع المهاجرون ، فنزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف أخى بلحارث ابن الخزرج بالسنح . قال ابن هشام : ويقال : يساف فيما أخبرنى عنه ابن إسحاق . ويقال : بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة ، أخى بنى النجار .

قال ابن هشام : وذكر لى عن أبى عثمان النهدى ، أنه قال : بلغنى أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا نعم . قال : فإنى جعلت لكم مالى . قال : فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ربح صهيب ربح صهيب .

قال ابن إسحاق : ونزل حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وأبو مرثد كناز بن حصن .

قال ابن هشام : ويقال ، ابن حصين ـ وابنه مرثد الغنويان ، حليفا حمزة بن عبد المطلب ، وأنسة ، وأبو كبشة ، موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على كلثوم بن هدم ، أخى بنى عمرو بن عوف بقباء : ويقال : بل نزلوا على سعد بن خيثمة ، ويقال . بل نزل حمزة بن عبد المطلب على أسعد بن زرارة ، أخى بنى النجار . كل ذلك يقال .

ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وأخوه الطفيل بن الحارث ، والحصين بن الحارث ، ومسطح بن أثاثه بن عباد بن المطلب ؛ وسويبط بن سعد بن حريملة ، أخو بنى عبد الدار ، وطليب بن عمير ، أخو بنى

عبد بن قصى ، وخباب مولى عتبة بن غزوان ، على عبد الله بن سلمة ، أخى بلعجلان بقباء .

ونزل عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخى بلحارث بن الخزرج ، فى دار بلحارث بن الخزرج .

ونزل الزبير بن العوام ، وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى ، على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة ، دار بنى جحجبى .

ونزل مصعب بن عمير بن هاشم ، أخو بنى عبد الدار على سعد بن معاذ بن النعمان ، أخى بنى عبد الأشهل ، فى دار بنى عبد الأشهل .

ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسالم مولى أبى حذيفة .

قال ابن هشام : سالم مولى أبى حذيفة سائبة ، لثبيتة (أو نبتة) بنت يعار بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك ابن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، سيبته فانقطع إلى أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة فتبناه ، فقيل : سالم مولى أبى حذيفة ويقال : كانت ثبيتة بنت يعار تحت أبى حذيفة بن عتبة فأعتقت سالما سائبة . فقيل : سالم مولى أبى حذيفة .

قال ابن إسحاق : ونزل عتبة بن غزوان بن جابر على عباد بن بشر بن وقش أخى بنى عبد الأشهل فى دار عبد الأشهل .

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر ، أخى حسان بن ثابت فى دار بنى النجار . فلذلك كان حسان يحب عثمان ويبكيه حين قتل .

وكان يقال : نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة ، وذلك أنه كان عزبا ، فالله أعلم أى ذلك كان .

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، إلا على بن أبى طالب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيرا مايستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

قريش تتشاور فى أمره عليه السلام : قال ابن إسحاق : ولما رأت قريش أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا ، وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعرفوا أنهم قد أجمع لحربهم . فاجتمعوا له فى دار الندوة – وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لاتقضى أمرا إلا فيها – يتشاورون فيها مايصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خافوه .

قال ابن إسحاق ، فحدثنى من لاأتهم من أصحابنا ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد بن جبر أبى الحجاج ، وغيره ممن لاأتهم ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : لما أجمعوا لذلك ، واتعدوا أن يدخلوا فى دار الندوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له ، وكان ذلك يوم

يسمى يوم الرحمة ، فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل ، عليه بتلة ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفا على بابها ، قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ماتقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا ، قالوا : أجل ، فأدخل ، فدخل معهم ، وقد اجتمع فيها أشراف قريش ، من بنى عبد شمس : عتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب . ومن بنى نوفل بن عبد مناف : طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل : ومن بنى عبد الدار بن قصى : النضر بن الحارث بن كلدة . ومن بنى أسد بن عبد العزى : أبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حزام . ومن بنى مخزوم : أبو جهل بن هشام . ومن بنى سهم : نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، ومن بنى جمح : أمية بن خلف ، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ماقد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا ، قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ماأصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدى لا والله ، ماهذا لكم برأى . والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ماهذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره ، فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله مانبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت . فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ماهذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لوفعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا . قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وماهو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه . فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم . قال : فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره ، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

استخلاف لعلى : فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه . قال : فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

قال ابن إسحاق : فحدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى قال : لما اجتمعوا له ، وفيهم أبو جهل بن هشام فقال وهم على بابه : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره ، كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها .

. . . .

قال : وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم ، وهو يتلو هؤلاء الآيات من « يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم » . . وإلى قوله : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، حتى فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدا ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون ، فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، فيقولون والله إن هذا لمحمد نائما ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على ـ رضى الله عنه ـ عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

ما نزل فى تربص المشركين بالنبى : قال ابن إسحاق : وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم ، وما كانوا أجمعوا له : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » ، وقول الله عز وجل : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » .

قال ابن هشام : المنون : الموت . وريب المنون : ما يريب ويعرض منها . قال أبو ذؤيب الهذلى :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

وهذا البيت فى قصيدة له :

قال ابن إسحاق : وأذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عند ذلك فى الهجرة .

أبو بكر يطمع فى المصاحبة : قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلا ذا مال ، فكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تعجل ، لعل الله يجد لك صاحبا ، قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يعنى نفسه ، حين قال له ذلك ، فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره ، يعلفهما إعدادا لذلك .

حديث الهجرة إلى المدينة : قال ابن إسحاق : فحدثنى من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كان لا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة ، وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر ، قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث . قالت : فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عنى من عندك : فقال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك ؟ فداك أبى وأمى ! فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة . قالت : فقال أبو بكر ، الصحبة يا رسول الله ، قال الصحبة . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يبكى

يومئذ ، ثم قال : يانبى الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا فاستأجرا عبد الله بن أرقط - رجلا من بنى الديل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو ، وكان مشركا - يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغنى ، بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد . حين خرج ، إلا على بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر . أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع ، التى كانت عنده للناس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم .

فى الغار : قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمد إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال : انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية ، يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

من قام بشأن الرسول فى الغار : قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثا ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة ، لمن يرده عليهم . وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصاما ، ثم علقتها به .

سبب تسمية أسماء بذات النطاقين : فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق ، لذلك .

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين ، وتفسيره : أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر .

راحلة الرسول : قال ابن إسحاق : فلما قرب أبو بكر ، رضى الله عنه ، الراحلتين إلى رسول الله صلى الله

. . . .

عليه وسلم ، قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب ، فداك أبي وأمي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بعيراً ليس لي ، قال : فهي لك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال : لا ، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال : قد أخذتها به ، قال : هي لك يا رسول الله . فركبا وانطلقا . وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ، ليخدمهما في الطريق .

أبو جهل يضرب أسماء : قال ابن إسحاق : فحدثت أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي . قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشا خبيثاً ، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي .

الجني الذي تغنى بمقدم الرسول صلى الله عليه وسلم : قالت : ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

نسب أم معبد : قال ابن هشام : أم معبد بنت كعب ، امرأة من بني كعب ، من خزاعة وقوله « حلا خيمتي » و « هما نزلا بالبر ثم تروحا » عن غير ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أرقط دليلهما .

قال ابن هشام : ويقال : عبد الله بن أريقط .

موقف آل أبي بكر بعد الهجرة : قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبادا حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر ، قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

سراقة بن مالك : قال ابن إسحاق وحدثني الزهري أن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم حدثه ، عن أبيه ،

. . . .

عن عمه سراقة بن مالك بن جعشم ، قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فبينا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا ، حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفاً ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه ، قال : فأومأت إليه بعينى أن اسكت ثم قلت قليلا ، إنما هم بنو فلان ، يبتغون ضالة لهم ، قال : لعله ؛ ثم سكت . قال ثم مكثت ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى ، فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت ، فلبست لأمتى ثم أخرجت قداحى ، فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » قال : وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذ المائة الناقة . قال : فركبت على أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى ، فسقطت عنه . قال : فقلت : ما هذا ؟ قال ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » قال : فأبيت إلا أن أتبعه . قال : فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى ، فسقطت عنه . قال : فقلت : ما هذا ؟ ، قال : ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » قال : فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره . فلما بدا لى القوم ورأيتهم ، عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالإعصار . قال : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر . قال : فناديت القوم : فقلت : أنا سراقة بن جعشم : انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : قل له : وما تبتغى منا ؟ قال فقال ذلك أبو بكر ، قال : قلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك . قال : اكتب له يا أبا بكر .

فكتب لى كتاباً فى عظم ، أو فى رقعة ، أو فى خزفة ، ثم ألقاه إلى ، فأخذته ، فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر شيئا مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة . قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار : قال : فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه كأنها جمارة . قال : فرفعت يدى بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا سراقة بن جعشم ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه . قال : فدنوت منه ، فأسلمت . ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله، الضالة من الإبل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم ، فى كل ذات كبد حرى أجر . قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى . قال ابن هشام : عبد الرحمن بن الحارث بن مالك بن جعشم .

هجرة عمر وعياش : ذكر فيها تواعدهم التناضب بكسر الضاد ، كأنه جمع تنضب وهو ضرب من الشجر ، تألفه الحرباء . قال الشاعر :

إنى أتيح له حرباء تنضبة لا يرسل الساق إلا ممسكا ساقا

ويقال لثمره المتنع وهو فنعل أدغمت النون فى الميم وظاهر قول سيبويه : أنه فعلل وأنه مما لحقته الزيادة بالتضعيف ، والقول الأول يقويه أن مثله الهندلع ، وهو نبت وتتخذ من هذا الشجر القسى كما تتخذ من النبع والشوحط والشريان والسراء والأشكل ، ودخان التنضب ، ذكره أبو حنيفة فى النبات .

. . . .

وقال الجعدى :

كأن الغبار الذى غادرت ضحيا دواخن من تنضب

شبه الغبار بدخان التنضب لبياضه . وقال آخر :

وهل أشهدن خيلا كأن غبارها بأسفل عاكد دواخن تنضب

وأضاة بنى غفار على عشرة أميال من مكة ، والأضاة الغدير ، كأنها مقلوب من وضاة على وزن فعلة ، واشتقاقه من الوضاءة بالمد وهى النظافة ، لأن الماء ينظف ، وجمع الأضاة أضاء وقال النابغة :

علين بكديون وأبطن كرة وهن إضاء صافيات الغلائل

وهذا الجمع يحتمل أن يكون غير مقلوب ، فتكون الهمزة بدلا من الواو المكسورة فى وضاء ، وقياس الواو المكسورة تقتضى الهمز على أصل الاشتقاق ، ويكون الواحد مقلوبا لأن الواو المفتوحة لا تهمز ، مع أن لام الفعل غير همزة ، وقد يجوز أن يكون الجمع محمولا على الواحد فيكون مقلوبا مثله ، ويقال أضاء بالمد ، وقد يجمع أضاة على إضين ، قاله أبو حنيفة وأنشد :

محافر كأسرية الإضينا

الأسرية : جمع سرى ، وهو الجدول ، ويقال له أيضاً : السعيد .

قل ياعبادى الذين أسرفوا : فصل : وذكر نزول الآية : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » الآية فى المستضعفين بمكة ، وقول هشام بن العاص ، فناجانى وأنا بذى طوى . طوى : مقصور موضع بأسفل مكة ، ذكر أن آدم لما أهبط إلى الهند ، ومشى إلى مكة ، وجعل الملائكة ، تنتظره بذى طوى ، وأنهم قالوا له : يا آدم مازلنا ننتظرك هاهنا منذ ألفى سنة ، وروى أن آدم كان إذا أتى البيت خلع نعليه بذى طوى ، وأما ذو طواء بالمد ، فموضع آخر بين مكة والطائف هكذا ذكره البكرى ، وأما طوى بضم الطاء والقصر المذكور فى التنزيل ، فهو بالشام اسم للوادى المقدس ، وقد قيل : ليس باسم له ، وإنما هو من صفة التقديس ، أى : المقدس مرتين .

نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف : فصل : وذكر نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف ويقال فيه يساف بياء مفتوحة فى غير رواية الكتاب ، وهو إساف بن عنبة ، ولم يكن حين نزول المهاجرين عليه مسلما فى قول الواقدى بل تأخر إسلامه ، حتى خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بدر ، قال خبيب : فخرجت معه أنا ورجل من قومى ، وقلنا له : نكره أن يشهد قومنا مشهداً لانشهده معهم ، فقال : أسلمتما ؟ فقلنا : لا ، فقال : ارجعا ، فإنا لانستعين بمشرك .

وخبيب هو الذى خلف على بنت خارجة بعد أبى بكر الصديق ، واسمها : حبيبة ، وهى التى يقول فيها أبو بكر عند وفاته : ذو بطن بنت خارجة أراها جارية وهى : بنت خارجة بن أبى زهير ، والجارية : أم كلثوم بنت أبى بكر ، مات خبيب فى خلافة عثمان ، وهو جد خبيب بن عبد الرحمن ، الذى يروى عنه مالك فى موطئه .

أنسة وأبو كبشة : وذكر أنسة وأبا كبشة فى الذين نزلوا على كلثوم بن الهدم ، فأما أنسة مولى رسول الله ـ

. . . .

صلى الله عليه وسلم ، فهو من مولدى السراة ، ويكنى : أبا مسروح ، وقيل : أبا مشرح شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومات فى خلافة أبى بكر ، وأبو كبشة اسمه : سليم يقال إنه من فارس ، ويقال : من مولدى أرض دوس ، شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومات فى خلافة عمر فى اليوم الذى ولد فيه عروة بن الزبير ، وأما الذى كانت كفار قريش تذكره وتنسب النبى عليه السلام إليه ، وتقول : قال ابن أبى كبشة وفعل ابن أبى كبشة فقيل فيه أقوال : قيل : إنها كنية أبيه لأمه وهب بن عبد مناف ، وقيل : كنية أبيه من الرضاعة الحارث بن عبد العزى ، وقيل : إن سلمى أخت عبد المطلب كان يكنى أبوها أبا كبشة وهو عمرو بن لبيد ، وأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشعرى وحده دون العرب ، فنسبوه إليه لخروجه عن دين قومه .

وذكر الدارقطنى اسم أبى كبشة هذا فى المؤتلف والمختلف ، فقال : اسمه وجز بن غالب ، وهو خزاعى ، وهو من بنى غبشان .

نزولهم بقباء : وذكر نزولهم بقباء ، وهو مسكن بنى عمرو بن عوف وهو على فرسخ من المدينة ، وهو يمد ويقصر ويؤنث ويذكر ، ويصرف ولا يصرف ، وأنشد أبو حاتم فى صرفه :

ولأبغينكم قبأ وعوارضاً   ولأقبلن الخيل لابة ضرغد

وكذلك أنشده قاسم بن ثابت فى الدلائل قبا بضم القاف الباء وهو عند أهل العربية تصحيف منهما جميعاً ، وإنما هو كما أنشده سيبويه : قناً وعوارضاً ، لأن قناً جبل عند عوارض يقال له ، ولجبل آخر معه قنوان وبينها وبين قباء مسافات وبلاد ، فلا يصح أن يقرن قباء الذى عند المدينة مع عوارض وقنوين ، وكذا قال البكرى فى معجم ما استعجم وأنشد :

كأنها لما بدا عوارض   والليل بين قنوين رابض

وقباء : مأخوذ من القبو ، وهو الضم والجمع قاله أبو حنيفة ، وقال : القوابى هن اللواتى يجمعن العصفر واحدتهن : قابية . قال : وأهل العربية يسمون الضمة من الحركات قبواً ، وأما أقولهم : لا والذى أخرج قوباً من قابية يعنون : الفرخ من البيضة فمن قال فيه : قابية بتقديم الباء ، فهو القبو الذى يقدم ، ومن قال فيه : قايبة ، فهو من لفظ القوب لأنها تتقوب عنه ، أى تتقشر قال الكميت يصف النساء :

لهن وللمشيب ومن علاه   من الأمثال قابية وقوب

وفى حديث عمر : فكانت قابية قوب عامها ، يعنى : العمرة فى أشهر الحج ، وقد ذكر أن قباء اسم بئر عرفت القرية بها .

سالم مولى أبى حذيفة : فصل : وذكر سالم مولى أبى حذيفة الذى كان أبو حذيفة قد تبناه كما تبنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيدا ، وكان سائبة أى : لاولاء عليه لأحد ، وذكر المرأة التى أعتقته سائبة ، وهى ثبيتة بنت يعار ، وقد قيل فى اسمها بثينة ذكره أبو عمر ، وذكر عن الزهرى أنه كان يقول فيها : بنت تعار وقال ابن شيبة فى المعارف : اسمها سلمى ويقل فى اسمها أيضاً : عمرة ، وقد أبطل التسييب فى العتق كثير من العلماء ، وجعلوا الولاء لكل من أعتق أخذاً بحديث النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك وجملا له على العموم ، ولما روى أيضاً عن مسعود أنه قال : لاسائبة فى الإسلام ، ورأى مالك ميراث السائبة لجماعة المسلمين ، ولم ير ولاءه لمن سيبه ، فكان

. . . .

للنسيب والعتق عنده حكمان مختلفان ، وسالم هذا هو الذى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة بنت سهيل أن ترضعه ليحرم عليها ، فأرضعته وهو ذو لحية .

فإن قيل : كيف جاز له أن ينظر إلى ثديها ، فقد روى فى ذلك أنها حلبت له فى مسعط وشرب اللبن ، ذكر ذلك محمد بن حبيب .

قريش تتشاور فى أمر النبي :ذكر فيه تمثل إبليس ـ حين أتاهم ـ فى صورة شيخ جليل وانتسابه إلى أهل نجد.

قوله فى صورة شيخ جليل يقول : جل الرجل وجلت المرأة إذا أسنت ، قال الشاعر :

وما حظها أن قيل عزت وجلت

ويقال منه : جللت يارجل بفتح اللام ، وقياسه جللت لأن اسم الفاعل منه : جليل ، ولكن تركوا الضم فى المضاعف كله استثقالاله مع التضعيف إلا فى لببت ، فأنت لبيب ، حكاه سيبويه بالضم على الأصل .

وإنما قال لهم : إنى من أهل نجد فيما ذكر بعض أهل السيرة ، لأنهم قالوا : لايدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل لهم فى صورة شيخ نجدى ، وقد ذكرنا فى خبر بنيان الكعبة أنه تمثل فى صورة شيخ نجدى أيضاً ، حين حكموا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر الركن : من يرفعه ، فصاح الشيخ النجدى : يامعشر قريش : أقد رضيتم أن يليه هذه الغلام دون أشرافكم وذوى أسنانكم ، فإن صح هذا الخبر فلمعنى آخر تمثل نجديا ، وذلك أن نجداً منها يطلع قرن الشيطان ، كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قيل له : وفى نجدنا يارسول الله ؟ قال : هنالك الزلازل والفتن ، ومنها يطلع قرن الشيطان ، فلم يبارك عليها ، كما بارك على اليمن والشام وغيرها ، وحديثه الآخر أنه نظر إلى المشرق ، فقال : إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان ، وفى حديث ابن عمر ، أنه حين قال هذا الكلام ، ووقف عند باب عائشة ، ونظر إلى المشرق فقاله ، وفى وقوفه عند باب عائشة ناظراً إلى المشرق يحذر من الفتن ، وفكر فى خروجها إلى المشرق عند وقوع الفتنة تفهم من الإشارة واضمم إلى هذاقوله عليه السلام حين ذكر نزول الفتن :أيقظوا صواحب الحجر . والله أعلم.

وذكر تشاورهم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن بعضهم أشار بأن يحبس فى بيت ، وبعضهم بإخراجه عليه السلام من بين أظهرهم ونفيه ، ولم يسم قائل هذا القول ، وقال ابن سلام ، الذى أشار بحبسه هو أبو البخترى ابن هشام ، والذى أشار بإخراجه ونفيه هو أبو الأسود ربيعة بن عمرو ، أحد بنى عامر بن لؤى،وقول أبى جهل نسيباً وسيطاً ، هو من السطة فى العشيره ، وقد تقدم فى باب تزويجه خديجة معنى الوسيط ، وأين يكون مدحا .

وأما قوله على بابه يتطلعون ، فيرون عليا وعليه برد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيظنونه إياه . فلم يزالوا قياما حتى أصبحوا ، فذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقحم عليه فى الدار مع قصر الجدار ، وأنهم إنما جاءوا لقتله ، فذكر فى الخبر أنهم هموا بالولوج عليه ، فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله إنهاللسبةفى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا ، فهذا هو الذى أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه ، ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج ، وفى قراءة الآيات الأول من سورة : يس من الفقه التذكرة بقراءة الخائفين لها اقتداء به عليه السلام ، فقد روى الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكره فضل يس أنها إن قرأها خائف أمن ، أو جائع شبع أو عار كسى ، أو عاطش سقى حتى ذكر خلالا كثيرة .

. . . .

وذكر ابن إسحاق ما أنزل الله فى ذلك ، وشرح ابن هشام ريب المنون ، وأنشد قول أبى ذؤيب :

أمن المنون وريبه تتفجع

والمنون يذكر ويؤنث ، فمن جعلها عبارة عن المنية أو حوادث الدهر أنث ، ومن جعلها عبارة عن الدهر ذكر ، وريب المنون ما يريبك من تغير الأحوال فيه ، سميت المنون لنزعها منن الأشياء أى : قواها ، وقيل : بل سميت منونا لقطعها دون الآمال من قولهم : حبل منين أى : مقطوع ، وفى التنزيل قوله تعالى « فلهم أجر غير ممنون » أى غير مقطوع .

الاذن للنبى بالهجرة : ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتى بيت أبى بكر فى الظهيرة : قالت عائشة : وفى البيت أنا وأختى أسماء فقال أخوج من معك ، فقاو أبو بكر : إنما هما بنتاى يارسول الله .

وقال فى جامع البخارى : إنما هم أهلك يا رسول الله ، وذلك أن عائشة قد كان أبوها أنكحها منه قبل ذلك ، وكذلك روى عن أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر ، ويقال فى اسم أبيها : رومان بفتح الراء أيضاً ، فقال ابن إسحاق فى غير رواية ابن هشام فى حديث طويل ثابت اختصرته : إن أبا بكر حين هاجر مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم خلف بناته بمكة ، فلما قدموا المدينة أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه ، وأرسل أبو بكر عبد الله بن أريقط ، وأرسل معهم خمسمائة درهم ، فاشتروا بها ظفراً بقديد ، ثم قدموا مكة فخرجوا بسودة بنت زمعة ، وبفاطمة وأم كلثوم . قالت عائشة : وخرجت أمى معهم ومع طلحة بن عبيد الله مصطحبين ، فلما كنا بقديد نفر البعير الذى كنت عليه أنا وأمى : أم رومان فى محفة ، فجعلت أمى تنادى : وابنيتاه واعروساه !! وفى رواية يونس عن بن إسحاق ، وفيه قالت عائشة : فسمعت قائلا يقول ـ ولا أرى أحداً ـ ألق خطامه ، فألقيته من يدى ، فقام البعير يستدير به : كأن إنسانا تحته يمسكه ، حتى هبط البعير من الثنية ، فسلم الله ، فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يبنى المسجد وأبياتا له ، فنزلت مع أبى بكر ، ونزلت سودة بنت زمعة فى بيتها ، فقال أبو بكر : ألا تبنى بأهلك يا رسول الله ، فقال لولا الصداق ، قالت : فدفع إليه ثنتى عشرة أوقية : ونشا ، والنش :عشرون درهماوذكرت الحديث . ورواه ابن أبى الزناد عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة .

راحلته صلى الله عليه وسلم : وفى حديث ابن إسحاق أن أبا بكر كان قد أعد راحلتين ، فقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة ، وهى أفضلهما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لا أركب بعيراً ليس لى فقال أبو بكر : هو لك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالثمن ، فقال أبو بكر : بالثمن يارسول الله فركبها ، فسئل بعض أهل العلم . لم لم يقبلها إلا بالثمن ، وقد أنفق أبو بكر عليه من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل ، وقد قال عليه السلام : ليس من أحد أمن على فى أهل ومال من أبى بكر ، وقد دفع إليه حين بنى بعائشة ثنتى عشرة أوقية ونشاً ، فلم يأب من ذلك فقال المتسئول إنما ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام فى استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالها ، وهو قول حسن حدثنى بهذا بعض أصحابنا عن الفقيه الزاهد أبى الحسن بن اللوان رحمه الله .

وذكر ابن إسحاق فى غير رواية ابن هشام : أن الناقة التى ابتاعها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أبى بكر يومئذ هى : ناقته التى تسمى بالجدعاء ، وهى غير العضباء التى جاء فيها الحديث حين ذكر رسول الله ـ

. . . .

صلى الله عليه وسلم - ناقة صالح ، وأنها تحشر معه يوم القيامة ، فقال له رجل : وأنت يومئـذ على العضباء يا رسول الله ، فقال : لا . ابنتى فاطمة تحشر على العضباء ، وأحشر أنا على البراق ، ويحشر هذا على ناقة من نوق الجنة وأشار إلى بلال .

وذكر أذانه فى الموقف فى حديث طويل يرويه عبدالحميد بن كيسان عن سويد بن عمير ، وعبدالحميد مجهول عندهم .

وفى مسند البزار عن أنس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على العضباء ، وليست بالجدعاء ، فهذا من قول أنس : إنها غير الجدعاء ، وهو الصحيح ، لأنها غنمت ، وأخذ صاحبها العقيلى بالمدينة ، فقال : بم أخذتنى يا محمد ، وأخذت سابقة الحاج ، يعنى : العضباء ، فقال : أخذتك بجريرة حلفائك .

بكاء أبى بكر من الفرح : وذكر ابن إسحاق فى قول عائشة - رضى الله عنها - ما كنت أرى أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى من الفرح . قالت ذلك لصغر سنها ، وأنها لم تكن علمت بذلك قبل ، وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى ، فأخذته استحسانا له ، فقال الطائى يصف السحاب :

دمع إذا وكفت فى روضة طفقت ... عيون أزهارها تبكى من الفرح

وقال أبو الطيب ، وزاد على هذا المعنى :

فلا تنكرن لهـا صرعـة ... فمن فـرح النفس مايقتـل

وقال بعض المحدثين :

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورنى فاستعبرت أجفانى
غلب السرور على حتى إنه ... من فرط ما قد سرنى أبكانى
ياعين صار الدمع عندك عادة ... تبكين فى فرح وفى أحزان

مقارنة بين مكة والمدينة : فصل : ومن قوله عليه السلام حين خرج من مكة ، ووقف على الحزورة ونظر إلى البيت ، فقال : والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ماخرجت . يرويه الزهرى عن أبى سلمة عن عبد الله بن عدى بن الحمراء يرفعه ، وبعضهم يقول فيه : عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وهو من أصح مايحتج به فى تفضيل مكة على المدينة ، وكذلك حديث عبد الله بن الزبير مرفوعا : إن صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة فيما سواه فإذا كانت الأعمال تبعا للصلاة ، فكل حسنة تعمل فى الحرام ، فهى بمائة ألف حسنة ، وقد جاء هـذا منصوصا من طريق ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : من حج ماشياً كتب له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل : وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة فيه بمائة ألف حسنة أسنده البزار .

حديث الغار : وهو غار فى جبل ثور ، وهو الجبل الذى ذكره فى تحريم المدينة ، وأنها حرام مابين عير إلى ثور ، وهو وهم فى الحديث ، لأن ثوراً من جبال مكة ، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين عير إلى كذا ، كأن المحدث قد نسى اسم المكان ، فكنى عنه بكذا .

وذكر قاسم بن ثابت فى الدلائل فيما شرح من الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخله وأبو بكر

. . . .

معه أنبت الله على بابه الراءة : قال قاسم : وهى شجرة معروفة ، فحجبت عن الغار أعين الكفار .

وقال أبو حنيفة : الراءة : من أغلاث الشجر ، وتكون مثل قامة الإنسان ، ولها خيطان ، وزهر أبيض تحشى به المخاد ، فيكون كالريش لخفته ولينه ، لأنه كالقطن وأنشد :

ترى ودك الشريف على لحاهم كمثل الراء لبده الصقيع

وفى مسند البزار : أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين ، فوقعتا على وجه الغار ، وأن ذلك مما صد المشركين عنه ، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين ، وروى أن أبا بكر - رضى الله عنه حين دخله وتقدم إلى دخوله - قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم - ليقيه بنفسه ، رأى فيه جحراً فألقمه عقبه ، لئلا يخرج منه ما يؤذى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وفى الصحيح عن أنس : قال : قال أبو بكر - رضى الله عنه - لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وهما فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، وروى أيضاً أنهم لما عمى عليهم الأثر جاءوا بالقافة ، فجعلوا يقفون الأثر ، حتى انتهوا إلى باب الغار ، وقد أنبت الله عليه ما ذكرنا فى الحديث قبل هذا ، فعند ما رأى أبو بكر رضى الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : إن قتلت فإنما ، أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحزن إن الله معنا ، ألا ترى كيف قال : لا تحزن ، ولم يقل لا تخف ؟ ! لأن حزنه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم شغله عن خوفه على نفسه ، ولأنه أيضاً رأى ما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من النصب ، وكونه فى ضيقة الغار مع فرقة الأهل ، ووحشة الغربة ، وكان أرق الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشفقهم عليه ، فحزن لذلك ، وقد روى أنه قال ، نظرت إلى قدمى رسول الله - صلى الله عليه وسلم فى الغار ، وقد تقطرتا دما ، فاستبكيت وعلمت أنه عليه السلام لم يكن تعود الحفاء والجفوة ، وأما الخوف فقد كان عنده من اليقين بوعد الله بالنصر لنبيه : ما يسكن خوفه ، وقول الله تعالى : « فأنزل الله سكينته عليه » قال أكثر أهل التفسير : يريد على أبى بكر ، وأما الرسول فقد كانت السكينة عليه ، وقوله : « وأيده بجنود لم تروها » الهاء فى أيده راجعة على النبى ، والجنود : الملائكة أنزلهم عليه فى الغار ، فبشروه بالنصر على أعدائه ، فأيده ذلك ، وقواه على الصبر ، قيل أيده بجنود لم تروها ، يعنى يوم بدر وحنين وغيرهما من مشاهده ، وقد قيل : الهاء راجعة على النبى عليه السلام فى الموضعين جميعا وأبو بكر تبع له ، فدخل فى حكم السكينة بالمعنى ، وكان فى مصحف حفصة . فأنزل الله سكينته عليهما ، وقيل : إن حزن أبى بكر كان عند ما رأى بعض الكفار يبول عند الغار ، فأشفق أن يكونوا قد رأوهما ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا تحزن فإنهم لو رأونا لم يستقبلونا بفروجهم عند البول ولا تشاغلوا بشىء عن أخذنا والله أعلم .

الرد على الرافضة فيما بهتوا به أبا بكر : فصل : وزعمت الرافضة أن فى قوله عليه السلام لأبى بكر لا تحزن غضا من أبى بكر وذما له ، فإن حزنه ذلك : إن كان طاعة فالرسول عليه السلام لا ينهى عن الطاعة ، فلم يبق إلا أنه معصية ، فيقال لهم على جهة الجدل : قد قال الله لمحمد عليه السلام : « فلا يحزنك قولهم » ، وقال : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » ، وقال لموسى : « خذها ولا تخف » ، وقالت الملائكة للوط لا تخف ، ولا تحزن ، فان زعمتم أن الأنبياء حين قيل لهم هذا كانوا فى حال معصية ، فقد كفرتم ، ونقضتم أصلكم فى وجوب العصمة للإمام المعصوم فى زعمكم فإن الأنبياء هم الأئمة المعصومون باجماع

وإنما قوله : لا تحزن ، وقول الله لمحمد : لايحزنك ، وقوله لأنبيائه مثل هذا تسكين لجأشهم وتبشير لهم وتأنيس على جهة النهى الذى زعموا ، ولكن كما قال سبحانه : « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا » . وهذا القول إنما يقال لهم عند المعاينة ، وليس إذ ذاك أمر بطاعة ولا نهى عن معصية .

ووجه آخر من التحقيق ، وهو أن النهى عن الفعل لا يقضى كون المنهى فيه ، فقد نهى الله نبيه عن أشياء ، ونهى عباده المؤمنين ، فلم يقتض ذلك أنهم كانوا فاعلين لتلك الأشياء فى حال النهى ، لأن فعل النهى فعل مستقبل . فكذلك قوله : لأبى بكر : لا تحزن ، لو كان الحزن كما زعموا لم يكن فيه على أبى بكر - رضى الله عنه - ما ادعوا من الغض ، وأما ما ذكرناه نحن من حزنه على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان طاعة ، فلم ينهه عنه الرسول عليه السلام إلا رفقاً به وتبشيراً له لا كراهية لعمله ، وإذا نظرت المعانى بعين الإنصاف لا بعين الشهوة والتعصب للمذاهب لاحت الحقائق ، واتضحت الطرائق والله الموفق للصواب .

معية الله مع رسوله وصاحبه : وانتبه أيها العبد المأمور بتدبر كتاب الله تعالى لقوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » . كيف كان معهما بالمعنى ، وباللفظ ، أما المعنى فكان معهما بالنصر والإرفاد والهداية والإرشاد ، وأما اللفظ فإن اسم الله تعالى كان يذكر إذا ذكر رسوله ، وإذا دعى فقيل : يا رسول الله ، أو فعل رسول الله ، ثم كان لصاحبه كذلك يقال : يا خليفة رسول الله ، وفعل خليفة رسول الله ، فكان يذكر معهما ، بالرسالة وبالخلافة ، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون .

حديث سراقة : هو سراقة بن مالك بن جعشم الكنانى ثم المدلجى أحد بنى مدلج بن مرة بن تميم بن عبد مناة ابن كنانة . وقد ذكر ابن إسحاق حديثه حين بذلت قريش مائة ناقة لمن رد عليهم محمداً عليه السلام ، وأن سراقة استقسم بالأزلام ، فخرج السهم الذى يكره ، وهو الذى كان فيه مكتوبا لا تضره إلى آخر القصة ، وأن قوائم فرسه حين قرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ساخت فى الأرض ، وتبعها عثان ، وهو : الدخان وجمعه : عواثن . وذكر غير ابن إسحاق أن أبا جهل لامه حين رجع بلا شىء ، فقال وكان شاعراً :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه ؟ !
عليك بكف القوم عنه ، فإننى ... أرى أمره يوما ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرا يسالمه

وقد قدمنا فى هذا الكتاب عند ذكر كسرى ما فعله عمر بن الخطاب حين أتى بتاج كسرى ، وسواريه ومنطقته ، وأنه دعا بسراقة ، وكان أزب الذراعين ، فحلاه حلية كسرى ، وقال له : ارفع يديك ، وقل : الحمد لله الذى سلب هذا كسرى الملك الذى كان يزعم أنه رب الناس وكساها أعرابيا من بنى مدلج . فقال ذلك سراقة ، وإنما فعلها عمر لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان قد بشر بها سراقة حين أسلم ، وأخبره أن الله سيفتح عليه بلاد فارس ، ويغنمه ملك كسرى ، فاستبعد ذلك سراقة فى نفسه ، وقال : أكسرى ملك الملوك ؟ ! فأخبره النبى - صلى الله عليه وسلم - أن حليته ستجعل عليه تحقيقا للوعد ، وإن كان أعرابيا بوالا على عقبيه ، ولكن الله يعز بالإسلام أهله ، ويسبغ على محمد وأمته نعمته وفضله .

وفى السير من رواية يونس شعر لأبى بكر رضى الله عنه فى قصة الغار :

قال النبى - ولم يزل يوقرنى - ونحن فى سدف من ظلمة الغار
لا تخش شيئا ، فإن الله ثالثنا وقد توكل لى منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره كيد الشياطين كادته لكفار
والله مهلكهم طرا بما كسبوا وجاعل المنتهى منهم إلى النار
وأنت مرتحل عنهم وتاركهم إما غدوا وإما مدلج سارى
وهاجر أرضهم حتى يكون لنا قوم عليهم ذوو عز وأنصار
حتى إذا الليل وارتنا جوانبه وسد من دون من تخشى بأستار
سار الأريقط يهدينا وأينقه ينعبن بالقرم نعبا تحت أكوار
يعسفن عرض الثنايا بعد أطولها وكل سهب رقاق الترب موار
حتى إذا قلت : قد أنجدن عارضها من مدلج فارس فى منصب وار
يردى به مشرف الأقطار معتزم كالسيد ذى اللبدة المستأسد الضارى
فقال : كرو فقلت : إن كرتنا من دونها لك نصر الخالق البارى
أن يخسف الأرض بالأحوى وفارسه فانظر إلى أربع فى الأرض غوار
فهيل لما رأى أرساغ مقربه قد سخن فى الأرض لم يحفر بمحفار
فقال : هل لكم أن تطلقوا فرسى وتأخذوا موثقى فى نصح أسرار
وأصرف الحى عنكم إن لقيتهم وأن أعور منهم عين عوار
فادعوا الذى هو عنكم كف عورتنا يطلق جوادى وأنتم خير أبرار
فقالا قولا رسول الله مبتهلا يا رب إن كان منه غير إخفار
فنجه سالما من شر دعوتنا ومهره مطلقا من كلم آثار
فأظهر الله إذ يدعو حوافره وفاز فارسه من هول أخطار

حديث أم معبد

وذكر عن أسماء بنت أبى بكر حين خفى عليها ، وعلى من معها أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يدروا أين توجه ، حتى أتى رجل من الجن يسمعون صوته ، ولا يرونه ، فمر على مكة والناس يتبعونه وهو ينشد هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
فيالقصى ما زوى الله عنكم به من فعال لا يجازى وسودد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فانكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهنا لديها بحالب يرددها فى مصدر ثم مورد

. . . .

ويروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنى ، وما هتف به فى مكة قال يجيبه :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقد سر من يسرى إليهم ويغتدى
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا ... عمايتهم هاد بها كل مهتد
لقد نزلت منه إلى أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبى يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله فى كل مشهد
وإن قال فى يوم مقالة غائب ... فتصديقه فى اليوم أو فى ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

وزاد يونس فى روايته أن قريشا لما سمعت الهاتف من الجن أرسلوا إلى أم معبد ، وهى بخيمتها ، فقالوا : هل مر بك محمد الذى من حليته كذا ، فقالت : لا أدرى ما تقولون ، وإنما ضافنى حالب الشاة الحائل ، وكانوا أربعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وقد تقدم التعريف به وطرف من ذكر فضائله فى هجرة الحبشة ، والرابع عبد الله بن أريقط الليثى ولم يكن إذ ذاك مسلما ، ولا وجدنا من طريق صحيح أنه أسلم بعد ذلك ، وجاء فى حديث أنهم استأجروه ، وكان هاديا خريتا ، والخريت : الماهر بالطريق الذى يهتدى بمثل خرت الإبرة ، ويقال له : الخوتع أيضا قال الراجز :

يضل فيها الخوتع المشهر

أم معبد وزوجها : وأما أم معبد التى مر بخيمتها ، فاسمها : عاتكة بنت خالد إحدى بنى كعب من خزاعة وهى أخت حبيش بن خالد وله صحبة ورواية ، ويقال له الأشعر ، وأخوها : حبيش بن خالد سيأتى ذكره والخلاف فى اسمه وخالد الأشعر أبوهما ، هو : ابن خنيف بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس بن حرام بن حبشية بن كعب ابن عمرو وهو أبو خزاعة .

وزوجها أبو معبد يقال إن له رواية أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - توفى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعرف اسمه ، وكان منزل أم معبد بقديد ، وقد روى حديثها بألفاظ مختلفة متقاربة المعانى وقد رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث ، وتقصى شرح ألفاظه ، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأم معبد : وكان القوم مرملين مسنتين . فطلبوا لبناً أو لحما يشترونه ، فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر إلى شاة فى كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها : هل بها من لبن ؟ فقالت : أجهد من ذلك ، فقال أتأذنين لى أن أحلبها فقالت بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلبا فاحلبها ، فدعا بالشاة ، فاعتقلها ، ومسح ضرعها ، فتفاجت ودرت واجترت ودعا بإناء يربض الرهط أى : يشبع الجماعة حتى يربضوا ، فحلب فيه حتى ملأه ، وسقى القوم حتى رووا ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل ، ثم غادره عندها وذهبوا ، فجاء أبو معبد ، وكان غائبا فلما رأى اللبن قال ماهذا ياأم معبد أنى لك هذا والشاء عازب حيال ، ولاحلوبة بالبيت ؟ ! فقالت : لاوالله ، إلا انه مر بنا رجل مبارك ، فقال صفيه ياأم معبد فوصفته بما ذكر القتبى وغيره الحديث ، ومما ذكره القتبى فشربوا حتى أراضوا جعله القتبى من استراض الوادى : إذا استنقع ومن الروضة وهى بقية الماء فى الحوض وأنشد :

وروضة سقيت فيها نضوى

طريق الرسول (ص) فى هجرته : قال ابن إسحاق : فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط ، سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل ، حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما ، حتى عارض بهما الطريق ، بعد أن أجاز قديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفاً .

قال ابن هشام : ويقال لفتا . قال معقل بن خويلد الهذلى :

نزيعاً محلبا من أهل لفت لحى بين أثلة والنحام

قال ابن إسحاق : ثم أجازبهما مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج - ويقال : مجاج ، فيما قال ابن هشام - ثم سلك بهما مرجح مجاج ، ثم تبطن بهما مرجح من ذى الغضوين - قال ابن هشام : ويقال : العضوين - ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم سلك بهما ذا السلم ، من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبابيد قال ابن هشام : ويقال : العبابيب ، ويقال : العثيانة يريد : العبابيب .

قال ابن إسحاق : ثم أجاز بهما الفاجة ، ويقال ، القاحة ، فيما قال ابن هشام .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العرج ، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم ، فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أسلم ، يقال له : أوس بن حجر ، على جمل له - يقال له : ابن الرداء - إلى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له : مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج ، فسلك بهما ثنية العائر ، عن يمين ركوبة - ويقال : ثنية الغائر ، فيما قال ابن هشام - حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء ، على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل .

قباء : قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ، عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، قال : حدثنى رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، وتوكفنا قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح ، إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله مانبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلا دخلنا وذلك فى أيام حارة . حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل

ورواه الهروى حتى آرضوا على وزن آمنوا ، أى ضربوا بأنفسهم إلى الأرض من الرى ، وفى حديث آخر أن آل أبى معبد كانوا يؤرخون بذلك اليوم ويسمونه : يوم الرجل المبارك ، يقولون فعلنا كيت وكيت قبل أن يأتينا الرجل المبارك ، أو بعد ماجاء الرجل المبارك ، ثم إنها أتت المدينة بعد ذلك بما شاء الله ، ومعها ابن صغير قد بلغ السعى فمر بالمدينة على مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يكلم الناس على المنبر فانطلق إلى أمه يشتد ، فقال لها ياأمتاه إنى رأيت اليوم الرجل المبارك ، فقالت له : يابنى ويحك هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

ومما يسأل عنه فى هذا الحديث أن يقال : هل استمرت تلك البركة فى شاة أم معبد بعد ذلك اليوم ، أم عادت إلى حالها ؟ وفى الخبر عن هشام بن حبيش الكعبى ، أنا رأيت تلك الشاة وإنها لتأدم أم معبد وجميع صرمها ، أى : أهل ذلك الماء . وفى الحديث أيضاً من الغريب فى وصف الشاة : قال ماكان فيها بصرة وهى النقط من اللبن تبصر بالعين .

دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا ، فصرخ بأعلى صوته : يابنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء . قال : فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك ، وركبه الناس وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحاق : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما يذكرون ـ على كلثوم بن هدم ، أخى بنى عمرو ابن عوف ، ثم أحد بنى عبيد : ويقال بل نزل على سعد بن خيثمة . ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة وذلك أنه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزل العزاب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين ، فمن هنالك يقال : نزل على سعد بن خيثمة وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة : بيت العزاب . فالله أعلم أى ذلك كان ، كلا قد سمعنا .

ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خبيب بن إساف ، أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسنح . ويقول قائل : كان منزله على خارجة بن زيد بن أبى زهير ، أخى بنى الحارث بن الخزرج .

وأقام على بن أبى طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل معه على كلثوم بن هدم.

فكان على بن أبى طالب ، إنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين يقول : كانت بقباء امرأة لازوج لها مسلمة . قال : فرأيت إنسانا يأتيها من جوف الليل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه . قال : فاستربت بشأنه، فقلت لها : يا أمة الله، من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة ، فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لاأدرى ماهو ، وأنت امرأة مسلمة لازوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حنيف بن واهب ، قد عرف أنى امرأة لاأحد لى ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ، ثم جاءنى بها ، فقال : احتطبى بهذا ، فكان على رضى الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف ، حتى هلك عنده بالعراق .

قال ابن إسحاق: وحدثنى هذا، من حديث على رضى الله عنه ، هند بن سعد بن سهل بن حنيف، رضى الله عنه .

بناء مسجد قباء : قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده .

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة . وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك ، فالله أعلم أى ذلك كان فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

فأتاه عتبان بن مالك ، وعباس بن عبادة بن نضلة فى رجال من بنى سالم بن عوف ، فقالوا : يارسول الله . أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة ، قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة . لناقته : فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى بياضة ، تلقاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو ، فى رجال من بنى بياضة . فقالوا : يارسول الله :

هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ؛ قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها : فانطلقت ، حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا : يارسول الله ، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ؛ قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج ، اعترضه سعد بن الربيع ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، فى رجال من بنى الحارث ابن الخزرج فقالوا : يارسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ، قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها . . فانطلقت ، حتى إذا مرت بدار بنى عدى بن النجار ، وهم أخواله دنيا ـ أم عبد المطلب ، سلمى بنت عمرو ، فى رجال من بنى عدى بن النجار ، فقالوا : يارسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدة والمنعة ؛ قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت .

مبرك الناقة : حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار ، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار ، ثم من بنى مالك بن النجار ، وهما فى حجر معاذ بن عفراء ، سهل وسهيل ابنى عمرو . فلما بركت ـ ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ـ لم ينزل ، وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، ثم تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ، فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ ابن عفراء : هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما منه ، فاتخذه مسجدا .

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لا عيش إلا عيش الآخره ... اللهم ارحم الأنصار والمهاجره

قال ابن هشام : هذا كلام وليس برجز .

قال ابن إسحاق : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

عمار والفئة الباغية : قال : فدخل عمار بن ياسر ، وقد أثقلوه باللبن ، فقال : يارسول الله ، قتلونى ، يحملون على ما لا يحملون . قالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته بيده ، وكان رجلا جعدا ، وهو يقول : ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية .

وارتجز على بن أبى طالب رضى الله عنه يومئذ :

لا يستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيه قائما وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

قال ابن هشام : سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر ، عن هذا الرجز ، فقالوا : بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به ، فلا يدرى : أهو قائله أم غيره .

قال ابن إسحاق : فأخذها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجز بها .

قال ابن هشام : فلما أكثر ، ظن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إنما يعرض به ، فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن ابن إسحاق ، وقد سمى ابن إسحاق الرجل .

قال ابن إسحاق : فقال : قد سمعت ما تقول منذ اليوم يابن سمية ، والله إنى لأرانى سأعرض هذه العصا لأنفك . قال : وفى يده عصا . قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : مالهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار ، إن عمارا جلدة ما بين عينى وأنفى ، فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه .

قال ابن هشام : وذكر سفيان بن عيينة عن زكريا ، عن الشعبى ، قال : إن أول من بنى مسجداً عمار بن ياسر .

الرسول ينزل فى بيت أبى أيوب : قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أبى أيوب ، حتى بنى له مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبى أيوب ، رحمة الله عليه ورضوانه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن مرثد بن عبد الله اليزنى ، عن أبى رهم السماعى ، قال : حدثنى أبو أيوب ، قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، نزل فى السفل ، وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له : يانبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل، فقال : ياأبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا ، أن نكون فى سفل البيت.

قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفله ، وكنا فوقه فى المسكن ، فلقد انكسر حب لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم - منه شىء فيؤذيه .

قال : وكنا نصنع له العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلا أو ثوما ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أر ليده فيه أثراً . قال : فجئته فزعا ، فقلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى رددت عشاءك ! ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا ، تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك ، نبتغى بذلك البركة ، قال: إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه . قال : فأكلناه ، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد .

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم أحد ، إلا مفتون أو محبوس ، ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أهل دور مسمون : بنو مظعون من جمح ، وبنو جحش بن رئاب ، حلفاء بنى أمية ، وبنو البكير ، من بنى سعد بن ليث ، حلفاء بنى عدى بن كعب . فإن دورهم غلقت بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

أبو سفيان وبنو جحش . ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم ، عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها

من عمرو بن علقمة ، أخى بنى عامر بن لؤى ، فلما بلغ بنى جحش ماصنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله ابن جحش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى ياعبدالله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها فى الجنة ؟ قال بلى : قال : فذلك لك . فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كلمه أبو أحمد فى دارهم ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبى أحمد : يا أبا أحمد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا فى شىء من أموالكم أصيب منكم فى الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لأبى سفيان :

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها تقضى بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامه
اذهب بها ، اذهب بها طوقتها طوق الحمامة

انتشار الاسلام : قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتى بنى له فيها مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية وتلك أوس الله ، وهم حى من الأوس ، فإنهم أقاموا على شركهم .

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبدالرحمن - نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقل - أنه قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك، فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن إسحاق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى ، فقال : إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر واختارة على ماسواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ، ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كل مايخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، الصالح الحديث، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته . وأصدقوا الله صالح ماتقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم .

الرسول يوادع اليهود: قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفه منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة نفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لايتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

قال ابن هشام : المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال ، قال الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

وأن لايحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولامتناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن فى دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لايجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فانه لايوتغ إلا نفسه ، وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى جشم مثل ماليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى جشم مثل ماليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الأوس مثل ماليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فانه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ماليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم ، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، إن بطانة

. . . .

يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فان مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم ، على مثل مالأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض ، من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن هشام : ويقال : مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن إسحاق : وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذه الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحاق : وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال ـ فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه مالم يقل : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب ، فقال : هذا أخى فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيد بن حارثة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ، الطيار فى الجنة ، ومعاذ بن جبل ، أخو بنى سلمة ، أخوين .

قال ابن هشام : وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة .

قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ابن أبى قحافة ، وخارجة بن زهير ، أخو بلحارث ابن الخزرج ، أخوين ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعتبان بن مالك ، أخو بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين ؛ وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، واسمه عامر بن عبد الله ، وسعد بن معاذ بن النعمان ، أخو بنى عبد الأشهل ، أخوين . وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، أخو بلحارث بن الخزرج ، أخوين . والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش ، أخو بنى عبد الأشهل ، أخوين . ويقال : بل الزبير وعبد الله بن مسعود ، حليف ، بنى زهرة أخوين ، وعثمان بن عفان ، وأوس بن ثابت بن المنذر ، أخو بنى النجار ، أخوين . وطلحة بن عبيد الله ، وكعب بن مالك ، أخو بنى سلمة ، أخوين وسعيد بن زيد بن عمرو

ابن نفيل ، وأبى بن كعب ، أخو بنى النجار : أخوين ، ومصعب بن عمير بن هاشم ، وأبو أيوب خالد بن زيد، أخو بنى النجار : أخوين ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر بن وقش ، أخو بنى عبد الأشهل : أخوين . وعمار بن ياسر ، حليف بنى مخزوم . وحذيفة بن اليمان ، أخو بنى عبد عبس . حليف بنى عبد الأشهل . أخوين ويقال : ثابت بن قيس بن الشماس ، أخو بلحارث بن الخزرج ، خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمار بن ياسر : أخوين . وأبو ذر ، وهو برير بن جنادة الغفارى والمنذر بن عمرو ، المعنق ليموت . أخو بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج . أخوين .

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من العلماء يقول : أبو ذر : جندب بن جنادة .

قال ابن إسحاق : وكان حاطب بن أبى بلتعة ، حليف بنى أسد بن عبد العزى وعويم بن ساعدة ، أخو بنى عمرو ابن عوف ، أخوين ، وسلمان الفارسى وأبو الدرداء ، عويمر بن ثعلبة ، أخو بلحارث بن الخزرج ، أخوين .

قال ابن هشام عويمر بن عامر ، ويقال : عويمر بن زيد .

قال ابن إسحاق : وبلال ، مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو رويحة ، عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى ، ثم أحد الفزع ، أخوين . فهؤلاء من سمى لنا ، ممن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهم من أصحابه .

فلما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام ، فأقام بها مجاهدا ، فقال عمر لبلال : إلى من تجعل ديوانك يابلال ؟ قال : مع أبى رويحة ، لا أفارقه أبدا ، للأخوة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد بينه وبينى ، فضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، لمكان بلال منهم ، فهو فى خثعم إلى هذا اليوم بالشام .

قال ابن إسحاق : وهلك فى تلك الأشهر أبو أمامة ، أسعد بن زرارة ، والمسجد يبنى ، أخذته الذبحة أو الشهقة .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بئس الميت أبو أمامة ، ليهود ومنافقو العرب يقولون : لو كان نبيا لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى عن الله شيئا .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى : أنه لما مات أبو أمامة ، أسعد بن زرارة ، اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو أمامة نقيبهم ، فقالوا له : يارسول الله إن هذا قد كان منا حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : أنتم أخوالى ، وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخص بها بعضهم دون بعض . فكان من فضل بنى النجار الذى يعدون على قومهم ، أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

طريق الرسول صلى الله عليه وسلم

وذكر أن دليلهما سلك بهما عسفان : قال المؤلف رضى الله عنه : وقد روى عن كثير أنه قال : سمى عسفان لتعسف السيول فيه ، وسئل عن الأبواء الذى فيه قبر آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم : لم سمى الأبواء ؟ فقال : لأن السيول تتبوءه أى تحل به ، وبعسفان فيماروى كان مسكن الجذماء ، ورأيت فى بعض المسندات أن رسول

. . . .

الله صلى الله عليه وسلم مر بعسفان وبه الجذماء فأسرع المشى ولم ينظر إليهم ، وقال : إن كان شيء من العلل يعدى فهو هذا ، وهذا الحديث هو من روايتى ، لأنه فى مسند الحارث بن أبى أسامة ، وقد تقدم اتصال سندى به ، وكنت رأيته قبل فى مسند وكيع بن الجراح ، وليس لى فيه إسناد .

فصل : وذكر أن دليلهم سلك بهم أمجاً ثم ثنية المرة ، كذا وجدته مخفف الراء مقيدا ، كأنه مسهل الهمزة من المرأة .

وذكر لقفا بفتح اللام مقيدا فى قول ابن إسحاق ، وفى رواية ابن هشام : لفتاً ، واستشهد ابن هشام بقول معقل الهذلى :

نزيعاً محلبا من أهل لفت لحى بين أثلة فالنجام

وألفيت فى حاشية الشيخ على هذا الموضع قال : لفت بكسر اللام ألفيته فى شعر معقل هذا فى أشعار هذيل فى نسختى ، وهى نسخة صحيحة جدا ، وكذلك ألفاه من وثقته وكلفته أن ينظر فيه لى فى شعر معقل هذا فى أشعار هذيل مكسور اللام فى نسخة أبى على القالى المقروءة على الزيادى ، ثم على الأحول ، ثم قرأتها على ابن دريد رحمه الله ، وفيها صريحاً محلبا ، وكذلك كان الضبط فى هذا الكتاب قديما حتى ضبطته بالفتح عن القاضى ، وعلى ماوقع فى غيرها انتهى كلام أبى بحر . وقد ذكر أبو عبيد البكرى : لفتاً ، فقيده بكسر اللام كما ذكر أبو بحر وأنشد قبله :

لعمرك ماخشيت ، وقد بلغنا جبال الجوز من بلد تهام

صريحا محلباً : البيت

وذكر المواضع التى سلك عليها . وذكر فيها مجاج بكسر الميم وجيمين ، وقال ابن هشام : ويقال فيها : مجاج بالفتح ، وقد ألفيت شاهدا لرواية ابن إسحاق فى لقف ، وفيه ذكر مجاح بالحاء المهملة بعد الجيم ، وهو قول محمد ابن عروة بن الزبير :

لعن الله بطن لقف مسيلا ومجاحاً وما أحب مجاحا

لقيت ناقتى به ، وبلقف بلداً مجدباً وأرضاً شحاحا

هكذا ذكر الزبير بن ابى بكر ، ولقف آخر غير لفت فيما قال البكرى .

وذكر مرجح بتقديم الجيم على الحاء ، وذكر مدلجة تعهن بكسر التاء والهاء ، والتاء فيه أصلية على قياس النحو فوزنه فعلل إلا أن يقوم دليل من اشتقاق على زيادة التاء أو تصح رواية من رواه تعهن بضم التاء ، فإن صحت فالتاء زائدة ، كسرت أو ضمت وبتعهن صخرة ، يقال لها : أم عقى عرفت بامرأة كانت تسكن هناك ، فمر بها النبى صلى الله عليه وسلم واستسقاها فلم تسقه ، فدعا عليها فمسخت صخرة فهى تلك الصخرة فيما يذكرون .

وذكر الجداجد بجيمين ودالين كأنها جمع جدجد ، وأحسبها آباراً ففى الحديث : أتينا على بئر جدجد قال أبو عبيد : الصواب : بئر جد أى قديمة ، وقال الهروى عن اليزيدى : وقد يقال : بئر جدجد قال : وهو كما يقال فى الكم كمكم وفى الرف رفرف .

. . . .

وذكر العبابيد كأنه جمع عباد ، وقال ابن هشام : هى العبابيب ، كأنها جمع : عباب من عببت الماء عباً ، فكأنها ـ والله أعلم ـ مياه تعب عبابا أو تعب عبا .

وذكر الفاجة بفاء وجيم ، وقال ابن هشام : هى : القاحة بالقاف والحاء .

أوس بن حجر : وذكر قدومهم على أوس بن حجر ، وهو أوس بن عبد الله بن حجر الأسلمى ، وبعضهم يقول فيه : ابن حجر ، وهو قول الدارقطنى ، والمعروف ، بن حجر بضم الحاء ، وقد تقدم فى المبعث ذكر من اسمه حجر فى أنساب قريش ومن يسمى حجرا من غيرهم بسكون الجيم ، ومن يسمى الحجر بكسر الحاء ،فانظره هنالك عند ذكر خديجة وأمها ، ولا يختلف فى أوس بن حجر أنه بفتحتين .

وذكر أن أوسا حمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جمل له ، يقال له : ابن الرداء ،وفى رواية يونس ابن بكير عن ابن إسحق يقال له : الرداح ، وفى الخطابى أنه قال لغلامه مسعود وهو مسعود بن هنيدة : اسلك بهم المخارق بالقاف ، قال: والصحيح المخارم ، يعنى : مخارم الطريق ، وفى النسوى أن مسعودا هذا قال : فكنت آخذ بهم إخفاء الطريق . وفقه هذا أنهم كانوا خائفين ، فلذلك كان يأخذ بهم إخفاء الطريق ومخارقه ، وذكر النسوى فى حديث مسعود هذا : أن أبا بكر قال له : ائت أبا تميم فقل له يحملنى على بعير ويبعث إلينا بزاد ، ودليل يدلنا ففى هذا أن أوساً كان يكنى أبا تميم ، وأن مسعوداً هذا قد روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفظ عنه حديثا فى الخمس وحديثا فى صلاة الإمام بالواحد والاثنين ذكره النسوى فى هذا الحديث ، غير أنه قال فى مسعود هذا : غلام فروة الأسلمى . وقال أبو عمر قد قيل فى أوس هذا إن اسمه تميم ، ويكنى أبا أوس فالله أعلم

وروى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لمسعود حين انصرف إلى سيده مرسيدك أن يسم الإبل فى أعناقها قيد الفرس ، فلم تزل تلك سمتهم فى إبلهم ، وقد ذكرنا فى شرح قصيدة أبى طالب عند قوله : موسمة الأعضاد أسماء السمات كالعراض والخباط والهلال ، وذكرنا قيد الفرس ، وأنه سمة فى أعناقها ، وقول الراجز :

كوم على أعناقها قيد الفرس   تنجو إذا الليل تدانى والتبس

تأريخ قدوم الرسول إلى المدينة : كان قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الإثنين لاثنتى عشرة من ربيع الأول ، وفى شهر أيلول من شهور العجم ، وقال غير ابن إسحاق قدمها لثمان خلون من ربيع الأول ، وقال ابن الكلبى : خرج من الغار يوم الإثنين أول يوم من ربيع الأول ، ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتى عشرة منه ، وكانت بيعة العقبة أوسط أيام التشريق .

كلثوم بن الهدم : فصل : وذكر ابن إسحاق نزول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم وكلثوم هذا كنيته أبو قيس ، ، وهو كلثوم بن الهدم بن امرىء القيس بن الحارث بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس ، وكان شيخا كبيرا مات بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ المدينة بيسير ، هو أول من مات من الأنصار بعد قدوم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم مات بعده أسعد بن زرارة بأيام وسعد بن خيثمة ، وأنه كان يقال لبيته : بيت العزاب هكذا روى ـ وصوابه : الأعزب ، لأنه جمع عزب ، يقال رجل عزب ، وامرأة عزب ، وقد قيل : امرأة عزبة بالتاء .

. . . .

مسجد قباء : فصل : وذكر تأسيس مسجد قباء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسسه لبنى عمرو بن عوف ثم انتقل إلى المدينة ، وذكر ابن أبي خيثمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسسه ، كان هو أول من وضع حجراً فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبى بكر ، ثم أخذ الناس فى البنيان . فى الخطابى عن الشموس بنت النعمان قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجد قباء يأتى بالحجر قد صهره إلى بطنه ، فيضعه فيأتى الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره . يقال: صهره وأصهره إذا ألصقه بالشىء ، ومنه اشتقاق الصهر فى القرابة ، وهذا المسجد أول مسجد بنى فى الإسلام ، وفى أهله نزلت « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » فهو على هذا المسجد الذى أسس على التقوى ، وإن كان قد روى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال : هو مسجدى هذا وفى رواية أخرى قال : وفى رواية أخرى قال : وفى الآخر خير كثير ، وقد قال لبنى عمرو بن عوف حين نزلت « لمسجد أسس على التقوى » ماالطهور الذى أثنى الله به عليكم ؟ فذكروا له الاستنجاء بالماء بعد الاستجمار بالحجر ، فقال : هو ذاكم فعليكموه ، وليس بين الحديث تعارض كلاهما اسس على التقوى ، غير ان قوله سبحانه: من أول يوم يقتضى مسجد قباء لان تأسيسه كان فى اول يوم من حلول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دار هجرته والبلد الذى هو مهاجره .

التأريخ العربى : وفى قوله سبحانه : « من اول يوم » وقد علم انه ليس اول الايام كلها ، ولا أضافه إلى شىء فى اللفظ الظاهر فيه من الفقه صحة مااتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم فى التاريخ ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة لأنه الوقت الذى عز فيه الإسلام ، والذى أمر فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم وأسس المساجد ، وعبد الله آمنا كما يحب ، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه من أول يوم أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذى يؤرخ به الآن ، فإن كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذوا هذا من الآية ، فهو الظن بأفهامهم ، فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله ، وأفهمهم بمعانى القرآن من إشارات وإفصاح ، وإن كان ذلك منهم عن رأى واجتهاد ، فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ، إذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم إلا باضافة إلى عام أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم ، وليس هاهنا إضافة فى المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال فتدبره ففيه معتبر لمن اذكر وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر والحمد لله .

من ودخولها على الزمان وغيره : وليس يحتاج فى قوله من أول يوم إلى إضمار كما قرره بعض النحاة : من تأسيس أول يوم ، فراراً من دخول من على ازمان ، ولو لفظ بالتأسيس لكان معناه من وقت تأسيس أول يوم فإضماره للتأسيس لايفيد شيئاً ، ومن تدخل على ازمان ، وغيره ، ففى التنزيل « من قبل ومن بعد » والقبل والبعد زمان ، وفى الحديث : ما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة من حين تطلع الشمس إلى أن تغرب ، وفى شعر النابغة :

تورثن من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

وبين من الداخلة على ازمان ، وبين منذ فرق بديع قد بيناه فى شرح آية الوصية .

تحلحلت ورزمت والجران فصل : وذكر انها . كل قبيلة من الانصار له يقولون : هلم إلينا يارسول الله إلى

. . . .

العدد والعدة فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى بركت بموضع مسجده، وقال تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها أى : : بعنقها ، وفسره ابن قتيبة على تلحلح أى : لزم مكانه : ولم يبرح ، وأنشد :

أناس إذا قيل انفروا قد أتيتم أقاموا على أثقالهم وتلحلحوا

قال : وأما تحلحل بتقديم الحاء على اللام فمعناه : زال عن موضعه ، وهذا الذى قاله قوى من جهة الاشتقاق بأن التلحلح يشبه أن يكون من لححت عينه إذا التصقت ، وهو ابن عمى لحا

وأما التحلحل : فاشتقاقه من الحل والانحلال بين ، لأنه انفكاك شىء من شىء ، ولكن الرواية فى سيرة ابن إسحاق : تحلحلت بتقديم الحاء على اللام ، وهو خلاف المعنى إلا أن يكون مقلوبا من تلحلحت ، فيكون معناه : لصقت بموضعها ، وأقامت على المعنى الذى فسره ابن قتيبة فى تلحلحت

وأما قوله : ورزمت الناقة رزوماً إذا أقامت من الكلال ، ونوق رزى ، وأما أرزمت بالألف ، فمعناه : رغت ، ورجعت فى رغائها ، ويقال منه : أرزم الرعد ، وأرزمت الريح قاله صاحب العين ، وفى غير هذه السيرة أنها لما ألقت بجرانها فى دار بنى النجار جعل رجل من بنى سلمة ، وهو جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتبرك فى دار بنى سلمة فلم تفعل .

المربد وقوله كان المسجد مربداً . المربد والجرين والمسطح وهو بالفارسية : مشطاح والجوخار والبيدر والأندر لغات بمعنى واحد للموضع الذى يجعل فيه الزرع والتمر للتيبيس ، وأنشد أبو حنيفة فى المسطح .

ترى الأمعز المحزو فيه كأنه من الحر فى نحر الظهيرة مسطح

قال : والمحزو من : حزوت الشىء : إذا أظهرته والمسطح هو بالفارسية : مشطح ، وأما المسطح الذى هو عود الخباء فعربية .

وذكر أن ذلك المربد كان لسهل وسهيل ابنى عمرو يتيمين فى حجر معاذ بن عفراء ولم يعرفهما بأكثر من هذا ، وقال موسى بن عقبة : كانا يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة وهما ابنا رافع بن عمرو بن أبى عمرو بن عبد ابن ثعلبة بن مالك بن النجار شهد سهيل منهما بدرا ، والمشاهد كلها ، ومات فى خلافه عمر ولم يشهد سهل بدراً ، وشهدغيرها ومات قبل أخيه سهيل .

بنيان المسجد : فصل : وذكر بنيان المسجد إلى آخر القصة : وفى الصحيح أنه قال : يابنى النجار ثامنونى بحائطكم حين أراد أن يتخذ مسجداً ، وقد ترجم البخارى على هذه المسألة لفقه ، وهو أن البائع أولى بتسمية الثمن الذى يطلبه ، قال أنس : وكان فى موضع المسجد نخل وخرب ومقابر مشركين ، فأمر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت ، وبالنخل فقطعت .

ويروى فى هذا الحديث نخل وحرث مكان قوله : وخرب ، وروى عن الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية قالت : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بنى المسجد يؤمه جبريل إلى الكعبة ويقيم له القبلة .

وذكر فيه قول الرجل لعمار : قد سمعت ماتقول يابن سمية . قال ابن هشام : وقد سمى ابن إسحاق الرجل . وكره ابن هشام أن يسميه كى لا يذكر أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بمكروه . فلا ينبغى إذاً البحث على اسمه .

. . . .

سمية : وسمية : أم عمار وقد تقدم التعريف بها فى الهجرة الأولى ونبهنا على غلط ابن قتيبة فيها فإنه جعلها وسمية أم زياد واحدة وسمية أم زياد كانت للحارث بن كلدة المتطبب ، والأولى : مولاة لبنى مخزوم وهى سمية بنت خباط كما تقدم ، وكان أهدى سمية إلى الحرث رجل من ملوك اليمن : يقال له أبو جبر ، وذلك أنه عالجه من داء كان به فبرىء ، فوهبها له ، وكانت قبل أبى جبر لملك من ملوك الفرس وفد عليه أبو جبر ، فأهداها إليه الملك ذكره ابن قتيبة وفى جامع معمر بن راشد أن عمارا كان ينقل من بنيان المسجد لبنتين ، لبنة عنه ، ولبنة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس ينقلون لبنة واحدة ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس أجر ولك ، أجران ، وآخر زادك من الدنيا شربة ابن:وتقتلك الفئة الباغية فلما قتل يوم صفين دخل عمرو على معاوية فزعا ، فقال : قتل عمار ، فقال معاوية ، فماذا ؟ فقال عمرو : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : تقتله الفئة الباغية ، فقال معاوية دحضت فى بولك أنحن قتلناه ؟ إنما قتله من أخرجه ؟ ! .

عمار أول من بنى مسجدا : وذكر ابن إسحاق فى هذا الموضع الحديث الوارد فى عمار ، وهو : أول من بنى لله مسجدا عمار بن ياسر ، فيقال : كيف أضاف إلى عمار بنيان المسجد ، وقد بناه معه الناس ؟ فيقول إنما عنى بهذا الحديث مسجد قباء ، لأن عماراً هو الذى أشار على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببنيانه ، وهو جمع الحجارة له ، فلما أسسه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم استتم بنيانه عمار .

أطوار بناء المسجد: كذلك ذكر ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عنه : وبنى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسقف بالجريد وجعلت قبلته من اللبن ، ويقال : بل من حجارة منضودة بعضها على بعض ، وجعلت عمده من جذوع النخل ، فنخرت فى خلافة عمر فجردها ، فلما كان عثمان بناه بالحجارة المنقوشة بالقصة وسقفه بالساج ، وجعل قبلته من الحجارة ، فلما كانت أيام بنى العباس بناه محمد بن أبى جعفر المتسمى بالمهدى ، ووسعه وزاد فيه ، وذلك فى سنة ستين ومائة ، ثم زاد فيه المأمون بن الرشيد فى سنة ثنتين ومائتين : وأتقن بنيانه ، ونقش فيه : هذا ما أمر به عبد الله المأمون ـ فى كلام كثير كرهت الإطالة بذكره ، ثم لم يبلغنا أن أحداً غير منه شيئا ، ولا أحدث فيه عملا .

بيوته صلى الله عليه وسلم: وأما بيوته عليه السلام فكانت تسعة، بعضها من جويد مطين بالطين وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض ، مسقفة بالجريد أيضاً . وقال الحسن بن أبى الحسن : كنت أدخل بيوت النبى عليه السلام ، وأنا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى ، وكانت حجره ـ عليه السلام ـ أكسية من شعر مربوطة فى خشب عرعر وفى تاريخ البخارى أن بابه ـ عليه السلام ـ كان يقرع بالأظافر ، أى لاحلق له ، ولما توفى أزواجه عليه السلام خلطت البيوت والحجر بالمسجد ، وذلك فى زمن عبد الملك ، فلما ورد كتابه بذلك ضج أهل المدينة بالبكاء ، كيوم وفاته عليه السلام ، وكان سريره خشبات مشدودة بالليف ، بيعت زمن بنى أمية ، فاشتراها رجل بأربعة آلاف درهم قاله ابن قتيبة . وهذا يدل على أن بيوته عليه السلام إذا أضيفت إليه ، فهى إضافة ملك ، كقوله تعالى : « لاتدخلوا بيوت النبى » وإذا أضيفت إلى أزواجه كقوله : « وقرن فى بيوتكن » فليست بإضافة ملك ، وذلك أن ما كان ملكا له عليه السلام ، فليس بموروث عنه .

حب أم أيوب : فصل : وذكر حديث أم أيوب ، وقولها : انكسر حب لنا . الحب: جرة كبيرة ، جمعه حببة مثل حجر وحجرة وكأنه أخذ لفظه من حباب الماء أو من حببة ، وحبابه بالألف : ترافعه قال الشاعر :

كأن صلا جهيزة حين تمشى حباب الماء يتبع الحبابا

. . . .

والحبب بغير ألف نفاخات بيض صغار تكون على وجه الشراب قاله ابن ثابت .

الثوم : وذكر قوله عليه السلام لأم أيوب - حين رد عليها الثريد من أجل الثوم : أنا رجل أناجى ، وروى غيره حديث أم أيوب ، وقال فيه : إن الملائكة تتأذى بما يتأذى به الإنس . وروى أن خصيف بن الحارث قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت يا رسول الله : الحديث الذى ترويه عنك أم أيوب أن الملائكة تتأذى بما يتأذى به الإنس أصحيح هو ؟ قال : نعم .

منزل أبى أيوب : ومنزل أبى أيوب الذى نزل فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - تصير بعده إلى أفلح مولى أبى أيوب ، فاشتراه منه بعد ما خرب ، وتثلمت حيطانه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار بعد حيلة احتالها عليه المغيرة ذكرها الزبير ، ثم أصلح المغيرة ما وهى منه ، وتصدق به على أهل بيت من فقراء المدينة ، فكان بعد ذلك ابن أفلح يقول للمغيرة : خدعتنى ، فيقول له المغيرة : لا أفلح من ندم . هذا معنى ما ذكره الزبير بن أبى بكر .

أحمد بن جحش وأبو سفيان : وذكر قول أبى أحمد بن جحش لأبى سفيان :

دار ابن عمك بعتها تقضى بها عنك الغرامه
اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامه

أبو أحمد هذا اسمه عبد ، وقيل : ثمامة ، والأول أصح ، وكانت عنده الفارعة بنت أبى سفيان ، وبهذا السبب تطرق أبو سفيان إلى بيع دار بنى جحش إذ كانت بنته فيهم . مات أبو أحمد بعد أخته زينب أم المؤمنين فى خلافة عمر .

وقوله لأبى سفيان طوقتها طوق الحمامة منتزع من قول النبى - صلى الله عليه السلام - « من غصب شبراً من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » وقال طوق الحمامة ، لأن طوقها لا يفارقها ، ولا تلقيه عن نفسها أبداً ، كما يفعل من لبس طوقاً من الآدميين ، ففى هذا البيت من السماتة وحلاوة الإشارة وملاحة الاستعارة ما لا مزيد عليه ، وفى قوله : طوق الحمامة رد على من تأول قوله عليه السلام : طوقه من سبع أرضين أنه من الطاقة ، لا من الطوق فى العنق ، وقاله الخطابى فى أحد قوليه ، مع أن البخارى قد رواه ، فقال فى بعض روايته له : خسف به إلى سبع أرضين ، وفى مسند ابن أبى شيبة : من غصب شبراً من أرض جاء به إسطاماً فى عنقه ، والإسطام كالحلق من الحديد ، وسطام السيف . حده .

خطبته صلى الله عليه وسلم : وذكر خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفيها يقول الله عز وجل لعبده : ألم أوتك مالا وأفضل عليك ، فماذا قدمت ؟ وفى غير هذا الكتاب زيادة ، وهى : ألم أوتك مالا ، وجعلتك تربع وتدسع ؟ وفسره ابن الأنبارى ، فقال : هو مثل ، وأصله : أن الرئيس من العرب كان يربع قومه أى : يأخذ المرباع إذا غزا ، ويدسع : أى يعطى ويدفع من المال لمن شاء ، ومنه قولهم : فلان ضخم الدسيعة .

الحب فى خطبته (ص) : وذكر خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثانية ، وفيها : أحبوا الله من كل قلوبكم ، يريد أن يستغرق حب الله جميع أجزاء القلب ، فيكون ذكره وعمله خارجا من قلبه خالصاً لله ، وإضافة الحب إلى الله تعالى من عبده مجاز حسن لأن حقيقة المحبة : إرادة يقارنها استدعاء للمحبوب إما بالطبع ، وإما

. . . .

بالشرع ، وقد كشفنا معناها بغاية البيان فى شرح قوله عليه السلام : إن الله تعالى جميل يحب الجمال ونبهنا هنالك على تقصير أبى المعالى رحمه الله فى شرح المحبة فى كتاب الإرادة من كتاب الشامل فلتنظر هنالك .

شرح الخطبة : وقوله عليه السلام : لاتملوا كلام الله وذكره ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى . الهاء فى قوله : فإنه لا يجوز أن تكون عائدة على كلام الله سبحانه ، ولـكنها ضمير الأمر والحديث ، فكأنه قال : إن الحديث من كل ما يخلق الله يختار ، فالأعمال إذاً كلها من خلق الله قد اختار منها ما شاء قال سبحانه : « يخلق ما يشاء ويختار » وقوله : قد سماه خيرته من الأعمال ، يعنى : الذكر ، وتلاوة القرآن ؛ لقوله سبحانه : ويختار ، فقد اختاره من الأعمال .

وقوله : والمصطفى من عباده ، أى : وسمى المصطفى من عباده بقوله « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » ويجوز أن يكون معناه المصطفى من عباده أى : العمل الذى اصطفاه منهم واختاره من أعمالهم ، فلا تكون من على هذا للتبعيض ، إنما تكون لابتداء الغاية ، لأنه عمل استخرجه منهم بتوفيقه إياهم . والتأويل الأول أقرب ماخذاً والله أعلم بما أراد رسوله .

وقوله فى أول الخطبة إن الحمد لله أحمده هكذا برفع الدال من قوله : الحمد لله وجدته مقيداً مصححا عليه ، وإعرابه ليس على الحكاية ، ولـكن على إضمار الأمر كأنه قال : إن الأمر الذى أذكره ، وحذف الهاء العائدة على الأمر كى لا يقدم شيئاً فى اللفظ من الأسماء على قوله : الحمد لله ، وليس تقديم إن فى اللفظ من باب تقديم الأسماء ، لأنها حرف مؤكد لما بعده مع ما فى اللفظ من التحرى للفظ القرآن والتيمن به ، والله أعلم .

أماكن الخطبة : وكانت خطبته فى تلك الأيام على جذع ، فلما صنع له المنبر من طرفاء الغـابة ، وصنعه له عبد لامرأة من الأنصار اسمه باقوم ، خار الجذع خوار الناقة الخلوج ، حتى نزل عليه السلام فالتزمه ، وقال : لولم ألتزمه مازال يخور إلى يوم القيامة ، ثم دفنه ، وإنما دفنه ، لأنه قد صار حكمه حكم المؤمن لحبه وحنينه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : « كشجرة طيبة » ، وإلى قوله عليه السلام فى النخلة : مثلها كمثل المؤمن ، وحديث خوار الجذع وحنينه منقول نقل التواتر لـكثرة من شاهد خواره من الخلق وكلهم نقل ذلك ، أو سمعه من غيره فلم ينكره .

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه وبين اليهود

شرط لهم فيه وشرط عليهم ، وأمنهم فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وكانت أرض يثرب لهم قبل نزول الأنصار بها ، فلما كان سيل العرم ، وتفرقت سبا نزلت الأوس والخزرج بأمر طريفة الـكاهنـة ، وأمر عمران ابن عامر ، فإنه كان كاهناً أيضاً وبما سجعت به لـكل قبيلة من سبا ، فسجعت لبنى حارثة بن ثعلبة . وهم الأوس والخزرج أن ينزلوا يثرب ذات النخل فنزلوها على يهود وحالفوهم وأقاموا معهم ، فكانت الدار واحدة .

أصل اليهود ومتى دخلوا يثرب : والسبب فى كون اليهود بالمدينة ، وهى وسط أرض العرب مع أن اليهود أصلهم من أرض كنعان أن بنى إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز ، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة ، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى ، فوجه إليهم جيشاً ، وأمرهم أن يقتلوهم ، ولا يبقوا منهم أحداً ، ففعلوا وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلاما حسناً ، فرقوا له ، ويقال للملك : الأرقم بن أبى الأرقم فيما ذكر الزبير ثم

. . . . : . . . .

رجعوا إلى الشام وموسى قدمات ، فقالت بنو إسرائيل لهم : قد عصيتم وخالفتم ، فلا نؤويكم ، فقالوا نرجع إلى البلاد التى غلبنا عليها فنكون بها ، فرجعوا إلى يثرب ، فاستوطنوها وتناسلوا بها إلى أن نزلت عليهم الأوس والخزرج بعد سيل العرم . هذا معنى ماذكره أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الكبير المعروف : بكتاب الأغانى ، وإن كان الزبير قد ذكره أيضاً فى أخبار المدينة ، ولاأحسب هذا صحيحاً لبعد عمر موسى عليه السلام ، والذى قال غيره إن طائفة من بنى إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دوخ بخت نصر البابلى فى بلادهم . وجاس خلال ديارهم ، فحينئذ لحق من لحق منهم بالحجاز كقريظة والنضير ، وسكنوا خيبر والمدينة ، وهذا معنى ماذكر الطبرى والله أعلم

اسم يثرب : وأما يثرب فاسم رجل نزل بها أول من العماليق فعرفت باسمه ، وهو يثرب بن قاين بن عبيل ابن مهلايل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم ، وفى بعض هذه الأسماء اختلاف وبنو عبيل هم الذين سكنوا الجحفة فأجحفت بهم السيول وبذلك سميت الجحفة ، فلما احتلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كره لها هذا الاسم أعنى : يثرب لما فيه من لفظ التثريب ، وسماها طيبة والمدينة .

فإن قلت : وكيف كره اسما ذكرها الله فى القرآن به ، وهو المقتدى بكتاب الله ،وأهل أن لايعدل عن تسمية الله ؟ قلنا ان الله ـ سبحانه ـ انما ذكرها بهذا الاسم حاكياً عن المنافقين ، اذ قالت طائفة منهم : « يا أهل يثرب لامقام لكم ؟ » فنبهه بما حكى عنهم أنهم قد رغبوا عن اسم سماها الله به ورسوله ، وأبوا إلا ما كانوا عليه فى جاهليتهم، والله سبحانه قد سماها : المدينة ، فقال غير حاك عن أحد : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب» وفى الخبر عن كعب الأحبار قال :إنا نجد فى التوراة يقول الله للمدينة ياطابة ياطيبة يامسكينة لاتقبلى الكنوز أرفع اجاجيرك على أجاجير القرى، وقد روى هذا الحديث عن على بن أبى طالب يرفعه ، وروى أيضا أن لها فى التوراة أحد عشر اسما : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة ، وروى فى معنى قوله: « وقل رب أدخلنى مدخل صدق» أنها المدينة وأن «مخرج صدق» مكة و« سلطاناً نصيرا» الأنصار.

معنى على ربعاتهم : وفى الكتاب : بنو فلان على ربعاتهم . هذا رواه أبو عبيد عن ابن بكير عن عقيل بن خالد عن الزهرى ورواه عن عبد الله بن صالح بهذا الاسناد ،فقال : رباعتهم . الألف بعد الباء ، ثم قال أبو عبيد يقال : فلان على رباعة قومه إذا كان نقيبهم ووافدهم .

قال المؤلف : وكسر الراء فيه القياس على هذا المعنى ، لأنها ولاية ، وإن جعل الرباعة مصدراً فالقياس فتح الراء أى على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء يتعاقلون معاقلهم الأولى : جمع : معقلة ومعقلة من العقل وهو الديـــة .

شرح كلمات الكتاب : وقال فى الكتاب : وألا يترك مفرح ، وفسره ابن هشام كما فسره أبو عبيد أنه الذى أثقلة الدين ، وأنشد البيت الذى أنشده أبو عبيد :

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة   وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أى : أثقلتك يجوز أن يكون من أفعال السلب ، أى سلبتك الفرح كما قيل : اقسط الرجل إذا عدل ، اى : ازال القسط ، وهو الاعوجاج ، ويجوز ان تكون الفاء مبدلة من باء ، فيكون من البرح وهو الشدة ،

. . . .

تقول : لقيت من فلان برحا أى : شدة ، وذكر أبو عبيد رواية أخرى مفرج بالجيم ، وذكر فى معناه أقوالا ، منها أنه الذى لاديوان له ، ومنها : أنه القتيل بين القريتين لايدرى من قتله ، ومنها أنه فى معنى المقرح بالحاء أى : الذى لاشىء له ، وقد أثقله الدين ، أو نحو هذا فيقضى عنه من بيت المال .

وفيه : ولا يوتغ إلا نفسه ، أى : لايوبق ، ويهلك إلا نفسه ، يقال وتغ الرجل ، وأوتغه غيره ، قاله أبو عبيد . ومعنى قوله يبىء هو من البواء ، أى : المساواة ، ومنه قول مهلهل حين قتل ابناً للحارث بن عباد : بؤ بشسع نعل كليب .

وقوله : إن البر دون الإثم ، أى : إن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزاً عن الإثم .

وقوله : وإن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره ، إن الله وحزبه المؤمنين على الرضى به ، وقال أبو عبيد فى كتاب الأموال : إنما كتب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية ، وإذ كان الإسلام ضعيفاً . قال : وكان لليهود إذ ذاك نصيب فى المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شرط عليهم فى هذا الكتاب النفقة معهم فى الحروب .

المؤاخاة بين الصحابة : آخى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » أعنى فى الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال : « إنما المؤمنون إخوة » يعنى فى التواد وشمول الدعوة . وذكر مؤاخاته بين أبى ذر والمنذر بن عمرو ، وقد ذكرنا إنكار الواقدى لذلك فى آخر حديث بيعة العقبة .

نسب أبى الدرداء : فصل : وذكر مؤاخاة سلمان وأبى الدرداء ، وأبو الدرداء اسمه عويمر بن عامر ، وقيل عويمر بن زيد بن ثعلبة ، وقيل : عويمر بن مالك بن ثعلبة بن عمرو بن قيس بن أمية من بلحارث بن الخزرج ، أمه : محبة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة ، وامرأته : أم الدرداء ، اسمها : خيرة بنت أبى حدرد ، وأم الدرداء الصغرى ، اسمها : جمانة ، مات أبو الدرداء بدمشق سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل سنة أربع وثلاثين .

نسب الفزع : فصل وذكر مؤاخاة أبى رويحة وبلال ، وسماه : عبد الله بن عبد الرحمن ، وقال : هو أحد الفزع ، لم يبينه بأكثر من هذا ، عند أهل النسب ، هو ابن شهران بن عفرس بن حلف بن أفتل ، وأفتل هو خثعم . وقد تقدم فى أول الكتاب : لم سمى خثعم وهو ابن أنمار ، وقد تقدم خلاف النسابين فيما بعد أنمار .

والفزع هذا بفتح الزاى ، وأما الفزع بسكونها ، فهو الفزع بن عبد الله بن ربيعة ، وكذلك الفزع فى خزاعة ، وفى كلب هما ساكنان أيضاً قاله ابن حبيب ، وقال الدارقطنى : الفزع بفتح الزاى : رجل يروى عن ابن عمر .

وذكر آخر فى الرواة أيضاً بفتح الزاى يروى حديثاً فى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لأبى رويحة الخثعمى لواء عام الفتح ، وأمره أن ينادى : من دخل تحت لواء أبى رويحة ، فهو آمن .

المؤاخاة بين حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة : فصل : وذكر مؤاخاة حاطب بن أبى بلتعة وعويم ابن ساعدة ، وقال فى حاطب : حليف بنى أسد ، وقال غيره : كان عبداً لعبيد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزى

خبر الأذان

قال ابن إسحاق ، فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة .

رؤيا عبد الله بن زيد : فبينما هم على ذلك ، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه أخو بلحارث بن الخزرج ، النداء ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف مر بى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قال : قلت : ندعوا به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال : قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إنها لرؤيا حق ، إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك .

رؤيا عمر : قال ابن إسحاق : حدثنى بهذا الحديث محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن محمد بن عبد الله بن زيد ابن ثعلبة بن عبد ربه ، عن أبيه .

قال ابن هشام : وذكر ابن جريج ، قال : قال لى عطاء : سمعت عبيد بن عمير الليثى يقول : ائتمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذا رأى عمر بن الخطاب فى المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة . فذهب عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بذلك ، فما راع عمر إلا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحى .

ما كان يدعو به بلال فى الفجر : قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ، عن امرأة من بنى النجار ، قالت : كان بيتى من أطول بيت حول المسجد : فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة : فيأتى بسحر ، فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك . قالت : والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة .

أبو قيس بن أبى أنس قال ابن إسحاق : فلما اطمأنت برسول الله صلى الله عليه وسلم داره ، وأظهر الله بها

وقيل : كان من مذحج والأشهر : أنه من لخم بن عدى ، واسم أبى بلتعة عمرو بن أشد بن معاذ . والبلتعة من قولهم تبلتع الرجل إذا تظرف ، قاله أبو عبيد فى الغريب المصنف .

دينه ، وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته ، قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس ، أخو بنى عدى بن النجار .

قال ابن هشام: أبو قيس صرمة بن أبي أنس بن صرمة بن مالك بن عدى بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار.

قال ابن إسحاق : وكان رجلا قد ترهب فى الجاهلية ، ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء ، وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتا له ، فاتخذه مسجدا لاتداخله عليه فيه طامث ولا جنب ، وقال : أعبدرب إبراهيم ، حين فارق الأوثان وكرهها ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأسلم وحسن إسلامه ، وهو شيخ كبير ، وكان قوالا بالحق معظما لله عز وجل فى جاهليته ، يقول أشعارا فى ذلك حسانا ـ وهو الذى يقول :

يقول أبو قيس وأصبح غاديا : ألا ما استطعتم من وصاتى فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى وأعراضكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهى بقومكم فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن ناب غرم فادح فارفقوهم وما حملوكم فى الملمات فاحملوا
وإن أنتم أمعرتم فتعففوا وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

قال ابن هشام : ويروى :

وإن ناب أمر فادح فارفدوهم

قال ابن إسحاق : وقال أبو قيس صرمة أيضا :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوى فى وكور من آمنات الجبال
وله الوحش بالفلاة تراها فى حقاف وفى ظلال الرمال
وله هودت يهود ودانت كل دين إذا ذكرت عضال
وله شمس النصارى وقاموا كل عيد لربهم واحتفال
وله الراهب الحبيس تراه رهن بوس وكان ناعم بال
يا بنى الأرحام لاتقطعوها وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله فى ضعاف اليتامى ربما يستحل غير الحلال
واعلموا أن لليتيم وليا عالما يهتدى بغير السؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه إن مال اليتيم يرعاه والى
يا بنى ، التخوم لاتخزلوها إن خزل التخوم ذو عقال
يا بنى الأيام لاتأمنوها واحذروا مكرها ومر الليالى

واعلموا أن مرها لنفاد الخلـــق ما كان من جديد وبالى
واجمعوا أمركم على البر والتقـــوى وترك الخنا وأخذ الحلال

وقال أبو قيس صرمة أيضا ، يذكر ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من اسلام ، وماخصهم الله به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى وكان له عونا من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لايخشى من الناس واحداً قريبا ولايخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لاشىء غيره ونعلم أن الله أفضل هاديا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعا وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك فى كل بيعة : تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخوفة حنانيك لاتظهر على الأعاديا
فطأ معرضا إن الحتوف كثيرة وإنك لاتبقى لنفسك باقيا
فوالله مايدرى الفتى كيف يتقى إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولاتحفل النخل المعيمة ربها إذا أصبحت ريا وأصبح ثاويا

قال ابن هشام : البيت الذى أوله :

فطأمعرضاً إن الحتوف كثيرة

والبيت الذى يليه :

فوالله مايدرى الفتى كيف يتقى

لأفنون التغلبى ، وهو صريم بن معشر ، فى أبيات له

عداوة اليهود: قال ابن إسحاق :ونصبت عند ذلك أحبار يهود ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ العداوة بغياً وحسداً وضغناً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليـــه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جنة من القتل ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجحودهم الإسلام . وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ويتعنتونه ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان

. . . .

القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

منهم : حيى بن أخطب ، وأخواه أبو ياسر بن أخطب ، وجدى بن أخطب ، وسلال بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وسلام بن أبى الحقيق ، وأبو رافع الأعور ، وهو الذى قتله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر - والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وعمرو بن جحاش ، وكعب بن الأشرف ، وهو من طيء ، ثم أحد بنى نبهان ، وأمه من بنى النضير ، والحجاج بن عمرو ، حليف كعب بن الأشرف ، وكردم بن قيس ، حليف كعب بن الأشرف ، فهؤلاء من بنى النضير .

ومن بنى ثعلبة ابن الفطيون : عبد الله بن صوريا الاعور ، ولم يكن بالحجاز فى زمانه أحد أعلم بالتوراة منه وابن صلوبا ، ومخيريق ، وكان حبرهم ، أسلم :

ومن بنى قينقاع : زيد بن اللصيت - ويقال : ابن اللصيت - فيما قال ابن هشام وسعد بن حنيف ، ومحمود بن سيحان وعزيز بن أبى عزيز ، وعبد الله بن صيف . قال ابن هشام : ويقال . ابن ضيف .

قال ابن اسحاق . وسويد بن الحارث ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن أضا ، وبحرى بن عمرو ، وشأس بن عدى ، وشاس بن قيس ، وزيد بن الحارث ، ونعمان بن عمرو ، وسكين بن أبى سكين ، وعدى بن زيد ، ونعمان بن أبى أوفى ، أبو أنس ، ومحمود بن دحية ، ومالك بن صيف : قال ابن هشام : ويقال : ابن ضيف .

قال ابن إسحاق : وكعب بن راشد ، وعازر ، ورافع بن أبى رافع ، وخالد وأزار بن أبى أزار . قال ابن هشام ويقال : آزر بن آزر .

قال ابن إسحاق : ورافع بن حارثة ، ورافع بن حريملة ورافع بن خارجة ، ومالك بن عوف ، ورفاعة بن زيد ابن التابوب ، وعبد الله بن سلام بن الحارث ، وكان حبرهم وأعلمهم ، وكان اسمه الحصين ، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم - عبد الله . فهؤلاء من بنى قينقاع .

ومن بنى قريظة : الزبير بن باطا بن وهب ، وعزال بن شمويل ، وكعب بن أسد ، وهو صاحب عقد بنى قريظة الذى نقض عام الأحزاب ؛ وشمويل بن زيد ، وجبل بن عمرو بن سكينة والنحام بن زيد ؛ وقردم بن كعب ، ووهب بن زيد ، ونافع بن أبى نافع ، وأبو نافع ؛ وعدى بن زيد ؛ والحارث بن عوف وكردم بن زيد وأسامة بن حبيب ، ورافع بن رميلة ، وجبل بن أبى قشير ، ووهب بن يهوذا ، فهؤلاء من بنى قريظة .

ومن يهود بنى رزيق : لبيد بن أعصم ، وهو الذى أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسائه .

ومن يهود بنى حارثة : كنانة بن صوريا .

ومن يهود بنى عمرو بن عوف : قردم بن عمرو .

ومن يهود بنى النجار : سلسلة بن برهام .

فهؤلاء أحبار اليهود ، أهل الشرور والعداوة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحاب المسألة ، والنصب لأمر الإسلام الشرور ليطفئوه ، إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق .

إسلام عبد الله بن سلام

قال ابن اسحاق : وكان من حديث عبد الله بن سلام ، كما حدثني بعض أهله عنه . وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالما ، قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له ، فكنت مسراً لذلك ، صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ؟ أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لى عمتى ، حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت ، قال: فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى ابن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به . قال :فقالت : أى بن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قال : فقلت لها : نعم . قال : فقالت : فذاك إذاً . قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى ، فأمرتهم فأسلموا .

قال : وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يارسول الله ، إن يهود قوم بهت وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى ، قال : فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه ، فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا . قال : فلما فرغوا من قولهم، خرجت عليهم ، فقلت لهم: يامعشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ماجاءكم به ، فو الله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ثم وقعوا بى ، قال : فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ! قال : فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها .

من حديث مخيريق : قال ابن اسحاق : وكان من حديث مخيريق ، وكان حبراً عالما ، وكان رجلا غنيا كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ، وما يجد فى علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك، حتى اذا كان يوم أحد وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يامعشر يهود ، والله انكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : ان اليوم يوم السبت، قال : لاسبت لكم . ثم اخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وعهد الى من وراءه من قومه : ان قتلت هذا اليوم ، فأموالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - يصنع فيها ماأراه الله . فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل . فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - يقول : مخيريق خير يهود، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها .

حديث صفية : قال ابن اسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمر بن حزم قال : حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبى اليه ، والى عمى أبى ياسر ، لم ألقها قط مع ولد لهما الا أخذانى دونه . قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزل قباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى ، حيي بن أخطب ، وعمى : أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين . قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب

الشمس . قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فو الله ما التفت إلى واحد منهما ، مع مابهما من الغم . قالت : وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى : حيى بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ؛ قال : أتعرفه : وتثبته ؟ قال نعم ، قال: فما فى نفسك منه ؟ قال: عداوته والله مابقيت.

المنافقون بالمدينة .قال ابن إسحاق : وكان ممن انضاف إلى يهود ، ممن سمى لنا من المنافقين من الأوس والخزرج، والله أعلم من الأوس ، ثم من بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، ثم من بنى لوذان بن عمرو بن عوف : زوى بن الحارث .

ومن بنى حبيب بن عمرو بن عوف : جلاس بن سويد بن الصامت ، وأخوه الحارث بن سويد .

وجلاس الذى قال ـ وكان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ـ لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمر . فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عمير بن سعد ، أحدهم ، وكان فى حجر جلاس ، خلف جلاس على أمه بعد أبيه ، فقال له عمير بن سعد : والله ياجلاس ، إنك لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى يداً وأعزهم على أن يصيبه شىء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكن دينى ، ولإحداهما أيسر على من الأخرى . ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ما قال جلاس ، فحلف جلاس بالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كذب على عمير ، وما قلت ما قال عمير ابن سعد. فأنزل الله عز وجل فيه : « يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » .

قال ابن هشام : الأليم : الموجع . قال ذو الرمة يصف إبلا :

وترفع من صدور شمردلات　　　يصك وجوهها وهج أليم

وهذا البيت فى قصيدة له .

قال ابن إسحاق : فزعموا أنه تاب فحسنت توبته ، حتى عرف منه الخير والإسلام .

وأخوه الحارث بن سويد ، الذى قتل المجذر بن ذياد البلوى، وقيس بن زيد ، أحد بنى ضبيعة ، يوم أحد. خرج مع المسلمين ، وكان منافقا ، فلما التقى الناس عدا عليهما ، فقتلهما ثم لحق بقريش .

قال ابن هشام :وكان المجذر بن ذياد قتل سويد بن صامت فى بعض الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج فلما كان يوم أحد طلب الحارث بن سويد غرة المجذر بن ذياد ، ليقتله بأبيه ، فقتله وحده ، وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : والدليل على أنه لم يقتل قيس بن زيد ، أن ابن اسحاق لم يذكره فى قتلى أحد .

قال ابن اسحاق ؛ قتل سويد بن صامت معاذ بن عفراء غيلة ، فى غير حرب ، رماه بسهم فقتله قبل يوم بعاث .

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما يذكرون ـ قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به ، ففاته ـ فكان بمكة ، ثم بعث الى أخيه جلاس يطلب التوبة ، ليرجع الى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه ـ فيما بلغنى عن ابن عباس ـ : « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات ، والله لايهدى القوم الظالمين » . إلى آخر القصة.

. . . .

ومن بنى ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف : بجاد بن عثمان بن عامر .

ومن بنى لوذان بن عمرو بن عوف : نبتل بن الحارث ، وهو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى : من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث ، وكان رجلا جسيما أدلم ، ثائر شعر الرأس أحمر العينين ، أسفع الخدين ، وكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال : إنما محمد أذن ، من حدثه شيئاً صدقه . فأنزل الله عز وجل فيه : « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون : هو أذن، قل أذن خير لكم، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ».

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض رجال بلعجلان أنه حدث : أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له إنه يجلس إليك رجل أدلم ثائر شعر الرأس، أسفع الخدين أحمر العينين ، كأنهما قدران من صفر، كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فاحذره وكانت تلك صفة نبتل بن الحارث ، فيما يذكرون .

ومن بنى ضبيعة : أبو حبيبة بن الأزعر ، وكان ممن بنى مسجد الضرار ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، الخ القصة . ومعتب الذى قال يوم أحد : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » إلى آخر القصة وهو الذى قال يوم الأحزاب : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط . فأنزل الله عز وجل فيه : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » والحارث ابن حاطب .

قال ابن هشام : معتب بن قشير ، وثعلبة والحارث ابنا حاطب، وهم من بنى أمية بن زيد من أهل بدر وليسوا من المنافقين فيما ذكر لى من أثق به من أهل العلم ، وقد نسب ابن إسحاق ثعلبة والحارث فى بنى أمية بن زيد فى أسماء أهل بدر .

قال ابن إسحاق : وعباد بن حنيف ، أخو سهل بن حنيف ، وبحزج ، وهم ممن كان بنى مسجد الضرار، وعمرو ابن خزام ، وعبد الله بن نبتل .

ومن بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف : جارية بن عامر بن العطاف ، وابناه : زيد ومجمع ، ابنا جارية ، وهم ممن اتخذ مسجد الضرار . وكان مجمع غلاماً حدثاً قد جمع من القرآن أكثره ، وكان يصلى بهم فيه ، ثم إنه لما أخرب المسجد . وذهب رجال من بنى عمرو بن عوف ، كانوا يصلون ببنى عمرو بن عوف فى مسجدهم ، وكان زمان عمر ابن الخطاب ، كلم فى مجمع ليصلى بهم ، فقال : لا ، أو ليس بإمام المنافقين فى مسجد الضرار ؟ فقال لعمر : ياأمير المؤمنين ، والله الذى لا إله إلا هو ، ما علمت بشىء من أمرهم، ولكنى كنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا لا قرآن معهم ، فقدمونى أصلى بهم ، وما أرى أمرهم ، إلا على أحسن ما ذكروا . فزعموا أن عمر تركه فصلى بقومه .

ومن بنى أمية بن زيد بن مالك : وديعة بن ثابت ، وهو ممن بنى مسجد الضرار ، وهو الذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله تبارك وتعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم مستهزءون » . . . إلى آخر القصة .

. . . .

ومن بنى عبيد بن زيد بن مالك : خذام بن خالد ، وهو الذى أخرج مسجد الضرار من داره ، وبشر ورافع ابنا زيد .

ومن بنى النبيت - قال ابن هشام : النبيت :عمرو بن مالك بن الأوس - قال ابن إسحاق : ثم من بنى حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس : مربع بن قيظى ، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجاز فى حائطه ورسول الله صلى الله عليه وسلم عامد إلى أحد : لا أحل لك يا محمد ، إن كنت نبياً ، أن تمر فى حائطى ، وأخذ فى يده حفنة من تراب ، ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به ، فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعوه ، فهذا الأعمى ، أعمى القلب ، أعمى البصيرة ، فضربه سعد بن زيد ، أخو بنى عبد الأشهل بالقوس فشجه ، وأخوه أوس بن قيظى ، وهو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا فارجع إليها . فأنزل الله تعالى فيه « يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً » .

قال ابن هشام : عورة ، أى معورة للعدو وضائعة ، وجمعها : عورات قال النابغة الذبيانى :

متى تلقهم لا تلق للبيت عورة ... ولا الجار محروماً ولا الأمر ضائعاً

وهذا البيت فى أبيات له ، والعورة - أيضاً - : عورة الرجل ، وهى حرمته . والعورة - أيضاً - السوءة .

قال ابن إسحاق : ومن بنى ظفر ، واسم ظفر : كعب بن الحارث بن الخزرج حاطب بن أمية بن رافع ، وكان شيخاً جسيما قد عسا فى جاهليته وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات ، فحمل إلى دار بنى ظفر .

قال ابن إسحاق: فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أنه اجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون أبشر يابن حاطب بالجنة . قال فنجم نفاقه حينئذ ، فجعل يقول أبوه أجل جنة من حرمل ، غررتم والله هذا المسكين من نفسه .

قال ابن إسحاق : وبشير بن أبيرق، وهو أبو طعمة ، سارق الدرعين ، الذى أنزل الله تعالى فيه : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » وقزمان : حليف لهم .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه لمن أهل النار . فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً حتى قتل بضعة نفر من المشركين ، فأثبتته الجراحات ، فحمل إلى دار بنى ظفر ، فقال له رجال من المسلمين : أبشر يا قزمان ، فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ما ترى فى الله : قال : بماذا أبشر فو الله ما قاتلت إلا حمية عن قومى ، فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهما من كنانته ،فقطع به رواهس يده ، فقتل نفسه .

قال ابن إسحاق : ولم يكن فى بنى عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم ، إلا أن الضحاك بن ثابت ، أحد بنى كعب ، رهط سعد بن زيد ، قد كان يتهم بالنفاق وحب يهود .

قال حسان بن ثابت :

من مبلغ الضحاك أن عروقه ... أعيت على الإسلام أن تتمجدا

. . . .

أتحب يهدان الحجاز ودينهم كبد الحمار ، ولا تحب محمداً
دينا لعمرى لا يوافق ديننا ما استن آل فى الفضاء وخودا

وكان جلاس بن سويد بن صامت قبل توبته - فيما بلغنى - ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد ، وبشر ، وكانوا يدعون بالإسلام ، فدعاهم رجال من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعوهم الى الكهان ، حكام أهل الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل فيهم : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك تريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » . . الى آخر القصة .

ومن الخزرج ، ثم من بنى النجار : رافع بن وديعة ، وزيد بن عمرو ، وعمرو بن قيس ، وقيس بن عمرو ابن سهل .

ومن بنى جشم بن الخزرج ، ثم من بنى سلمة : الجد من قيس ، وهو الذى يقول : يا محمد ، ائذن لى ، ولا تفتنى فأنزل الله تعالى فيه : « ومنهم من يقول ائذن لى ، ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » . . الى آخر القصة .

ومن بنى عوف بن الخزرج : عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان رأس المنافقين واليه يجتمعون ، وهو الذى قال: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فى غزوة بنى المصطلق . وفى قوله ذلك ، نزلت سورة المنافقين بأسرها . وفيه وفى وديعة - رجل من بنى عوف - ومالك بن أبى قوقل ، وسويد ، وداعس ، وهم من رهط عبد الله بن أبى بن سلول ، وعبد الله بن أبى بن سلول . فهؤلاء النفر من قومه الذين كانوا يدسون الى بنى النضير حين حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن اثبتوا ، فوالله لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وان قوتلتم لننصرنكم . فأنزل الله تعالى فيهم : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » ، ثم القصة من السورة حتى انتهى الى قوله « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » .

قال ابن اسحاق : وكان ممن تعوذ بالإسلام ، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق ، من أحبار يهود .

من بنى قينقاع : أسعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان بن أوفى . وزيد ابن اللصيت ، الذى قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بسوق بنى قينقاع ، وهو الذى قال ، حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الخبر بما قال عدو الله فى رحله ، ودل الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ناقته؟ « إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، ولا يدرى أين ناقته ؟ وانى والله ما أعلم الا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، فهى فى هذا الشعب ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما وصف ، ورافع بن حريملة ، وهو الذى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - حين مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وهو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هبت عليه الريح ، وهو قافل من غزوة بنى المصطلق ، فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوا

فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذى هبت فيه الريح وسلسلة بن برهام . وكنانة بن صوريا .

طرد المنافقين من المسجد : وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزئون بدينهم ، فاجتمع يوما فى المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم ، خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا ، فقام أبو أيوب ، خالد بن زيد بن كليب ، الى عمرو بن قيس ، أحد بنى غنم بن مالك بن النجار - كان صاحب آلهتهم فى الجاهلية فأخذ برجله فسحبه ، حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أتخرجنى يا أبا أيوب من مربد بنى ثعلبة ، ثم أقبل أبو أيوب أيضا الى رافع بن وديعة ، أحد بنى النجار فلببه بردائه ثم نتره نترآ شديدا ، ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد ، وأبو أيوب يقول له : أف لك منافقا خبيثا : أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن هشام : أى ارجع من الطريق التى جئت منها . قال الشاعر :

فولى وأدبر أدراجه وقد باء بالظلم من كان ثم

وقام عماره بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان رجلا طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قودآ عنيفا حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه فلدمه بهما فى صدره لدمة خر منها . قال : يقول : خدشتنى يا عمارة ، قال : أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن هشام : اللدم : الضرب ببطن الكف . قال تميم بن أبى بن مقبل :

وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدم الوليد وراء الغيب بالحجر

قال ابن هشام : الغيب : ما انخفض من الأرض . والأبهر : عرق القلب .

قال ابن إسحاق : وقام أبو محمد ، رجل من بنى النجار ، كان بدريا ، وأبو محمد مسعود بن أوس ابن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاماً شاباً وكان لا يعلم فى المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه من المسجد .

وقام رجل من بلخدرة بن الخزرج ، رهط أبى سعيد الخدرى ، يقال له : عبد الله بن الحارث ، حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراج المنافقين من المسجد إلى رجل يقال له : الحارث بن عمرو ، وكان ذا جمة ، فأخذ بجمته فسحبه بها سحبا عنيفا ، على ما مر به من الأرض ، حتى أخرجه من المسجد . قال : يقول المنافق : لقد أغلظت يا بن الحارث . فقال له ، إنك أهل لذلك . أى عدو الله لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك نجس .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه زوى بن الحارث ، فأخرجه من المسجد إخراجا عنيفا ، وأفف منه ، وقال : غلب عليك الشيطان وأمره

فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .

ما نزل فى اليهود والمنافقين : ففى هؤلاء من أحبار يهود ، والمنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها – فيما بلغنى – والله أعلم .

يقول الله سبحانه وبحمده : « الم ذلك الكتاب لاريب فيه » ، أى لاشك فيه .

قال ابن هشام : قال ساعدة بن جؤية الهذلى .

فقالوا عهدنا القوم قد حصروا به   فلا ريب أن قد كان ثم لحيم

وهذا البيت فى قصيدة له ، والريب أيضاً : الريبة . قال خالد بن زهير الهذلى :

كأننى أريبه بريب

قال ابن هشام : ومنهم من يرويه :

كأنى أربته بريب

وهذا البيت فى أبيات له ، وهو ابن أخى أبى ذؤيب الهذلى .

« هدى للمتقين » أى الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك مايعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاءهم منه : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » أى يقيمون الصلاة بفرضها ، ويؤتون الزكاة احتسابا لها : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، أى يصدقونك بما جئت به من الله عز وجل ، وماجاء به من قبلك من المرسلين، لايفرقون بينهم ،ولا يجحدون ماجاءوهم به من ربهم . « وبالآخرة هم يوقنون » أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، أى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان من قبلك ، وبما جاءك من ربك « أولئك على هدى من ربهم » ، أى على نور من ربهم واستقامة على ماجاءهم « وأولئك هم المفلحون » أى الذين أدركوا ماطلبوا ونجوا من شر مامنه هربوا . « إن الذين كفروا » ، أى بما أنزل إليك وإن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون » أى أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ماأخذ عليهم من الميثاق لك،فقد كفروا بما جاءك عندهم ، بماجاءهم به غيرك ، فكيف يستمعون منك إنذاراً أو تحذيراً ، وقد كفروا بما عندهم من علمك .«ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » أى عن الهدى أن يصيبوه أبداً ، يعنى بما كذبوك به من الحق الذى جاءك من ربك حتى يؤمنوا به وإن آمنوا بكل ما كان قبلك ، ولهم بما هم عليه من خلافك عذاب عظيم .

فهذا فى الأحبار من يهود ، فيما كذبوا به من الحق بعد معرفته .

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين » يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم . « يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون . فى قلوبهم مرض » ، أى شك « فزادهم الله مرضاً » ، أى شكا «ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله تعالى « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ،قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء

ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم »من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب بالحق وخلاف ماجاء به الرسول « قالوا إنا معكم » ، أى انا على مثل ما أنتم عليه « إنما نحن مستهزئون » : أى انما نستهزىء بالقوم ، ونلعب بهم . يقول الله عز وجل : « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

تفسير ابن هشام لبعض غريب الألفاظ :قال ابن هشام يعمهون :يحارون .تقول العرب :رجل عمه وعامه :أى حيران.قال رؤبة بن العجاج يصف بلدا:

أعمى الهدى بالجاهلين العمه

وهذا البيت فى أرجوزة له . فالعمه : جمع عامه : وأما عمه ، فجمعه : عمهون : والمرأة : عمهة وعمهاء .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » : أى الكفر بالإيمان « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

قال ابن اسحاق : ثم ضرب لهم مثلا ،فقال تعالى « كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » أى لا يبصرون الحق ويقولون به حتى اذا خرجوا به من ظلمة الكفر اطفئوه بكفرهم به ونفاقهم فيه ، فتركهم الله فى ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى ، ولا يستقيمون على حق :«صم بكم عمى فهم لا يرجعون » أى لا يرجعون إلى الهدى ، صم بكم عمى عن الخير ، لا يرجعون إلى خير ولا يصيبون نجاة ما كانوا على ماهم عليه « أوكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » .

قال ابن هشام : الصيب : المطر ، وهو من صاب يصوب ، مثل قولهم : السيد ، من ساد يسود ، والميت من مات يموت وجمعه : صيائب . قال علقمة بن عبدة ، احد بنى ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم :

كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

وفيها :

فلا تعدلى بينى وبين مغمر سقتك روايا المزن حيث تصوب

وهذان البيتان فى قصيدة له .

قال ابن إسحاق : أى هم من ظلمة ماهم فيه من الكفر والحذر من القتل من الذى هم عليه من الخلاف والتخوف لكم ، على مثل ما وصف ، من الذى هو فى ظلمة الصيب ، يجعل أصابعه فى اذنيه من الصواعق حذر الموت . يقول : والله منزل ذلك بهم من النقمة ، اى هو محيط بالكافرين « يكاد البرق يخطف أبصارهم » : اى لشدة ضوء الحق « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا » اى يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه فى الكفر قاموا متحيرين . « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » اى لما تركوا من الحق بعد معرفته « إن الله على كل شىء قدير » .

ثم قال : « يأيها النـــاس اعبدوا ربكم » للفريقين جميعا ، من الكفار والمنافقين ، أى وحدوا ربكم « الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

قال ابن هشام : الأنداد : الأمثال : واحدهم ند ، قال لبيد بن ربيعة :

أحمد الله فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل

وهذا البيت فى قصيدة له :

قال ابن إسحاق : أى لاتشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لاشك فيه . « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » أى فى شك مما جاءكم به ، « فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله » أى من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه « إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » فقد تبين لكم الحق « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر .

ثم رغبهم وحذرهم نقض الميثاق الذى أخذ عليهم لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا جاءهم وذكر لهم بدء خلقهم حين خلقهم ، وشأن أبيهم آدم عليه السلام وأمره ، وكيف صنع به حين خالف عن طاعته ، ثم قال : « يا بنى إسرائيل » للأحبار من يهود « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » أى بلائى عندكم وعند آبائكم ، لما كان نجاها به من فرعون وقومه « وأوفوا بعهدى » الذى أخذت فى أعناقكم لنبيى أحمد إذا جاءكم «أوف بعهدكم» أنجز لكم ماوعدتكم على تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم « وإياى فارهبون » أى أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم ، من المسخ وغيره « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به » وعندكم من العلم فيه ماليس عند غيركم « وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل ، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به « وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » أى أتنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم ، أى وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى وتنقضون ميثاقى ، وتجحدون ما تعلمون من كتابى .

ثم عدد عليهم أحداثهم ، فذكر لهم العجل وما صنعوا فيه ، وتوبته عليهم . وإقالته إياهم ، ثم قولهم : « أرنا الله جهرة » .

قال ابن هشام : جهرة ، أى ظاهراً لنا لا شىء يستره عنا . قال أبو الأخزر الحمانى ، واسمه قتيبة :

يجهر أجواف المياه السدم

وهذا البيت فى أرجوزة له .

يجهر : يقول : يظهر الماء ويكشف عنه ، مايستره من الرمل وغيره .

قال ابن إسحاق : وأخذ الصاعقة إياهم عند ذلك لغرتهم ، ثم إحياءه إياهم بعد موتهم ، وتظليله عليهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، وقوله لهم : « ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة » ، أى قولوا ما آمركم به أحط به ذنوبكم عنكم ، وتبديلهم ذلك من قوله استهزاء بأمره ، وإقالته إياهم ذلك بعد هزئهم .

قال ابن هشام : المن : شيء كان يسقط فى السحر على شجرهم ، فيجتنونه حلواً مثل العسل ، فيشربونه ويأكلونه . قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

لو أطعموا المن والسلوى مكانهم ما أبصر الناس طعماً فيهم نجعا

وهذا البيت فى قصيدة له . والسلوى : طير ، واحدتها : سلواة ، ويقال : إنها السمانى ، ويقال للعسل أيضاً : السلوى . وقال خالد بن زهير الهذلى :

وقاسمها بالله حقاً لأنتم ألذ من السلوى إذا ما نشورها

وهذا البيت فى قصيدة له . وحطة : أى حط عنا ذنوبنا .

قال ابن إسحاق : وكان من تبديلهم ذلك ، كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوءمة بنت أمية بن خلف ، عن أبى هريرة ومن لا أتهم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا منه سجداً يزحفون ، وهم يقولون حنط فى شعير .

قال ابن هشام : ويروى : حنطة فى شعيرة .

قال ابن إسحاق : واستسقاء موسى لقومه ، وأمره إياه أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت لهم منه اثنتا عشرة عينا : لكل سبط عين يشربون منها ، قد علم كل سبط عينه التى منها يشرب ، وقولهم لموسى عليه السلام : « لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها » .

قال ابن هشام : الفوم : الحنطة . قال أمية بن الصلت الثقفى :

فوق شيزى مثل الجوابى عليها قطع كالوذيل فى نقى فوم

قال ابن هشام : الوذيل ، قطع الفضة والفوم : القمح ، واحدته : فومه . وهذا البيت فى قصيدة له .

« وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ماسألتم » .

قال ابن إسحاق : فلم يفعلوا . ورفعه الطور فوقهم ليأخذوا ما أوتوا ؛ والمسخ الذى كان فيهم ، إذ جعلهم قردة بأحداثهم ، والبقرة التى أراهم الله عز وجل بها العبرة فى القتيل الذى اختلفوا فيه ، حتى بين الله لهم أمره ، بعد التردد على موسى عليه السلام فى صفة البقرة ، وقسوة قلوبهم بعد ذلك حتى كانت كالحجارة أو أشد قسوة . ثم قال تعالى : « وإن من الحجارة لمـــا يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله » أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق « وما الله بغافل عما تعملون » .

ثم قال لمحمد عليه الصلاة والسلام ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون » وليس قوله يسمعون التوراة ، أن كلهم قد سمعها ، ولكنه فريق منهم ، أى خاصة .

قال ابن إسحاق ، فيما بلغنى عن بعض أهل العلم : قالو الموسى : ياموسى ، قدحيل بيننا وبين رؤية الله ، فأسمعنا

كلامه حين يكلمك ، فطلب ذلك موسى عليه السلام من ربه ، فقال له : نعم ، مرهم فليطهروا ، أو ليطهروا ثيابهم ، وليصوموا ، ففعلوا . ثم خرج بهم حتى أتى بهم الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى فوقعوا سجداً ، وكلمه ربه ، فسمعوا كلامه تبارك وتعالى ، يأمرهم وينهاهم ، حتى عقلوا عنه ماسمعوا ، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل ، فلما جاءهم حرف فريق منهم ما أمرهم به ، وقالوا ، حين قال موسى لبنى اسرائيل : ان الله قد أمركم بكذا وكذا ، قال ذلك الفريق الذى ذكر الله عز وجل إنما قال كذا وكذا ، خلافا لما قال الله لهم ، فهم الذين عنى الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » ، أى بصاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة . « وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا » : لاتحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان فيهم . فأنزل الله عز وجل فيهم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » ، أى تقرون بأنه نبى ، وقد عرفتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبركم أنه النبى الذى كنا ننتظر ونجد فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا لهم به يقول الله عز وجل : « أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ، ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى » .

قال ابن هشام ، عن أبى عبيدة : إلا أمانى : إلا قراءة ، لأن الأمى : الذى يقرأ ولا يكتب . يقول : لايعلمون الكتاب إلا أنهم يقرءونه .

قال ابن هشام : عن أبى عبيدة ويونس أنهما تأولا ذلك عن العرب فى قول الله عز وجل ، حدثنى أبو عبيدة بذلك .

قال ابن هشام : وحدثنى يونس بن حبيب النحوى وأبو عبيدة : أن العرب تقول : تمنى ، فى معنى قرأ . وفى كتاب الله تبارك وتعالى :

وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » . قال : وأنشدنى أبو عبيدة النحوى :

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره وفى حمام المقادر

وأنشدنى أيضا :

تمنى كتاب الله فى الليل خاليا ... تمنى داود الزبور على رسل

وواحدة الأمانى : أمنية . والأمانى أيضا : أن يتمنى الرجل المال أو غيره .

قال ابن اسحاق : « وإن هم إلا يظنون » : أى لايعلمون الكتاب ولا يدرون مافيه ، وهم يجحدون نبوتك بالظن . « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون » .

قال ابن اسحاق : وحدثنى مولى لزيد بن ثابت عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول : انما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وانما يعذب الله الناس فى النار بكل الف سنة من ايام الدنيا يوما واحدا فى النار من ايام الآخرة . وانما هى سبعة ايام ثم ينقطع العذاب فأنزل الله من فى ذلك قولهم : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله

: . . . .

عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، أى من عمل بمثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به ، يحبط كفره بما له عند الله من حسنة ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، أى خلد أبداً . ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، : أى من آمن بما كفرتم به ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً ، لا انقطاع له .

قال ابن إسحاق : ثم قال عز وجل يؤنبهم : ، وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، أى ميثاقكم ، لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا ، وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ، أى تركتم ذلك كله ليس بالتنقص ، ، وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمائكم ، .

قال ابن هشام : تسفكون : تصبون ، تقول العرب : سفك دمه ، أى صبه ، وسفك الزق ، أى هراقه ، قال الشاعر :

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا   سفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قال ابن هشام : يعنى ، بالحال ، : الطين الذى يخالطه الرمل ، وهو الذى تقول له العرب : السهلة ، وقد جاء فى الحديث : أن جبريل لما قال فرعون : ، آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، أخذ من حال البحر ، وحمأته ، فضرب به وجه فرعون .

قال ابن إسحاق ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، على أن هذا حق من ميثاق عليكم ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، أى أهل الشرك ، حتى يسفكوا دماءهم معهم ، ويخرجوهم من ديارهم معهم ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وقد عرفتم أن ذلك عليكم فى دينكم ، وهو محرم عليكم ، : فى كتابكم ، إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، ، أى أتفادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفاراً بذلك ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون ، فأنبهم الله عز وجل بذلك من فعلهم ، وقد حرم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم .

فكانوا فريقين، منهم بنو قينقاع ولفهم، حلفاء الخزرج ، والنضير وقريظة ولفهم ، حلفاء الأوس . فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه ، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ،لا يعرفون جنة ولا ناراً ، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً ، ولا حلالا ولا حراما ، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أساراهم تصديقا لما فى التوراة ، وأخذ به بعضهم من بعض ، يفتدى بنو قينقاع من كان من أسراهم فى أيدى الأوس وتفتدى النضير وقريظة ما فى أيدى الخزرج منهم ويطلون ما أصابوا من الدماء ، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم ، مظاهرة لأهل الشرك عليهم ، يقول الله تعالى لهم حين أنبهم بذلك : ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، ، أى تفاديه بحكم التوراة وتقتله، وفى حكم التوراة أن لا تفعل ، تقتله وتخرجه من داره وتظاهر عليه من يشرك بالله ، ويعبد الأوثان من دونه،

ابتغاء عرض الدنيا ، فى ذلك من فعلهم مع الأوس - فيما بلغنى - نزلت هذه القصة .

ثم قال تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات » ، أى الآيات التى وضعت على يديه ، من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، والخبر بكثير من الغيوب مما يدخرون فى بيوتهم ، وما رد عليهم من التوراة مع الإنجيل، الذى أحدث الله إليه . ثم ذكر كفرهم بذلك كله ، فقال : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقاً تقتلون » ، ثم قال تعالى: « وقالوا قلوبنا غلف » :فى أكنة . يقول الله عز وجل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه ، قال : قالوا : فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة ، كنا قد علوناهم ظهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش فاتبعناه كفروا به . يقول الله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » ، أى أن جعله فى غيرهم : « فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » .

قال ابن هشام : فباءوا بغضب : أى اعترفوا به واحتملوه . قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها كصرخة حبلى يسرتها قبيلها

قال ابن هشام : يسرتها : أجلستها للولادة ، وهذا البيت فى قصيدة له .

قال ابن إسحاق : فالغضب على الغضب لغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة ، وهى معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبى صلى الله عليه وسلم الذى أحدث الله إليهم .

ثم أنبهم برفع الطور عليهم ، واتخاذهم العجل إلهاً دون ربهم ، يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب عند الله ، فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » ، أى بعلمهم بما عندهم من العلم بك ، والكفر بذلك، فيقال : لو تمنوه يوم قال ذلك لهم ما بقى على وجه الأرض يهودى إلا مات . ثم ذكر رغبتهم فى الحياة الدنيا وطول العمر ، فقال تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » اليهود « ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » أى ما هو بمنجيه من العذاب ، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودى قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بما ضيع مما عنده من العلم ثم قال الله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » .

سؤال اليهود الرسول وإجابته لهم قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الأشعرى : أن نفراً من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن ، فان فعلت ذلك تبعناك وصدقناك وآمنا بك ، قال : فقال لهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقننى ؟ قالوا : نعم ، قال : فاسألوا عما بدا لكم ، قالوا فأخبرنا كيف يشبه الولدأمه، وإنما النطفة من الرجل ؟ قال : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه ؟ قالوا : اللهم نعم . قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ فقال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائل ، هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى لست به تنام عينه وقلبه يقظان ؟ فقالوا : اللهم نعم ، قال : فكذلك نومى ، تنام عينى وقلبى يقظان . قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ، وأنه اشتكى شكوى ، فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله ، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ؟ قالوا : اللهم نعم . قالوا : فأخبرنا عن الروح ؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمونه جبريل ، وهو الذى يأتينى ؟ قالوا : اللهم نعم : ولكنه يا محمد لنا عدو ، وهو ملك ، إنما يأتى بالشدة وبسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك ، قال : فأنزل الله عز وجل فيهم : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » . . . إلى قوله تعالى « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون ٭ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ٭ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » ، أى السحر « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » .

اليهود ينكرون نبوة داود عليه السلام ورد الله عليهم : قال ابن إسحاق : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - لما ذكر سليمان بن داود فى المرسلين ، قال بعض أحبارهم ، ألا تعجبون من محمد ، يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحراً : فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » ، أى باتباعهم السحر وعملهم به « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض من لا أتهم عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنه كان يقول : الذى حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم ، إلا ما كان على الظهر ، فإن ذلك كان يقرب للقربان ، فتأكله النار .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر : قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر ، فيما حدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق لما جاء به موسى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

وإنى أنشدكم بالله .وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبرتمونى : هل تجدون فيما أنزله الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فان كنتم لاتجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم . « قد تبين الرشد من الغى » فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه .

قال ابن هشام : شطؤه : فراخه ، وواحدته : شطأة . تقول العرب : قد أشطأ الزرع إذا أخرج فراخه . وآزره : عاونه ، فصار الذى قبله مثل الأمهات . قال امرؤ القيس بن حجر الكندى :

بمحنية قد آزر الضال نبتها　　　بجر جيوش غانمين وخيب

وهذا البيت فى قصيدة له . وقال حميد بن مالك الأرقط ، أحد بنى ربيعة بن مالك بن زيد مناة :

زرعا وقضبا مؤزر النبات

وهذا البيت فى أرجوزة له . وسوقه غير مهموز جمع ساق ، لساق الشجرة .

ما نزل فى أبى ياسر وأخيه : قال ابن إسحاق : وكان ممن نزل فيه القرآن ، بخاصة من الأحبار وكفار يهود ، الذى كانوا يسألونه ويتعنتونه ليلبسوا الحق بالباطل - فيما ذكر لى عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله بن رئاب - أن أبا ياسر بن أخطب مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلو فاتحة البقرة : « الم ذلك الكتاب لاريب فيه » ، فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من يهود ، فقال : تعلموا والله ، لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه : « الم ذلك الكتاب » ، فقالوا : أنت سمعته ؟ فقال : نعم ، فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له يامحمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك : «الم ذلك الكتاب» ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، قالوا : أجاءك بها جبريل من عند الله ؟ فقال : نعم ، قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ، مانعلمه بين لنبى منهم مامدة ملكه ، وما أكل أمته غيرك ،فقال حيى بن أخطب ، وأقبل على من معه ، فقال لهم : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون فى دين إنما مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال . يامحمد ، هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ، قال ماذا ؟ قال : « المص » . قال : هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ، هل مع هذا يامحمد غيره ؟ قال : نعم « الر » قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة ، واللام ثلاثون والراء مائتان، هل مع هذه غيره يامحمد ؟ قال: نعم « المر » . قال : هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يامحمد ، حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيراً ؟ ثم قاموا عنه ، فقال أبو ياسر لأخيه حيى بن أخطب ولمن معه من الأحبار : مايدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد ، إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبع مائة وأربع وثلاثون سنة ، فقالوا : لقد تشابه علينا أمره . فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات » .

قال ابن إسحاق : وقد : سمعت من لاأتهم من أهل العلم يذكر : أن هؤلاء الآيات إنما أنزلن فى أهل نجران ، حين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن عيسى بن مريم عليه السلام .

قال ابن اسحاق : وقد حدثنى محمدبن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، أنه قد سمع : أن هؤلاء الآيات انماأنزلن فى نفر من يهود ، ولم يفسر ذلك لى ، فالله أعلم أى ذلك كان .

كفر اليهود به وما نزل فى ذلك : قال ابن إسحاق : وكان فيما بلغنى عن عكرمة مولى ابن عباس ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر ابن البراء بن معرور ، أخو بنى سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث . وتصفونه لنا بصفته فقال سلام بن مشكم ، أحد بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكره لكم ، فأنزل الله فى ذلك : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .

قال ابن إسحاق : وقال مالك بن الصيف ، حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق ، وما عهد الله إليهم فيه : والله ما عهد إلينا فى محمد عهد ، وما أخذ له علينا من ميثاق . فأنزل الله فيه :

« أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون » .

وقال أبو صلوبا الفطيونى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ما جئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل اللهعليك من آية فنتبعك لها . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون » .

وقال رافع بن حريملة ، ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ،إئتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .

قال ابن هشام : سواء السبيل : وسط السبيل . قال حسان بن ثابت :

يا ويح أنصار النبى ورهطه ... بعد المغيب فى سواء الملحد

وهذا البيت فى قصيدة له سأذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى .

قال ابن إسحاق : وكان حيى بن أخطب وأخوه أبوياسر بن أخطب ، من أشد يهود للعرب حسداً ، إذ خصهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالىفيهما: « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، إن الله على كل شىء قدير) .

تنازع اليهود والنصارى عند الرسول صلى الله عليه وسلم : قال ابن إسحاق : ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شىء ، وكفر بعيسى وبالإنجيل : فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شىء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالىفى ذلك من قولهم : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون

مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . أى كل يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به ، أى يكفر اليهود بعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى عليه السلام بالتصديق بعيسى عليه السلام ، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى عليه السلام ، من تصديق موسى عليه السلام ، وما جاء به من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما فى يد صاحبه .

قال ابن إسحاق : وقال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله : « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ، أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

وقال عبد الله بن صوريا الأعور الفطيونى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهد ، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول عبدالله بن صوريا وما قالت النصارى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » ، ثم القصة إلى قول الله تعالى : « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسئلون عما كانوا يعلمون » .

ما قاله اليهود عند صرف القبلة الى الكعبة : قال ابن إسحاق : ولما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ، وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس ، وقردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع بن أبى رافع ، والحجاج بن عمرو ، حليف كعب بن الأشرف ، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، فقالوا : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً . وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » أى ابتلاء واختباراً « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » أى من الفتن : أى الذين ثبت الله « وما كان اللهُ ليضيع إيمانكم » أى إيمانكم بالقبلة الأولى ، وتصديقكم نبيكم ، واتباعكم إياه إلى القبلة الآخرة ، وطاعتكم نبيكم فيها : أى ليعطينكم أجرهما جميعاً « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

ثم قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

قال ابن هشام : شطره : نحوه وقصده ، قال عمرو بن أحمر الباهلى ـ وباهلة بن يعصر بن سعد بن قيس بن عيلان ـ يصف ناقة له :

تعدو بنا شطر جمع وهى عاقدة ... قد كارب العقد من إيفادها الحقبا

وهذا البيت فى قصيدة له .

. . . .

وقال قيس بن خويلد الهذلى يصف ناقته .

إن النعوس بها داء مخامرها فشطرها نظر العينين محسور

وهذا البيت فى أبيات له .

قال ابن هشام : والنعوس : ناقته ، وكان بها داء فنظر إليها نظر حسير ، من قوله : وهو حسير .

« وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، إنك إذاً لمن الظالمين » .

قال ابن اسحاق : إلى قوله تعالى : « وإنه للحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » .

كتمانهم ما فى التوراة : وسأل معاذ بن جبل: أخو بنى سلمة ، وسعد بن معاذ ، أخو بنى عبد الأشهل وخارجة ابن زيد ، أخو بلحارث بن الخزرج ، نفراً من أحبار يهود عن بعض ما فى التوراة ، فكتموهم إياه ، وأبوا أن يخبروهم عنه : فأنزل الله تعالى فيهم : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

جوابهم للنبى عليه السلام حين دعاهم إلى الاسلام قال : ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيراً منا . فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

جمعهم فى سوق بنى قينقاع : ولما أصاب الله عز وجل قريشا يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود فى سوق بنى قينقاع ، حين قدم المدينة ، فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً ، فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال انك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

دخوله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس . قال : ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم الى الله ، فقال له النعمان بن عمرو ، والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال: على ملة ابراهيم ودينه ، قالا : فإن ابراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلم الى التوراة فهى بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ، فأنزل الله تعالى فيهما : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » .

تنازع اليهود والنصارى فى إبراهيم عليه السلام : وقال أحبار يهود ونصارى نجران ، حين اجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى من

أهل نجران : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا . فأنزل الله عز وجل فيهم : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

ما نزل فى إيمانهم غدوة والكفر عشية : وقال عبد الله بن صيف ، وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة . ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع ، ويرجعون عن دينه ، فأنزل الله تعالى فيهم : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ؛ والله واسع عليم » .

ما نزل فى قول أبى رافع «أتريد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى» وقال أبو رافع القرظى ، حين اجتمعت الأحبار من يهود ، والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الاسلام : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ وقال رجل من أهل نجران نصرانى ، يقال له : الربيس ، أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ أو كما قال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، فما بذلك بعثنى الله . ولا أمرنى ، أو كما قال : فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما : «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون » . . . إلى قوله تعالى : « بعد إذ أنتم مسلمون » .

قال ابن هشام : الربانيون : العلماء الفقهاء السادة ، واحدهم : ربانى :

قال الشاعر :

لو كنت مرتهناً فى القوس افتننى منها الكلام وربانى أحبار

قال ابن هشام : القوس : صومعة الراهب . وأفتننى ، لغة تميم . وفتننى ، لغة قيس .

قال جرير :

لا وصل إذ صرمت هند ولو وقفت لاستنزلتنى وذا المسحين فى القوس

أى صومعة الراهب . والربانى : مشتق من الرب ، وهو السيد . وفى كتاب الله : « فيسقى ربه خمراً » ، أى سيده .

قال ابن إسحاق : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

ما نزل فى أخذ الميثاق عليهم : قال ابن إسحاق : ثم ذكر ما أخذ الله عليهم ، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذ هو جاءهم ، وإقرارهم ، فقال : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » إلى آخر القصة .

. . . .

سعيهم فى الوقيعة بين الأنصار : قال ابن إسحاق : ومر شاس بن قيس ، وكان شيخا قد عسا ، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج . فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الاسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم ، فقال : أعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم أذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

يوم بعاث : وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى ، أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فقتلا جميعاً .

قال ابن هشام : قال أبو قيس بن الأسلت :

على أن قد فجعت بذى حفاظ فعاودنى له حزن رصين
فإما تقتلوه فإن عمراً أعض برأسه عضب سنين

وهذان البيتان فى قصيدة له . وحديث يوم بعاث أطول مما ذكرت ، وإنما منعنى من استقصائه ما ذكرت من القطع .

قال ابن هشام : سنين . مسنون ، من سنه ، إذا شحذه .

قال ابن إسحاق : ففعل . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، أوس بن قيظى ، أحد بنى حارثة بن الحارث ، من الأوس ، وجبار بن صخر ، أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة ، فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة — والظاهرة : الحرة — السلاح السلاح . فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم ، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس . فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس وما صنع : « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » .

وأنزل الله فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

ما نزل فى قولهم : ما اتبع محمداً إلا شرارنا :قال ابن إسحاق : ولما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود معهم ، فآمنوا وصدقوا ورغبوا فى الإسلام ، ورسخوا فيه ، قالت أحبار يهود ، أهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

قال ابن هشام : آناء الليل : ساعات الليل ، وواحدها : إنى قال المتنخل الهذلى ، واسمه مالك بن عويمر ، يرثى أثيلة ابنه :

حلو ومر كعطف القدح شيمته ... فى كل إنى قضاه الليل ينتعل

وهذا البيت فى قصيدة له . وقال لبيد بن ربيعة يصف حمار وحش :

يطرب آناء النهار كأنه ... غوى سقاه فى التجار نديم

وهذا البيت فى قصيدة له ، ويقال : إنى مقصور فيما أخبرنى يونس .

« يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين » .

ما نزل فى نهى المسلمين عن مباطنة اليهود : قال ابن إسحاق : وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف ، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مباطنتهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * هاأنتم أولاء تحبونهم ، ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله » ، أى تؤمنون بكتابكم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم كنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم » إلى آخر القصة .

دخول أبى بكر بيت المدراس : ودخل أبو بكر الصديق بيت المدراس على يهود فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم ، يقال له فنحاص ؛ وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر من أحبارهم ، يقال له : أشيع : فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والانجيل، فقال فنحاص لأبى بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وانا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا . قال فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم ، لضربت رأسك ، أى عدو الله قال : فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أنظر ماصنع بى صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ماحملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما ،

إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، وضربت وجهه : فجحد ذلك فنحاص ، وقال: ما قلت ذلك ، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه ، وتصديقاً لأبي بكر : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق » .

ونزل في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وما بلغه في ذلك من الغضب : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

ثم قال فيما قال فنحاص والأحبار معه من يهود : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم » يعني فنحاص ، وأشيع وأشباههما من الأحبار ، الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، أن يقول الناس : علماء ، وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى ولا حق ، ويحبون أن يقول الناس قد فعلوا .

أمر اليهود المؤمنين بالبخل : قال ابن إسحاق : وكان كردم بن قيس ، حليف كعب بن الأشرف ، وأسامة ابن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ، وبحرى بن عمرو ، وحيي بن أخطب ، ورفاعة بن التابوت ، يأتون رجالا من الأنصار كانوا يخالطونهم ، ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون علام يكون ، فأنزل الله فيهم : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » أي من التوراة ، التي فيها تصديق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . . . إلى قوله : « وكان الله بهم عليما » .

جحد اليهود للحق : قال ابن إسحاق : وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود ، إذا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه ، وقال : أرعنا سمعك يا محمد ، حتى نفهمك ، ثم طعن في الإسلام وعابه ، فأنزل الله فيه : « ألم تر إلى الذين أوتوا الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن يضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم ، وطعنا في الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا ، لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) .

وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبار يهود ، منهم : عبد الله بن صوريا الأعور ، وكعب ابن أسد ، فقال لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق ، قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد : فجحدوا ما عرفوا ، وأصروا على الكفر ، فأنزل الله تعالى فيهم « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا » .

قال ابن هشام : نطمس : نمسحها فنسويها ، فلا يرى فيها عين ولا أنف ولا فم ، ولا شيء مما يرى في الوجه ، وكذلك « فطمسنا أعينهم » ، المطموس العين : الذي ليس بين جفنيه شق ، ويقال طمست الكتاب والأثر ، فلا يرى

منه شىء : قال الأخطل ، واسمه الغوث بن هبيرة بن الصلت التغلبى ، يصف إبلا كلفها ما ذكر :

وتكليفناها كل طامسة الصوى   شطون ترى حرباءها يتململ

وهذا البيت فى قصيدة له .

قال ابن هشام : واحدة الصوى : صوة . والصوى : الأعلام التى يستدل بها على الطرق والمياه .

قال ابن هشام : يقول : مسحت فاستوت بالأرض ، فليس فيها شىء ناتىء

من حزبوا الأحزاب : قال ابن إسحاق : وكان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظه حيى ابن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، أبو رافع ،والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق،وأبو عمار ووحوح بن عامر وهوذة بن قيس . فأما وحوح ، وأبو عمار ، وهوذة ، فمن بنى وائل ،وكان سائرهم من بنى النضير فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول ، فسلوهم : دينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله تعالى فيهم : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » .

قال ابن هشام : الجبت ماعبد من دون الله تبارك وتعالى .والطاغوت : كل ماأضل عن الحق . وجمع الجبت: جبوت ؛ وجمع الطاغوت : طواغيت .

قال ابن هشام :وبلغنا عن ابن أبى نجيح أنه قال : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان .

« ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

قال ابن إسحاق : إلى قوله تعالى : « أم يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » .

إنكار اليهود للتنزيل : قال ابن إسحاق : وقال سكين وعدى بن زيد : يا محمد ، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شىء بعد موسى . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل . ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيما» .

ودخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة منهم ، فقال لهم : أما والله إنكم لتعلمون أنى رسول من الله إليكم ؛ قالوا : مانعلمه ، وما نشهد عليه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً » .

اتفاقهم على طرح الصخرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم :وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى دية العامريين اللذين قتل عمرو بن أمية الضمرى . فلما خلا بعضهم ببعض قالوا : لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمن رجل يظهر على هذا البيت ، فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش ابن كعب: أنا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فانصرف عنهم . فأنزل الله تعالى فيه ، وفيما أراد

. . . .

هو وقومه : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ادعاؤهم أنهم أحباء الله : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أضاء ، وبحرى بن عمرو ، وشاس بن عدى ، فكلموه وكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه . كقول النصارى . فأنزل الله تعالى فيهم : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه : قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » .

انكارهم نزول كتاب بعد موسى : قال ابن إسحاق : ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود الى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذرهم غير الله وعقوبته ، فأبوا عليه ، وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود : اتقوا الله ، فوالله انكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة . ووهب بن يهوذا : ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما : « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير » .

ثم قص عليهم خبر موسى وما لقى منهم ، وانتقاضهم عليه ، وما ردوا عليه من أمر الله حتى تاهوا فى الأرض أربعين سنة عقوبة .

رجوعهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى حكم الرجم : قال ابن اسحاق : وحدثنى ابن شهاب الزهرى أنه سمع رجلا من مزينة من أهل العلم ، يحدث سعيد بن المسيب ، أن أبا هريرة حدثهم : أن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المدراس حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقد زنى رجل منهم بعد احصانه بامرأة من يهود قد أحصنت ، فقالوا : ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة الى محمد ، فسلوه كيف الحكم فيهما : وولوه الحكم عليهما ، فان عمل فيهما بعملكم من التجبية ـ والتجبية : الجلد بحبل من ليف مطلى بقار ، ثم تسود وجوههما ، ثم يحملان على حمارين ، وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحمارين ـ فاتبعوه ، فانما هو ملك ، وصدقوه ، وان هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبى ، فاحذروه على ما فى أيديكم أن يسلبكموه . فأتوه ، فقالوا : يا محمد ، هذا رجل قد زنى بعد احصانه بامرأة قد أحصنت ، فاحكم فيهما ، فقد وليناك الحكم فيهما ، فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى أحبارهم فى بيت المدراس فقال : يامعشر يهود أخرجوا الى علمائكم ، فأخرج له عبد الله بن صوريا .

قال ابن اسحاق : وقد حدثنى بعض بنى قريظة : أنهم قد أخرجوا اليه يومئذ مع ابن صوريا ، أبا ياسر ابن أخطب ، ووهب بن يهوذا ، فقالوا هؤلاء علماؤنا . فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حصل أمرهم ، الى أن قالوا لعبد الله بن صوريا : هذا من أعلم من بقى بالتوراة .

قال ابن هشام : من قوله : « وحدثنى بعض بنى قريظة ـ الى أعلم من بقى بالتوراة » من قول ابن اسحاق ، وما بعده من الحديث الذى قبله .

فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان غلاماً شاباً من أحدثهم سناً فألظ به رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة ، يقول له : يابن صوريا ، أنشدك الله وأذكرك بأيامه عند بنى اسرائيل ، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم فى التوراة ؟ قال اللهم نعم ، أما والله يا أبا القاسم انهم ليعرفون أنك لنبى مرسل ولكنهم يحسدونك . قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأمر بهما فرجما عند باب مسجده فى بنى غنم ابن مالك بن النجار . ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا ، وجحد نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن اسحاق : فأنزل الله تعالى فيهم : « يأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا : آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى : الذين بعثوا منهم من بعثوا وتخلفوا ، وأمروهم بما أمروهم به من تحريف الحكم عن مواضعه . ثم قال: « يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه » ، أى الرجم « فاحذروا » إلى آخر القصة .

قال ابن اسحاق : وحدثنى محمد بن يزيد بن ركانة عن اسماعيل بن طلحة بن ابراهيم ، عن ابن عباس ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما ، فرجما بباب مسجده . فلما وجد اليهودى مس الحجارة قام الى صاحبته ، فجنأ عليها ، يقيها مس الحجارة ، حتى قتلا جميعاً .

قال : وكان ذلك مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى تحقيق الزنا منهما .

قال ابن اسحاق : وحدثنى صالح بن كيسان ، عن نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر ، لما حكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما ، دعاهم بالتوراة ، وجلس حبر منهم يتلوها ، وقد وضع يده على آية الرجم ، قال : فضرب عبد الله بن سلام يد الحبر ، ثم قال : هذه يانبى الله آية الرجم ، يأبى أن يتلوها عليك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحكم يامعشر يهود ! ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم ؟ قال : فقالوا : أما والله إنه قد كان فينا يعمل به ، حتى زنى رجل منا بعد إحصانه ، من بيوت الملوك وأهل الشرف ، فمنعه الملك من الرجم ، ثم زنى رجل بعده ، فأراد أن يرجمه ، فقالوا : لا والله ، حتى ترجم فلاناً ، فلما قالوا له ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التجبية ، وأماتوا ذكر الرجم والعمل به . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا أول من أحيى أمر الله وكتابه وعمل به ، ثم أمر بهما فرجما عند باب مسجده . قال عبد الله بن عمر : فكنت فيمن رجمهما .

ظلمهم فى الدية : قال ابن إسحاق : وحدثنى داود بن الحصين عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن الآيات من المائدة التى قال الله فيها : « فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ❊ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » إنما أنزلت فى الدية بين بنى النضير وبين بنى قريظة ، وذلك أن قتلى بنى النضير ، وكان لهم شرف ، يؤدون الدية كاملة ، وأن بنى قريظة كانوا يؤدون نصف الدية ، فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق فى ذلك ، فجعل الدية سواء .

قال ابن إسحاق : فالله أعلم أى ذلك كان .

رغبتهم فى فتنة الرسول عليه السلام : قال ابن إسحاق : وقال كعب بن أسد ، وابن صلوبا ، وعبد الله ابن صوريا ، وشاس بن قيس ، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه ، فإنما هو بشر ، فأتوه ،

فقالوا له : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم ، وأنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ، ولم يخالفونا ، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحا كمهم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم . فأنزل الله فيهم : «وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

انكارهم نبوة عيسى عليه السلام : قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر منهم : أبو ياسر بن أخطب ، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وخالد ، وزيد ، وإزار بن أبي أزار ، وأشيع ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نؤمن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » . فلما ذكر عيسى بن مريم جحدوا نبوته ، وقالوا : لانؤمن بعيسى بن مريم ولا بمن آمن به . فأنزل الله تعالى فيهم : « قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ، وأن أكثرهم فاسقون » .

ادعاؤهم أنهم على حق : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن حارثة ، وسلام بن مشكم . ومالك ابن الصيف ، ورافع بن حريملة ، فقالوا : يامحمد ، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التوراة ، وتشهد أنها من الله حق ؟ قال : بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها ، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من إحداثكم ، قالوا فانا نأخذ بما في أيدينا ، فانا على الهدى والحق ، ولا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، فأنزل الله تعالى فيهم : « قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم ، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين » .

إشراكهم بالله : قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم النحام بن زيد ، وقردم بن كعب ، وبحرى بن عمرو ، فقالوا له : يامحمد ، أما تعلم مع الله إلها غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لاإله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو . فأنزل الله فيهم وفى قولهم : « قل : أى شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، إنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد ، وإنني برىء مما تشركون ، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

نهى الله المؤمنين عن موادتهم : وكان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسويد بن الحارث قد أظهر الإسلام ونافقا فكان رجال من المسلمين يوادونهما . فأنزل الله تعالى فيهما : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » ... إلى قوله : « وإذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

سؤالهم عن قيام الساعة : وقال جبل بن أبي قشير ، وشمويل بن زيد ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ، أخبرنا ، متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول ؟ فأنزل الله تعالى فيهما « يسألونك عن الساعة

أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لايجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

قال ابن هشام : أيان مرساها : متى مرساها . قال قيس بن الحدادية الخزاعى :

فجئت ومخفى السر بينى وبينها لأسألها أيان من سار راجع ؟

وهذا البيت فى قصيدة له : ومرساها : منتهاها ، وجمعه : مراس ، قال الكميت بن زيد الأسدى :

والمصيبين باب ما أخطأ النا س ومرسى قواعد الإسلام

وهذا البيت فى قصيدة له ومرسى السفينة : حتى تنتهى . وحفى عنها — على التقديم والتأخير — يقول : يسألونك عنها كأنك حفى بهم فتخبرهم بما لاتخبر غيرهم . والحفى : البر المتعهد . وفى كتاب الله : « إنه كان بى حفيا » . وجمعه : أحفياء وقال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

فان تسألى عنى فيارب سائل حفى عن الأعشى به حيث أصعدا

وهذا البيت فى قصيدة له . والحفى أيضاً : المستحفى عن علم الشىء ، المبالغ فى طلبه .

ادعاؤهم أن عزيرا ابن الله : قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ، ونعمان ابن أوفى ابو انس ، ومحمود بن دحية ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، فقالوا له : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزيرا ابن الله افأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم : « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » الى آخر القصة .

قال ابن هشام : يضاهون : أى يشاكل قولهم قول الذين كفروا ، نحو أن تحدث بحديث ، فيحدث آخر بمثله ، فهو يضاهيك .

طلبهم كتابا من السماء : قال بن إسحاق : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمود بن سيحان ، ونعمان ابن أضاء ، وبحرى بن عمرو ، وعزير بن أبى عزير ، وسلام بن مشكم ، فقالوا : أحق يامحمد أن هذا الذى جئت به لحق من عند الله ، فإنا لانراه متسقا كما تتسق التوراة ؟ فقال : لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله . تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به ؛ فقالوا عند ذلك ، وهم جميع : فنحاص ، وعبد الله بن صوريا ، وابن صلوبا ، وكنانة بن الربيع ابن أبى الحقيق ، وأشيع ، وكعب بن أسد ، وشمويل بن زيد ، وجبل بن عمرو بن سكينة : يامحمد ، أما يعلمك هذا إنس ولاجن ؟ قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله ، وإنى لرسول الله ، تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة ؛ فقالوا : يامحمد ، فان الله يصنع لرسوله إذا بعثه مايشاء ويقدر منه على ماأراد ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه ، وإلا جئناك بمثل ماتأتى به : فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

قال ابن هشام : الظهير : العون . ومنه قول العرب : تظاهروا عليه ، أى تعاونوا عليه . قال الشاعر :

ياسمى النبى أصبحت للديـ ـن قواما وللإمام ظهيرا

. . . .

أى عونا ؛ وجمعه : ظهراء .

سؤالهم له صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين : قال ابن إسحاق : وقال حي بن أخطب ، وكعب بن أسد ، وأبو رافع وأشيع ، وشمويل بن زيد ، لعبد الله بن سلام حين أسلم : ما تكون النبوة فى العرب ولكن صاحبك ملك ثم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن ذى القرنين فقص عليهم ما جاءه من الله تعالى فيه ، مما كان قص على قريش ، وهم كانوا ممن أمر قريشا أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، حين بعثوا إليهم النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط .

تهجمهم على ذات الله : قال ابن إسحاق : وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يامحمد ، هذا الله خلق ، الخلق ، فمن خلق الله ؟ قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضبا لربه . قال : فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه ، فقال : خفض عليك يامحمد ، وجاءه من الله بجواب ماسألوه عنه : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » .

قال : فلما تلاها عليهم ، قالوا : فصف لنا يامحمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الاول ، وساورهم . فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له مثل ماقال له أول مرة ، وجاءه من الله تعالى بجواب ماسألوه . يقول الله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عتبة بن مسلم . مولى بنى تيم ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فاذا قالوا ذلك فقولوا : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » ثم ليتفل الرجل عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .

قال ابن هشام : الصمد : الذى يصمد إليه ، ويفزع إليه ، قالت هند بنت معبد بن نضلة تبكى عمرو بن مسعود ، وخالد بن نضلة ، عميها الأسديين ، وهما اللذان قتل النعمان بن المنذر اللخمى ، وبنى الغريين اللذين بالكوفة عليهما :

ألا بكر الناعى بخيرى بنى أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

بدء الأذان

ذكر حديث عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ، هكذا ذكره ، وأكثر النساب يقولون : زيد بن عبد ربه ، وثعلبة أخو زيد ذكر حديثه عندما شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى الأذان ، فقال بعضهم : ناقوس كناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بوق كبوق اليهود ، وفى غير السيرة أنهم ذكروا الشبور ، وهو البوق . قال الأصمعى للمفضل ، وقد نازعه فى معنى بيت من الشعر ، فرفع المفضل صوته ، فقال الأصمعى لو نفخت فى الشبور مانفعك ، تكلم كلام النمل وأصب ! !

وذكروا أيضاً القنع وهو القرن ، وقال بعضهم : هو تصحيف إنما هو القبع والقنع أولى بالصواب ، لأنه من أقنع صوته إذا رفعه ، وقال بعضهم : بل نوقد نارا ، ونرفعها ، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة ، وقال بعضهم : بل نبعث رجلا ينادى بالصلاة ، فبينما هم فى ذلك أرى عبد الله بن زيد الرؤيا التى ذكر ابن إسحاق ، فلما أخبر بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمره أن يلقيها على بلال ، قال : يارسول الله أنا رأيتها ، وأنا كنت

. . . .

أحبها لنفسي ، فقال : ليؤذن بلال ،ولتقم أنت ، ففي هذا من الفقه جواز أن يؤذن الرجل ويقيم غيره وهو معارض لحديث زياد بن عبد الله الصدئي حين قال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم : من أذن فهو أحق أن يقيم ،في حديث طويل إلا أنه يدور على عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الافريقي وهو ضعيف ، والاول أصح منه . قال أبو داود : وتزعم الانصار أن عبد الله بن زيد حين رأى النداء كان مريضا ، ولولا ذلك لأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاذان ، وقد تكلمت العلماء في الحكمة التي خصت الاذان بأن رآه رجل من المسلمين في نومه ، ولم يكن عن وحي من الله لنبيه كسائر العبادات والأحكام الشرعية ، وفي قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : إنها لرؤيا حق، ثم بنى حكم الأذان عليها ، وهل كان ذلك عن وحي من الله له ، أم لا ؟ وليس في الحديث دليل على أن قوله ذلك كان عن وحي ، وتكلموا : لم لم يؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل أذن قط مرة من عمره دهره أم لا؟

فأما الحكمة في تخصيص الأذان برؤيا رجل من المسلمين ولم يكن عن وحي فلأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أريه ليلة الإسراء ، وأسمعه مشاهدة فوق سبع سموات ، وهذا أقوى من الوحي ، فلما تأخر فرض الأذان إلى المدينة ، وأرادوا إعلام الناس بوقت الصلاة تلبث الوحي حتى رأى عبد الله الرؤيا ، فوافقت مارأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؛ فلذلك قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، وعلم حينئذ أن مراد الحق بما رآه في السماء ، أن يكون سنة في الأرض ، وقوى ذلك عنده موافقة رؤيا عمر الأنصاري مع أن السكينة تنطق على لسان عمر واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الأذان على لسان غير النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، لما فيه من التنويه من الله لعبده ، والرفع لذكره ، فلأن يكون ذلك على غير لسانه أنوه به وأفخم لشأنه ، وهذا معنى بين فإن الله سبحانه يقول : « ورفعنا لك ذكرك » فمن رفع ذكره أن أشاد به على لسان غيره ، فإن قيل : ومن روى أنه أرى النداء من فوق سبع سموات ، قلنا : هو في مسند أبي بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزار .

حدثنا أبو بكر محمد بن طاهر الإشبيلي سماعا وإجازة عن أبي علي الغساني عن أبي عمر النمري بإسناده إلى البزار :قال البزار : نا محمد بن عثمان بن مخلد، نا أبي عن زياد بن المنذر ، عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده ، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : لما أراد الله أن يعلم رسوله الأذان أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم بدابة يقال لها البراق ، فذهب يركبها ، فاستصعبت ، فقال لها جبريل : اسكني فوالله ماركبك عبد أكرم على الله من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فركبها حتى انتهى إلى الحجاب الذي يلي الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ قال : فبينما هو كذلك ، اذ خرج ملك من الحجاب ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياجبريل من هذا ؟ فقال والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكانا ، وإن هذا الملك مارأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه ، فقال ؟ الملك : الله أكبر ، الله أكبر قال فقيل له من وراء الحجاب صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر ، ثم قال الملك أشهد أن لا إله إلا الله ، قال : فقيل له من وراء الحجاب صدق عبدي أنا الله لا اله الا أنا . قال : فقال الملك : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : فقيل من وراء الحجاب صدق عبدي أنا أرسلت محمداً ، قال الملك حي على الصلاة، حي على الفلاح ، ثم قال الملك : الله أكبر الله أكبر ، قال : فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال : لا إله إلا الله ، قال : فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي أنا لا إله إلا أنا ، قال : ثم أخذ الملك بيد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقدمه فأم أهل السماء ، فيهم آدم ونوح ، قال أبو جعفر محمد بن علي : يومئذ أكمل الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشرف على أهل السموات والارض .

قال المؤلف: وأخلق بهذا الحديث أن يكون صحيحا لما يعضده ويشا كله من أحاديث الإسراء فبمجموعها يحصل أن معانى الصلاة كلها وأكثرها ، قد جمعها ذلك الحديث ، أعنى الإسراء ، لأن الله ـ سبحانه ـ رفع الصلاة التى هى مناجاة عن أن تفرض فى الأرض ، لكن بالحضرة المقدسة المطهرة ، وعند الكعبة العليا ، وهى البيت المعمور ، وقد ذكرنا طرفاً من هذا الغرض ، ونبذاً من هذا المقصد فى شرح حديث الإسراء وينضاف إليها فى هذا الحديث ذكر الأذان الذى تضمنه حديث البزار مع ما روى أيضا أنه مر وهو على البراق بملائكة قيام ، وملائكة ركوع ، وملائكة سجود وملائكة جلوس ، والكل يصلون لله ، فجمعت له هذه الأحوال فى صلاته ، وحين مثل بالمقام الأعلى ، ودنا فتدلى ألهم أن يقول : التحيات لله إلى قوله . الصلوات لله ، فقالت الملائكة : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فقالت الملائكة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فجمع ذلك له فى تشهده .

وانظر بقلبك كيف شرع له عليه السلام ولأمته أن يقولوا تسع مرات فى اليوم والليلة فى تسع جلسات فى الصلوات الخمس بعد ذكر التحيات : السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين ، فيحيون ويحيون تحية من عند الله مباركة طيبة ، ومن قوله : السلام علينا كما قيل لهم ، فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله ، ومن ثم قال: الطيبات المباركات ، كما فى رواية ابن عباس فى التشهد انظر إلى هذا كله كيف حيا وحيي تسع مرات ، حيته ملائكة كل سماء ، وحياهم ، ثم ملائكة الكرسى ، ثم ملائكة العرش ، فهذه تسع ، فجعل التشهد فى الصلوات على عدد تلك المرات التى سلم فيها وسلم عليه ، وكلها تحيات لله ، أى : من عند الله مباركة طيبة ، هذا إلى نكت ذكرناها فى شرح سبحان الله وبحمده ، فإذا جمعت بعض ما ذكرناه إلى بعض عرفت جملة من أسرار الصلاة وفوائدها الجلية دون الخفية ، وأما بقية أسرارها وما تضمنته أحاديث الإسراء من أنوارها ، وما فى الأذان من لطائف المعانى والحكم ، وقول : لا إله إلا الله فى آخره ، وأشهد أن لا إله إلا الله فى أوله ، وما تحت هذا كله من الحكم الإلهية التى تملأ الصدور هيبة وتنور القلوب بنور المحبة، وكذلك ما تضمنته الصلاة فى شفعها ووترها والتكبير فى أركانها، ورفع اليدين فى افتتاحها ، وتخصيص البقعة المكرمة بالتوجه إليها ، مع فوائد الوضوء من الأحداث لها ، فإن فى ذلك كله من فوائد الحكمة ، ولطائف المعرفة ما يزيد فى ثلج الصدور ، ويكحل عين البصيرة بالضياء والنور ، ونعوذ بالله أن ننزع فى ذلك بمنزع فلسفى أو مقالة بدعى ، أو رأى مجرد من دليل شرعى ، ولكن بتلويحات من الشريعة ، وإشارات من الكتاب والسنة يعضد بعضها بعضا ، وينادى بعضها بتصديق بعض : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » لكن أضربنا فى هذا الكتاب عن بث هذه الأسرار ، فإن ذلك يخرج عن الغرض المقصود ، ويشغل عما صمدنا إليه فى أول الكتاب ، ووعدنا به الناظر فيه من شرح لغات وأنساب وآداب ، والله المستعان .

وقد عرفت رؤيا عبد الله بن زيد وكيفيتها برواية ابن إسحاق وغيره ، ولم تعرف كيفية رؤيا عمر حين أرى النداء ، وقد قال : قد رأيت مثل الذى رأى ، لكن فى مسند الحارث بيان لها . روى الحارث فى مسنده أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: أول من أذن بالصلاة جبريل أذن بها فى سماء الدنيا فسمعه عمر وبلال فسبق عمر بلالا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فأخبره بها ، فقال عليه السلام لبلال : سبقك بها عمر ، وذكر باقى الحديث أن عمر سمع ذلك فى اليقظة ، وكذلك رؤيا عبد الله بن زيد فى الأذان رآها ، وهو بين النائم واليقظان. قال : ولو شئت لقلت : كنت يقظانا .

فصل : وأما قول السائل : هل أذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بنفسه قط ، فقد روى الترمذى من طريق يدور على عمر بن الرماح يرفعه إلى أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أذن فى سفر ، وصلى بأصحابه وهم على رواحلهم ، السماء من فوقهم والبلة من أسفلهم ، فنزع بعض الناس بهذا الحديث إلى أنه أذن بنفسه ، وأسنده الدارقطنى بإسناد الترمذى إلا أنه لم يذكر عمر بن رماح ، ووافقه فيما بعده من إسناد ومتن ، لكنه قال فيه : فقام المؤذن ، فأذن ، ولم يقل : أذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمتصل يقضى على المجمل المحتمل ، والله أعلم .

حديث صرمة بن أبى أنس

واسم أبى أنس : قيس بن صرمة بن مالك بن عدى بن عمرو بن غنم بن عدى بن النجار الأنصارى ، وهو الذى أنزل الله فيه ، وفى عمر رضى الله عنهما : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الى قوله « وعفا عنكم » فهذه فى عمر ، ثم قال « وكلوا واشربوا » الى آخر الآية ، فهذه فى صرمة بن أبى أنس ، وذلك أن اتيان النساء ليلا فى رمضان كان محرما عليهم فى أول الإسلام بعد النوم ، وكذلك الأكل والشرب كان محرما عليهم بعد النوم فأما عمر ، فأراد امرأته ذات ليلة ، فقالت له : إنى قد نمت ، فقال : كذبت ثم وقع عليها ، وأما صرمة فإنه عمل فى حائطه وهو صائم ، فجاء الليل وقد جهده الكلال فغلبته عينه قبل أن يفطر ، فجاءته امرأته بطعام كانت قد صنعته له ، فوجدته قد نام ، فقالت له : الخيبة لك حرم عليك الطعام والشراب فبات صائما ، وأصبح إلى حائطه يعمل فيه ، فمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو طليح قد جهده العطش مع ما به من الجوع والنصب ، فسأله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بقصته فرق له عليه السلام ، ودمعت عيناه ، فأنزل الله تعالى الرخصة ، وجاء الفرج بدأ بقصة عمر لفضله ، فقال : « فالآن باشروهن » ثم بصرمة فقال : « وكلوا واشربوا » قال بعض أشياخ الصوفية : هذه العناية من الله أخطأ عمر خطيئة فرحمت الأمة بسببها .

شرح شعره : وذكر من شعر صرمة :

فأوصيكم بالله والبر والتقى   وأعراضكم والبر بالله أول

برفع البر على الابتداء ، وأول خبرله ، وقد يحتمل فى الظاهر أن يكون ظرفا فى موضع الخبر ، ولكن لا يجوز ذلك فى هذه الظروف المبنية على الضم أن تكون خبر المبتدأ ، لا تقول : الصلاة ، قبل إلا أن تقول : قبل كذا ، ولا الخروج بعد إلا أن تقول : بعد كذا ، وذلك لسر دقيق قد حوم عليهما ابن جنى فلم يصب المفصل ، والذى منع من ذلك أن هذه الغايات إنما تعمل فيها الأفعال الملفوظ بها لأنها غايات لأفعال متقدمة ، فإذا لم تأت بفعل يعمل فيها ، لم تكن غاية لشىء مذكور ، وصار العامل فيها معنويا ، وهو : الاستقرار ، وهى مضافة فى المعنى إلى شىء ، والشىء المضاف إليه معنوى ، لا لفظى ، فلا يدل العامل المعنوى على معنوى آخر ، إنما يدل عليه الظاهر اللفظى ، فتأمله ، فالضمة فى أول على هذا حركة إعراب ، لا حركة بناء ، ولو قال : ابدأ بالبر أول لكانت حركة بناء ، لكن من رواه : والبر بالله أول بخفض الراء من البر فأول حينئذ ظرف مبنى على الضم يعمل فيه : أوصيكم .

وفيه : وإن أنتم أمعرتم فتعففوا ، الإمعار : الفقر .

ومن شعره :

سبحوا الله شرق كل صباح   طلعت شمسه كل هلال

الشرق : طلوع الشمس : وهو من أسمائها أيضا ، وكذلك الشرق بفتح الراء وكل هلال بالنصب على الظرف، أى : وقت كل هلال ، ولو قلت فى مثل هذا : وكل قمر على الظرف ، لم يجز ، لأن الهلال قد أجرى مجرى المصادر فى قولهم :الليلة الهلال ، فلذلك صح أن يكون ظرفاً لأن المصادر قد تكون ظروفا لمعان وأسرار ليس هذاموضعا لذكرها ، ولو خفضت وكل هلال عطفا على صباح ، لم يجز لأن الشرق لا يضاف إلى الهلال كما يضاف إلى الصباح.

وفيه :

وله شمس النصارى

يعنى دين الشمامسة ، وهم الرهبان لأنهم يشمسون أنفسهم ، يريدون تعذيب النفوس بذلك فى زعمهم .

وفيه :

يا بنى الأرحام لا تقطعوها

بنصب الأرحام ، وهو أجود من الرفع فى هذا الموضع للنهى .

وقوله :

وصلوها قصيرة من طوال

وقد أملينا فيها فى غير هذا الكتاب ما نعيده ههنا بحول الله ، وأملينا أيضا فى معنى الرحم واشتقاق الأم لإضافة الرحم إليها ، ووضعها فيه عند خلق آدم وحواء ، وكون الأم أعظم حظا فى البر من الأب ، مع أنها فى الميراث دونه أسراراً بديعة ، ومعانى لطيفة أودعناها كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية ، فلتنظر هنالك .

وأما قوله : قصيرة من طوال ، فيحتمل تأويلين أحدهما : أن يريد : صلوا قصرها من طولكم ،أى : كونوا أنتم طوالا بالصلة والبر إن قصرت هى ، وفى الحديث : أسرعكن لحوقا بى: أطولكن يدا أراد الطول بالصدقة والبر ، فكانت تلك صفة زينب بنت جحش ، والتأويل الآخر:أن يريد مدحا لقومه بأن أرحامهم قصيرة النسب، ولكنها من قوم طوال كما قال :

أحب من النسوان كل طويلة لها نسب فى الصالحين قصير

وقال الطائى :

أنتم بنو النسب القصير وطولكم باد على الكبرياء والأشراف

والنسب القصير : أن يقول : أنا ابن فلان فيعرف ، وتلك : صفة الأشراف ، ومن ليس بشريف لا يعرف حتى يأتى بنسبة طويلة يبلغ بها رأس القبيلة . وقد قال رؤبة : قال لى النسابة : من أنت انتسب ، فقلت : رؤبة ابن العجاج ، فقال : قصرت وعرفت . وقوله :

إن خزل التخوم ذو عقال

التخوم : جمع : تخومة ، ومن قال : تخم فى الواحد ، قال فى الجمع تخوم بضم التاء ، وأراد بها الأرف وهى الحدود ، وقال أبو حنيفة : التخوم والتخوم : حدود البلاد والقرى ، ولم يذكر فى حدود الأحقال الأرف . والعقال . مايمنع الرجل من المشى ، ويعقلها يريد أن الظلم يخلف صاحبه ويعقله عن السباق، ويحبسه فى مضايق الاحتقاق.

وذكر قصيدته اليائية ، وقال فيها : فطأ معرضاً . البيت ، قال ابن هشام : هو لأفنون التغلبى ، واسمه صريم

. . . .

. . . .

ابن معشر . قال المؤلف وسمى أفنوناً فى قول ابن دريد لبيت قاله فيه :
منيتنا الود يا أفنون مظنونا

أو نحو هذا اللفظ . والأفنون : الغصن الناعم ، والأفنون أيضاً العجوز الفانية ، وأفنون هو الذى يقول :

لو أننى كنت من عاد ومن إرم — غذى بهم ولقمان وذى جدن
لما وقوا بأخيهم من مهولة — أخا السكون ولاجاروا عن السنن
أنى جزوا عامراً سوءى بفعلهم — أم كيف يجزوننى السوءى من الحسن
أم كيف ينفع ماتعطى العلوق به — رئمان ألف إذا ماضن باللبن

وقول ابن هشام فى البيتين : قطاً معرضاً والذى بعده أنهما لأفنون التغلبى مذكور عند أهل الأخبار ، ولها سبب ذكروا أن أفنونا خرج فى ركب ، فمروا بربوة تعرف: بالإلهة وكان الكاهن قبل ذلك قد حدثه أنه يموت بها ، فمر فى ذلك الركب ، فلما أشرفوا عليها وأعلم باسمها ، كره المرور بها ، وأبوا أصحابه إلا أن يمروا بها ، وقالوا له : لاتنزل عندها ، ولكن نجوزها سعياً ، فلما دنا منها بركت به ناقته على حية ، فنزل لينظر فنهشته الحية ، فمات فقبره هنالك ، وقيل فى حديثه : إنه مر بها ليلا ، فلم يعرف بها حتى ربض البعير الذى كان عليه . وعلم أنه عند الإلهة فجزع ، فقيل له : لابأس عليك ، فقال فلم ربض البعير ، فأرسلها مثلا . ذكره يعقوب ، وعندما أحس بالموت قال هذين البيتين اللذين ذكر ابن إسحاق وبعدهما :

كفى حزنا أن يرحل الركب غدوة — وأترك فى جنب الإلهة ثاويا

تسميه اليهود الذين نزل فيهم القرآن

ذكر فيهم جدى بن أخطب . بالجيم ، وهو أخو حيى بن أخطب ، وأما حدى بالحاء ، فذكره الدارقطنى فى نسب عتيبة بن الحارث بن شهاب بن حدى التيمى فارس العرب .

وذكر عزيز بن أبى عزيز وألفيت بخط الحافظ أبى بحر فى هذا الموضع يقول عزيز بن أبى عزيز ، بزايين قيدناه فى الجزء قبل .

وذكر ثعلبة بن الفطيون والفطيون كلمة عبرانية ، وهى عبارة عن كل من ولى أمر اليهود ، وملكهم ، كما أن النجاشى عبارة عن كل من ملك الحبشة ، وخاقان ملك الترك ، وقد تقدم من هذا الباب جملة .

وذكر فيهم عبد الله بن صوريا الأعور ، وكان أعلمهم بالتوراة ، ذكر النقاش أنه اسلم لما تحقق من صفات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوراة وأنه هو وليس فى سيرة ابن إسحاق ذكر إسلامه .

يهود المدينة :فصل : وقوله : ومن يهود بنى زريق ، ومن يهود بنى حارثة . وذكر قبائل من الأنصار ، وإنما اليهود بنو إسرائيل ، وجملة من كان منهم بالمدينة وخيبر إنما هم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع غير أن فى الأوس والخزرج من قد تهود ، وكان من نسائهم من تنذر إذا ولدت إن عاش ولدها أن تهوده ، لأن اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب ، وفى هؤلاء الأبناء الذين تهودوا نزلت « لا إكراه فى الدين » أراد آباؤهم إكراههم على الإسلام فى أحد الأقوال .

. . . .

لبيد يسحر الرسول صلى الله عليه وسلم : وأما لبيد بن الأعصم ، الذى ذكره من يهود بنى زريق ، وقال : هو الذى أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسائه يعنى من الأخذة ، وهى ضرب من السحر . فى الخبر أن القاسم بن محمد بن الحنفية ، وكان مؤخذاً عن مسجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يستطيع أن يدخله ، وكان لبيد هذا قد سحر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، وجعل سحره فى مشط ومشاطة ، وروى : مشاقة بالقاف ، وهى مشاقة الكتان ، وجف طلعة ذكر ، هى لحال النخل ، وهو ذكاره . والجف : غلاف للطلعة ، ويكون لغيرها ، ويقال للجف القيقاء وتصنع منه آنية يقال لها : التلاتل قاله أبو حنيفة ودفنه فى بئر ذى أروان : وأكثر أهل الحديث يقولون : ذروان تحت راعوفة البئر ، وهى صخرة فى أسفله يقف عليها المائح ، وهـــذا الحديث مشهور عنـــد الناس ، ثابت عند أهل الحديث ، غير أنى لم أجد فى الكتب المشهورة : كم لبث ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بذاك السحر ، حتى شفى منه ، ثم وقعت على البيان فى جامع معمر بن راشد روى معمر عن الزهرى ، قال : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة يخيل إليه أنه يفل الفعل ، وهو لا يفعله وقد طعنت المعتزلة فى الحديث وطوائف من أهل البدع ، وقالوا لا يجوز على الأنبياء أن يسحروا ، ولو جاز أن يسحروا ، لجاز أن يجنوا ، ونزع بعضهم بقوله عز وجل : « والله يعصمك من الناس » والحديث ثابت خرجه أهل الصحيح ، ولا مطعن فيه من جهة النقل ، ولا من جهة العقل ، لأن العصمة إنما وجبت لهم فى عقولهم وأديانهم ، وأما أبدانهم ، فإنهم يبتلون فيها ، ويخلص إليهم بالجراحة والضرب والسموم والقتل ، والأخذة التى أخذها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا الفن ، إنما كانت فى بعض جوارحه دون بعض .

وأما قوله سبحانه : « والله يعصمك من الناس » فإنه قد روى أنه كان يحرس فى الغزو ، حتى نزلت هذه الآية ، فأمر حراسه أن ينصرفوا عنه ، وقال : لا حاجة لى بكم ، فقد عصمنى الله من الناس ، أو كما قال .

ما يؤخذ من الفقه فى حديث السحر : وأما ما فيه من الفقه ، فإن عائشة قالت له : هلا تنشرت ، فقال : أما أنا فقد شفانى الله ، وأكره أن أثير على الناس شراً ، وهو حديث مشكل فى ظاهره ، وإنما جاء الإشكال فيه من قبل الرواة ، فإنهم جعلوا جوابين لكلامين كلاماً واحداً ، وذلك أن عائشـــة قالت له أيضا : هلا استخرجته ، أى : هلا استخرجت السحر من الجف والمشاطة ، حتى ينظر إليه ، فلـــذلك قال : وأكره أن أثير عـــلى الناس شراً ، قال ابن بطال : كره أن يخرجه ، فيتعلم منه بعض الناس ، فذلك هو الشر الذى كرهه .

قال المؤلف : ويجوز أن يكون الشر غير هذا ، وذلك أن الساحر كان من بنى زريق ، فلو أظهر سحره للناس ، وأراهم إياه لأوشك أن يريد طائفة من المسلمين قتله ، ويتعصب له آخرون من عشيرته فيثور شر كما ثار فى حديث الإفك من الشر ما سيأتى بيانه .

وقول عائشة : هلا استخرجته هو فى حديثين رواهما البخارى جميعاً ، وأما جوابه لها فى حديث : هلا تنشرت : بقوله أما أنا فقد شفانى الله ، وجوابه لها حين قالت : هلا استخرجته : بأن قال : أكره أن أثير عل الناس شراً ، فلما جمع الراوى بين الجوابين فى حديث واحد استغلق الكلام ، وإذا نظرت الأحاديث متفرقة تبينت ، وعلى هذا النحو شرح هذا الحديث ابن بطال .

وأما الفقه الذى أشرنا إليه فهو إباحة النشرة من قول عائشة : هلا تنشرت ، ولم ينكر عليها قولها .

وذكر البخارى عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن النشرة للذى يؤخذ عن أهله ، فقال : لا بأس لم ينه عن

الصلاح ، إنما نهى عن الفساد ، ومن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل. ومن الناس من كره النشرة على العموم، ونزع بحديث خرجه أبو داود مرفوعاً . أن النشرة من عمل الشيطان ، وهذا ـ والله أعلم ـ فى النشرة التى فيها الخواتم والعزائم ، ومالا يفهم من الأسماء العجمية ، ولولا الإطالة المخرجة لنا عن غرضنا لقدرنا الرخصة بالآثار ، وهذا القدر كاف ، والله المستعان . وكانت عقد السحر إحد عشر عقدة ، فأنزل الله تعالى المعوذتين إحدى عشرة آية ، فانحلت بكل آية عقدة ، قال تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » ولم يقل النفاثين ، وإنما كان الذى سحره رجلا والجواب: أن الحديث قد رواه إسماعيل القاضى، وزاد فى روايته أن زينب اليهودية أعانت لبيد بن الأعصم على ذلك السحر، مع أن الأخذة فى الغالب من عمل النساء وكيدهن .

إسلام عبد الله بن سلام

سلام هو بتخفيف اللام ، ولا يوجد من اسمه سلام بالتخفيف فى المسلمين لأن السلام من أسماء الله ، فيقال عبد السلام ، ويقال سلام بالتشديد ، وهو كثير ، وإنما سلام بالتخفيف فى اليهود ، وهو والد عبد الله بن سلام منهم .

ذكر فيه قول عمته خالدة أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ، وهذا الكلام فى معنى قوله عليه السلام : إنى لأجد نفس الساعة بين كتفى ، وفى معنى قوله : « نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ومن كان بين يدى طالبه ، فنفس الطالب بين كتفيه ، وكأن النفس فى هذا الحديث عبارة عن الفتن المؤذنة بقيام الساعة ، وكان بدؤها حين ولى أمته ظهره خارجا من بين ظهرانيهم إلى الله تعالى، ألا تراه يقول فى حديث آخر : وأنا أمان لأمتى ، فإذا ذهبت أتى أمتى ما يوعدون ، فكانت بعده الفتنة ثم الهرج المتصل بيوم القيامة ، ونحو من هذا قوله عليه السلام: بعثت أنا والساعه كهاتين ، يعنى السبابة والوسطى ، وهو حديث يرويه أنس بن مالك ، وابن بريدة عن أبيه ، وجبير بن مطعم ، وجابر بن سمرة وأبو هريرة وسهل بن سعد كلهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حديث سهل سبقتها بما سبقت هذه هذه ، يعنى : الوسطى والسبابة وفى بعض ألفاظ الحديث : إن كادت لتسبقنى . ورواه أيضاً : أبو جبيرة فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أنا والساعة كهاتين سبقتها كما سبقت هذه هذه فى نفس من الساعة ، أو فى نفس الساعة ، خرجها الطبرى بجميع أسانيدها ، وبعضها فى الصحيحين ، وفى بعضها زيادة على بعض .

وخالدة بنت الحارث قد ذكر إسلامها ، وهى مما أغفله أبو عمر فى كتاب الصحابة ، وقد استدركناها عليه فى جملة الاستدراكات التى ألحقناها بكتابه .

وذكر حديث مخيريق ، وقال فيه : مخيريق خير يهود ، ومخيريق مسلم ، ولا يجوز أن يقال فى مسلم : هو خير النصارى ، ولا خير اليهود ، لأن أفعل من كذ إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه . فإن قيل : وكيف جاز هذا ؟ قلنا : لأنه قال خير يهود ، ولم يقل خير اليهود ، ويهود اسم علم كثمود ، يقال : إنهم نسبوا إلى يهوذ بن يعقوب، ثم عربت الذال دالا ، فاذا قلت : اليهود بالألف واللام ، احتمل وجهين النسب والدين الذى هو اليهودية ، أما النسب فعلى حد قولهم التيم فى التيميين. وأما الدين فعلى حد قولك : النصارى والمجوس أعنى : أنها صفة ، لا أنها نسب إلى أب . وفى القرآن لفظ ثالث ، لا يتصور فيه إلا معنى واحد ، وهو الدين دون النسب ، وهو قوله سبحانه : « وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى » . بحذف الياء ، ولم يقل : كونوا يهود لأنه أراد التهود ، وهو التدين بدينهم ، ولو قال : كونوا يهوداً بالتدين ، لجاز أيضاً على أحد الوجهين المتقدمين ، ولو قيل

. . . .

لقوم من العرب : كونوا يهود بغير تنوين ، لكان محالا ، لأن تبديل النسب حقيقة محال ، وقد قيل فى هود : جمع هائد ، وهو فى معنى ما قلناه ، فلتعرف الفرق بين قولك هوداً بغيرياء ، ويهود بالياء والتنوين ، ويهودبغير تنوين ، فانها تفرقة حسنة صحيحة والله أعلم . ولم يسلم من أحبار يهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثنان . وقد جاء فى الحديث: لو اتبعنى عشرة من اليهود لم يبق فى الأرض يهودى إلا اتبعنى . رواه أبو هريرة. وسمع كعب الأحبار أباهريرة يحدث ، فقال له : إنما الحديث : اثنا عشر من اليهود ، ومصداق ذلك فى القرآن « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا » فسكت أبو هريرة . قال ابن سيرين : أبو هريرة أصدق من كعب . قال يحى بن سلام كلاهما : صدق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أراد : لو اتبعنى عشرة من اليهود بعد هذين اللذين قد أسلما .

ذكر بعض المنافقين : فصل : وذكر نبتلا من المنافقين ، قال : وكان أدلم ، والأدلم الأسود الطويل من كل شىء . وقيل لجماعة النمل : ديلم ، لسوادهم ـ من كتاب العين .

وذكر الحارث بن سويد ، وقتله للمجذر بن ذياد ـ واسم المجذر : عبد الله ، والمجذر : الغليظ الخلق .

وذكر أن الله تعالى أنزل فى الحارث بن سويد وارتداده : « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم » فقيل : إن هذه الآية مقصورة على سببها مخصوصة بمن سبق فى علم الله أنه لا يهديه من كفره ، ولا يتوب عليه من ظلمه ، وإلا فالتوبة مفروضة ، وقد تاب قوم بعد ارتدادهم ، فقبلت توبتهم . وقيل ليس فيها نفى لقبول التوبة ، فانه قال: كيف يهدى الله ، ولم يقل لا يهدى الله ، على أنه قد قال فى آخرها : « والله لا يهدى القوم الظالمين » وذلك يرجع إلى الخصوص ، كما قدمنا أو إلى معنى الهداية فى الظلمة التى عند الصراط بالنور التام يوم القيامة ، فان ذلك منتف عمن مات غير تائب من كفره وظلمه . والله أعلم .

ذكر حديث بشير بن ابيرق سارق الدرعين

وذكر أن الله أنزل فيه : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » وكان من قصة الدرعين ، وقصة بشير أن بنى أبيرق ، وهم ثلاثة بشير ومبشر وبشر نقبوا مشربة أو نقبها بشير وحده على ما قال ابن إسحاق ، وكانت المشربة لرفاعة بن زيد ، وسرقوا أدراعا له ، وطعاماً فعثر على ذلك ، فجاء ابن أخيه قتادة بن النعمان يشكو بهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء أسيد بن عروة بن أبيرق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، إن هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين ، فأبنوهم بالسرقة ، ورموهم بها من غير بينة ، وجعل يجادل عنهم حتى غضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قتادة ورفاعة ، فأنزل الله تعالى : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » وأنزل الله عز وجل : « ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً » وكان البرىء الذى رموه بالسرقة لبيد بن سهل : قالوا : ما سرقناه ، وإنما سرقه لبيد بن سهل ، فبرأه الله ، فلما أنزل الله تعالى فيهم ما أنزل ، هرب ابن أبيرق السارق إلى مكة ، ونزل على سلافة بنت سعد بن شهيد ، فقال فيها حسان بن ثابت بيتا ، يعرض فيه بها ، فقالت : إنما أهديت لى شعر حسان ، وأخذت رحله ، فطرحته خارج المنزل ، وقالت : حلقت وسلقت وخرقت إن بت فى منزلى ليلة سوداء ، فهرب إلى خيبر ، ثم إنه نقب بيتا ذات ليلة ، فسقط الحائط عليه فمات . ذكر هذا الحديث بكثير من ألفاظه الترمذى ، وذكره الكشى والطبرى بألفاظ مختلفة ، وذكر قصة موته يحى بن سلام فى تفسيره ووقع اسمه فى أكثر التفاسير : طعمة بن أبيرق وفى كتب الحديث : بشير بن أبيرق ، وقال

. . . .

ابن اسحاق فى رواية يونس بن بكير عنه : بشير أبو طعمة إذاً اسماً له، وإنما هو أبو طعمة، كما ذكر ابن إسحاق فى هذه الرواية والله أعلم . وفى رواية يونس أيضاً أن الحائط الذى سقط عليه كان بالطائف لا بخيبر ، كما قال ابن سلام ، وأن أهل الطائف قالوا حينئذ : ما فارق محمداً من أصحابه من فيه خير . والأبيات التى رمى بها حسان المرأة ، وهى من بنى عمرو بن عوف ، وقد تقدم اسمها :

وما سارق الدرعين إذ كنت ذا كرا بذى كرم من الرجال أو أدعه
وقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ينازعها جاراستها وتنازعه
ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتم وفيكم نبى عنده الوحى واضعه

وقع هذا البيت فى كتاب سيبويه . وذكر الشعر والخبر بطوله ابن إسحاق فى رواية يونس عنه .

فصل : وأنشد ابن هشام :

لدم الوليد وراء الغيب بالحجر

والبيت لتميم بن أبى بن مقبل ، واللدم : الضرب ، والغيب : الغائر من الأرض .

إخراج المنافقين من المسجد : وذكر ابن إسحاق فى باب إخراج المنافقين من المسجد أبا محمد ، وقال : هو رجل من بنى النجار ، ولم يعرفه بأكثر من هذا ، وهو : أبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد ابن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، يعد فى الشاميين ، وهو الذى زعم أن الوتر واجب ، فقال عبادة : كذب أبو محمد ، وهو معدود فى البدريين عند الواقدى وطائفة ، ولم يذكره ابن إسحاق فيهم .

ما أنزل الله فى المنافقين :فصل:وذكر ما أنزل الله فى المنافقين والأحبار ومن يهود من صدر سورة البقرة ، واستشهد ابن هشام على الريب بمعنى الريبة بقول خالد بن زهير ابن أخت أبى ذؤيب : خويلد بن خالد ، والرجز الذى استشهد ببيت منه :

ياقوم مالى وأبا ذؤيب كنت إذا أتيته من غيب
يشم عطفى ويمس ثوبى كأننى أربته بريب

وكان أبو ذؤيب قد اتهمه بامرأته ، فلذلك ، قال هذا .

وذكر ابن إسحاق . والذين يقيمون الصلاة ، وأغفل التلاوة : وإنما هو « الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة » وكذلك وجدته منبها عليه فى حاشية الشيخ : وفى الإيمان بالغيب أقوال ، منها أن الغيب ههنا ما بعد الموت من أمور الآخرة ، ومنها : أن الغيب : القدر ، ومنها قول من قال : إن الغيب القلب ، أى يؤمنون بقلوبهم ، وقيل : يؤمنون بالغيب ، أى بالله عز وجل ، وأحسن ما فى هذه الأقوال قول الربيع بن أنس ، أى : يؤمنون بظهر الغيب ، أى : ليسوا كالمنافقين الذين يؤمنون إذا لقوا الذين آمنوا ويكفرون إذا غابوا عنهم ، ويدل على صحة هذا التأويل : بسياقة الكلام ، مع قوله عز وجل « يخشون ربهم بالغيب » فلا يحتمل قوله : يخشون ربهم بالغيب إلا تأويلا واحداً ، فاليه يرد ما اختلف فيه : وقوله سبحانه : لاريب فيه ، وقد ارتاب فيه كثير من الناس ، قيل : هو على الخصوص فى المؤمنين ، أى لاريب فيه عندهم . قال المؤلف :رضى الله عنه:وهذا ضعيف لأن التبرئة تعطى العموم ، وأصح منه : أن الكلام ظاهره الخبر ومعناه : أى : لا ترتابوا ، وهذا النهى

. . . .

أى : لاترتابوا ، وهذا النهى عام لايخصص ، وأدق من هذا أن يكون خبراً محضاً عن القرآن ، أى : ليس فيه مايريب ، تقول : رابنى منك كذا وكذا ، إذا رأيت ماتنكر ، وليس فى القرآن ماتنكره العقول . وإن كان مصدراً فقد يعبر به عن الشىء الذى يريب ، كما يعبر بالضيف عن الضائف ، وبالطيف عن الخيال الطائف ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : « ليوم لاريب فيه » فهذا خبر ، لأن النهى لايكون فى موضع الصفة .

وقوله : لاريب فيه فى موضع الصفة ليوم ، والحياة بعد الموت ليس فيه مايريبك ، لأن من قدر على البدءة ، فهو على الإعادة أقدر ، وليس الريب بمعنى الشك على الإطلاق ، لأنك تقول : رابنى منك رائب ، ولا تقول شكنى ، بل تقول : ارتبت كما تقول شككت ، فالارتياب : قريب من الشك .

وذكر قول الله سبحانه « فى قلوبهم مرض » وأصل المرض : الضعف وفتور الأعضاء وهو ها هنا ضعف اليقين وفتور القلب عن كد النظر ، وعطف : فزادهم الله ، وإن كان الفعل لايعطف على الاسم ولا على مثل هذه الجملة ، لو قلت فى الدار زيد ، فأعطيته درهما لم يجز ولكن لما كان فى معنى قوله : فى قلوبهم مرض كمعنى مرضت قلوبهم ، صح عطف الفعل عليه

وذكر قوله سبحانه : يابنى إسرائيل : ووهم فى التلاوة فقال : ياأهل الكتاب ، كما وهم فى أول السورة و بنو إسرائيل : هم بنو يعقوب ، وكان يسمى : إسرائيل ، أى سرى الله لكن لم يذكروا فى القراءة إلا أضيفوا إلى اسرائيل ، ولم يسموا فيه : بنو يعقوب ، ومتى ذكر ابراهيم واسحاق ويعقوب لم يسم اسرائيل ، وذلك لحكمة فرقانية ، وهو أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم ، وتنبيها من غفلتهم سموا بالاسم الذى فيه تذكرة بالله ، فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى فى التأويل . ألا ترى : كيف نبه على هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حين دعا إلى الإسلام قوما ، يقال لهم : بنو عبد الله ، فقال لهم : يابنى عبد الله ، إن الله قد حسن اسم أبيكم يحرضهم بذلك على مايقتضيه اسمهم من العبودية لله ، فكذلك قوله سبحانه : يابنى إسرائيل إنما ورد فى معرض التذكرة لهم بدين أبيهم ، وعبوديته لله ، فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة والتحريض من أن يقول لهم : يابنى يعقوب ، ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره بإسحاق ، ثم يعقوب كان لفظ يعقوب أولى بذلك المقام ، لأنها موهبة بعقب أخرى ، وبشرى عقب بها بشرى وإن كان اسم يعقوب عبرانيا ، ولكن لفظه موافق للعربى فى العقب والتعقيب ، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين ، فإنه من باب النظر فى إعجاز القرآن وبلاغة ألفاظه وتنزيل الكلام فى منازله اللائقة به .

حديث أبى ياسر بن أخطب وأخيه حيى : فصل : وذكر ابن إسحاق حديث أبى ياسر بن أخطب وأخيه حيى بن أخطب حين سمعا المص ونحوها من الحروف ، وأنهم أخذوا تأويلها من حروف أبجد إلى قوله : لعله قد جمع لمحمد وأمته هذا كله : قال المؤلف : وهذا القول من أحبار يهود ، وما تأولوه من معانى هذه الحروف محتمل حتى الآن أن يكون من بعض مادلت عليه هذه الحروف المقطعة ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم لم يكذبهم فيما قالوا من ذلك ، ولا صدقهم . وقال فى حديث آخر : لاتصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وبرسوله ، وإذا كان فى حد الاحتمال وجب أن يفحص عنه فى الشريعة هل يشير الى صحته كتاب أو سنة . فوجدنا فى التنزيل « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ووجدنا فى حديث زمل الخزاعى حين قص على رسول

. . . .

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رؤيا ، وقال فيها : رأيتك يارسول الله على منبر له سبع درجات ، وإلى جنبه ناقة عجفاء ، كأنك تبعثها ، ففسر النبى صلى الله عليه وسلم الناقة بقيام الساعة التى أنذر بها وقال فى المنبر : ودرجاته الدنيا : سبعة آلاف سنة بعثت فى آخرها ألفا ، والحديث وان كان ضعيف الإسناد ، فقد روى موقوفا على ابن عباس من طرق صحاح ، أنه قال : الدنيا سبعة أيام كل يوم ألف سنة ، وبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى آخر يوم منها . وقد مضت منه سنون أو قال : مئون ، وصحح أبو جعفر الطبرى هذا الأصل ، وعضده بآثار وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعثت أنا والساعة كهاتين ، وانما سبقتها بما سبقت هذه هذه ، يعنى : الوسطى والسبابة ، وأورد هذا الحديس من طرق كثيرة صححها وأورد منها قوله عليه السلام : لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم ، يعنى : خمسمائة عام ، وقد خرج ، هذا الحديث الأخير أبو داود أيضاً والطبرى وهذا فى معنى ماقبله يشهدله ويبينه فان الوسطى تزيد على السبابة بنصف سبع أصبع ، كما أن نصف يوم من سبعة نصف سبع . قال المؤلف : وقد مضت الخمسمائة من وفاته إلى اليوم بنيف عليها ، وليس فى قوله : لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم ماينفى الزيادة على النصف ، ولا فى قوله : بعثت أنا والساعة كهاتين ما يقطع به على صحة تأويله ، فقد قيل فى تأويله غير هذا ، وهو أن ليس بينه وبين الساعة نبى غيره ، ولاشرع غير شرعه مع التقريب لحينها ، كما قال سبحانه : « اقتربت الساعة وانشق القمر » وأتى أمر الله فلا تستعجلوه ، ولكن اذاقلنا : إنه ـ عليه السلام ـ بعث فى الألف الآخر بعد مامضت منه سنون ، ونظرنا بعد إلى الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وجدناها أربعة عشر حرفا يجمعها : قولك

ألم يسطع نص حق كره

ثم نأخذ العدد على حساب أبى جاد ، فنجد : ق مائة : و : ر مائتين ، و : س ثلاثمائة ، فهذه ستمائة ، و ، ع سبعين ، و : ص ستين ، فهذه سبعمائة وثلاثون ، و : ن خمسين ، و : ك عشرين ، فهذه ثمانمائة ، و : م أربعين ، و : ل ثلاثين ، فهذه ثمانمائة وسبعون ، و : ى عشرة ، و: ط تسعة ، و : ا واحد ، فهذه ثمانمائة وتسعون ، و: ح ثمانية ، و : ه خمسة ، فهذه تسعمائة وثلاثين ، ولم يسم الله سبحانه فى أوائل السور إلا هذه الحروف ، فليس يبعد أن يكون من بعض مقتضياتها وبعض فوائدها الإشارة إلى هذا العدد من السنين لما قدمناه فى حديث الألف السابع الذى بعث فيه عليه السلام ، غير أن الحساب محتمل أن يكون من مبعثه ، أو من وفاته ، أو من هجرته ، وكل قريب بعضه من بعض ، فقد جاء أشراطها ، ولكن لا تأتيكم إلا بغتة ، وقد روى أن المتوكل العباسى سأل جعفر بن عبد الواحد القاضى ، وهو عباسى أيضاً : عما بقى من الدنيا ، فحدثه بحديث يرفعه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : إن أحسنت أمتى ، فبقاؤها يوم من أيام الآخرة ، وذلك ألف سنة ، وإن أساءت ، فنصف يوم ، ففى هذا الحديث تتميم للحديث المتقدم وبيان له ؛ إذ قد انقضت الخمسمائة ، والأمة باقية والحمد لله .

معانى الحروف التى فى أوائل السور : فصل : ولهذه الحروف فى أوائل السور معان جمة وفوائد لطيفة ، وما كان الله تعالى لينزل فى الكتاب ما لا فائدة فيه ، ولا ليخاطب نبيه وذوى الألباب من صحبه بما لا يفهمون ، وقد أنزله بيانا للناس ، وشفاء لما فى الصدور ، ففى تخصيصه هذه الحروف الأربعة عشر بالذكر دون غيرها حكمة بل حكم ، وفى إنزالها مقطعه على هيئة التهجى فوائد علمية وفقهية ، وفى تخصيصه اياها بأوائل السور ، وفى أن كانت فى بعض السور ، دون بعض فوائد أيضاً ، وفى اقتران الألف باللام ، وتقدمها عليها معان وفوائد ، وفى ارداف

. . . .

الألف واللام بالميم تارة ، وبالراء أخرى ، ولا توجد الألف ، واللام فى أوائل السور ، إلا هكذا مع تكررها ثلاث عشرة مرة فوائد أيضاً ، وفى إنزال الكاف قبل الهاء والهاء ، قبل الياء ثم العين ثم الصاد من كهيعص معان أكثرها تنبه عليها آيات من الكتاب ، وتبين المراد بها لمن تدبرها . والتدبر والتذكر واجب على أولى الألباب ، والخوض فى إيراد هذه المعانى ، والقصد لإيضاح مالاح لى عند الفكر والنظر فيها ، مع إيراد الشواهد على ذلك من كتاب وأثر وعربية ونظر يخرجنا عن مقصود الكتاب وينأى بنا عن موضوعه والمراد به ، ويقتضى إفراد جزء أشرح ما أمكن من ذلك ، ولعله أن يكون ، إن ساعد القدر ، والله المستعان ، وهو ولى التوفيق ، لاشريك له .

تحويل القبلة : فصل : وذكر تحويل القبلة ، وماقالته جماعة يهود حين قالوا : يامحمد ماولاك عن قبلتك ، وهم السفهاء من الناس ، فيهم نزلت هذه الآية . وقال : سيقول بلفظ الاستقبال لتقدم العلم القديم بأنهم سيقولون ذلك أى : لم آمركم بتحويلها إلا وقد علمت أن سيقولون ماقالوه ، وقد ذكرنا فى حديث الهجرة ، قصة البراء بن معرور فوائد فى معنى تحويل القبلة ، فلتنظر هنالك وأنشد فى تفسير الشطر بيت ابن أحمر :

تعدو بنا شطر جمع وهى عاقدة قد قارب العقد من إيفادها الحقبا

وألفيت فى حاشية الشيخ على هذا البيت ما هذا نصه . قال من إيفادها من إشرافها ، كذا قال محمد بن عبد الله البرقى وقال كارب موضع قارب ، ووقع فى شعر ابن أحمر :

تعدو بنا عرض جمع وهى موفدة قد قارب الغرض من إيفادها الحقبا

تعدو : من العدو بنا وبرحلى : يعنى غلامه . عرض جمع : يعنى مكة ، وعرض أحب إلى وعرض : كثرة الناس ، عن الأصمعى ، وموفدة ، أى : مشرفة أوفد : إذا أشرف ، وروى غيره : وهى عاقدة ، يريد عنقها لاويتها والغرض : البطان وهو حزام الرحل . من إيفادها ، أى إشرافها ، وقد اقتادت : نصبت عنقها وعصرت بذنبها وتخامصت ببطنها فقرب كل واحد من الغرض والحقب من صاحبه بذلك . هنا انتهى ما كتبه الشيخ على هذا البيت وأوردته وقبل البيت :

أنشأت أسأله عن حال رفقته فقال : حى فإن الركب قد نصبا

ماأنزل الله فى بنى قينقاع فصل : وذكر ما أنزل الله سبحانه فى بنى قينقاع ، وقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم لوحاربتنا ، لعلمت أنا نحن الناس : « قل : للذين كفروا ستغلبون » إلى قوله : ترونهم مثليهم رأى العين » فمن قرأه : يرونهم بالياء ، فمعنا أن الكفار يرون المؤمنين مثليهم ، وإن كانوا أقل منهم لما كثرهم بالملائكة . فإن قيل : وكيف وهو يقول فى آية أخرى : « ويقللكم فى أعينهم »

قيل : وكان هذا قبل القتال عندما حزر الكفار المؤمنين ، فرأوهم قليلا ، فتجاسروا عليهم ثم أمدهم الله بالملائكة فرأوهم كثيراً فانهزموا ، وقيل : ان الهاء فى يرونهم عائدة على الكفار ، وإن المؤمنين رأوهم مثليهم ، وكانوا ثلاثة أمثالهم ، فقللهم فى عيون المؤمنين ، وأما من قرأها بالتاء ، فيجوز أن يكون الخطاب لليهود ، أى ترون المشركين يوم بدر مثلى المؤمنين ، وذلك أنهم كانوا ألفاً ، فانخذل عنهم الأخنس بن شريق ببنى زهرة ، فصاروا سبعمائة أو نحوها ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين ، أى : ترون أيها المشركون المؤمنين مثليهم ، حين أمدهم الله بالملائكة فيعود الكلام إلى المعنى الاول الذى قدمناه فى قراءة من قرأ بالياء . وفى الآية تخليط عن الفراء أضربنا عن ذكره ، وجل ما ذكرناه آنفاً مذكور فى التفاسير بألفاظ مختلفة .

وذكر ابن هشام فى الربانيين أنهم العلماء الفقهاء السادة وفى البخارى عن بعض أهل العلم قال : الربانيون الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، وقيل نسبوا إلى علم الرب والفقه فيما أنزل وزيدت فيه الألف والنون لتفخيم الاسم ، وأنشد ابن هشام :

لو كنت مرتهناً فى القوس أفتننى منها الكلام وربانى أحبار

وقال : القوس : الصومعة ، ومن كلام العرب : أنا بالقوس وأنت بالقرقوس ، فكيف نجتمع ؟ وقال فى أفتننى : هى لغة تميم ، وفرق سيبويه بين فتنته وأفتنته ، وجعله من قول الخليل ، قال أفتنته : صيرته مفتتناً أو نحو هذا ، وفتنته ، جعلت فيه فتنة ، كما تقول : كحلته جعلت فى عينيه كحلا، ومآل هذا الفرق إلى أن فتنته صرفته ، فجاء على وزنه ، لأن المفتون مصروف عن حق ، وأفتنته بمعنى أضللته وأغويته ، فجاء على وزن ماهو فى معناه ، وأما فتنت الحديدة فى النار ، فعلى وزن فعلت ، لاغير ؛ لأنها فى معنى : خبرتها ، وبلوتها ونحو ذلك .

تفسير آناء الليل : فصل وذكر ابن هشام فى تفسير آناء الليل ، قال : واحد الآناء إنى ، واستشهد عليه بقول الهذلى ، ثم أغرب بما حدثه به يونس ، فقال : ويقال إنى فيما حدثنى يونس بن حبيب ، وهذا الذى قاله آخراً هو لغة القرآن ، قال الله تعالى : « غير ناظرين إناه » .

بعض الآيات المنزلة فى قصص الأحبار : فصل : وذكر بن إسحاق جملا من الآيات المنزلة فى قصص الأحبار ومسائلهم كلها واضحة ، والتكلم عليها يخرج عن غرض الكتاب إلى تفسير القرآن ، وفى جملتها قوله تعالى « أيان مرساها » وقال الفراء فى أيان : هى كلمتان ، جعلت واحدة ، والأصل : أى آن ، والآن والأوان بمعنى واحد، كما يقال : راح ورياح ، وأنشد :

نشاوى تساقوا بالرياح المفلفل

وقد ذكر الهروى فى أيان وجهاً آخر ، قال يجوز أن يكون أصله : أيوان فاندغمت الياء فى الواو مثل قيام .
وذكر آية التيه وحبس بنى إسرائيل فيه أربعين سنة عقوبة من الله تعالى لمخالفتهم أمره حين فزعوا من الجبارين لعظم أجسامهم ، وقال لهم رجلان وهما يوشع بن نون من سبط يوسف ، وكالب بن يوفيا من سبط يامين « ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » فلما عصوهما دعا عليهم موسى ، فتاهوا ، أى تحيروا ، وكانوا ستمائة ألف مقاتل ، فتاهوا فى ستة فراسخ من الأرض، يمشون النهار كله ، ثم يمسون حيث أصبحوا ، ويصبحون حيث أمسوا . وفى تلك السنين أنزل عليهم المن والسلوى ، لأنهم شغلوا عن المعاش بالتيه فى الأرض ، وأبقيت عليهم ثيابهم لاتخلق ، ولا تتسخ ، وتطول مع الصغير ، إذا طال ، وفيها استسقى لهم موسى ، فأمر أن يأخذ حجراً من الطور ، فيضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وفيها ظلل عليهم الغمام لأنهم كانوا فى البرية فظللوا من الشمس ، وذلك أن موسى كان ندم حين دعا عليهم لما رأى من جهدهم وحيرتهم فى التيه ، فكان يدعو الله لهم فى هذه الأمور ؛ لئلا يهلكوا فى التيه جوعا أوعريا أو عطشاً ، فلما آسى عليهم قال الله له : «ولا تأس على القوم الفاسقين» أى : الذين فسقوا أى : الذين خرجوا عن أمرك . ومات فى أيام التيه جميع كبارهم إلا يوشع وكالب فما دخل الأرض على الجبارين إلا خلوفهم وأبناؤهم ، وقيل إن موسى مات فى تلك السنين أيضاً ولم يشهد الفتح مع يوشع ، وقيل : بل كان مع يوشع حين افتتحها .

. . . .

المرجومة من اليهود : فصل : وذكر المرجومة من اليهود ، وأن صاحبها الذى رجم معها حنا عليها بنفسه ليقيها الحجارة . حنا بالحاء تقيد فى إحدى الروايتين عن أبى الوليد ، وكذلك فى الموطأ من رواية يحيى ، فجعل يحنى عليها ، وفى الرواية الأخرى عن أبى الوليد : جنأ بالجيم والهمز ، وعلى هذه الرواية فسره أبو عبيد ، والجناء : الانحناء ، قال الشاعر عوف بن محلم :

وبدلتنى بالشطاط الجنا وكنت كالصعدة تحت السنان

وفى حنوه عليها من الفقه : أنهما لم يكونا فى حفرتين ، كما ذهب إليه كثير من الفقهاء فى سنة الرجم ، وكذلك روى عن على رحمه الله ، أنه حفر لشراحة بنت مالك الهمدانية حين رجمها . وأما الأحاديث فأكثرها على ترك الحفر للمرجوم ، واسم هذه المرجومة : بسرة فيما ذكر بعض أهل العلم ، وفى قصتهما أنزل الله : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » الآية إلى قوله : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » ، يعنى محمداً ، ومن حكم بالرجم قبله ، لأنه حكم بالرجم لأولئك اليهود الذين تحاكموا إليه ، والربانيون . يعنى : عبد الله بن سلام وابن صورى من الأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، لأنهم حفظوا أن الرجم فى التوراة ، لكنهم بدلوا وغيروا ، وكانوا عليه شهداء ؛ لأنهم شهدوا بذلك على اليهود إلى قوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله » فحكم بالرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يبين لك أن الرجم فى القرآن ، وعلى هذا فسره مالك فيما بلغنى ، ولذلك قال عليه السلام للرجلين : لأحكمن بينكما بكتاب الله ، فحكم بالرجم ، كما فى الكتاب المنزل على موسى وعلى محمد صلى الله عليهما ، وقد قيل فى معنى الحديث أقوال غير هذا ، والصحيح ما ذكرنا .

واستشهد ابن هشام فى تفسير الجهرة بقول أبى الأخزر الحمانى ، واسمه : قتيبة ، وحمان هو ابن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم ، فقال :

يجهر أفواه المياه السدم

يقال : ماء سدام إذا غطاه الرمل ، وجمعه : سدم ، وجمعه على سدم غريب ، ويقال أيضا سدام وأسدام ونحو من قوله يجهر قول عائشة رضى الله عنها فى أبيها . واجتهرلهم عين الرواء ، وأنشد فى تفسير الفوم وأنه البر :

فوق شيزى مثل الجوابى عليها قطع كالوذيل فى نقى فوم

الشيزى : خشب أسود تصنع منه الجفان ، والوذيل : جمع وذيلة وهى السبيكة من الفضة . قال الشاعر :

وتريك وجها كالوذيـ ـلة لا ريان ممتلىء ولا جهم

ومنه قول عمرو بن العاص لمعاوية : أما والله لقد ألفيت أمرك ، وهو أشد انفضاحاً من حق الكهول . كذلك رواه الهروى ، وقال ابن قتيبة : الكهدل ، فما زلت أرمه بوذائله ، وأصله ، بوصائله حتى تركته على مثل فلكة المدرحق الكهول : بيت العنكبوت ، وكما قاله الهروى ، قاله أبو عمر الزاهد فى كتاب الياقوت ، كما وقع فى غريب الحديث للقتبى قاله أبو عبد الله بن القزاز فى الكتاب الكبير ، قال : الكهدل : العنكبوت ، وقيل فى الكهول إنه ثدى العجوز ، وفى العين : الوذيلة : المرآة ، وقيل فى الفوم : إنه الثوم ، واختاره ابن قتيبة ، واحتج بأنه فى مصحف عبد الله بن مسعود : وثومها ، ولا حجة فى هذا لما ذكره أبو حنيفة فى النبات : أن الثوم ، هو البر ، وأنه يقال بالفاء وبالثاء ، ومن الشاهد على الفوم وأنه البر قول أبى أحيحة بن الجلاح ، وقيل هو لأبى محجن الثقفى :

. . . .

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا   سكن المدينة عن زراعة فوم

وأنشد فى بعض ما فسر بيت الأخطل ، قال : وهو الغوث بن هبيرة بن الصلت ، يكنى أبا مالك ، والمعروف : غياث بن الغوث بن هبيرة بن الصلت ، وسمى : الأخطل لقوله :

لعمرك إننى وابنى جعيل   وأمهما لإستار لئـيم

كل أربعة : إستار قيل : إن كعب بن جعيل قال له فى خبر جرى بينهما ، والأخطل يومئذ غلام يقرزم ، أى : كما يبتدى يقول :

قبح ذاك الوجه غب الحمـه

فقال الأخطل ، ولم يكن

وفعل كعب بن جعيل أمـه

فقال جعيل ، إنك لأخطل

تم بحمد الله الجـزء الثانى
ويليه الجـزء الثالث
إنشاء الله

الفهـــارس

أولا : فهرست كتاب السيرة النبوية لابن هشام

الموجود فوق الجدول

الجزء الثانى

ثانيا : فهرست الروض الأنف للسهيلى

الذى تحت الجدول

تمت الفهـــرست

أودع هذا المصنَّف
بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٤٠٢٤٠ لسنـــة ١٩٧٢